التربية فى الحضارة المصرية القديمة

دكتور
سعيد اسماعيل على

١٩٩٦

عالم الكتب
٣٨ ش عبد الخالق ثروت - بالقاهرة

مقدمة

... هكذا تتواصل – بعون الله وهدايته – حلقات سلسلة التربية والحضارة، فيصدر الجزء الخاص بـ (التربية فى الحضارة المصرية القديمة) بعد أن أصدرنا من هذه السلسلة ثلاثة أجزاء:

الأول – مقدمة فى التأريخ للتربية.
الثانى – التربية والحضارة فى بلاد الشرق القديم.
الثالث – التربية فى الحضارة اليونانية.

والحق أننا عندما شرعنا فى الجزء الحالى واجهتنا صعوبة كبيرة، ذلك أن المتاح عن التربية والتعليم فى مصر القديمة قليل، وفضلا عن ذلك فقد نشرت رسالة الدكتوراه الخاصة بالدكتور عبد العزيز صالح سنة ١٩٦٦ عن الهيئة العامة للكتاب، وهى على درجة من الاحاطة والشمول والدقة والعمق بحيث تجعل عسيرا على من يأتى بعد محاولة العثور على جديد يضيفه إلى هذه الفترة الهامة من تاريخ التربية. وبالاضافة إلى هذه المحاولة العلمية الرائدة فهناك الدراسة التى كتبها عالمان آخران هما الدكتور أحمد بدوى والدكتور محمد جمال الدين مختار عن التربية والتعليم فى مصر القديمة عن نفس الهيئة.

ومع ذلك فقد أقدمنا على العمل الحالى محاولين تقديم ما هو جديد، لا فى المعلومات وإنما فى الربط بين ظواهر واستنتاج أفكار وإبداء ملاحظات، ولا يقل عن ذلك أهمية تقديم التربية المصرية القديمة من خلال تأريخ اجتماعى اتساقا مع منطق السلسلة من حيث أن التأريخ للتربية إنما هو تأريخ للحضارة.

نسأل الله التوفيق، ونسأل القراء النصح والارشاد.

د. سعيد اسماعيل على
مصر الجديدة فى ١٩٩٦/١/١

الفهرس

الفصل الأول

الحضارة المصرية

١- علم المصريات:

إذا كان التأريخ للتربية فى الحضارة المصرية القديمة يعتبر عملا من أعمال تاريخ التربية على وجه العموم إلا أنه، من ناحية أخرى، يعتبر (موضوعا) إن لم يكن (مجالا) من مجالات علم المصريات، ولعل العمل العلمى الموسوعى الرائع للدكتور عبد العزيز صالح عن (التربية والتعليم فى مصر القديمة) خير شاهد على ذلك، فهو كتاب فى تاريخ التربية وهو أيضا كتاب هام فى علم المصريات.

وعلم المصريات هو فرع حديث من فروع المعرفة التى تختص بدراسة الحضارة المصرية القديمة، ورغم ما يتسم به من مكانة خاصة، ينتمى إلى علوم الإنسان والمجتمع، مثله مثل علوم أخرى كتاريخ القرون الوسطى والتاريخ الحديث أو المعاصر. ويعتمد هذا العلم على مناهج مماثلة، ويحتل نفس مكانة تلك العلوم داخل المعاهد والهيئات العامة، ويعمل فى هذا المجال نفس النمط من المتخصصين، وإن كان علم المصريات يحتوى على تخصصات لايمكن تجاهلها[١].

ولقد مر هذا العلم منذ ميلاده فى القرن التاسع عشر فى طريق مستقل يختلف الناس فى مدى أصالته أو مكانته. وبالاضافة إلى هذا، يتضمن مادة هائلة متنوعة تغطى آلاف السنين، مادة غنية تدور حول فروع كثيرة على مجرى مرحلة زمنية متعددة ممتدة منذ فجر الإنسانية. ولا شك أن الفروع التى تتسم بالجدة والابتكار تضفى على موضوعاتها نفس الطابع، فهى تأسر الناس منذ الزمن القديم سواء كانوا

جيران مصر أو زوارها أو غزاتها. إنها موضوعات تدفع الإنسان إلى عالم من الأحلام أو الهيبة المصحوبة بالخوف وتثير لونا من القلق أو الدهشة، وفى أغلب الأحيان يفتن الإنسان بها، ولكنها تحدث أحيانا عند البعض لونا من النفور، ورغم هذا لا تترك الإنسان أبدا فى حالة عدم المبالاة، بل تدفع إلى التساؤل عما يكمن وراء هذه الألوان من التصرفات.

وقد بدأنا نلحظ أخيرا الاهتمام بنشر كتب عن علم المصريات كما فى مجالات التاريخ الأخرى، ولكن لزمن طويل ظل علماء المصريات معرضون – فيما عدا حالات استثنائية – عن تضييع وقتهم الدراسى واستنزافه فى مثل هذه الأعمال الدارجة، كما أن مادة الكتب الجيدة عن مصر القديمة الصالحة للقراءة العامة تمثل مشكلة سببها (شباب) هذه المهنة. وليس أدل على حداثة علم المصريات من أن الاحتفال بعيد ميلاده المئوى كان سنة ١٩٨١[٢]. وإذا كان الممثلون الأوائل لهذه المهنة لم يتورعوا عن كتابة مؤلفاتهم، فقد دفع التقدم المتواصل فى هذا المجال العلماء فى منتصف القرن العشرين إلى لون من الدقة المتأنية، ولكننا نضيف أن مؤلفات علماء المصريات الأوائل لها تمايز ما، ولهذا فرض على جمهور القراء أن يقنعوا حتى فترة متأخرة بدراسات قديمة أعيد نشرها مرات كثيرة، ولكتابات مجمعة من هنا وهناك كتبها على استعجال متسلقون غير موفقين غير متمرسين، بخلاف الكتاب المحترفين، وفيها من الأخطاء أكثر مما جاء فى الكتب القديمة. ولقد اختفى من حسن الحظ هذا الوضع شيئا فشيئا، وبدأت العودة إلى الاستفادة من الكتاب الأكفاء. ولكن إذا كانت المكتبات مازالت عامرة بكتب تتسم بشطحات الخيال يدعى أصحابها أنها دراسات علمية، فالقراء لديهم حرية الاختيار فى انتقاء الأعمال الجذابة بدرجة أو أخرى.

ولقد كان الاغريق من أوائل من سجلوا معلومات وآراء وملاحظات عن الحضارة المصرية. إن الصورة التى رسموها للحضارة المصرية، والبيئة التى ازدهرت فيها، عكست السحر الذى شدهم إليها، وقدرا من التحفظ حول عادات شابتها الشكوك والشبهات بسبب الظروف التى فرضت عليهم أن يجهلوا كل شئ تقريبا عن مصادرها. لقد قطع الاغريق البلاد طولا وعرضا بغرض استكشافها استكشافا منتظما، ففى القرن الخامس قبل الميلاد، قام هيرودوت بتسجيل الحقائق التى عاصرها. أما الجغرافيا فكانت من نصيب ديودور الصقلى واسترابون الذى يصغره بجيل واحد. وقد أهلتهما إقامتهما الطويلة على أرض مصر أن يدرساها عن كثب. وأخيرا، وبعد مرور ستة قرون على بدء نشاط الاغريق فى مصر أماط بلوتارخ اللثام عن الديانة المصرية. وإلى جانب هذه المشاريع ظهرت أعمال أخرى نهلت مباشرة من المصادر المصرية، بمعنى الكلمة، ثم أعيد اكتشافها فى عهد البطالمة بفضل أبحاث قام بها أمثال مانتون ثم عالم الجغرافيا بطليموس[٣].

ومع حلول القرن الخامس الميلادى، فرض على التاريخ فرضا أن يمحو من ذاكرته كل ما يرتبط بالعصور القديمة، وجاء هجر اللغة القبطية تدريجيا لصالح اللغة العربية ليقطع الرباط الأخير المتبقى مع العالم القديم، فزحفت عليه الخرافة وأحاطت به بتأثير نزعة طبيعية ظهرت منذ القدم وسط رعايا الفرعون الذين كان يحلوا لهم أن ينسبوا عن طيب خاطر إلى ملاكهم الأقدمين مغامرات أشبه بقصص ألف ليلة وليلة، وظلت بعض الآثار تطل برأسها وسط الرمال، وتشير إلى أمجاد الماضى الغابر الذى استثار الأطماع فى الغزوات التى كشفت عنها أعمال التنقيب العشوائية التى جرت فى الخفاء، فصارت روافد تغذى الروايات المتواترة عن مصر الخالدة، وشاع تداول بعض الكتب على غرار (كتاب الدرر المدفونة) كدليل للباحثين عن الكنوز فى عالم تسكنه العفاريت[٤].

وشهد القرن الثامن عشر ظهور الدراسات التحليلية العلمية على أيدى نوردن Norden وبوكوكيه Pococke ودوناتى Donati، وكثيرين غيرهم ممن مهدوا بطريقتهم عمل الحملة الفرنسية على مصر والتى تعتبر المنعطف الأعظم فى علم المصريات. وكان صدام الأمم على أثر الثورة الفرنسية فاتحة لأعظم الآمال كما أن مجالا لا حدود له تقريبا لورثة الموسوعة (الانسيكلوبيديا) المتعطشين إلى المعارف. وانكب العلماء والشبان الذين جاءوا فى ركاب جيش نابليون على كتابة مؤلفهم الشامخ (وصف مصر) Description de L'Egypte الذى لم يكتف بدراسة الثروة الحيوانية والثروة النباتية وموارد البلاد، بل تطرق أيضا لمختلف الأشكال والصور المعمارية والتشكيلية. فجاء حصرا للحضارات التى تعاقبت على مصر(٥).

ولعل الخطوة التى تمت على يد فرانسوا شامبليون سنة ١٨٨٢ فى فك رموز العلامات الهيروغليفية منعطفا هاما فى تطور علم المصريات وخاصة بعد أن أرسى بشكل راسخ الأسس التى تقوم عليها اللغة المصرية فى كتاب (قواعد اللغة المصرية) Grammaire Egyptiène والذى لم ينشر سوى سنة ١٨٣٥، مما جعل فرنسا تحتل مكانة الصدارة فى علم المصريات الناشئ(٦).

وترسخ علم المصريات كعلم مع نهاية القرن التاسع عشر ليكون هذا التاريخ هو المنعطف الثانى فى تاريخ علم المصريات. وقد شهدت هذه الفترة اكتشافات ضخمة وهامة سواء من حيث مواضع العمل، أو من حسن استخدامها والاستفادة منها، هذا إلى جانب انشاء المؤسسات القادرة على تطوير علم المصريات.

ومع منعطف القرن العشرين أخذت الدول الغربية تطور مؤسسات تنظيم المتاحف والمؤسسات الجامعية إلى أجهزة نهضت على أساسها الأبحاث الحالية، فتأسست البعثة الأثرية الفرنسية سنة ١٨٨٠ والتى تحولت إلى (المعهد الفرنسى للآثار الشرقية) سنة ١٨٩٨ Institut Francais d'archeologie orientale و(جمعية الاستشراق الألمانية) Deutsche orient gesellschaft، و(جمعية الكشوف الأثرية) فى لندن Egypt Exploration Fund وترتب على تقدم وسائل الاتصال أن اتسعت دائرة الاكتشافات وتعاقبت(٧).

مصادر التأريخ للتربية المصرية القديمة:

لعل أهم وأول هذه المصادر الآثار التى خلفها قدامى المصريين أنفسهم. وقد تعددت المصادر المادية والمكتوبة والمصورة للعصور التاريخية المصرية القديمة السابقة بما يعد من آداب أهلها، وعلومهم، وعقائدهم، وفنونهم، وحرفهم، وأوضاعهم السياسية، واتصالاتهم الخارجية تعددا واسعا، تعبر عن الجوانب الفكرية والأدبية والعلمية من التراث المصرى القديم ما تضمنته مخطوطات البردى ونصوص اللوحات الحجرية والشقاف المكتشفة من قصص وأساطير، وتعاليم وقصائد وفلسفات وطب وفلك ورياضيات، ودروس تعليمية. فضلا عما أمكن استنتاجه عن عمليات التحنيط من الجثث الباقية وما أمكن استخلاصه عن مبادئ الهندسة النظرية والتطبيقية من المنشآت المعمارية الكثيرة القائمة(٨).

وعبر عن عقائد مصر القديمة الروحية، التعبدية منها والروحية، ما تضمنته نقوش المعابد والمقابر والنصب، ومخطوطات البردى من نصوص الدعوات والأناشيد وهيئات التعبد وصور الحساب والتصورات عن الآخرة. وتميزت منها تراتيل نصوص الأهرام ومتون

التوابيت وكتب الموتى، فضلا عما رمزت إليه تماثيل المعبودات وصورهم، والصفات التى نسبت إليهم، والألقاب التى حملها كهنتهم.

وعبر عن فنون مصر الإنشائية وفنونها الصغرى والتطبيقية، ما بقى من مقابرها الكبيرة وأهرامها ومعابدها ومساكنها وحصونها، وما تضمنته مناظرها المنقوشة والمصورة، وتماثيلها الكبيرة والصغيرة، فضلا عن أدوات الترف والزينة التى عثر عليها فى مقابرها وبقايا مساكنها.

أما شئون الأوضاع الاجتماعية والحياة اليومية العادية فى العصور المصرية المتعاقبة، فقد صورت جوانبها النظرية تعاليم الحكماء، والمناظر الآسيوية المسجلة على جدران المقابر، ومناظر الزراعة والصناعة والتبادل التجارى. وعبر عن جوانبها العلمية الفعلية ما عثر عليه من أدوات الاستعمال اليومى فى المساكن والمقابر والنماذج الصغيرة التى قلد الصناع بها وجسموا فيها هيئات مصانعهم ومخازنهم، رمزوا بها إلى سير العمل فيها ثم الرسائل الشخصية وصيغ الشكاوى ونصوص القضايا التى صورت انفعالات أهلها ومشاعرهم وعلاقات بعضهم ببعض. ثم عبر عن اتصال ما بين هذه الحياة وما بين المجتمع المصرى الحديث من أواصر ما بقى حتى الآن من ألفاظ ومسميات وعادات يمكن ربطها بما جاءت به المصادر السابقة جميعها، مما هو مكتوب وما هو مصور ومرسوم(٩).

ومن مصادر الأوضاع السياسية الداخلية والخارجية فى تلك العصور التاريخية المتتالية، التآريخ الرسمية التى سجل الكتبة والمؤرخون المصريون نصوصها بوحى حكامهم وبأسمائهم وإلى جانب القوائم التاريخية الرسمية، عمل الكتاب والمؤرخون والفنانون المصريون فى عهد كل ملك على أن يسجلوا مآثره وأعماله وحروبه،

فضلا عن دلائل تقواه على جدران المعابد التى أنشئت فى عهده وعلى نصب حجرية كبيرة أقيم بعضها فى رحاب المعابد والدواوين وأقيم بعضها على حدود مصر وعلى حدود أملاكها الخارجية، ولم يكتفوا بالكتابة التاريخية وحدها على هذه وتلك، وإنما جعلوا مما سجلوه عليها من مناظر وأحداث معرضا للتاريخ المصور أيضا.

وساهمت النصوص والمناظر الفردية لكبار الموظفين والأثرياء فى التعبير عما اشترك أصحابها فيه من أعمال عامة، وحروب وبعثات ومنشآت خلال ما ولوه من مناصب، واصطبغت أغلب تسجيلاتهم الفردية هذه بصفة تقليدية ردت الأمر كله فيها إلى إيحاءات الملوك ووصفتهم بما كانوا يستحبون أن يوصفوا به دائما من قداسة وعدل وقوة وبأس، ولو لم يكن لبعضهم نصيب من ذلك كله، بينما اصطبغ بعضها الآخر بنصيب أكبر من الواقعية، فصورت نصوصها الأحداث قريبة مما جرت به فعلا، بغير تضخيم كبير ولا تنميق كثير، وردت بعض الفضل العملى فيها إلى أصحابه الفعليين[١٠].

ومن منطلق البحث فى مجالات عصور ما قبل التاريخ، أثبت علم الآثار مدى ما يستطيع تقديمه للتاريخ بفضل الوسائل الفنية، والسبل التى تنتجها. وفى الوقت نفسه فمن خلال الآثار، نجد أن الأزمنة الأسطورية التى عاش فيها أبطال مصر الفرعونية تبدو وكأنها عصور الظلمات، لذلك نجد المنقبين وقد تملكتهم حمى البحث عن الكتابات والنقوش، أو القطع الجميلة الصنع، لا يعطون لعلم الطبقات الجيولوجية اهتماما كبيرا، بل أخذوا يستقصون بكل همة كل ما لم يصنع من الحجر، وبما أن هؤلاء المنقبين كانوا يجرون أبحاثهم فى المواقع الكبرى، فإن قدر المعلومات التى لم يتبينوها لابد أن يكون هائلا. وهكذا، ففى مقابل ما لوحظ من مظاهر التأخر بخصوص الحضارات المجاورة مثل علم الآثار الآشورية، نجد علم المصريات يزدهر مبكرا

فى عالم الآثار، ويبدى اهتمامه بنظم وعادات الماضى، ثم انتشرت الدراسات فى علم النماذج البشرية من خلال الخزف، ولم يعد هناك سر فى مجال علم الطبقات الجيولوجية، بل واتسع نطاق التقنيات الحديثة: من التقاط صور فوتوغرافية من الجو، واستخدام أجهزة قياس المغناطيسية بالآويل "Proton" (ذرة كهربائية إيجابية)، والاضاءة الحرارية ... الخ[11] وتتابعت النتائج تلو الأخرى، وكان بعضها مذهلا، مثل أعمال التنقيب النموذجية التى قام بها عالم المصريات (بيتاك) Bietak فى موقع (أفاريس) والتى ساعدت على تحديد المراحل المختلفة للاستعمار الأسيوى، وغيرت فى الوقت نفسه الرؤية التقليدية عن الغزو الهكسوسى، كما ساعدت على توضيح معالم الجغرافيا التاريخية الخاصة بمنطقة الدلتا الشرقية وبينت سبب اختيار الموقع الذى شيدت فوقه مدينة (بى رمسيس Pi-Ramses)، ثم سبب هجرته بعد ذلك والتوجه نحو (تانيس) Tanis. ومن المنتظر أن تفصح عمليات التنقيب الحديثة عن فيض من المعلومات الخاصة بالتاريخ المصرى، ولكن علينا ألا نتوقع أكثر من اللازم، فإذا كان من السهل السخرية بأوائل من قاموا بعمليات التنقيب، فإن الظروف الخاصة التى مر بها علم الآثار يجب أن توضع فى الاعتبار، فمثلا، تعرضت أغلب المواقع لعمليات نهب وسرقة منذ آلاف السنين بوساطة اللصوص والباحثين عن الكنوز، واستخراج الطمى اللازم لصناعة قوالب الطوب اللبن، أو السباخ، هذا إذا لم تكن هذه المواقع قد تلاشت ودفنت تحت المدن الحديثة، وحتى إذا كانت عمليات التنقيب قد تمت على الوجه الأكمل، إلا أنه لا يتمخض عنها دائما النتائج النظرية المأمولة، وعلى وجه الخصوص الآثار المختلفة عن الأماكن السكنية والتى تعد من أكثر المصادر ثراء بالمعلومات بالنسبة للمؤرخ، والتى أصبحت قاصرة بشكل لا يمكن على المعلومات[12].

ومهما كان مصدر (الآثار) على درجة عالية من حيث الأهمية فى التأريخ للحضارة المصرية إلا أنه يجب أن يؤخذ بحذر شديد، ذلك أن

كثيرا من الأمور فيها لا يمكن الاعتماد عليها كوقائع ثابتة لأنها كتبت لغرض معين وفى وقت معين، وإذا لم تؤيدها مصادر أخرى لا يمكننا أن نقبلها إلا كقرينة من القرائن أو كمادة علمية تدخل فى مناقشة الموضوع[١٣].

لم يكتب المصريون القدماء قبل عهد مانتيون بقصد تسجيل الحوادث التاريخية كما نفهم التاريخ الآن، ولكنهم كتبوا ما كتبوه لغرض آخر وهو تسجيل حوادث معينة لغرض خاص.

كذلك يجب أن تؤخذ النقوش المسجلة لمعارك حربية بحيطة وحذر، فمثل هذه النقوش سواء فى مصر أو فى غيرها تقام للإعلاء من شأن الملوك فتخفى الهزائم أو تحيلها إلى نصر، وتبالغ فى نصر ضئيل فتجعل منه عملا عظيما جبارا، فيجب أن نقابلها ونقارنها بما جاء فى المصادر التى كتبها الجانب الآخر، وعلى المؤرخ أن يوازن بين هذا وذاك ويحاول الوصول إلى ما عساه أن يكون أقرب إلى الحق، فقد جرت العادة مثلا فى بعض الممالك مثل الصين إلى ما قبل عصرنا الحاضر بقليل، وفى أوائل هذا القرن، على اعتبار ما يأتى إليهم من هدايا من أى مملكة أخرى أنه جزية يرسلها ذلك الشعب، واعتبار أى خطاب من خطابات المودة التى يرسلها رؤساء أى دولة أخرى أنه تقديم للطاعة والخضوع[١٤].

أما المصدر الثانى للتأريخ للحضارة المصرية فهو كتابات المؤرخين القدماء من اغريق ورومان، وقد أخذت قيمة هذا المصدر تتضاءل منذ أن نجح العلماء خلال القرن التاسع عشر فى قراءة اللغة المصرية القديمة، وترجمة النصوص التى تركها المصريون، فضلا عن الآثار بما تحمله من كتابات ونقوش وصور.

ومع ادراكنا لأهمية ما كتبه مؤرخو اليونان والرومان عن الحضارة المصرية القديمة، فإننا ننظر الآن بحذر وبشك إلى الكثير من المعلومات التى أوردها ونرفض جانبا كبيرا منها لأسباب متعددة، فهؤلاء المؤرخون جميعا قد زاروا مصر فى أيام ضعفها، أو فى عصور تأخرها واضمحلالها، ولو أتاحت الظروف لهم زيارتها خلال عصور نهضتها، أو فى أيام مجدها لتغير الكثير من آرائهم وانطباعاتهم. هذا بالاضافة إلى أن إقامة هؤلاء الكتاب كانت فى أغلب الأحيان فى مدن الوجه البحرى حيث اتخذت الحياة طابعا خاصا، فلم يتبينوا أوجه الحياة المصرية الصادقة، وأخطأوا فى الكثير مما صوروه من مظاهر الحضارة المصرية القديمة. كذلك اعتمد هؤلاء الكتاب فى الكثير من معلوماتهم على الأحاديث التى تبادلوها مع من قابلهم من المصريين وبخاصة صغار الكهنة. وقد أدى عدم معرفتهم باللغة المصرية إلى سوء فهمهم للكثير مما ذكره هؤلاء المصريون ونقله محرفا، كما أن المصريين بدورهم تحدثوا عن عصور مضى عليها آلاف الأعوام، فاختلط بذكرياتها الكثير من الأوهام والخرافات والأساطير(١٥).

فإذا أضفنا إلى ذلك ما جبل عليه الكثير من هؤلاء الكتاب من التعصب والتحيز لوطنهم ومحاولتهم التقليل من شأن الشعوب الأخرى، وإلى أن هؤلاء الكتاب لم يتجهوا فى كتاباتهم اتجاها علميا سليما ولم يهتموا باستقصاء الحقائق بقدر ما حرصوا على الإفاضة فى المبالغات والأغراق فى الكذب البراق والباس كل ما تحدثوا عنه فى ثوب الغرابة والطرافة ليسلوا قراءهم ويثيروا دهشتهم، فنجد أن كثيرا مما كتبه هؤلاء لا يصح الاعتماد عليه علميا(١٦).

وبجانب هذين المصدرين، قد يعتمد المؤرخ على المعلومات التى تمدنا بها دراسة حضارات الشرق القديم الأخرى، كالبابلية والآشورية

والآرامية والفينيقية، التى عاصرت بعض أدوار الحضارة المصرية وتفاعلت وتجاوبت معها، وأثرت فيها أو تأثرت بها، وارتبطت تواريخها بتاريخ مصر القديمة ارتباطا وثيقا، واتصلت شعوبها بالشعب المصرى اتصالا مباشرا أو غير مباشر، وضمت عناصر حضارية مشتركة تساعد على فهم تاريخ مصر القديمة وحضارتها. وقد يعتمد المؤرخ - وبخاصة عندما يكتب عن العصور المتأخرة - على بعض ما جاء فى الكتب السماوية، كالتوراة التى روت قصص موسى ويوسف، وتحدثت كثيرا عن مصر، وبسطت طرفا من نواحى الحياة المصرية(١٧).

مما سبق يتضح لنا أن مسألة التأريخ للتربية المصرية القديمة مسألة ليست هينة بأى حالة من الأحوال فالذى غلب على ما هو مدون تأريخ سياسى يكثر فيه الحديث عن الحكام ومجدهم وينسب إليهم الفضل كله ويرجع إليهم كل خير وكل فضيلة. وهناك - كما سوف نرى - كم كبير من النصوص التى تشير إلى التقوى والورع حتى ليخيل إلينا أننا كنا أمام شعب يعيش تحت ظلال الفضيلة والتقوى، فهل هذا كان صحيحا أم أنه يماثل ما نراه الآن حين نكتب ونقول شيئا، بينما نعيش ونفعل شيئا آخر؟!

مكانة الحضارة المصرية وتميزها:

من أدق العبارات التى قيلت عن نشأة الحضارة المصرية القديمة تلك العبارة التى بدأ بها ول ديورانت فصوله عن هذه الحضارة حيث كتب يقول "إن الكشف عن تاريخ مصر لهو أروع فصل فى كتاب علم الآثار"(١٨).

إن مقدم الحضارة المصرية فى حد ذاته هو أمر على قدر كبير من الأهمية فلم نعرف فى مصر انفصالا بين حضارات عصر الحجر

المصقول والعصر التاريخى، فالمرحلة الأولى تقود إلى الثانية، وعندما بدأت مصر تاريخها المكتوب حوالى سنة ٣١٠٠ ق.م، كان وراءها تجربة إنسانية طويلة، فتم بشكل نهائى اكتساب رقعة الأرض الزراعية، وتشكلت عناصر الديانة المصرية، وتثبتت لمصر لغتها وكتابتها، وتوطدت مؤسساتها الرئيسية، ومن ثم يمكن اعتبار عام ٣١٠٠ ق.م (تاريخا اصطلح عليه)، تماما كما اصطلح على اعتبار سنة ١٣٩٥ بداية العصر الوسيط فى أوروبا. والواقع أنه من الصعوبة بمكان أن نحدد تاريخا لبدايات الحضارة المصرية التى تختلط بميلاد المشهد البشرى فى مصر بعد أن وضع الإنسان يده على وادى النيل[١٩].

بيد أن ما يثير الاهتمام بالحضارة المصرية ليس فقط قدمها، ولكن أيضا استمراريتها وتواصلها، ففى أوروبا وأمريكا تتعاقب الحضارات أيضا، ولكنها تختلف عن بعضها البعض فيفصل بين كل حضارة وأخرى صدع عميق. ومنذ بداية العصر الحجرى الحديث وحتى السيطرة الفارسية والغزو المقدونى، وتاريخ مصر يسير فى مجرى منتظم. ومما لاشك فيه أن البعض قد بالغ من الظاهر التى شكلتها حضارة عظمى ولدت ونمت فى عزلة تامة، كما يعتقد البعض. لقد كان هناك تسلسل أجنبى ومؤثرات خارجية. ولكن كل ذلك لم يكن من القوة بحيث يؤثر فى الطابع الأصيل للحضارة المصرية، فمصر الدولة الوسطى هى السليلة الشرعية للدولة القديمة، كما ظلت مصر بعد غزو الهكسوس هى كما كانت دائما. هذه الاستمرارية الفريدة فى بابها خاصة عندما نفكر فى الزمن الذى استغرقته، ترجع فى الجانب الأكبر منها إلى ارتباط الحضارة المصرية ارتباطا وثيقا بمجتمع جغرافى هو وادى النيل. ومهما قال البعض أو ذهب فى ظنونه، فإن مصر لم تستورد حضارتها، ولدت حضارة مصر فى وادى النيل ذاته، وهى حضارة نيلية أفريقية، فى جوهرها، وهذا ما أعطاها قوة هائلة، فلقد تكيفت بالفعل تكيفا لصيقا بالاطار الجغرافى الذى انبثقت منه والذى

أسـهمت فـى نفس الوقت فـى خلقـه، ومـن ثـم فـإن علـى الغـزاة الذيـن خاطروا أو جاءوا إلى وادى النيل، فى فترات الضعف أو الفوضى، أمـا أن يندمجوا على جناح السرعة أو يلفظـوا إذا تعـذر عليهـم التكيـف مـع ضروريات البلاد[٢٠].

وذكر مورى ودافى A.Moret, G.Davy فى صفحـة ١٩٣ مـن كتابهمـا Des Clans Aux Empires فقرة نقلها عنهما عبد القادر حمزة[٢١]، قال فيها:

"حينما كان المصريـون قبـل الميـلاد بنحـو ٤٥٠٠ سـنة يسـتخدمون النحاس ويصنعون الأدوات المعدنية، كان غيرهم من أمم العالم لايـزال يستخدم الأدوات من الحجـر، أو هـذا علـى الأقـل هـو مـا وصلـت إليـه معلوماتنا إلى الآن، ولذلك تفـوق سـكان وادى النيـل تفوقـا لـم يكـن فـى استطاعة الأمم الأخرى أن تقاومه. وفى هذا الوقت نفسـه أخـذ جـيران مصـر يظهـرون علـى الآثـار المصريـة الأولـى، وبهـذه الآثـار صرنـــا نستطيع درس العلاقات الأولى التى كانت متبادلة بين أمم الشرق القديـم ...."

كذلك ينقل حمزة عن جوردون V.Gordon Childo، وهـو كـان أسـتاذا لعلم الآثار فى جامعة أدنبرة، وقد اشـتهر بحفرياتـه فـى الهنـد والعـراق ومصر، ثم بمؤلفاته فى عصر ما قبـل التـاريخ لهـذه البـلاد جميعـا، مـا كتبه فى كتاب له ترجم إلى الفرنسية بعنوان L'Orient Prehistoriqne سـنة ١٩٣٥، إذ كتب يقول، بعد أن فرغ من شرح الحضارات المختلفـة فـى عصر ما قبل الأسر[٢٢]: " .. إلى هنا كان من الممكن تفسير التقدم الذى قدمته المدنية فى وادى النيل بعوامل متواصلة مستقلة من الخارج. ومع أن هناك أكثر من عنصر عامل كان له أثر فـى هـذا التقـدم، ومـع أننـا نسـتطيع تمييـز حضـارتين، فـــإن جميــع الكشــوف والمخترعــات ذات الأهمية هى بنت حوض النيل. نعـم ان حضـارة (جـرزة) تحتـوى علـى مظاهر شبه بينها وبين حضارة آسيا، ولكن ليس هناك ما يـدل علـى أن

مصر مدينة لآسيا فى هذه المظاهر ومن الممكن نظريا على الأقل تفسير مظاهر الشبه هذه بين مصر وبلاد النهرين (بريد الكلدان) بأنها نتيجة تيار من المدنية صادر عن مصر".

وأعظم عمل قام به المصرى فى عصر بداية استعمال المعادن، سواء أكان فى الوجه البحرى أم فى الوجه القبلى، ينحصر فى إعداد أرض وادى النيل الخصبة للزراعة. وقد حدث ذلك فى الوقت الذى أخذت فيه أحوال البلاد تتغير من جهة الجو تدريجيا، او قد حدث هذا عندما أخذت القبائل الجوالة التى كانت ترتكن فى معظم معيشتها على الصيد والقنص وتربية المواشى تحط رحالها وتسكن القرى والمدن. وإذا كانت الأراضى الخصبة المجاورة للصحراء بما فيها من مزارع طبيعية ضئيلة قد كفت لمدة ما فى عصر بداية المعادن حاجة الرعاة الذين كانوا يعيشون بجوار مياه الوادى فإنها بعد فترة أصبحت غير كافية لسد حاجات سيل السكان الذين كانوا يتدفقون من الصحراء القاحلة إلى شواطئ النيل، وقد كان ذلك سببا فى أن حتم على هؤلاء النازحين أن يستغلوا أرض وادى النيل الخصبة الدسمة. ولكن العوائق الطبيعية قامت فى وجههم وجعلتهم يفكرون فى التغلب عليها لحاجتهم الملحة إلى طلب العيش[٢٣].

إن تفسير ذلك أن النيل كان يغمر أرض الوادى الخصبة كل عام بفيضانه المنتظم، ويترك مياها راكدة فى الأرض المنخفضة، تتألف منها برك ومستنقعات، على حين أن الأراضى المرتفعة كانت تجف مياهها بعد انقضاء بضعة أسابيع من اختفاء الفيضان، فحتمت الحاجة الملحة على إنسان هذا العصر أن يسوى بين عالى هذه الأراضى وسافلها، حتى تصبح فى مستوى واحد صالح للزراعة، ثم رأى أنه كان لزاما عليه بعد ذلك أن ينظم ماء الفيضان نفسه، حتى يمكنه أن ينتفع به وقت التحاريق، فقام بإنشاء الترع والسدود التى كانت بمثابة الخزانات

الآن ليصرف منها الماء عند الحاجة حتى لا يحدث قحط. وهذا العمل العظيم يعد أكبر فتح قام به الإنسان الأنيوليني في وادي النيل أمام الطبيعة العاتية، والواقع أنه ما كاد ينبثق فجر التاريخ حتى كان الإنسان الذي سبق هذا العصر قد تغلب على كل العقبات التي مهدت السبيل لنمو المدنية المصرية[٢٤].

ولا شك أن هذا العمل العظيم يعد من أكبر مفاخر الإنسان الأنيوليني، وستبقى أسماء هؤلاء الذين نفذوا هذه الأعمال العظيمة سرا غامضا أبد الأبدين.

ولكن المهم أن الزراعة في مصر لم تكن من النوع العادي الذي ظهر في كثير من جهات الأرض، فلم ينته بالحياة إلى أن تتقدم أو ترتفع بالجماعات الزراعية من مرحلتها البدائية إلى مرحلة رفيعة نسبيا من الناحية الاجتماعية، فالزراعة في غير مصر كانت تقوم كلها على المطر، وما كان على الزارع إلا أن ينقر حفرات صغيرة في الأرض يضع فيها الحب، ثم يتركه للمطر يسقيه ويغذيه حتى يتم نضجه فيحصده، وهذا النوع من الزراعة يعرف بالنوع الفطري، وهو وإن كان قد ارتفع بأهله فوق مستوى الجمع والالتقاط، وأمَن حياتهم ووقاهم شر الجوع، فإنه مع ذلك لم يعلمهم التضامن الاجتماعي، فاستطاع الزارع أن يزرع بمفرده أو أن يستعين في حرفته بأسرته الصغيرة دون حاجة إلى الارتباط بمجتمع كبير وبذلك بقى المجتمع مفككا أو لم ترتفع حياة الزراعيين إلى مستوى من التضامن الاجتماعي، ومن تداخل المصالح المادية بين الأفراد والجماعات الصغيرة يفرض على تلك الجماعات وأفرادها نظاما معينا من الحكم هو أساس الحياة المتمدنة بمعناها الاجتماعي الموروث[٢٥]. فضلا عن أن مثل تلك الزراعة الفطرية لا يجد صاحبها حاجة لأن يتمسك بحقل معين يستقر فيه ويقصر جهوده عليه، وإنما هو يستطيع – بل يفضل – التنقل من عام

لعام، فيزرع فى كل سنة قطعة جديدة من الأرض لم يضعفها الإنبات فى موسم سابق. وبذلك كله لم تكد صلة الزارع بحقله أو موطنه المستقر توجد، وذاك ما حدث فعلا فى بعض جهات أفريقية الداخلية مثلا، حيث نشأت الزراعة وبقيت على أصولها الفطرية، فلم تتقدم بالمجتمع فى سلم المدنية والحياة المستقرة، بل بقى بدائيا متنقلا، واستمر فطريا فى حياته وحضارته ولمعانه.

أما فى مصر فإن الزراعة قامت فى أرض تغمرها مياه النيل، وكان من الضرورى منذ البداءة أن ينظم فيضان هذا النهر إذا أراد الزارعون أن يتوسعوا فى أرضهم التى يفلحون، وهذا التوسع لا يمكن إلا أن يكون داخل حدود الوادى فى الأرض التى يجدد خصبها هذا النهر العظيم فى كل عام. وبذلك كله لم يكن هناك مجال لأن ينتقل الزارع من حقل لحقل كل عام، بل كان عليه أن يتمسك بحقله، ينظم فيضان الماء عليه فى كل عام، ثم ينتظر انحسار الماء عندما يغرس الحب فى أرضه الطيبة المجددة. وكان تنظيم ماء الفيضان هذا عنصرا هاما من عناصر الجد والكفاح فى الزراعة والحياة الزراعية المصرية منذ نشأته الأولى لأنه كان عملا ضخما يقتضى تضافر الجهود فى المجتمع[٢١]. فالزارع لا يستطيع وحيدا أن يقيم الجسور ليقسم الوادى إلى جناحين يمر فيهما ماء الفيضان مرورا منتظما يمكن معه أن يرسب الغرين بانتظام على سطح التربة، ولا يستطيع أن يحفر القنوات التى تحمل الماء من النهر إلى الحوض ثم تصرفه عنه بعد أن يكون قد أرسب ما به من غرين. لذلك كان من الضرورى أن تتضافر جهود الزارعين فى مصر من أجل تنظيم رى الأرض، وبدون هذا الرى المنظم لايمكن للزراعة أن تتقدم، لأن الأمطار فى الخريف لا تكفى لإنبات النبات، وإن كانت كافية لأن تغذيه وتمد التربة ببعض الرطوبة أثناء فصل الشتاء.

لذلك كله كانت الزراعة فى مصر مختلفة عن تلك الزراعة الفطرية التى سادت معظم أفريقية، فهى زراعة من نوع يستلزم العمل الشاق والجهد المنظم والتضافر الاجتماعى، وهى عوامل أساسية فى نشأة الحضارة بمعناها العام.

ومع هذا الدور الواضح للزراعة فى نشأة الحضارة المصرية، إلا أن هذه الحضارة إنما هى نتاج (بشر) تفاعلوا مع البيئة الطبيعية فى وحدة طبيعية وثقافية ميزتهم كأمة.

إن القضاء على التجزئة الإقليمية مهمة أنجزتها الدولة المركزية فى مصر منذ آلاف السنين، حينما توحدت دويلات مصر السفلى، ومصر العليا فى دولتين، توحدتا فى دولة واحدة، فالنهر الذى جعل من مصر وحدة هيدروليكية هو أيضا عنصر وحدة طبيعية من زاوية دوره كوسيلة مواصلات ونقل، ومن أدوات الربط بين أجزاء مصر، ومن وسائل توحيدها سياسيا، أى صنع الوحدة الطبيعية وحافظ على الوحدة السياسية[٢٧].

إن وجود الصحراء على جانبى الوادى والبحر المتوسط من الشمال ومنطقة الشلالات فى الجنوب تعطى مصر حدودا طبيعية صارمة، وتؤدى العزلة الجغرافية والطبيعية إلى نمو الشعور بالذات، وقوة لاحمة بلورت الشعور بالذات قوميا، وعشرات الألوف من الفلاحين الذين كانوا يحشدون من مختلف أنحاء البلاد سواء فى مشاريع السيطرة على النهر أو الرى أو فى جيوش الدفاع عن الوادى والدلتا كانوا يتعرفون من بعضهم البعض على النواحى المختلفة لهذا الوطن الذى يجمعهم.

لقد كان هناك طابع وطنى عام تمثل فى وحدة الديانة، والطقوس، والمراسيم، والعادات، والملابس، والسكن، وأساليب الزراعة ووحدة مواسمها، ونمط الحياة الاجتماعية والثقافية، وهو ما يعنى أنه كانت هناك حياة قومية يشارك فيها عامة الشعب.

ويلخص النص التالى كل ما سبق، وهو دكتور (ولسون) فى كتاب (ما قبل الفلسفة)، وينقله لنا حسين فوزى، يقول فيه[٢٨]:

" الميلاد اليومى للشمس، والميلاد السنوى للنهر يشكلان قسمات الطبيعة المصرية. كانت مصر غنية ولكن فى غير إسراف. ولم يكن يتساقط الخير عليها ثمرا جنيا ليغتنمه زراع كسالى. الشمس والنيل يشتركان فى إعادة الوادى إلى الحياة، ولكن بفضل جهاد الشعب المصرى ضد الموات، فالشمس تدفئ، ولكنها فى حمارة القيظ تلوح وتلفح، والنيل يحمل إلى مصر المياه والطمى والخصب، ولكن فيضانه السنوى قلب، لا ينفع فيه نبوءة، فالفيضان العالى يغرق الأرض والحرث والنسل، والفيضان الواطئ يجلب المجاعة والوباء، عاليا كان أم واطئا، فهو يجئ دفعة واحدة، وينتهى عاجلا، مما يلزم سكان الوادى بالعمل المضنى لخزن مياهه، وتنظيم الرى نوبة بعد نوبة. والصحراء عدو متحفز، يقرض الأرض المزروعة، ويحيل الخصب محلا. وهى إلى ذلك موطن الأفاعى والضوارى والغيلان والسعالى. وبطائح الدلتا وقد تحولت أجمات ومستنقعات، تتطلب الرى الدائم حتى تعود حقولا مزروعة. والبلاد تشرف على الفناء فى ربع العام وتلفحها الرمضاء، وتلوحها الشمس، وتهددها التحاريق، حتى يعود الفيضان، فيعتدل الجو، ويبارك الله أرض الكنانة، ويبسط لها الرزق والرخاء دون جيرانها الأقربين. ولكن ذلك لم يكن ليعفى أهلها من الكفاح الدائم والحرمان، أو ليحميها من الأخطار، مما يجعل ظفرها الموسمى أروع أثرا وأصدق، إذ لم يجئ نعمة سابغة، وانما حققه التعب والنصب.

"وثمة صفة أخرى لوادى النيل تنعكس فى أخلاق أهلها: وحدة المناظر واتزان عناصرها: الشاطئ الشرقى يوازن الضفة الغربية، وسلسلة جبال العرب تواجه مرتفعات ليبيا، وسواء أكان هذا التقابل فعالا أم غير فعال، فإن المصرى كان شديد الاحساس بالاتزان والنظام والهندسة، ينجلى إحساسه ذاك فى فنونه وآدابه وتتسم كلها بالجلال ورتابة الإيقاع:

أصغ إلى أقوالى. أعرنى سمعك
إننى ألقى إليك بالكلم لتعرف أننى ابن رع
خلقت من صلبه، لأجلس هانئا على عرشه
مكن لى فى الأرض، سيدا على الوادى
سديد رأيى، فيحقق على الأيام تدبيرى
أنا حامى الحمى، أنا المدافع عن مصرى!

صُنّاع الحضارة المصرية:

وهم بطبيعة الحال المصريون مما يستوجب محاولة التعرف على (أصلهم) الجنسى.

تكون مصر الجزء السفلى لوادى النيل، وتحد بالشلال الأول جنوبا، والبحر المتوسط شمالا، والصحراء العربية شرقا، وصحراء لوبيا غربا، وقد كان يطلق عليها قديما اسم (كمى)[٢٦]، وقد بقى محفوظا إلى أن جاء الاغريق فأسموها (اجبتوس)، ولم يفسر أصل اشتقاق هذا الاسم تفسيرا شافيا، وأفضل هذه التفاسير "حا-كا-بتاح" أى مكان نفس الاله بتاح، الذى كان يعبد فى بلدة منف عاصمة الديار المصرية فى عهد الدولة القديمة. ولفظة "كمى" معناها الأرض السوداء، وكانت تطلق على الوادى الخصيب المنزرع، أما الأرض التى كانت تحيط به

من الشرق والغرب فكانت تسمى "تا-دشر" وتعنى بالمصرية البلاد الحمراء أى الصحراء.

وقد لا تكون مصر مهد الجنس البشرى أو الموطن الأول للإنسان، بل إن من المسلم به أنها ليست كذلك، ولكن الإنسان المصرى يعد بالتأكيد من أقدم سلالات الأرض، فمن المحقق أن تعمير مصر بدأ مبكرا جدا منذ وقت بالغ القدم يسبق فجر التاريخ المكتوب بمراحل سحيقة على أقل تقدير، فالإنسان ظهر على مسرح الحياة فى هذا الجزء من العالم فى عصر البلايستوسين أى فى العصر المطير على الأقل[٣٠].

ومن الطبيعى، مادامت مصر ليست مهد الجنس البشرى، أن سكانها الأوائل والأولين جاءوها من خارجها، أى كانوا عناصر واحدة مستوردة أتت عن طريق الهجرة. ولا شك أيضا أن هذا الوضع استمر طويلا، بقدر ما كان يختفى كذلك فى ضباب الماضى. ولا ضير فى هذا ولا مشكلة انما المشكلة هى: إلى أى مدى ظلت العناصر الوافدة تظهر على المسرح، ومنذ متى أصبحت متوطنة فتوطدت جذورها فى المنطقة حتى أصبحت أصيلة بالمعنى المفهوم عن قدماء المصريين منذ العصر التاريخى أو عصر الأسرات، فلئن صح أن يقال عن أوائل المعمرين الذين دخلوا مصر البكر أنهم وافدون، فليس يصح على الاطلاق أن يقال هذا عن مصر الفراعنة مثلا وبهذا الشكل المباشر[٣١].

ومن الخير أن نبدأ بأول دور بدأت المياه فيه تتركز على أرض مصر، وهو الذى يعرف بالعصر الحجرى القديم الأعلى. وقد عثر من هذا العصر على بقايا من عظام السكان فى منطقة حوض كوم أمبو. ومن الطريف أنها قريبة الشبه فى تكوينها من عناصر سكان ما قبل الأسرات (أى عصر بداءة المعدن)[٣٢]، ويصح أن نستنتج من هذا أن السلالة التى عمرت مصر فى مطلع عهد الأسرات انما ترجع أصولها

فى وادى النيل الأدنى إلى عهد يسبق ذلك ببضعة آلاف من السنين، وكانت هذه السلالة قد استقرت فى أرض مصر واستمرت خلال العصر الحجرى الحديث واشتغلت بالزراعة وتربية الحيوان. وقد عثر على عظامها فى مقابر هذا العصر فى غرب الدلتا وفى الصعيد. فأما فى الشمال فقد تبين أن السكان كانوا من سلالة البحر الأبيض المتوسط التى كانت تمتاز باستطالة واعتدال القامة. وأما فى الصعيد فقد كان السكان من السلالة ذاتها ولكنهم امتازوا أيضا باستعراض الوجه نوعا ما أو قوة الفك، وبروز عظام الحاجب، كما أنهم اختلطوا بعد قليل ببعض العناصر الاغريقية التى تقطن الآن شرق السودان.

وخلال عصر ما قبل الأسرات استمرت صفات السكان فى التنوع، فأصبح عنصر الشمال وعنصر الجنوب يمثلان فرعين من سلالة واحدة كانوا جزءا من سلالة واحدة لكل منها صفاته المميزة إلى جانب الصفات المشتركة بين الاثنين. ولكن السكان جميعا كانوا جزءا من سلالة البحر المتوسط، تلك التى انتشرت فى بلاد العرب وغرب آسيا (فيما عدا هضاب الأناضول) وانتشرت فى ساحل أفريقيا الشرقية وبعض أطراف أفريقية الشرقية، كما انتشرت كذلك فى السواحل الجنوبية من أوروبا، لاسيما فى غرب البحر المتوسط(٣٣).

وبصيغة أخرى، فإن ثلث السكان تقريبا يشير إلى أصوال أفريقية خالصة من الأثر الزنجى، والربع إلى أصول أفريقية بها تأثيرات زنجية أو متزنجة، ونحو الخمس إلى أصول متوسطية، والعشر إلى أصول (هيللينية) Helladique، والباقى إلى أصول من الشرق الأوسط nord-canaaneene. وتبلغ نسبة العناصر الأصلية فى العينة نحو أربعة الأخماس، مقابل الخمس للعناصر الوافدة، وهى نسبة عالية تشير إلى ارتفاع نسبة المقيمين الأجانب فى مصر، خاصة من العالم الهلينى، منذ وقت مبكر(٣٤).

هذا إذن، بشكل عام، عن المصريين (الأقدمين) فماذا -إن صحت التفرقة- عن المصرين (القدماء) بالمعنى المعروف، أى أولئك الذين انحدرت منهم مباشرة مصر يوما قبل وما قبيل (الأسرات) والذين يعد فراعنة الأسرات نفسها تتويجا تاريخيا لهم؟

الرأى السائد بين جمهرة الأنثروبولوجيين والأكثر قبولا لديهم أن المصريين القدماء ينتمون أساسا إلى مجموعة الحاميين الشرقيين، الذين ينتشرون حاليا فى كل شمال شرق أفريقيا حتى القرن الأفريقى، والذين يؤلفون مع الحاميين الشماليين فى شمال غرب أفريقيا (أى إقليم أطلس أو البربر أو المغرب) مجموعة لغوية واحدة[٣٥].

ورغم فروق محلية كثيرة فى اللغة كما فى الجنس، نتيجة للانتشار الجغرافى الواسع المدى لكلتا الشعبتين، الأولى على المحور الطولى، والثانية على المحور العرضى، فإنهما معا وحدة اثنية أو اثنولوجية واحدة لا شك، من أصل واحد مشترك بلا جدال، بل من أصل ضيق وتشعبهم وتباينهم لم يقع إلا من عهد حديث للغاية نسبيا، ربما فى أواخر عصر الجفاف بالصحراء.

ففى العصر المطير كان العمران فى النصف الشمالى من أفريقية على عكس نمطه الحالى: كانت الصحراء هى المعمور، ووادى النيل وإقليم جبال أطلس هى اللامعمور، فكان سواد السكان ينتشر فى رقعة شاسعة تغطى الصحراء المصرية -(الليبية) فلما حل الجفاف تحولت هذه الرقعة إلى بؤرة انتشار وتوزيع لكتلة سكان يمينا ويسارا، يمينا إلى النيل ويسارا إلى أطلس، وبذلك انشطرت الكتلة الأم إلى جزيرتين بشريتين منفصلتين انفصالا تاما وواسعا على الترتيب: الحاميون الشرقيون والحاميون الشماليون. ولعل هذا أن يفسر الأصل الجنسى

المشترك ثم الانفصال الجغرافى الذى لا يغير مع ذلك وحدة المجموعة الحامية ككل.

ومما ردده البعض أن الحاميين من ناحية هم نسبا أبناء حام بن نوح ومن ناحية أخرى يقول لنا كثير من المؤرخين العرب أن مصر سميت باسم مصر بن بيصر بن حام بن نوح، ثم قبط، ثم أتريب. فإذا كان ذلك كذلك، فلعلنا نستطيع أن نتصور أن الحاميين الشرقيين عندما دخلوا وادى النيل من وادى الحمامات عند ثنية قنا أطلقوا اسم قبط على أول مدخل لهم فكانت قفط، المدينة المعروفة، ثم أطلقوا اسم مصر (ابن بيصر) على البلد كله بعد أن تقدموا فيه وعمروه نهائيا، ثم أطلق اسم أتريب ضمن ما أطلق فيما بعد على المدينة المعروفة جنوب شرق الدلتا[٣٦].

المصريون إذن أمة تنتمى فى تكوينها الجنسى إلى سلالة البحر المتوسط، تلك التى تمتاز بالبشرة القمحية أو البيضاء والشعر المموج أو المجعد والرأس الطويل أو المتوسط والوجه البيضى والأنف المعتدل والعيون العسلية أو السوداء والقامة المتوسطة. ولكن هذه الصفات لا تتمثل فى المصريين نقية لأنهم جمعوا من الوافدين والعابرين. ولكن الاختلاط بين سكان مصر يمتاز بأنه قديم وبأنه بلغ حد الامتزاج والتداخل التام بين الصفات الجنسية الأصلية والوافدة. ولقد أعطى ذلك أصل مصر قوة، وساعدهم على (هضم) من اختلط بهم وعلى (تمثيل) العناصر الدخيلة تمثيلا لم يلبث معه أن انمحى الأثر الوافد، أو تلاشى فى الصفة الأصلية، بعد أن عدلها ببعض التعديل. وكلما مضى الزمن على المصريين ازداد تداخل الصفات الجنسية بينهم، وتضاعفت -فيما يبدو بقدرتهم على استيعاب العناصر الغريبة وتمثيلها[٣٧].

البعد الزمني:

إن فهم الحضارت التاريخية، ونشأتها وتطورها، لا يمكن أن يكون واضحا إلا إذا عرفت مقدمات هذه الحضارات، فالمرحلة التاريخية فى مصر، وهى تقدر بخمسة آلاف سنة، هى مدة قصيرة بالنسبة لتاريخ الإنسان منذ أن ظهر على سطح الأرض. ونحن نجد هذه المقدمات فى المرحلة الطويلة التى سبقت ظهور الكتابة، والتى تعرف بعصر ما قبل التاريخ، وتتفق هذه المرحلة مع الزمن الرابع الذى يقدر له علماء الجيولوجيا مدة تتراوح بين نصف مليون ومليون سنة. والمتفق عليه الآن أن ظهور الإنسان كان فى أوائل الزمن الرابع، ومعنى ذلك أن الإنسان عاصر الأحداث المناخية الكبرى فى عصر البليوستوسين، وشاهد خلاله تقدم الجليد وتقهقره فى الأقاليم الشمالية، وهطول الأمطار أحيانا وانحباسها أحيانا أخرى، فى مصر والصحراء الكبرى، وذلك قبل أن تستقر الأحوال المناخية نهائيا فى تلك الجهات[٣٨].

ولما كان من الصعب تحديد بدء ظهور الإنسان ونشاطه على سطح الأرض فى ضوء معلوماتنا الحالية، كان أساس دراستنا الآلات والأسلحة الحجرية التى كان الإنسان الأول يستخدمها فى شئونه المختلفة. والإنسان المقصود هو الإنسان صانع تلك الآلات. وعلى هذا الأساس فقط يمكن القول بأن الإنسان قد ظهر فى عصر البليوستوسين. وقد عثر العلماء على الآلات الحجرية وعرفوها فى مصر منذ وقت طويل. غير أن أهميتها بقيت مجهولة، وأهمل شأنها، وأثار بعض العلماء الشك من حولها، ولم يؤمنوا بأنها من عمل الإنسان فعلا، وأنها تمثل حضارته (الأولى) إلا منذ عهد قريب.

ورغم ما يكتنف عصور ما قبل التاريخ من غموض شديد إلا أنها تتميز عما بعدها بميزة هائلة ففى عصور التاريخ لا يترك الناس أعمالهم ومخلفاتهم تتحدث عن نفسها، وانما يتحدثون هم عنها فى

نصوص يسجلونها بأنفسهم، ويتركونها للمؤرخين ليقرءوا فيها صورة مغرضة عن تلك الأعمال، وليفهموا عنها ما تيسر لهم وما شاءت ميولهم الفكرية أن يفهموا ثم ليرتبوا عليها من النتائج ما يكون خالصا للحق، ولكنه فى غالب الأحيان يأتى مشوبا بالغاية غير مجرد من الهوى فالعصر التاريخى عند البعض، يمتاز بأنه عصر الميول والأحكام الشخصية، من جانب من يسجلون الوقائع ساعة تحدث، ومن يدرسونها فى النصوص بعد ذلك من المؤرخين. أما عصر ما قبل التاريخ، فإن الآثار تتحدث فيه عن نفسها وتبين عما كان هناك من حضارة بيانا صامتا ولكنه أصدق من الكلام، أو هو على الأقل بعيد عن الهوى والغاية، أو يمكن أن يكون مجردا منها إلى أبعد الحدود[٣٩].

وقد مرت على مصر حقب جيولوجية متعددة قبل أن تصبح آهلة بسكانها، ففى حقبة الإيوسين Eocene كانت مياه البحر المتوسط تصل إلى جنوبى إسنا، ثم حدث ارتفاع فى الأراضى فى حقبة الأليجوسين Oligocene أدى إلى ظهور أكثر مصر.

وفى حقبة الميوسين Miocene، كان قد اتخذ مجراه الحالى تقريبا واتصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر، ولكن لم يأت آخر هذه الحقبة حتى انفصل البحران مرة أخرى عن بعضهما.

كان اتصال النيل بالبحر الأبيض المتوسط عند موقع القاهرة تقريبا، وكانت له عدة روافد فى الصحراء الشرقية لم يبق منها غير أثر مجاريها فى الوديان هناك.

وفى حقبة البليوسين Pliocene حدثت هزة أرضية كبرى أعادت اتصال البحر الأحمر بالبحر الأبيض، ولكن هذا الاتصال كان بواسطة جزء ضيق وهو الذى يبقى منه فى العصور التاريخية خليج السويس

وبعض البحيرات. وأخذ النيل يلقى برواسبه فى الفجوة التى كان يصب فيها وكون لنفسه فى تلك الأراضى الجديدة نحو عشرة فروع[٤٠].

لم يأت العصر الباليوليتى Paleolithic على مصر حتى كانت روافد النيل فى الصحراء الشرقية قد جفت، وانفصم خليج السويس عن البحر الأبيض وانكمش خليج العقبة إلى ما يقرب من شكله الحالى، مع أن نهايته كانت عند منخفض البحر الميت فى فلسطين، وظهرت أيضا محافظة الفيوم، إذ سار فرع من النيل إلى ذلك المنخفض الشبيه بالواحة، وعدت عوامل الطبيعة فجففت فرعا للنيل كان يسير فى الصحراء الغربية منذ حقبة الميوسين وبقى حتى نهاية عصر البليوسين.

ونقطة البداية فى تطور الحضارة هى ما لحق المناخ من تغير جوهرى فى نهايات العصر الحجرى القديم، تغيرت معه البنية الطبيعية تغيرا جذريا هى الأخرى. والصورة العامة السائدة والمتفق عليها بين أغلب الأركيولوجيين يمكن أن تبسط فى أن ما هو اليوم فى نطاق الصحارى فى وسط العالم القديم كان يعيش فى ذلك الوقت فى ظل (عصر مطير) يقابل (عصر الجليد) فى العروض الشمالية بأوروبا[٤١].

وفى مصر، فلقد انتهت الأبحاث الحديثة إلى أن العصر المطير عصران، الأول والأكبر حدث فى البليوسين الأعلى والبلايستوسين الأسفل. أما الثانى فوقع فى البلايستوسين الأعلى، ويفصل بين الاثنين فترة جفاف فى البلايستوسين الأوسط. ولئن كان العصر المطير الثانى فى البلايستوسين الأعلى هو الأقصر، إلا أنه الأخطر بشريا وحضاريا، إذ أنه تعاصر مع وجود وظهور الإنسان.

وإذا كان عسيرا تحديد بداية عصر ما قبل التاريخ، إلا أن نهايته محددة بظهور الكتابة، حيث ظهرت فى مصر قبل سنة ٣٢٠٠ ق.م.

ويقسم البعض هذا العصر إلى الأقسام التالية[٤٢]، علما بأن هذه التحديدات تقريبية:

١- حضارات العصر الحجرى القديم: وتشغل المرحلة الأولى منه مدة طويلة، وتبدأ المرحلة الوسطى قبل آخر عصر جليدى بمدة قصيرة. وتتميز المرحلة الأخيرة بما حدث خلالها من تحول مناخي وظهور سلالات بشرية جدية. ويرجع هذا العصر إلى ١٠٠,٠٠٠ سنة تقريبا، و ينتهى حوالى سنة ١٠,٠٠٠ ق.م.

٢- حضارات العصر الحجرى المتوسط: ومدتها قصيرة، وترجع إلى ما بين سنة ١٠,٠٠٠ وسنة ٨٠٠٠ ق.م.

٣- حضارات العصر الحجرى الحديث: وتتميز بثورتها التى أدت إلى ابتكار الزراعة واستئناس الحيوان وصنع الفخار وبناء المساكن وظهور الآلات الحجرية المصقولة، وهى ترجع إلى ما بين سنة ٦٠٠٠ وسنة ٥٥٠٠ ق.م.

٤- حضارات عصر ما قبل الأسرات: وهى تتفق مع استخدام النحاس، وترجع إلى سنة ٤٥٠٠ ق.م، وهكذا رسبت خلالها قواعد الحضارة التاريخية.

وقد عثر على آثار الإنسان من العصر الحجرى الحديث فى جهات مختلفة من مصر قرب الوادى وفى منخفضات الصحراء، فعند الحافة الغربية للدلتا، فى مكان يقال له (مرمدة بنى سلامه)[٤٣] قرب الخطاطبة الحالية، عثر على قرية قديمة، يقال أنها أقدم قرية عرفها التاريخ أو ما

قبل التاريخ وكان أهلها على شئ من التقدم الروحى، لهم معتقداتهم التى تقوم على الايمان بالبعث، فهم كانوا يدفنون بعض الزاد مع موتاهم الذين وجدت مقابرهم بين المساكن، وتوجه فيها وجوه الموتى نحو الشرق، كأنما تستقبل الشمس المشرقة أو تواجه النيل والماء والأرض الطيبة مصدر الحياة والخيرات.

وفى مصر العليا وجدت آثار هذا العهد فى مكان يدعى دير ناسا بمحافظة أسيوط، ولكنها آثار أفقر كثيرا من آثار الدلتا.

وشهدت الفيوم أيضا حقبتين(أ)، (ب) صورة من صور حضارة هذا العهد.

واستمر التطور الصناعى والاجتماعى خلال فجر التاريخ المصرى، وكانت خطوته التطورية الرئيسية بعد معرفة الزراعة، هى معرفة استخراج النحاس من أخلاط الطبيعة واستخدامه فى أدوات صغيرة، وأقدم الأماكن الأثرية التى عثر فيها على مصنوعاته فى مصر هى قرية البدارى فى محافظة أسيوط[٤٤].

أما الفترة التى تقترب من الألف الرابعة قبل الميلاد فيطلق عليها فترة (ما قبل الأسرات) ومعظم ما تم كشفه كان فى مصر العليا وتميز بأثاثه الجنائزى الوفير والمتقن الصنع، وأطلق على هذه الحضارة اسم حضارة (نقـــــادة) -٣٤٠٠-٣٠٠٠ ق.م-، والتى تطورت خلال مرحلتين متميزتين عن بعضهما البعض، هما:

الأولى: نقادة الأولى أو العمرة، أما الثانية فتسمى بحضارة نقادة الثانية أو جرزه، وتستحق آخر مراحل (الجرزة) أن نطلق عليها فترة ما قبل (الأسرات) حيث ظهرت أثناءها بعض العناصر الفرعونية (مثل شعارات الأقاليم، وتاج ومتعلقات الملك)، بل وظهرت أيضا بعض

التقاليد التصويرية التى تتشابه مع الرؤية التى سادت مصر فى عصر الأسرات، وبدأت تتضح كذلك المعالم الأولية للكتابة، ثم (الواقعية الأيدلوجية)[٤٥].

وهكذا نجد أننا إذ نتحدث عن عصر ما قبل التاريخ، إنما نتحدث عن عهد سحيق ولكنه لا يخلو من روعة، وأننا إذ نتحدث عن مطلع التاريخ لا نقصد بداءة القصة البشرية فى الحضارة بقدر ما نقصد نهاية عهد طويل جدا من التطور والتقدم فى حياة الإنسان، وأننا إذ نعتمد على الآثار الصامتة دون النصوص القاطعة انما نستند إلى أساس من البيان الصامت الصادق، بدلا من أن نعتمد على نص قد يكون صادقا وقد لا يكون كذلك[٤٦].

ولا شك أن القارئ إذ يطلع تفصيلا على هذا فإنه سوف يقدر هذه الدراسات السحيقة التى تعالج قصة الإنسان وحضارته خلال آلاف عديدة من السنين، بل خلال عهود قد تمتد إلى مئات قليلة من آلاف السنين، أو هى تمتد فى القليل إلى عشرات الآلاف فى العصر الحجرى القديم، وتبلغ آلافا سبعة أو تزيد منذ بداءة العصر الحجرى الحديث فى بلد كمصر.

ولئن عرفنا نحن أن مجتمعنا المصرى كان مكتمل التطور عندما بزغ فجر التاريخ وعرف الناس الكتابة والتسجيل، برزت أمامنا حاجتنا الملحة إلى أن نعنى بهذا العهد الطويل عناية خاصة، فنكشف عن نشأة المدنية وتطورها فى مصر قبل التاريخ، ونحاول بذلك أن نتتبع أسس الحياة ومقوماتها فى وادى النيل، ونمهد لأن نفهم نهوض الحضارة التاريخية على أساس جديد. ولئن نحن فعلنا ذلك فسنجد أن حضارة مصر الفرعونية لم تنشأ بين يوم وليلة، ولم تكن حضارة مستعارة دخلت إلينا من الخارج، وإنما هى نشأت فى أرض وادينا، وتطورت

فى تربته الطيبة خلال أعصر طويلة، يرجع أولها فى القليل إلى بداءة العصر الحجرى الحديث، وتتضح معالمها المصرية المحلية فى أواسط عصر ما قبل الأسرات، ثم تضطرب اضطراب النضوج والعنفوان قبيل وحدة الوجهين، حتى تتخذ صورتها الكاملة كأبدع ما تكون خليقة الأمم عند ظهور فرعون الأول وقيام الأسرات(٤٧).

وإذا كان هذا هو ما يتصل بعصر ما قبل التاريخ، على أساس أن التاريخ يبدأ عند وجود الكتابة ويعتمد على النقوش المدونة، فإن الفترة التالية التى سيتم التركيز عليها فى فصول الكتاب القادمة فإنها تنقسم إلى العصور التالية(٤٨):

١- عصر الأسرات المبكر أو العصر العتيق أو العصر الثنى: من سنة ٣٢٠٠-٢٨٩٠ ق.م، حيث الأسرة الأولى، ثم الثانية من سنة ١٢٨٩ إلى ٢٦٨٦ ق.م.

٢- الدولة القديمة وتشمل الأسرات من الثالثة إلى السادسة من سنة ٢٦٨٦ - ٢١٨١ ق.م واستمرت الأسرة الثالثة من ٢٦٨٦ - ٢٦١٣ ق.م، والرابعة من ٢٦١٣ - ٢٤٩٨، والخامسة من ٢٤٩٨ - ٢٣٤٥، والسادسة من ٢٣٤٥ - ٢١٨١(٤٩).

ويطلق على هذا العصر أيضا عصر (بناة الأهرام)

ويرى البعض ضم ١، ٢ فى وحدة واحدة هى عصر الدولة القديمة لأن بناء الأهرام يجب ألا يوضع فى المكان الأول ويتخذ أساسا لتقسيم دول التاريخ المصرى القديم لأن التقسيم كان قائما على التوحيد السياسى للبلاد تحت رعاية ملك واحد، بعد أن كانت عبارة عن ولايات مفككة، والذى كان من نتائجه أن أصبحت البلاد جميعا ملتفة حول العرش رمز البلاد. ولقد تمت وحدة مصر الأولى على يد الملك مينا (نعرمر) أول ملوك الأسرة الأولى حوالى سنة ٣٢٠٠ ق.م ويطلق عليه اسم (عصر الوحدة الأولى)(٥٠)

٤- عصر الاضمحلال الأول، أو عصر اللامركزية الأول أو العصر المتوسط الأول ويشمل الأسرات من السابعة إلى العاشرة من ٢١٨١-٢٠٤٠ ق.م، وكانت السابعة من ٢١٨١-٢١٧٣، والثامنة من ٢١٧٣-٢١٦٠، والتاسعة من ٢١٦٠-٢١٣٠، والعاشرة من ٢١٣٠-٢٠٤٠ ق.م.

٥- الدولة الوسطى وتشمل الأسرتين الحادية عشر والثانية عشر، الحادية عشر من ٢١٣٣-١٩٩١، والثانية عشر من ١٩٩١-١٧٨٦ ق.م. وتشمل عصر الوحدة (الثانية).

٦- عصر الاضمحلال الثانى أو عصر اللامركزية الثانى، أو العصر المتوسط الثانى من ١٧٨٦-١٥٧٦ ق.م، ويشمل الأسرات من ١٣-١٧، الثالثة عشر من ١٧٨٦-١٦٣٣، الرابعة عشر من ١٧٨٦-١٦٠٣، وفترة حكم الهكسوس التى تشمل الأسرتين ١٥، ١٦ من سنة ١٦٠٣ - ١٥٦٧ ق.م، والأسرة السابعة عشر فى طيبة والتى بدأت حرب الاستقلال، والتى حررت مصر فى نهايتها من حكم الهكسوس من ١٦٥٠-١٥٦٧ ق.م[٥١].

٧- عصر الدولة الحديثة ويبدأ من الأسرة الثامنة عشر إلى أواخر الأسرة العشرين ونسمية (عصر الوحدة الثالثة) من سنة ١٥٦٧-١٠٨٥ ق.م، الأسرة الثامنة عشر من ١٥٦٧-١٣٢٠، الأسرة التاسعة عشر من ١٣٢٠-١٢٠٠، الأسرة العشرون من ١٢٠٠-١٠٨٥.

وأهم ما لوحظ من مزايا عصور الوحدة القومية بجانب الازدهار فى السياسة والحضارة ووحدة وادى النيل أن ملوك تلك العصور وجهوا نظرهم إلى سياسة خارجية خاصة نستطيع أن نقول أنها أصبحت

سياسة تقليدية لكل ملك قوى يعتلى عرش مصر الموحدة، أخذها الخلف من السلف لدرء الخطر عن أجزاء مصر الموحدة.

٨- ويبدأ من الأسرة الحادية والعشرين إلى أواخر الخامسة والعشرين من سنة ١٠٨٥-٦٦٣ ق.م ويطلق عليه عصر اضمحلال الامبراطورية، ونسميه عصر تفكك الوحدة الثالثة. وسبب ذلك أنه قبل وفاة آخر ملوك الرعامسة حوالى سنة ١٠٨٥ ق.م ضعفت سلطة الملك وقوى نفوذ كهنة آمون وخملت الروح الحربية، وانقسمت مصر إلى دولتين، وقد اضطر الملوك فى هذا العصر إلى استخدام الجنود المرتزقة[٥٦].

وكانت الدول المجاورة لمصر آخذة فى النهوض، فانتهزت فرصة التفكك والضعف فى مصر وغارت عليها من كل صوب.

وفى ذلك الوقت كانت دولة الآشوريين قد اتسعت فى آسيا حتى بلغت حدودها فلسطين مما سهل عليهم التغلب على الدلتا حوالى سنة ٦٧٠ ق.م ثم امتد إلى ملك النوبيين فى جنوب مصر.

٩- العصر الصاوى، أو عصر النهضة المصرية وعصر الأسرة السادسة والعشرين من سنة ٦٦٤-٥٢٥ ق.م حيث تمكن أباسماتيك حوالى سنة ٦٦٣ ق.م من طرد الآشوريين.

١٠- عصر استيلاء الفرس على مصر أو عصر الأسرة السابعة والعشرين، ونحن نسميه عصر تكامل الوحدة الرابعة من حوالى ٥٢٥-٤٠٥ ق.م وتمكن المصريون من طرد الفرس وتأسيس الأسرة الثامنة والعشرين سنة ٤٠٥ ق.م.

١١- عصر وحدة مصر الخامسة ويشمل حكم ملوك الأسرة الثامنة والعشرين ثم حكم مصر ملوك الأسرتين ٢٩، ٣٠ ولكنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ باستقلالهم طويلا إذ تمكن الفرس من استعادة غزو مصر سنة ٣٤٢ ق.م وبقيت مصر تحت حكمهم إلى سنة ٣٣٢ ق.م[٥٣].

١٢- العصر اليونانى والرومانى من سنة ٣٣٢ ق.م-٦٤٠، وكان غزو الإسكندر لمصر سنة ٣٣٢ واستمرت مصر تحت حكم البطالمة من ٣٣٢- ٣٠ ق.م، أما الرومان فحكموا مصر من ٣٠ ق.م - ٦٤٠م حيث دخلت مصر رحاب الاسلام.

هوامش الفصل الأول

١- دومنيك فالبيل: علم المصريات، ترجمة لويس بقطر، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة، ١٩٩٤، ص٦.
٢- المرجع السابق، ص ٢٤.
٣- نيقولا جريمال، تاريخ مصر القديمة، ترجمة ماهر جويجاتى، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة، ١٩٩٢، ص٦.
٤- المرجع السابق، ص١٠. ٥- المرجع السابق، ص١٣.
٦- المرجع السابق، ص ١٥. ٧- المرجع السابق، ص١٦.
٨- عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، الأنجلو المصرية، ١٩٩٠، جـ١، ص٤٢.
٩- المرجع السابق، نفس الصفحة. ١٠- المرجع السابق، ص ٤٣.
١١- باسكال فيرونوس وجان يويوت، موسوعة الفراعنة، ترجمة محمود ماهر طه، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة، ١٩٩١، ص٢٣٣.
١٢- المرجع السابق، ص٢٣٤.
١٣- أحمد فخرى، مصر الفرعونية، الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧١، ص٥٩.
١٤- المرجع السابق، ص٦٠.
١٥- محمد جمال الدين مختار، مصادر التاريخ الفرعونى، فى وزارة الثقافة، تاريخ الحضارة المصرية، النهضة المصرية، القاهرة، د.ت.م١، ص٨٢.
١٦- المرجع السابق، ص٨٣. ١٧- المرجع السابق، ص٨١.
١٨- ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٧١، جـ٢، ص٦١.
١٩- جان فيركوتير، مصر القديمة، ترجمة ماهر جويجاتى، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة، ١٩٩٣، ص٦.-
٢٠- المرجع السابق، ص٨.
٢١- عبد القادر حمزة، على هامش التاريخ المصرى القديم، مطابع الشعب، القاهرة، ١٩٥٧، ص٣٤.
٢٢- المرجع السابق، نفس الصفحة.
٢٣- سليم حسن، مصر القديمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢، جـ١، ص١١٤.
٢٤- المرجع السابق، ص١١٥.
٢٥- سليمان حزين، حضارة مصر، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩١، ص١٤٨.
٢٦- المرجع السابق، ص١٤٩.

٢٧- فوزى الإخناوى، مصر الفرعونية بين الماضى والحاضر، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٩٣، ص٨٥.
٢٨- حسين فوزى، سندباد مصرى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩، ص٣١٠.
٢٩- سليم حسن، مصر القديمة، جـ١، ص١٤٠.
٣٠- جمال حمدان، شخصية مصر، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨١، جـ٢، ص٢٥٥.
٣١- المرجع السابق، ص٢٥٦.
٣٢- سليمان حزين: البيئة والانسان والحضارة فى وادى النيل الأدنى، فى: تاريخ الحضارة المصرية، م١، ص٢٨.
٣٣- المرجع السابق، ص٢٩.
٣٤- جمال حمدان، شخصية مصر، جـ١، ص٢٦٠.
٣٥- المرجع السابق، ص٢٦٧. ٣٦- المرجع السابق، ص٢٧٠.
٣٧- سليمان حزين، حضارة مصر، ص٢٦١.
٣٨- مصطفى عامر، حضارات عصر ما قبل التاريخ، فى تاريخ الحضارة المصرية، م١، ص٣٧.
٣٩- سليمان حزين، حضارة مصر، ص١٥٥.
٤٠- أحمد فخرى، مصر الفرعونية، ص٣٤.
٤١- جمال حمدان، شخصية مصر، جـ٢، ص٣٦٩.
٤٢- مصطفى عامر، حضارات ما قبل التاريخ، ص٣٨.
٤٣- سليمان حزين، حضارة مصر، ص١٥٨.
٤٤- عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، جـ١، ص٥١.
٤٥- موسوعة الفراعنة، ص٥٤.
٤٦- سليمان حزين، حضارة مصر ص١٦٣.
٤٧- المرجع السابق، ص١٦٤.
٤٨- باهور لبيب، لمحات من الدراسات المصرية القديمة، ملحق مجلة المقتطف، عدد سبتمبر، اكتوبر ١٩٤٧، ص٧ وما بعدها.
٤٩- سيد توفيق، معالم تاريخ وحضارة مصر الفرعونية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٠، ص٢٧.
٥٠- باهور لبيب، ص٧.
٥١- سيد توفيق، ص٢٩.
٥٢- باهور لبيب، ص٩. ٥٣- المرجع السابق، ص ١١.

الفصل الثانى

المجتمع المصرى القديم

أولا: الدولة

لماذا نشأت طاغية؟

التفسير الشائع فى الإجابة على هذا التساؤل الرئيسى والهام هو التفسير الايكولوجى (البيئى) الذى يعزى بروز التنظيم الاجتماعى ونشوء الدولة المركزية بشكل رئيسى للبيئة النهرية الفيضية، حيث شرط قيام الزراعة هو السيطرة على ماء النهر عند الفيضان، وتنظيم وصوله إلى كل أنحاء الرقعة الزراعية، كذلك يولى هذا الاتجاه أهمية لعامل آخر هو ضرورة حماية الواحة الزراعية التى قامت على أساس الفيضان النهرى وسط الصحراء من غارات البدو الرعاة الذين كانوا إذا أغاروا على الرقعة الزراعية نهبوا الزراعة وحولوا الأرض المزروعة إلى مراع[1].

وقد أشار ماركس فى بعض كتاباته إلى ما أسماه (النمط الآسيوى للإنتاج)، وعلى سبيل المثال كتب فى رسالة إلى انجلز بتاريخ ١٨٥٣/٦/٦ يقول: أن "غياب ملكية الأرض(يقصد الملكية الفردية للأرض) هو مفتاح الشرق كله"، وأن السبب فى ذلك يعود إلى ضرورة الرى الصناعى فى المناطق الصحراوية التى تمتد من الصحراء الأفريقية إلى فارس والهند والهضبة الآسيوية العليا، ففى هذه الأقاليم يمكن الرى الصناعى من الاستفادة المباشرة من الخصوبة الطبيعية للأرض، ففى تلك المناطق توجد فى الأغلب أنهر كبيرة ذات فيضانات منتظمة أو شبه منتظمه (مثل اليانج تسى فى الصين) والجانج فى الهند أو دجلة فى العراق، والنيل فى مصر، وبفضلها تخصب الأرض،

ويستطيع الانسان أن يجمع منها محصولا وفيرا بوسائل بدائية، وخاصة المجهود العضلى المباشر تقريبا ويترتب على وفرة المحصول أن جزء منه فقط هو الذى يمثل الحد الأدنى الضرورى لتغذية الفلاحين، ويمكن أن يتكون بالباقى فائض تستولى عليه الطبقة المستغلة، أى الطبقة المكونة من غير المنتجين[٢]. ولذلك يظهر هنا الانقسام الطبقى فى مرحلة مبكرة للتطور الاجتماعى، أى فى ظل مشاعية الأرض. وهكذا يجتمع فى النمط الأسيوى أمران معا: جهاز دولة يعبر عن وجود طبقة مستغلة من جهة و"وحدات انتاجية مشتركة" فلاحية تعكس المستوى المنخفض للقوى الانتاجية من جهة أخرى، وهو نمط أصيل لأنه متقدم ومتخلف - بالمفهوم الماركسى - فى آن واحد: فالقرى تنتفع بالأرض بصورة مشتركة مما يضع هذا النمط فى نهاية المرحلة الخاصة بالمجتمع اللاطبقى، وتوجد أقلية تمارس سلطة الدولة المركزية وتظهر كهيئة مشتركة عليا، مما يضع هذا النمط فى المرحلة الخاصة بالمجتمع الطبقى[٣].

ولقد شهدت الستينات مناقشات واسعة حول (أسلوب الانتاج الآسيوى) وبصفة خاصة بعد نشر مؤلف (فيتفوجل K.Wittfogel (الاستبداد الشرقى) Oriental Despotism سنة ١٩٦٢ حيث تحدث فيه عن المجتمع الهيدروليكى الذى يتسم عنده بالخصائص التالية[٤]:

١- يعتمد تكوين المجتمع الهيدروليكى بوضوح على وجود اقتصاد هيدروليكى صرف كشرط ضرورى.
٢- يتحدد استمرار المجتمع الهيدروليكى بواسطة مجموعة من العوامل قد تكون أهمية المشروع الهيدروليكى من بينها أهمية محدودة، فيما عدا الأزمات المترتبة على تأثير قوى خارجية قوية غير هيدروليكية.

٣- فى منطقة هيدروليكية معينة، قد تخدم مشروعات المياه التأمينية والانتاجية الضخمة التى تسيطر عليها الحكومة جزءا فقط من الأرض الواقعة تحت السيطرة السياسية.
٤- يسجل تاريخ المجتمع الهيدروليكى، تمردات عديدة، وثورات فى القصور، لكن لم تنجح.
٥- ان حضارة هيدروليكية سواء فى العالم القديم أو العالم الحديث لم تتطور إلى مجتمع صناعى، كما حدث فى ظل الظروف غير الهيدروليكية فى المجتمعات الغربية فيما بعد العصور الوسطى.

أما القرية فى المجتمع الهيدروليكى، على نحو ما يقول (فيتفوجل) فإنها تخضع لرئيس إما معين من قبل الحكومة، أو منتخب من القرويين، وعادة ما كان التعيين أكثر شيوعا فى الجماعات الريفية المنظمة فى الحضارات الهيدروليكية، بينما كان الاختيار الحر معروفا فقط فى عدد محدود من هذه الحضارات[٥].

لقد كان هذا الرئيس المعين مسئولا عن الالتزامات التى على الفلاحين أن يؤدوها نحو الحكومة مما جعله يعتمد على الدولة فى وضعه هذا، وفى الوقت الذى كانت الأرض مملوكة للجماعة الريفية والتى كانت الضرائب تدفع فيه بشكل جماعى، كان رئيس القرية يتمتع بسلطة ذات وزن، وكان يمكن أن يتحول إلى (مستبد محلى) بمعاونة مجموع من الخفراء أو رجال الشرطة.

فإذا ما وجهنا وجهنا شطر مصر فى فجر تاريخها فسوف نجد الحقائق التالية:
أول هذه الحقائق[٦] أن الزراعة فى مصر منذ أقدم العصور، لم تكن لتستطيع أن تتقدم وتتطور إلا من خلال أشكال استغلال جماعية أهمها الرى وتقسيم الحياض والمحاصيل. لقد خلق النيل المجتمع الزراعى

الفيضى، وهو يختلف اختلافا جذريا عن مجتمع زراعى يعتمد على المطر، أو على أنهار صغيرة متفرقة، فالماء لا ينزل من السماء بدون رابط أو جهد بشرى ولا يتفجر عيونا فى الأرض يمكن لفرد أو لبعض أفراد أن يقوموا به، بل يجرى نهر كبير لا يملكه أحد ولا يقدر عليه فرد أو مجموعة ... نيل واحد ممتد يجرى فى أرض مصر من الجنوب إلى الشمال ويحتاج إلى كثير من الروابط والجهود التى لا يمكن إلا أن تكون جهودا جماعية، وذلك لمواجهة فيضاناته المدمرة أحيانا أو تحاريقه (انخفاض مياهه) أحيانا أخرى، وقبل كل هذا ومعه، توزيع مياهه ومد الكثير والكثير من الشرايين والأوردة والشعيرات المتمثلة فى الترع والقنوات والمصارف لاخصاب الأرض واستنبات الزرع[٧].

ويعمق من دور النيل والجهد والعمل الجماعى الذى فرض على سكان مصر تلك الصحراء الواسعة والممتدة على الجانبين تقترب من ضفتيه أو تبتعد بقدر ما تستطيع الجهود البشرية أن تمد من مياهه لتثبت الخضرة والزرع وتمثل فى نفس الوقت بالنسبة للسكان شكلا من أشكال الحواجز الطبيعية التى تصد أو تقتل أى رغبة لديهم فى الانتقال إلى مكان آخر وتجبرهم على التكاثر والتكاثف حول شواطئ النيل وفروعه ومشتقاته الصناعية وتنمى لديهم فى نفس الوقت حاسة التضامن والتعاون.

ثانى هذه الحقائق، أن النيل والصحراء باعتبارهما البعد الطبيعى والجغرافى قد ساعدا على خلق بعد سياسى يعتبر هو الآخر أحد المقومات التاريخية للمجتمع المصرى وللقرية المصرية وهو وجود وهيمنة السلطة المركزية، فالعمل المضنى لخزن مياه النيل وتنظيم الرى نوبة بعد نوبة، والحشد المستمر للجهود أزاء خطر عدوان الصحراء على الوادى الأخضر جعل العمل المصرى، أكثر من العمل

فى أى جماعة أخرى - عملا اجتماعيا واتحاد الجماعة المصرية فى النشاط الانتاجى قد ربط الجماعة كلها وبرزت الحاجة الشديدة إلى أمرين: إلى التعاون بين المصريين، وإلى تدخل سلطة مركزية(٨).

ولقد تنبه مفكرنا العبقرى رفاعة الطهطاوى إلى هذه الحقائق فى وقت مبكر، إذ كتب يقول: "ومن المعلوم أن مصلحة الرى، التى هى عبارة عن عمل الترع والجسور والقناطر من أهم مصالح الحكومة (أى من أهم وظائفها)، لأن هذه المصلحة النيلية لها مدخل عظيم فى غنى عن الأهالى وسعادتهم، كما أن لها تأثيرا عظيما فى تكثير ايراد المملكة المصرية، لأن النيل هو رأس مال البلاد والأقاليم"(٩).

ثم يشير إلى أهمية (إدارة النيل) فيقول: "فإذا كان النيل فى يد مدير نشط، أحسن التصرف فيه، فإنه يربح ربحا عظيما، بخلاف ما إذا كان فى يد إنسان مهمل أو جبان أو فاتر الهمة أو جاهل لا يدرك العواقب، فإنه يخلفه بسوء تصرفه، فيكسر ماله الذى هو النيل، وتذوق مصر عذاب القحط الوبيل إلا أنها بدون الرى ليست إلا بلاقع فمعماريتها (تنميتها) بقدر حسن التصرف فى مياهها النيلية".

ثم يصل الطهطاوى إلى الفكرة المحورية ألا وهى "التنظيم" ومسئوليته، فيشير إلى أن هذه المهمة "ومثل هذا لا يكون من وظيفة الآحاد و(الأفراد) ولا محض وظيفة القرى والبنادر والبلاد، سواء كان بالاجتماع أو الانفراد، بل هذه وظيفة القوة الحاكمة العمومية، التى هى من المولى تبارك وتعالى كالوصى على مصر وعلى جميع الرعية، فنفوذ الحكومة هو الذى يتعهد اصلاح هذه الدرة اليتيمة، وليس فى ممالك الدنيا مملكة لصاحبها النفوذ الحقيقى على الزراعة والفلاحة، إلا صاحب مصر، فإنه لا يجد فى اهمالها فلاحة، وبقدر نفوذه على ادارة

الزراعة يكون له النفوذ على الأهالى، وأما غير مصر من البلاد التى ريها بالمطر، فليس للحكومة عليها ولا على قلوب أهلها كبير تسلط"[10].

عند هذا الحد من التسلسل الأيكولوجى، نصل منطقيا إلى انتهاء محدد عن أخص خصائص المجتمع النهرى الفيضى، به يختلف عن مجتمع الزراعة المطرية بدرجة أو بأخرى، ولاختلافه هذا جانبان أحدهما يتعلق بالحكومة والآخر بالمجتمع. فأما عن الحكومة، فهى مركزية بالضرورة، ولها قوة أكبر بدرجة محسوسة، ولكنها معقولة، مما يتاح أصلا لنظيرتها فى الزراعة المطرية، فيقول (جان برون) إن سلطة الحكومة فى البلاد الجافة مثل مصر تصبح أكثر أوتوقراطية، وفى أوقات الأزمات خاصة يختار مجتمع الرى من بنيه ديكتاتوريا يتمتع بسلطات الحاكم المطلق، وبالمثل يقرر (أدولف إرمان) عن مصر أن "منطق الحقائق الصارم يعلمنا أن الحكومة الأوتوقراطية ضرورية دائما من أجل ضبط وتنظيم الرى"[11].

أو كما يقول جوردون تشايلد باستفاضة أن "ظروف الحياة فى وادى نهر أو واحة أخرى تضع فى أيدى المجتمع قوة غير عادية لإكراه أفراده، إذ يستطيع المجتمع أن يحرم الناشز الوصول إلى الماء وأن يغلق القنوات التى تروى حقوله. أن المطر يتساقط على الخير والشرير على حد سواء، ولكن مياه الرى تصل إلى الحقول بقنوات بناها المجتمع، وما قدم المجتمع، يستطيع المجتمع أيضا أن يسحب من الشرير ويقصره على الخير وحده، وهكذا فإن التضامن الاجتماعى الذى يحتاجه أصحاب الرى يمكن أن يفرض فرضا بحكم صحيح الظروف التى تستدعيه، ولا يستطيع الشباب أن يفلت من كبح الكبار عن طريق تأسيس قرى جديدة حيث أن كل ما وراء الواحة صحراء بلا ماء. من هنا فحين يأتى دور التعبير عن الإرادة الجماعية من خلال

ملك، فإنه لا يتقلد مجرد سلطة أدبية، ولكن قوة القهر كذلك، أنه يستطيع أن يوقع العقوبات ضد من لا يطيع".

هذا عن الحكومة، أما عن المجتمع، فهو أساسا مجتمع تعاونى منظم لا يعرف من الفردية صورتها الضارية أو الدموية المتوحشة، ويدرك قيمة وحتمية العمل الجماعى المنسق، وأن مصلحته ووجوده رهن بالتضامن والتكافل الاجتماعى. بالنظرة المتفتحة بلا أنانيات محلية أو نعرات ضيقة أو نزعات عدوانية[١٢].

وقبل قيام الدولة كانت الوحدات القبائلية تشكل نوعا من الوحدات الانتاجية المستقلة اما مع اكتمال تكوين الدولة، فالوحدات القروية عبارة عن وحدات ضريبية (تسدد الجزية أو الخراج كوحدة) بالنسبة للدولة، وهى فى نفس الوقت بالتالى وحدات ادارية، ووحدات تشغيل (التعبئة للسخرة ذات الأغراض العامة).

ومن هنا، فعلاقة التبعية المفروضة على الفلاح (ربطه بالأرض، وإجباره على تسليم الفائض عينا وعملا ونقدا) تمر من خلال انتمائه إلى وحدة القرية. والفرد غير حر لأنه مربوط بالوحدة وعضويتها. والأمر واضح عندما تستخرج من كل قرية فرقة للسخرة فى الأعمال العامة (الرى أو الطرق أو بناء الأهرامات والمعابد) على صورة تسخير جماعى، ويكون شيخ القرية مسئولا عن جمع العدد المطلوب من قريته والاشراف عليهم وتنظيم ما يلزم .. الخ أما فى حالة الخراج العينى أو النقدى، فكل مزارع يسلم نصيبه فى الشونة الموجودة بالميدان إلى أن يجمع الاجمالى المحدد فيسلم باسم القرية إلى المستحق المباشر (الجابى الحكومى) أو غير المباشر (المقطع المكلف بذلك من طرف الدولة)، فالتحصيل الضريبى تحصيل جماعى وان كانت عملية

الاستزراع والحصاد قد تمت منفصلة فى كل حيازة على حدة. فوحدة القرية تجعل تبعية الأفراد تبعية مشتركة[١٣].

وفى الوقت نفسه، ليس الفلاحون تابعين لشخص من الأشخاص وليسوا عبيدا خصوصيين لسيد ما، انهم فلاحون أحرار من حيث علاقاتهم بالأفراد فى مختلف مراتب السلم الاجتماعى السياسى، وإن كانوا فى كتلتهم المشتركة - عبيدا عموميين أو عبيدا للدولة كجهاز.

والذى يجبر الفلاحين على أداء الفائض - سواء عملا أو عينا - هو جزئيا قوة القهر الذى تمارسه الدولة حينا، ولكن هذه القوة لا تظهر وتستخدم سافرة إلا بين الحين والآخر. وفى أغلب الوقت، تكون أداة الإجبار هى التقاليد والأعراف المشتركة التى تقيد المنتجين بالأرض، كما تقيدهم وشيخ القرية والكهنة وأجهزة الدولة معا جميعا، فهذا القيد استبدادى فى عيوننا نحن، بنظرتنا العصرية، أما فى ثقافة ذلك النظام، فهو يدرك على أنه أقرب إلى الوصاية الأبوية[١٤].

وهناك فى القمة، جهاز الدولة، وهو الوحدة المشتركة المالكة فى الوقت نفسه، فجهاز الدولة هنا يتلقى الفائض الكلى من القرى ثم يوزع بين أفراده طبقا لتقسيمات تحددها التقاليد وتوازنات القوى المكونة له، فالملك وعشيرته، والكهنة، ورجال الحرب والكتبة .. الخ يتلقون نصيبا من الخراج بسبب انتمائهم للدولة.

بهذا تجمعت كل حقوق الملكية وخيوط القوة وأزمة السلطة فى يد فرعون، بحيث صار الحكم هو الحكم الفردى المطلق فى أعتى صوره، أى الأوتوقراطية، وكانت الأوتوقراطية العارمة هى نظام الفرعونية الطبيعى، والدولة الفرعونية بدورها هى سلطة مركزية ونظام شمولى

يحكم كما يملك ويتحكم كما يحكم. كانت الفرعونية باختصار نظاما ديكتاتوريا مطلقا، وكانت مصر بذلك تقليديا أبعد شئ عن الديمقراطية.

ولعل الحكم الأوتوقراطى المطلق على علاته، قد أدى وظيفة فى البداية والى حين، حيث وضع أسس الحضارة المصرية وأرسى دعائمها، غير أنه لم يلبث أن تعدى نفسه إلى النهر السياسى والاجتماعى حين أصبح موزع الماء هو مالك الماء، والحاجز بين الرقاب هو المتحكم فى الرقاب ومانح الحياة هو مانع الحياة. لقد انبثقت الدولة عن المجتمع، ولكنها وضعت نفسها فوقه، وتحولت والسلطة مفسدة، "أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى؟.." - تحولت من قوة قهر إلى قوة بطش(١٥)

يقول الملك خيتى لابنه مريكارع حوالى ٢٠٠٠ ق.م "إذا وجدت فى المدينة رجلا خطرا يتكلم أكثر من اللازم ومثيرا للاضطراب، فاقض عليه واقتله وامح اسمه وأزل جنسه وذكراه وأنصاره الذين يحبونه، فإن رجلا يتكلم أكثر من اللازم لهو كارثة على المدينة".

لا غرابة أن تلح نصوص الأخلاق فى مصر القديمة إلحاحا شديدا على كلمة (الصمت) بالذات كفضيلة أساسية تتطلبها من الفلاح وغير الفلاح، وهى كلمة يمكن أن نترجمها بالهدوء، والسلبية، السكون، الخضوع، المذلة، الانكسار(١٦). وبنص القرآن "... فرعون إنه طغى"، ويقول تعالى أيضا حاكيا على لسان فرعون "ما أوريكم إلا ما أرى"!!

ونظرا لأن الإنسان المصرى القديم كان يعتقد أن الكون كل لا يتجزأ، فلقد نما لديه الاعتقاد بوجود ارتباط بين حاكمهم وبين القوى الالهية الموجودة فى عالمه وأنه أحق انسان فى المجتمع المصرى القديم يستطيع القيام بدور الوساطة لديها.

وتصعب التفرقة بين الدين المصرى القديم وبين فكرة الإنسان المصرى القديم عن الملك الإله وهو ما عكسته الأساطير. على أن مصر حكمتها الآلهة منذ العصور الموغلة فى القدم حيث لم تكن مصر مجرد نتاج من صنع الانسان فحسب مثل غيرها من التنظيمات السياسية التى تنظم المجتمعات فى البلاد الأخرى، ولكن الآلهة قد خلقتها ومنحتها الحياة عندما خلق العالم لأول مرة وقد استمرت باعتبارها جزءا من نظام عالمى حيث اتخذ شخص فريد فى شخص الملك مسئولية الناس، ونما اعتقاد لدى الجميع بأن الدم الملكى يختلف اختلافا جذريا عن الناس العاديين وأن الحق الملكى فى الحكم قائم على طبيعته الآلهية المميزة عن البشر والتى كانت تنتقل مع الدم الملكى من ملك إلى آخر(١٧).

وكانت الصفة الآلهية للحاكم فى مصر القديمة واضحة فى كافة النصوص. فى الأساطير نجد أن آلهة (تاسوع اون) حكموا الواحد تلو الآخر على الأرض فى مصر القديمة وكانت بعض القوائم الملكية مثل "بردية تورين" تبدأ بهم، وكذلك المؤرخ المصرى القديم (مانيتون) الذى ذكر أنه قد جاء قبل "منــى (مينا)" أسرتان على الأقل حكموا مصر، الأولى من الآلهة والأسرة الثانية أنصاف آلهة، بل أنه يحدد لهم مددا للحكم، وقد ترك أوزير حقه الآلهى فى الحكم لابنه "حو"(١٨).

وعلى سبيل المثال نجد أن فراعنة الأسرة الرابعة كانوا ذوى شخصيات قوية مما ساعد كثيرا فيما حظوا به من مركز ممتاز، حتى كان يدعى كل منهم بلقب "الإله الأعظم". وكان اسمه يعتبر مقدسا لايجوز ابتذاله بذكره، وانما كان يكنى عنه ببعض الألفاظ والعبارات تقديرا له واحتراما، فكان يقال عنه (جلالته) أو (حورس الذى فى القصر) أو (البيت العظيم)، كما كان يتخذ فى كثير من الأحيان لباس الآلهة وشاراتهم. وكانت للملك أعياده التى يحتفل بها احتفالا عظيما،

ومن أهمها عيد التتويج، وكان يؤدى فيه من المراسم والطقوس ما كـان يعتقد أنه يضفى على الملك الألوهيـة والقداسـة. وكـان علـى الملـك أن يعمل على عبادة أسلافه، فيقيم لهم المعابد، ويؤدى لهـم فيهـا الطقـوس، ويحتفل بأعيادهم[١٩]. وكان يعتقد أنه الوسيط بيـن الشـعب والآلهـة، وأن له الأمر فى الدنيا والآخرة على السواء، فكما كان يتولى أمـور الشـعب على الأرض أبان حياته، فسـوف يتولاهـا كذلـك فـى العـالم الآخـر بعـد انتقاله إليه.

وإن وصول الأسرة الخامسة إلى السلطة لخير دليل على أن الأساس الثيوقراطـى هـو الـذى سـاد علـى كـل شـئ سـواه حيث توثقت عــرى الروابط بين الملوك الجدد وطائفة كهنوتية بعينها. ويزخر تاريخ مصـر على مدى القرون التالية بالعديد من الأمثلة لهذه التبعية التى أسهمت فى تدعيـم مركزيـة السـلطة، فتشـكل مجتمـع تمحـور حـول الملـك والعائلـة المالكة فى تسلسل هرمى صارم للمراتب الاجتماعية. وقد انعكست هـذه الصورة فى تنظيم الجبانات التى شيدت حول هرم حاكم البلاد، كمـا أن القوى الاقليمية التى اتسعت دائـرة سـلطتها جيـلا بعـد جيـل إلـى نظـام الاقطاعيـات بازديـاد مـا حصلـت عليـه تدريجيـا مـن امتيـازات متناهيـة دعمت سلطاتها وأفردت لها مكانة بارزة فى التنظيم الهرمى الاجتماعى على المستوى القومى[٢٠].

ونتيجة لهذه السياسة تضخمت الألقاب فى البـلاط الملكـى وأصبحـت غطاء يخفى وظـائف قديمـة تـوارت فـى طـى النسـيان، وإن بقيـت فـى صورة ألقاب شرفية، وانتشرت هذه الطريقة ولاقت ترحيبـا مـع تضخـم اختصاصـات الأجهـزة الإداريـة وأعـداد موظفيهـا. والكتبـة هـم ركـيزة الجهاز الإدارى ونواتـه النشـطة. وقـد تضـاعفت مسـئولياتهم مـع تزايـد الأقسام الإدارية واتسعت قائمة المناصب القياديـة التـى يصعـب معرفـة كنهها الحقيقى[٢١].

وكانت الدوائر الإدارية الأربع تتبع الوزير الذى هو رئيس السلطة التنفيذية إذا جاز القول، وينبغى أن نضيف إلى الدوائر الأربع، الإدارة الإقليمية التى يظل الوزير على اتصال بها خلال رؤساء البعثات. وأولى هذه الدوائر هى (الخزينة) أو كما أطلق عليها (شونة الغلال المزدوجة التى يشرف عليها (رئيس شونة الغلال المزدوجة). وتقع على عائق الخزينة مسئولية إدارة محل الاقتصاد وعلى وجه التحديد تحصيل الضرائب الناتجة أساسا من الدائرة الكبرى الثانية: وهى دائرة الزراعة التى تنقسم بدورها إلى وزارتين، فالوزارة الأولى مهمتها العناية بالقطعان وتربيتها وتسمينها، وعملها موزع أيضا على (بيتين) يشرف على كل منهما وكيل يعاونه عدد من الكتبة. وتشرف الوزارة الثانية على الزراعة فى حد ذاتها، وتشمل (خدمة الحقول) ويرأسها (رئيس الحقول) يعاونه عدد من (كتبة الحقول) وخدمة أرض التوسعات الجديدة على حساب الفيضان. أما الدائرة الثالثة فهى دائرة المحفوظات الملكية التى تضم الصكوك الملكية ومختلف الشهادات المدنية من عقود ووصايا، إلى جانب نصوص المراسيم الملكية التى تكون ذخيرة من القوانين تنهل منها الدائرة الرابعة والأخيرة وهى دائرة العدل التى تسهر على تطبيق (القوانين) وتتناسب أهميتها مع قيمتها الأساسية فى النظام الثيوقراطى كما يشير إليه اللقب الذى يحمله أعضائها فى الأسرة الرابعة[٢٢].

ثانيا: الطبقات والشرائح الاجتماعية

١- الموظفون:

قام النظام الفرعونى على أساس مستوى من القوى الانتاجية أكثر تقدما مما كانت عليه فى ظل المشاعية البدائية للقبائل الجوالة، فقد ظهر فيه تقسيم العمل بين الرعى والزراعة المستقرة. وارتبط هذا التقدم منذ البداية بتنظيم أعلى للموارد المادية والبشرية، أى بتقسيم اجتماعى بين التنفيذ العملى والاشراف على يد الطبقة الحاكمة مما ضمن انتاجية أعلى ووفرة نسبية للمنتجات، فالدولة تنظم الانتاج، وتشرف على المحاصيل، وتدير المخزون الغذائى، وتستخرج المواد الأولية من المحاجر والمناجم، وتشرف على التجارة الخارجية، وتقيم الطرق والقصور والمعابد والعواصم السكنية[٢٣].

وتعتمد الدولة المركزية بالضرورة على جيش من الموظفين تعتبر مهامهم الاقتصادية سبب وجودهم ومحور نشاطهم، فيرقى أونى"- الأسرة الخامسة - إلى رتبة الوزير لأنه قسم أعمال السخرة، وأمر مرتين بقيد جميع الأملاك والموارد التى يملكها الملك فى الوجه القبلى، وتشعبت الأعمال الإدارية المبنية على الكتابة وأذون الصرف ونسخ الخطابات والاشراف على المحفوظات .. الخ.

وكان الموظفون يقومون بمختلف أعمال الدولة، وكانوا فى النصف الأول من الدولة القديمة بصفة خاصة بمثابة عمال الملك يعملون لحسابه الخاص، ويتصرفون فيما يوكل إليهم من أعمال حسب ما تقتضيه إرادته، وتوحى به أوامره. وكانت الوظائف الكبيرة ميسرة لكل موظف متعلم، له من الذكاء والنشاط ما يؤهله لها، وكان الملك يمنح الأبن وظيفة أبيه فى بعض الأحيان مكافأة، له على جليل خدمته ، على أن الأبناء كانوا عادة يبدأون حياتهم فى وظائف أقل درجة بكثير من

وظائف آبائهم، بل كان بعض المنتمين للأسرة المالكة نفسها يبدأ حياته فى وظيفة صغيرة، وبذلك لم يكن من حق الابن أن يرث أباه[٢٤]، فإذا أبدى الموظف كفاية خاصة كان يعهد إليه بالأعمال الهامة، كما كان يكافأ أحيانا بالجوائز القيمة كالحلى،مما كان يشجعه على التفانى فى ثقة واخلاص.

وكان للحكومة ادارات مختلفة تسمى (بيوت الملك)، ولكل إدارة عدد كبير من الكتبة ولم يكن الموظفون يختصون بعمل معين أو أعمال من نوع واحد، بل كان منهم من يجمع بين الوظائف المدنية والحربية والقضائية والدينية. أما اعطياتهم فكانت تدفع لهم عينا من منتجات الأملاك الملكية أو الضرائب، وكان من بين عمال الملك عدد كبير من الخبازين والصناع كصانعى الجعة والنبيذ والنساجين، وكان الملك يعطى ما يصنعونه للأمراء وكبار الموظفين، ولذلك كان هؤلاء يوصفون بأنهم يعيشون من مائدة الملك، على أن ذلك لم يكن يكفى حاجتهم، فكانوا يمنحون الأراضى ومن عليها من الفلاحين. وكان من أعز أمانى كل موظف كبير ومفاخره أن يمنح قبرا بالقرب من القبر الملكى، وأن يعد له تابوت وباب وهمى ومائدة وقربان، يتم صنعها فى المصانع الملكية، وأن يمنح الأرض التى تقوم منتجاتها بتكاليف الطقوس التى تؤدى فى مقبرته.

وفى النصف الثانى من الدولة القديمة بدأ كبار الموظفين يطمعون فى توريث مراكزهم لأبنائهم، وأصبح منصب الوزارة نفسه وراثيا فى بعض الأسر. وقد ازدادت الوظائف زيادة كبيرة، وتبع ذلك ازدياد الألقاب، وبلغ من ولع كبار الموظفين بها أن أصبح لكل عمل صغير يقومون به لقب خاص، بل شاع انتحال بعض الألقاب مما دعا أصحاب الوظائف الحقيقية أن يضيفوا إلى ألقابهم لفظ (حقيقى) ينفون به ما قد يتبادر إلى الأذهان من أنها مجرد ألقاب جوفاء[٢٥].

وقد زاد ثراء كثير من الموظفين وأصبحت لهم الضياع الواسعة، وغدا فى ميسورهم إقامة دور كبيرة لهم يؤثثونها على نفقاتهم الخاصة.

وكان يقوم بالوظائف الدينية موظفون مدنيون بحكم مناصبهم، فمن ذلك قيام القضاة بكهانة (ماعت) إلهة الحق والعدالة، كما أن من الوظائف الدينية ما كان يترتب عليه حمل بعض الألقاب المدنية، فقد كان كهنة الإله (بتاح) يشرفون فى نفس الوقت على الفنانين والصناع. ولم يكن الموظف يقتصر فى بعض الأحيان على القيام بكهانة إله واحد، بل ربما كان كاهنا فى أكثر من معبد، وفى عصر الأسرة الخامسة توافر لكبار الأفراد وكبار المظفين والكهنة بخاصة، نصيب واسع من القيم الاعتبارية والامكانيات المادية، وأن أسباب التقارب بينهم وبين ملوكهم ازدادت شيئا فشيئا، دون أن يؤثر هذا التقارب فى هيبة الملوك تأثيرا ذا بال، ودون أن يؤثر فى ولاء كبار الموظفين والكهان لهؤلاء الملوك تأثيرا ذا بال. وازدادت سياسة التقارب هذه بين الفريقين فى عصر الأسرة السادسة، فتكرر سماح بعض ملوكها بتزويج بناتهم من صفوة موظفى دولتهم (مثل: كايجمنى ومرروكا) وكان الأخير زوج ابنة الفرعون تتى. بل وتزوج أحد هؤلاء الملوك من ابنتى أحد كبار ولاة الصعيد، وتوسعوا فى تربية أبناء كبار موظفيهم فى قصورهم(٢٦).

وتضخمت مكانة كبار الموظفين فى هذا العصر خلال توليهم منصب الوزارة، ومناصب حكام الأقاليم الكبيرة، ومنصب والى الصعيد، فضلا عن مناصب أخرى كثيرة كانت تندرج تحت اختصاصات هذه المناصب الثلاثة، ويحتفظون بالإشراف الأعلى عليها. وظهر أكثر التطور حينذاك فى سلطات حكام الأقاليم الذين اختلف نفوذهم تبعا لشخصياتهم وشخصيات الملوك الذين عملوا فى عهودهم أو عملوا فى خدمتهم وتبعا كذلك لمدى أهمية أقاليمهم، فدأب أغلبهم

على أن يـردوا وجـوه نشـاطهم فـى أقـاليمهم إلـى أمـر الملـك وتوجيهـه وفضله، بينما امتاز منهم عدد قليل آخر حرص أفراده على أن يسـجلوا أخبـار مجهوداتهـم الشـخصية ومـآثرهم الفرديـة فـى نقـوش مقـابرهم فشرحوا كيف عملوا على تعمير أقاليمهم ووطـدوا الأمـن فيهـا، وكيـف ساروا بالعدل بين أهلها وأسعدوهم، وان لـم يـأبوا فـى الوقـت نفسـه أن يوفوا التقاليد الشكلية حقها، فسجلوا إلى جانب مـآثرهم الخاصـة صـورا مـن طـاعتهم للملـك المعـاصر لهـم، وحرصـهـم علـى التقـرب منـه وارضائه[٢٧].

وكان الموظفون الذين ينتخبون من بين المتعلمين يعينـون بمرسـوم. وكان الواحد منهم يبتدئ بوظيفـة كـاتب، ثـم يتقلـب فـى عـدة وظـائف إدارية حددها القانون، ثم بعد ذلك يعين الواحد منهم بمرسوم آخر ليقـوم بعمل إدارى هام يرمز له بحمل العصا، ويطلق عليه (نائب الملك) أولا فى القرية، ثم فى المدينـة، وقـد كـان الموظـف الـذى يتقلـب فـى هـاتين المرحلتين الإدارية والتنفيذية له الحق فيما بعد أن يشغل أعظم منـاصب الحكومة، فيكون إما حاكما لمنطقة أو مديـرا لإحـدى مصـالح الحكومـة الرئيسية أو أمينا للملك[٢٨].

والواقع أن كثرة الألقاب التى كان يحملها الموظف الواحد قد أخـذت تزداد تدريجيا حتى أننا أصبحنا، لعدم وجود تفسير لكـل فـى حيرة فـى ترتيبها حسب أهميتهـا وتقسيمها حسـب نوعهـا إذ نجـد أحيانـا الموظـف الواحد يحمل معظم ألقاب الدولة الضخمة، وقد كان عـدد ألقـاب الواحـد منهم يصل إلى أكثر من أربعين. ولكن رغم ذلـك يمكننـا أن نقسـم هـذه الألقاب إلى مجاميع منفصلة أهمها ما يأتى[٢٩]:

أولا: ألقاب الشرف، وهى ألقاب حقيقية بطـل اسـتعمالها فيمـا بعـد، مـن ذلك نرى إقامة شعائر الملك الدينية قد جعلت بيـن الملـك وكهنتـه

علاقة وطيدة مما جعل لهم مقاما عاليا. وكذلك نشاهد أن أهم الشخصيات المكلفة بإقامة هذه الشعائر قد أغدق عليهم الملك أعظم الألقاب الفخرية فى الدولة، فكان يطلق مثلا لقب: رئيس المرتلين، والكاتب الألهى، ورئيس كل الوظائف، على أولاد الملوك.

ثانيا: ألقاب خاصة بالملك وقصره، ومن أهمها: مدير القصر، وحارس التاج، وحاكم القصر، ومدير مالية القصر، وكان للملك حامل نعل، ومرجل شعر، وطبيب خاص وغسّال ومنظف أظافر[٣٠].. الخ.

ثالثا: ألقاب كهنوتية، كان القصر الملكى، والهرم ومعبد الشمس هى الأماكن الرئيسية المقدسة التى كانت تقام فيها الشعائر الدينية بكل عظمة وفخامة. وكان من الضرورى لإقامة هذه الشعائر وجود خدم كثير، وعلى رأس هؤلاء كان يشرف عدد من أعظم كبار رجال الدولة.

وفى عهد الدولة القديمة كانت علاقة الملك بموظفيه فى بادئ الأمر علاقة فرد يؤدى واجبه وفى مقابل ذلك كان الموظف يأخذ ما يقتات به ويحفظ كيان حياته. أما الموظفون أصحاب الكفايات فكانوا يوضعون فى مناصب تليق بهم حسب أهمية كل منهم. وكان ذلك كل مكافأتهم. ولكن بعد زمن قليل أخذت محبة الملك لهم وعطفه عليهم يظهران بمظاهر أخرى، وبخاصة فى منحهم مكافآت جنائزية، وذلك أن المصرى لما كان يعتقد أن الحياة فى الآخرة مثل الحياة الدنيا مع الفارق فى كون الثانية أبدية، فإنه كان فى كل الأزمنة يرغب فى أن يكون له قبر عظيم جميل مجهز بكل الأثاث المأتمى، وكان الفرعون

فى مثل هذه الأحوال يعطف على كبار موظفيه فيمنح الفرد منهم تابوتا أو لوحة أو مائدة قربان، وغير ذلك من خدمات تتصل بهذا الشأن[٣١].

وقد كان الملك كذلك فى هذه الناحية يعطى موظفيه المقربين أراضى كان القصد منها أن توقف للأغراض السابقة، وهذه المنح من الأرض كانت أحيانا عظيمة.

ونجد من أقدم العصور فجوة عميقة تفصل المصرى المثقف المتعلم تعليما راقيا عن عامة القوم. وقد وجد ذلك عندما اخترع المصريون الكتابة لأن الفرد الذى كان يظهر براعة فيها، كان يحوز نصب السبق على اخوانه مهما كان مركزه فى الظاهر حقيرا فإن الحاكم نفسه لم تكن له أهمية وقتئذ بدون مساعدة كتّابه، ولذلك كان لكبار الموظفين فى الدولة القديمة سبب قوى فى حبهم لتمثيل أنفسهم فى هيئة الكتاب، فقد كانت الكتابة هى المهنة التى وصلوا بها إلى مراكزهم وقوتهم. وكانت الطريق مفتوحة إلى كل وظيفة للشخص الذى تعلم الكتابة وعرف كيف يعبر عما فى ضميره، بألفاظ مختارة مهذبة[٣٢].

وعلى ذلك فشا بين الكتّاب نوع من الغطرسة والكبرياء والاعتزاز بطائفتهم ويظهر هذا واضحا جدا فى الأدب القديم الذى كونوه، ويجب أن توسم هذه الطائفة بالاحترام لأنها وضعت مثلا أعلى للموظف العظيم، فكان واجب الموظف أن يكون محايدا وأن يكون الشخص الذى يحول دون عبث القوى بالضعيف، والحاذق الذى يعرف كيف يجد سبيلا حتى بين أعقد المصاعب، والفرد المتواضع الذى لا يقذف بنفسه قط إلى الأمام، ومع ذلك فإن آراءه يؤخذ بها فى مجلس الشورى. وكل كتابة أو قول له يجب أن يميز عن العامة. بهذا الروح كان الكتاب يعملون جيلا بعد جيل كما نشئوا الشباب من أبناء طائفتهم على هذه المبادئ منها. وفى عهد الدولة الحديثة بقى الميل إلى البيروقراطية

ومدارسها كما كان من قبل، وعلى الرغم من كل الخلافات الظاهرة، فإن رسائل المعلمين لم تعظ بشئ غير ما وعظت به كتب الحكمة القديمة. وليس هناك فرق إلا أن تعاليمهم كانت مستورة تحت ثوب أكثر حذقا وان ما تنطوى عليه مراميهم من الكبرياء كان أكثر تجسما فى هذه الكتابات منه فى أى وقت آخر.

وفى شكاوى الفلاح الفصيح صورة رائعة للموظف المتعسف بغير حق أو ما يجب أن يكون عليه الموظف المستقيم العادل. وهكذا صور لنا مدير مكتب من عصر (سنوسرت الأول) حياته المثالية التى كان يسير على نهجها فى معاملته للناس، مما يدل على بعث جديد فى الأخلاق يتجه نحو العدالة الانسانية، فاستمع لما يقول[٣٣]:

"لقد كنت إنسانا يلزم الصمت أمام المتهور، صبورا فى حضرة الجاهل، مبتعدا عن الثائر، وكنت حليما خلوا من الاندفاع، وعالما من قبل بمعنى ما يصدر عنى وما استوعبه، وكنت إنسانا يتكلم عن الأحمق، عالما بالمآزق التى يخرج منها الإنسان إلى الفلاح، وكنت عطوفا عندما كنت أسمع اسمى بالنسبة لمن كان يفضى إلىَ بما يكنه صدره، وكنت سيدا يرنوا بعطف، ويسكّن دمعة الباكى بكلمات طيبة. وكنت إنسانا مصادقا مع رعاياه، واضعا مصالح الناس على قدم المساواة، وكنت إنسانا يعتمد عليه فى بيت سيده، وكنت أعرف كيف أديره كما يجب أن يكون، وكنت مسالما سخيا، وكنت رب الطعام (سخيا) بعيدا عن الشح، صديق المعوز، رحيما بالفقراء، وكنت امرؤا يأوى المسكين الجائع ، كريما مع الفقراء، وكنت مثقفا لمن لا علم له، ومعلما لأى إنسان ما يفيده، وكنت مخلصا لبيت الملك، عالما بكل ما يجرى فى كل مصلحة، وكنت مستمعا عندما يكون ما أستمع إليه هو الصدق، وكنت بخاصة إذ ذاك أزنه فى صدرى، وكنت وديعا مع بيت سيدى، وإنسانا يذكره الناس بنجاحه العظيم، وكنت طيبا فى قاعة

الحكم، متواضعا بعيدا عن الكبرياء، وكنت حليما بعيدا عن الاندفاع وكنت امرؤا لا يستولى عليه أى إنسان بكلمة، مستقيما كالميزان، عادلا يعتمد عليه مثل الإله (تحوت)، وكنت مستقيما من أصل يوثق به، يخدم بصدق من يطلب إليه خدمته، وكنت فردا يعلم ما يعرف، ويستشيره الناس فيما يحبون أن يستشيروه فيه، ولذلك كان لا يستشار غيره، وكنت امرؤا يتكلم فى قاعة العدل بفم يصبح غير هياب"

٢- الكهنة:

إن كلمة كهنة .. فى مصر الفرعونية لا تنطبق تماما على نفس المفهوم الاجتماعى السائد فى مجتمعاتنا الحديثة فقد كانت أوجه الأنشطة الكهنوتية حينذاك تنقسم أساسا إلى نمطين وفقا للمستفيدين منها[٣٤]:

أولا: لصالح الفرعون فى اطار المفاهيم العتيقة، فكانت أوجه العناية الخاصة بجسد الفرعون بداية من الخدمة بتغذيته واغتساله حتى العناية بشعره وذقنه المستعارين، وكانت تعد وظائف كهنوتية، قبل أن تصبح فيما بعد بمثابة أعمال شرفية ينعم بها الملك على المحيطين به أو على أصفيائه، خلاف ذلك كان العديد من الوظائف الكهنوتية لا يرتبط بالطقوس الجنائزية الخاصة بالفرعون فحسب بل بالمؤسسات التى تحمل اسمه.

ثانيا: أنشطة لصالح الأفراد، فلكى يضمن المصرى القديم فرصته فى أن يبعث فى العالم الآخر، كان على المتوفى أن يكون هدفا لطقوس دائمة (ترديد التعاويذ، والأدعية والتطهير، وتقديم القرابين)، وكان المصريون يبرمون أثناء حياتهم عقودا مع الكهنة لكى يقوموا بإقامة شعائر وطقوس دائمة لهم بعد مماتهم.

ولم تكن الأنماط الكهنوتية مطلقة بالمرة، فهى تتضمن، بالاضافة إلى ما سبق نفس الأسس الجوهرية، مع مقابل أشد يكون عادة على هيئة جزء من القرابين التى يتم تقديمها، وأيضا عقارات وأرباح تخضع لقانون خاص بهم. ويعد ذلك نقطة أساسية فى تاريخ مصر الفرعونية، فقد كانت الخدمة الكهنوتية تشمل فى آن واحد القيام بالخدمة المقدسة والحصول على المزايا التى تمثل المقابل لتلك الخدمة. وغالبا ما كان الكاهن يحصل على مزايا أكثر مما يبذله من جهود، وكون الكهنة اذن طبقة من أصحاب الامتيازات المادية العديدة خاصة إذا أضفنا إلى ما سبق من مزايا، ووفقا للأحوال السياسية، إمكانية الاشراف على أملاك المعبد، وبالتالى الحصول من وراء ذلك على بعض المنافع[٣٥].

ولما كان من عادة المعبد أنه كثيرا ما يستضيف عددا من الآلهة، لذلك لم يكن رجال الدين ملزمين بأن يكرسوا حياتهم كلها لخدمة معبود واحد، فسيتى Setoui كبير كهنة ست، كان فى نفس الوقت مسئولا عن أعباء بابندد Banbeded، ومكلفا بالقيام بشعائر المعبودة واجيت Oudjit التى تحاكم الأرضين، ونبونف Nebounef الذى عينه رمسيس الثانى كبيرا لكهنة آمون لم يكن منتسبا مطلقا لكهنة هذا الإله، بل كان كبير كهنة عنحور فى تجينى Tjiny ...[٣٦].

وكان عدد كبير من النساء يشتركن فى المراسيم الدينية، وكان لكل معبد فريق من المغنيات كان عليهم أن ينشدن ويغنين ويحركن الصلاصل أو الصاجات أثناء إقامة الشعائر الدينية.

ولم يقم هؤلاء النسوة فى المعبد، بل كن يقمن مع أسرهن، إذ لا تتطلب خدمتهن غير حضورهن بضع ساعات فى بعض الأيام. يقابل ذلك أن النسوة اللواتى يكون هيئة الخنريت Khenerit كان ينبغى لهن الاقامة فى المعبد لأن كلمة خنر Khener تدل على السجن أو على

الأماكن المغلقة تماما داخل المعبد أو القصر، وكان يطلق على رئيستهم أسماء الزوجة المقدسة للمعبود، اليد المقدسة أو الساجدة المقدسة[٣٧].

وقد أصبحت إقامة شعائر الفرعون فى الأسرة الخامسة أهم الشعائر، ولم تكن يحتفل بها فقط فى الهياكل الملكية، بل فى كل معابد آلهة البلاد حيث كانت تقام فيها مذابح وموائد قربانا للإله رع والإله حتحور والملك، يشيدها ملوك الأسرة الخامسة.

وفى عهد الأسرة الرابعة نلاحظ أن لقب رئيس كهنة نخب ورئيس المرتلين، لا يلقب بها إلا أولاد الملك، أما فى الأسرة الخامسة، فلم نجدها[٣٨].

وفى عهد هذه الأسرة ظهر بجانب الكهنة المرتلين (خرحب) طائفة أخرى من الكهنة تسمى "حنك نيسوت" وهم الذين كانوا يقومون بالقربان للملك وليس بينهم من أولاد الملك من يحمل هذا اللقب، ولابد أنهم كانوا أقل من المرتلين[٣٩].

وكان من البديهى أن تراعى الدقة فى الاحتفالات والأعياد التى كانت تقام للآلهة، كما كانت تراعى في الاحتفالات الفرعونية، إذ هناك أمور كثيرة تشمئز منها الآلهة وبخاصة أكل لحم بعض الحيوانات، وكذلك كان لزاما على المتعبد أن يكون طاهرا عندما يقترب من الإله، ولذلك كان من الواجب عليه أن يكون بعيدا عن كل ما هو نجس وبخاصة ملامسة النساء وغشيانهن قبل دخول بيت الإله وأن يكون قد ختن. على أن كل ما يتطلبه الإله يفهمه الرجل الذى يعرف اقامة الشعائر والطقوس بالاشارات التى يوصى بها إلهه، ومعرفة هذه الطقوس التى كانت تزداد كل يوم على مر الزمان، يحفظها خدام الإله (الكهنة) عن ظهر قلب[٤٠].

وبجانب هؤلاء الكهنة ومساعديهم كانت توجد طائفة أخرى عظيمة من (المطهرين) فى معزل عن عامة الشعب، وأفراد هذه الطائفة كانوا ينادون بهذا الاسم نسبة إلى التطهير بالماء الذى كان يصب عليهم كما يدل على ذلك تصوير اسمهم باللغة المصرية.

وتنقسم هذه الطائفة أربع فرق، كل فرقة تقوم بخدمة الإله بالتناوب طوال أشهر العام، فكانوا بذلك يشاركون الكهنة فى أعمالهم كما كانوا يشاطرونهم داخل المعبد وخيراته التى توقف عليه. وقد كان هذا النظام قائما منذ الدولة القديمة، ومن المحتمل، بل ومن المرجح أنه يرجع إلى عصور أقدم من ذلك، ولا يبعد أنه كان فى الأصل لكل فرد من سكان المقاطعة الحق فى التقرب من الإله، وأن يكون له نصيب من القربان الذى يقرب له، وكذلك من الممتلكات الأخرى الخاصة بالإله، ولكن على مر الأيام أصبح هذا الحق وقفا على سكان المكان الذى يقطن فيه الإله، ثم تدرج الأمر بعد ذلك فأصبحت هذه الحقوق وقفا على طائفة مميزة، ومن ثم أصبح وراثيا فيها، وبذلك أصبح من واجب عامة الشعب الذين يريدون أن يترقبوا من إلههم أن يلجأوا إلى طائفة الكهنة ليصلوا إلى ربهم فى بيته المقدس(٤١).

وكان الحكام الذين لا يجدون من ورائهم القوة الكافية لتولى العرش أو الأحقية الشرعية التى تؤهلهم للحكم يلجأون إلى البعد الدينى ليجدوا فيه سندا وملاذا، وقد حدث هذا مرارا فى تاريخ مصر الفرعونية، حيث كان الحاكم يرفع نسبه للإله مباشرة حتى يعوض ضعف مركزه وعدم نقاء دمه. وهذا الاتجاه إلى الدين واستخدامه وسيلة من وسائل اقناع الشعب بقبول حكم شخص معين، كان لابد أن تعقبه نتيجة حتمية، وهى مكافأة كهنة الإله الذين هيأوا القصص الدينية المدعمة، وتكفلوا بنقشها على جدران المعابد ليراها الناس ويؤمنوا بحق الملك فى الحكم(٤٢).

على أن قوة الكهنة أو تأثيرهم فى الحكم كان يتفاوت من وقت لآخر تبعا لمكانة الملك ووزرائه، وقد وصلوا إلى ذروة القوة عندما نجحوا فى القضاء على دعوة التوحيد التى نادى بها اخناتون،وإرجاع عبادة الإله آمون إلها أعظم للدولة، ثم استمر نفوذهم يتزايد حتى استطاعوا أن يصلوا للعرش فى عهد الأسرة الحادية والعشرين والتى بدأت بتولى الملك (حريحور) كبير كهنة آمون، وتزايد نفوذ الكهنة كما تدل على ذلك بردية (هاريس الكبرى) التى تذكر هبات رمسيس الثالث للمعابد مما يجعلنا نقدر أملاكها بحوالى سبع الأراضى المنزرعة، فضلا عن ١٠٧آلاف من العبيد ونصف مليون رأس من الماشية و٨٨ سفينة كبيرة، وكذلك ١٦٩ مدينة فى مصر وسوريا وكوش. وكان لهذه الأملاك بطبيعة الحال جيش حافل من الموظفين والعمال والكهنة الذين كونو دولة داخل الدولة[٤٣].

ويجب القول أنه خلال فترة طويلة من تاريخ مصر الفرعونية، كان تقلد الوظائف الكهنوتية يتطلب شروطا صعبة: أهمها بدون شك إتقان الكتابة وطهارة طقسية عند ممارسة الشعائر (كأن يكون حليق الرأس، وارتداءملابس من الكتان، والامتناع عن أكل الأسماك)، ولكن لم يكن هناك – بأى شكل من الأشكال – أى فعل معنوى أو ارتباط روحى، لذلك يلاحظ غالبا، حتى فترة حكم الدولة الحديثة، أنه فى نطاق بعض الأسر، وبالنسبة لشخص بعينه، الجمع بين الوظائف الكهنوتية والوظائف العسكرية والإدارية، فكانت هذه الوظائف الكهنوتية تباع وتشترى كلية أو جزئيا، ويتم الحصول عليها عن طريق الترشيح، أو الوراثة، أو الاختيار الاسمى من طرف الفرعون نفسه، الذى كان يتمتع بحق الرقابة على حركة تنقلاتهم مستغلا هذا الحق إلى أقصى ما يمكن بخصوص كبار الكهنة. ومع ذلك، فإن روح التشيع للطبقات الذى كان يظهر من وقت لآخر، استطاعت أن تفرض نفسها فى النهاية خلال العصر المتأخر، وعندئذ أصبحت الوراثة شرطا من شروط ارتقاء

الوظيفة الكهنوتية، فكانت عبارات الابتهـال للحصـول علـى نعـم الآلهـة تتضمن ما يبين أنهم أبناء كهنة[٤٤].

والتلاميذ الذين كانوا يعدون أنفسهم ليصبحوا ا من رجال الدين كانوا يتعلمون كأندادهم قواعد اللغـة والكتابـة، ولكـن كـان عليهـم أن يدرسـوا أشياء أخرى كثيرة، كان ينبغى لهم أن يعرفوا صور المعبودات وألقابهم وصفاتهم ومزاياهم وقصصهم وأن يلموا بكل ما يختص بالشعائر الدينية والعقائد، ولم يكن هذا بالأمر الهين. وكان عليهم أن يؤدوا امتحانات فى نهاية الدراسة، ومن كان منهم جديرا بالاندماج فى هذه الهيئة كان يخلع ملابسه ويستحم ويحلق له ويطيبونـه بـالعطور، ثـم يرتـدى زى رجـال الدين كاملا قبل أن يسمح له بدخول أفق السماء. ورغم سيطرة الخـوف على قلبه بفكرة القدرة الإلهية، فإنه كان يستطيع فـى النهايـة أن يقـترب من المعبود فى قدس أقداسه[٤٥].

٣- العسكر:

لقد وهب الله أرض مصر حدودا طبيعية جعلتها فى الأزمان الغـابرة منعزلة عن العالم الذى يحيط بها مما جعـل إغـارة جيرانهـا عليهـا مـن أشق الأمور وأصعبها، فقد كانت صحراء لوبيا سدا منيعا لكل غارة من جهة الحدود الغربية، على حين أن سواحلها الشـمالية لـم تعرضهـا لأى خطر، إذ فى ذلك العهد مـن تاريخهـا لـم يكـن لهـا أعـداء لهـم أسـاطيل تمخر عباب البحر يخشى من غارتها، أما الأقـوام الذيـن يقطنـون وراء حدودها الشرقية والجنوبية، فإنهم كـانوا أقـل منهـا ثقافـة ومدنيـة، فكـان خطرهم على تهديد سلامتها شيئا لا يحسب له حساب[٤٦].

وكانت حروب مصر فى عهد الدولة القديمة ضد اللوبيين فى الشمال الغربى من حدودهـا، والنوبييـن فـى الجنـوب وبـدو سـناء فـى الشـرق، تختلف اختلافا بينا عن حروب الشعوب المجاورة لها كأمم غرب آسـيا،

إذ كانت الأخيرة تشن الغارات للحصول على القوت أو لاستغلال الأراضى. أما حروب الفراعنة فكانت فى هذه الفترة لصد غارات القبائل المجاورة وتأديبهم، أو للحصول على غنائم. ولا شك فى أن مصر كانت القاهرة المنتصرة فى هذه الحروب، بسبب تقدمها فى الحضارة، وما لديها من الأسلحة وحسن نظام فنونها الحربية. وكان يفوق مصر -رغم تنظيم جيوشها وما لديها من عدد القتال- شعوب غرب آسيا، وقد بقيت تمتاز عنها فى هذه الناحية، حتى بداية الدولة الحديثة(٤٧).

وقد كانت الخدمة العسكرية فى عهد الدولة القديمة خدمة إجبارية بطريق التجنيد، فكانت كل مقاطعة بما فيها المعابد وما تملكه يجند فيها الجنود ليعملوا فى قطع الأحجار أو للقيام بغزوات فى الجهات التى تظهر فيها أية ثورة أو عصيان، أو لمحاربة أمراء المقاطعات. ولا نعرف القاعدة التى كانت متبعة فى التجنيد فى البلاد، والظاهر أنها موكولة للأحوال، وقد عثر على لوحة من عهد الأسرة الثانية عشرة، تلقى بعض الضوء على مقدار نسبة المجندين فى هذه الفترة، وأن كان ما جاء فيها لا يعد مقياسا يمكن اتخاذه قاعدة. وهذه اللوحة تخبرنا أن الابن البكر لأحد الملوك كان كاتبا للجنود عند تجنيده باحدى فرق اقليم طينة، وأنه كان يأخذ المجندين بنسبة ١٪ من الرجال(٤٨).

ولم تكن الخدمة العسكرية وراثية، ومهما ظهرت فوائدها ضئيلة فى نظرنا، فإنها كانت فى أعين الفلاحين عظيمة، فى حين أن معظم الذين أدوها، كانوا يخرطون أولادهم فى سلكها. وقد كان يؤخذ المجند وهو صغير إلى الثكنات حيث كان يتعلم كيفية الرماية بالقوس والنشاب، واستعمال بلطة الحرب، والدبوس، والحربة، وكانوا يتمرنون على الألعاب الرياضية التى تجعل الجسم مرنا، وتدربهم على فنون الحرب والسير العسكرية والكر والفر والقفز، والمصارعة بأيديهم مفتوحة أو

بالملاكمة، وكانوا يعدون أنفسهم للموقعة على شكل رقص حربى منظم أو بالوثب واللف، والتلويح بالقوس والنشاب فى الفضاء، وعند الفراغ من تعلمهم كانوا يدمجون فى الفرق المحلية ويمنحون امتيازاتهم، وعندما تكون الحاجة ماسة إلى أحد منهم، كان يطلب بعضهم أو كلهم للانخراط فى سلك الجيش[٤٩].

وإذا كانت مصر لم تهتم كثيرا خلال عصرى الدولة القديمة والدولة الوسطى بجيرانها الذين يطمعون فيما وراء حدودها الشمالية (الشرقية) فإن هذا الوضع تغير كثيرا فى عصر الدولة الحديثة خلال النصف الثانى من الألف الثانية قبل الميلاد، ذلك أن تجربة احتلال الهكسوس لأرض مصر وإذلال شعبها، كانت تجربة مؤلمة وقاسية جدا على المصريين، فقد علمتهم درسا لم ينسوه خلال تاريخهم التالى، بعد أن حرروا بلادهم من هؤلاء الغزاة[٥٠].

كان خطر الهكسوس كافيا لإجبار فراعنة طيبة من ملوك الأسرة الثامنة عشر على إعادة النظر فى جميع النظم الحربية والإدارية التى كانت سائدة بمصر حتى ذلك الزمن، وظهرت بالتالى أفكار جديدة متحررة، وضع على أساسها نظام الحكم فى تلك الفترة حيث تركيز الاهتمام على توجيه معظم موارد الدولة لانشاء وتنظيم جيش قوى. وكان التصاعد المستمر فى طبع المجتمع المصرى بالطابع الحربى ضرورة حتمية لمواجهة الأخطار التى تهدد مصر من جهة الشرق. وبصفة عامة، فإن هؤلاء الضباط الذين ظهروا فى بداية عصر الأسرة الثامنة عشر، كونوا طبقة اجتماعية اقتصادية جديدة تستمد أهميتها ونفوذها من المهام الكبرى التى كانت ملقاة على عاتقهم فى كل من المجالين العسكرى والمدنى[٥١].

ومن الواضح أن الروح العسكرية فى عصر الامبراطورية قد انعكست على جميع أوجه الأنشطة الداخلية بالدولة، وأصبح الجيش هو المهيمن على جميع الإنشاءات المعمارية الطموحة التى تقيمها الدولة. كذلك فقد تولت أعداد كبيرة من الضباط وظائف عليا كثيرة خارج مرافق الدولة بما فى ذلك المرافق الدينية والمعابد(٥٢).

وبالنظر إلى العلاقات الوثيقة التى أصبحت تربط هؤلاء الضباط بالبلاط الملكى وبدوائر الحكم العليا، فلم يكن من الصعب عليهم أن ينتصروا بالتدريج فى الصراع الذى نشب بينهم وبين كهنة آمون وحلفائهم من طبقة كبار الموظفين المدنيين فى طيبة. وحتى الاحترام التقليدى الذى كانت تتمتع به طبقة الكتاب العاديين باعتبارهم من المثقفين، قد انتقل بدوره إلى النخبة الممتازة من طبقة العسكريين الذين تزودوا بأعلى مستويات الثقافة الواسعة التى تميز بها ذلك العصر(٥٣).

وقد سجلت المناظر العسكرية على الصروح الضخمة، وتغطى مساحات كبيرة من جدران قاعات معابد الآلهة والمقابر فى أبيدوس والأقصر والكرنك والرمسيوم ومدينة هابو والنوبة، ولا جدال فى أن هذه المناظر تعكس اتجاه العصر الذى يذخر بالنبض العسكرى، فالمعبد فى الدولة الحديثة، وبخاصة فى عهد الأسرة التاسعة عشر، كان يستلهم فى عمارته ونقوشه وتخطيطه الروح العسكرية البارزة(٥٤).

كذلك كانت المؤلفات الأدبية المتعلقة بالحرب والبطولة والتى تدور حول الشجاعة العسكرية فى ميدان القتال، وما يشبه ذلك من موضوعات، تنسخ وتقرأ على نطاق واسع، وتمثل جزءا من البرنامج التعليمى للتلاميذ، فمثلا من بين الموضوعات المحببة فى أدب الرعامسة، قصة (الاستيلاء على يافا Joppa) التى تعود إلى زمن

الفتوحات العظيمة لتحوتمس الثالث، وكذلك قصة (سقنن رع وأبوفيس) التى تسجل أحداث حرب التحرير الكبرى ضد الهكسوس.

وقد شارك ضباط الجيش كقضاة فى المحاكمات الرسمية الهامة.

ولقد وصل الفن العسكرى إلى قمته فى عهد الرعامسة وخاصة أثناء الأسرة التاسعة عشر، إذ تعتبر معركة قادش نموذجا رائعا لتكتيكات الكر والفر، وهى المعركة الكبرى التى استخدمت فيها الاستراتيجية الجديدة والمناورات التكتيكية للمركبات الحربية، كما أن المعارك الدفاعية الكبرى التى وقعت شمال الدلتا تحت قيادة (رمسيس الثانى) ضد شعوب البحر، تعتبر أول عملية حربية كبرى لمواجهة (الإبرار البحرى) للعدو فى التاريخ القديم(٥٥).

وفى نص عثر عليه بوادى الحمامات نرى تسجيلا لجثة رمسيس الرابع مكونة من وحدة عسكرية كانت تضم (٢٠٠) شخص. ويمكن أن نستخلص من اسمها الطبيعة الادارية التى كانت تختص بها تلك الوحدة، إذ أشير إليها بأنها (جنود فرقة الصيادين فى المقر). وهناك ألقاب عسكرية لها دلالات إدارية واضحة مثل (الكتبة العسكريين، وكتبةالتوزيع، وأمناء الامدادات والتموين، والمعاونين) مما يدل على وجود عناصر عسكرية معينة كانت مكلفة بهذه الخدمات(٥٦).

كذلك فقد كان الجيش يستخدم فى عدد من أعمال الإدارة الداخلية(٥٧).

وقد اهتم الرعامسة، مثل أسلافهم، بأن تكون تغذية جنودهم طيبة وأسلحتهم موفورة، وقد بذلوا كل ما فى وسعهم حتى يرضى الجنود بحالهم، وهذا هو السبب الذى من أجله أنب رمسيس الثانى رجال جيشه فى شدة بالغة وذلك عندما تركوه وحيدا وسط أعدائه دون أن يتمكن من

ألا يعتمد إلا على نجدة آمون، لقد خاطبهم قائلا: كم كنتم جبناء، ياراكبي العربات، لن أكون فخورا بكم بكل تأكيد مع أنه لا يوجد أحد بينكم لم أسد إليه جميلا في بلادى. ألم أقف بينكم كسيد؟ أما كنتم فقراء؟ فجعلت منكم كبراء بفضل روحى (الكا Ka) كل يوم، أقمت الابن مكان أبيه، وجنبت هذه الأرض مغبة الشرور، وخفضت عنكم الضرائب ومنحتكم أشياء أخرى كنتم قد حرمتم فيما سبق منها -وكلما تمنى أحدكم شيئا لبيت على الفور أمنيته، ولم يعمل أى ملك لجنوده مثل ما عملته جلالتى لكم، بالمعيشة في مدنكم دون أن أستعمل حقى كحاكم عليكم، وكذلك أنتم أيها المحاربون بالعربات أذنت لكم بالذهاب إلى مدنكم قائلا "سوف أجدهم دائما مستعدين لخوض المعركة، وعندما تحين ساعين إلى الحرب"[٥٨].

وربما كان فى استطاعة رمسيس أن يسائل نفسه كثيرا عما إذا لم يكن قد يسر لجيشه الحياة الهينة، لكن رمسيس الثالث ظل يراوده نفس الشعور، إذ بعد مضى عدة سنوات من توليه العرش، استكان له العدو ولم يجرؤ على الظهور، وأصبح الجند كأنهم من الأعيان أصحاب الدخل، يسكنون المدينة التى تروقهم ومعهم أسرهم ويتصرفون فى وقت فراغهم الطويل كما يشاءون "لقد تركت الجنود والمحاربين بالعربات يستريحون فى عهدى. تركت الساردان Sardanes والقاهان Qahaq (جنود مرتزقة من أصل ليبى) ينامون فى مدنهم ممدين على ظهورهم، أصبحوا لا يهابون المحاربين النوبيين ولا الأعداء السوريين، وضعت الأسلحة والأقواس بالمخازن، وكان الجنود يأكلون ويرقدون، وقد تهللت قلوبهم سرورا، وكان أولادهم ونساؤهم يعيشون معهم. كانوا لا يلتفتون إلى الخلف، كانت قلوبهم مطمئنة. كنت لهم بمثابة الضمان أحمى أجسادهم"[٥٩].

ومن الوظائف التى شهدها الجيش المصرى القديم (كاتب المجندين)، وذلك أن الموظفين الحربيين كانوا يبدأون حياتهم بالتلمذة فى وظائف إدارية صغيرة، فكان الواحد منهم يعمل بوصفه مساعد كاتب ملكى، وكان أمثال هؤلاء التلاميذ يدربون على تصريف الأمور، ويحذقون كتاب الإله، فيشاهدون قوة (تحوت) -إله العلم-، وبذلك يصبحون مهرة فى أسرار الكتب ولم تمدنا الوثائق بالمدة التى كانوا يقضونها فى ممارسة هذا الدور من التعليم، وتدل شواهد الأحوال على أن وظيفة (كاتب الجند) كانت تقع فى دائرة الوظائف الصغيرة وكان هؤلاء الكتاب يجلسون فى مكتب إدارة الجيش وينفذون أوامر (رئيس الإدارة) دون أن يكون لهم دائرة عمل محددة. وكان لكل وحدة فى الجيش كاتب من هؤلاء[٦٠].

وقد جرت العادة أن ينتخب الموظفون أصحاب الرتب العالية فى الجيش من كتاب الجند، فمنهم من يكون مديرا للكتاب الحربيين، وكاتب المجندين، ثم القائد. وقد كان عمل مدير الكتاب الحربيين هو تدوين التقارير عن كل ما حدث فى خلال المعارك أثناء الحملات الحربية، فهو إذن كان الموظف الذى يدون اليوميات الرسمية عن سير المواقع[٦١].

ويظهر أن وظيفة كاتب المجندين لم تكن شائعة الاستعمال فى خلال المعارك قبل عهد الأسرة الثامنة عشرة وان كانت قد وجدت منذ الدولة القديمة، ويقول البعض أنها أنشئت فى عهد الأسرة الثانية عشرة، أما فى خلال الأسرة الثامنة عشرة فنجد عددا عظيما من الموظفين يحملونها.

وكان للجنود النظاميين فى عهد الدولة الوسطى أراض معفاة من الضرائب زمن الخدمة العسكرية وبعدها، فكانت باب رزق أساسى لهم

وأسرهم، هذا إلى أن ملوك الدولة الوسطى كان لهم حرس ينتخبون من صنف من الضباط العاملين، وهؤلاء خصص لهم حقول وماشية وعبيد، وذلك لأن الفرعون كان مضطرا فى أوائل هذه الأسرة إلى معونة عدد عظيم من الجنود فى الحروب التى كان يشنها لتحرير البلاد من جهة، وللمحافظة على الأقاليم التى فتحها وضمها لمصر فى سوريا والسودان من جهة أخرى (وكان للفرعون فى أوائل الأسرة الثامنة عشرة أراض شاسعة) وبخاصة الأراضى التى استولى عليها من حكام المقاطعات بعد القضاء على سلطانهم وتشتيت شملهم، وكذلك الأراضى التى استولى عليها بعد طرد الهكسوس من البلاد. ومن أجل ذلك نرى أن ضياع الجنود فى هذه الفترة كانت منتشرة فى أنحاء البلاد لدرجة عظيمة[٦٢].

وكانت السبيل ميسرة لكاتب المجندين أن يرقى فى وظيفته إلى أعلى رتبة فى الجيش، ونعنى بذلك رتبة (قائد)، ومن الأمثلة على ذلك القائد العظيم (حور محب)، فإنه على حسب ما وصل إلينا من المعلومات عن ألقابه، كان فى بادئ أمره (كاتب مجندين)[٦٣].

والآن نتساءل: من أى طبقة من طبقات الشعب نبت هؤلاء الموظفون الحربيون؟ الظاهر أن هؤلاء الأفراد الذين انخرطوا فى سلك الجندية لم يكونوا من أبناء كبار الموظفين، أى أنهم ليسوا من علية القوم ونخبته، إذ لم نجد بين كل الموظفين الحربيين واحدا كان والده من عظماء رجال الدولة أو من الكهنة، ولذلك نلحظ أن الجم الغفير منهم كان لا يذكر اسم والده، مما يدل على أنه لم يكن ينسب إلى أب ذى أرومة رفيعة الأصل، وإذا حدث وذكر واحد منهم اسم والده ذكر مجردا عن كل لقب، هذا إلى أننا لم نصادف واحدا منهم ورث وظيفة عن والده إلا فى كتاب الجيش[٦٤].

أما بالنسبة لضباط الميدان، فقد كان الجندى يقترع من بين طائفتين مختلفتين من الشعب، فطائفة منهم كانوا يجندون من بين أولاد الجنود القدامى، وهؤلاء كان لزاما عليهم أن يحلوا محل آبائهم وكانوا أحيانا يحتلون مراكزهم، وطائفة أخرى كانوا يجندون من بين الشبان الذين قضوا فترة طفولتهم فى البلاط الفرعونى يتلقون العلم ويدربون مع أمراء البيت المالك أنفسهم، فكانوا بذلك يؤلفون فرقة مختارة من العلماء المثقفين، ومن ثم نشأت العلاقات الشخصية بين الفرعون وضباط الميدان، وهذه العلاقات كان لا ينقطع سببها فى الميدان مادام الفرعون يقود جيشه فى ساحة الوغى، وهذه الوسيلة كانت سببا هاما لا يستهان به فى ترقية هؤلاء الضباط لأن الفرعون كان قد تربى معهم فى صغره، كما كان يقودهم فى رجولته[٦٥].

وكان آباء هؤلاء الأطفال الذين ينشأون فى صغرهم فى بلاط الفرعون يحملون لقب (غلام بيت التعليم الفرعونى)، أى الأطفال الذين تعلموا مع الأمراء فى قصر خاص فى أثناء طفولتهم.

٤– العمال:

ونحن نقصد هنا الطبقة العاملة، سواء أكانوا زراعا أم حرفيين فنيين كان الشعب ينقسم إلى فئتين[٦٦]:

أ– الرخيت، أى سكان المدن، وكان هذا الاسم يطلق على سكان مدن الدلتا فقط ولكنهم منذ الأسرة الخامسة أصبحوا سكان مدن مصر كلها، ومنذ عصر ما قبل الأسرات كان الرخيت فى الوجه البحرى يسكنون مدنا حرة تجارية يحكم كلا منها جماعة من العظماء عددهم عشرة، وظلت هذه المدن خلال العصور التاريخية تتمتع بحرية واسعة ولم تكن يوما محرومة من الحقوق الاقتصادية.

ب– المريت[٦٧]: طبقة الزراع الأحرار، وكانوا ينقسمون إلى فئتين:

١- المـأجورون، الذين عليهم أن يقومـوا بعدد معين من سـاعات العمل لقاء أجر محدد.

٢- المزارعون، أو مستغلوا الأرض الذين يزرعونها مقابل دفـع ضريبة أو إيجار للمقاطعة وواضح أن هذين الالتزامين لا يمكن أن تؤديهما فئة واحدة من الناس، ذلك أن العمال المـأجورين والمتعاقد معهم للعمل عدد معين من الساعات لا يجب طبعا أن يدفعوا ضريبة ولكنهم يحصلون على أجر يوازى العمل الذى يؤدونه، وبالعكس فإن الذين عليهم دفع ضريبة شـهرية للمقاطعة هم قطعا ملتزمون بهذا الدفع مقابل مزايا يحصلون عليها وهى اعطاؤهم أراضى تحت تصرفهم، وعلى ذلك فهم مزارعون، وكلا الفئتين من الرجال الأحرار المشتغلين بالزراعة، وهذا ما تؤكده منشورات الدولة القديمة(٦٨).

وتشير طائفة غير قليلة إلى وجود طائفة من العمال الفنيين المتخصصين والذين كانوا مستقلين فى عملهم، وكان على من يحتاجهم من الأمراء أن يدفع لهم أجرهم الذى يطلبونه، ولا يعقل أن يكون المقصود بهؤلاء العمال، أن يكونوا هم المرتبطين بالمصانع الملكية أو باقطاعات الأمراء، إذ أن هؤلاء كانوا يحصلون على أجور معينة لا داعى لأن تذكر مع كل عمل يقومون به، إذ أنها ربما كانت ثابتة مدى حياتهم ومنذ اللحظة التى ارتبطوا فيها بالمصنع أو المقاطعة(٦٩).

وإذا كانت النصوص المشار إليها لا تكفى لتأكيد وجود هذه الفئة من العمال المستقلين فإن وجود نظام الضرائب بالذهب ومنتجات الحقول منذ العهد الطينى فى المدن بصفة خاصة لدليل آخر، إذ أن هذا النظام لم يكن قاصرا على الموظفين، بل على الانتاج الصناعى والتجارى أيضا، ويقول "ادوارد مير" E. Meyer عند كلامه عن العهد الطينى أن هذا النظام كان يوجد فى المدن التى فيها صناع وتجار أحرار وهم الذين كانت ثروتهم خاضعة لجباية الضرائب بالدفع ذهبا(٧٠).

ولقد تمتع العمال فى المدن بحقوق مدنية كاملة، فكان من حقهم أن يوقعوا كشهود على مختلف أنواع العقود.

وهكذا يصل نجيب قنواتى إلى أن العمال فى الدولة القديمة، سواء فى المدن أو القرى، وسواء كانوا صناعا أو فنانين أو بحارة أو صيادين أو رعاة أو بنائين أو مزارعين، كان جميعهم من الأحرار الذين يعملون بعقود بينهم وبين صاحب العمل.

لكن هذا الرأى ينقضه رأى آخر بالنسبة للفلاحين الذين كانوا يؤلفون أكثرية الشعب "ويظن أن بعضهم كانوا من الأحرار يملكون ما يزرعون من الأراضى، وإن كانوا قليلين"(٧١)، أما أغلب الفلاحين فكانوا مرتبطين بالأرض لا ينفكون عنها بحيث إذا انتقلت ملكية الأرض انتقلت معها تبعيتهم من المالك القديم إلى المالك الجديد. وليس من شك فى أن أعمالهم لم تكن ميسرة، فقد كان عليهم، إلى جانب فلاحة الأرض ورعايتها حتى يتم حصادها، أن يعملوا فى حفر الترع والقنوات لرى الأراضى البعيدة عن فيضان النيل، وإقامة السدود لاتقاء شر الفيضانات العالية.

وقد كان لاستقرار الحياة واستتباب الأمن ما ساعد كثيرا على العناية بوسائل الرى، فازدهرت الزراعة فى الأملاك الملكية وضياع عظماء الدولة، وازدادت محاصيل القمح والشعير والكتان زيادة كبيرة. وقد صاحب ذلك زيادة الاهتمام بتربية الماشية من البقر والأغنام والماعز، وبذلك كان الملايين من المصريين يشتغلون فى الحقول، وكانوا يسكنون أكواخا من أعواد مضفورة من النبات أو مبنية من الطين أو اللبن، قانعين بما يتاح لهم من ضرورات الحياة، على أنه مع هذا لا سبيل إلى القول بأن الطبقة الحاكمة كانت تستأثر وحدها بمتع الحياة وأنها استعبدت طبقة المحكومين أو استغلتها لمصلحتها استغلالا سيئا،

فمن نصوص المقابر ما يشيد فيها أصحابها بحسن معاملته لأتباعه، وأن أحدا لم يمض الليل حاقدا عليه، وفى هذا ما يدل على أن أولى الأمر أدركوا أهمية معاملة أتباعهم بالحسنى، وأنهم - وقد كانوا يميلون إلى المرح والسرور - كان يرضيهم أن يروا بيئتهم سارة بهيجة وأن يعم الفرح عمالهم وأتباعهم(٧٢).

وقد كان للعمال والفلاحين مباهجهم وأفراحهم، إذ تدل بعض المناظر على أن الأعمال الزراعية كانت تؤدى على أنغام المزمار مع الرقص والغناء، ومن المناظر ما يمثل الملاحين وهم فى سفنهم، والرعاة وهم يمدون الماشية بأغانيهم، والخدم وهم يزجون وقتهم بالغناء، كما كان العمال والصناع يتبادلون معا من النكات ما يدل على نفوس فرحة راضية بعملها وحظها من الحياة.

وقد عزى إلى (خوفو) و (خفرع) أن المصريين لاقوا فى حكمهما كثيرا من الشقاء، وأنهما دفعا البلاد إلى أحضان البؤس. على أن مبانى هذين الملكين بالذات، وما حفظ من عهدهما من نقوش وتماثيل تبلغ جميعها حدا من الكمال لا يتسنى لو أن من قاموا بعملها كانوا موضع قسوة واضطهاد. بل أن هذه الأعمال لتنطق بروح التفانى فى إبداع أقصى ما يمكن أن تصل إليه القدرة البشرية من روعة البناء والنحت والنقش. وما من شعب مقهور على أمره، كاره لحكامه، يمكن أن يبلغ فى أعماله لهم ما بلغه المصريون فيما قاموا به لهذين الملكين من كمال وجلال، ان دلا على شيء فإنما يدلان على رغبة الشعب الصادق فى تمجيد (خوفو) و (خفرع) وتفانيه فى تأليههما والتسامى بآثارهما فوق حد كل تصور، بما كان يتفق وقوة عقيدة الشعب فيهما كإلهين عظيمين. وفى الحق ليست آثارهما إلا صورة مجسمة لعقيدة الشعب فيهما، تتمثل فيها روح العصر واستقرار الحكم، وقوة شخصية الملك، وما اجتمع للحكومة من سلطان واسع، وما بلغه الفنانون والصناع من قدرة

وبراعة. وقد ساعد على انجاز هذه الأعمال الجليلة أن المياه فى مدة فيضان النيل كانت تغطى أكثر الأراضى الصالحة للزراعة فترة طويلة، فلا يتسنى القيام بأى عمل فى الحقول. فأمكن لذلك تشغيل الأيدى العاطلة طوال هذه الفترة، خاصة وأنها كانت كذلك أنسب الأوقات لنقل الأحجار من محاجر طره فى الشرق إلى حافة الهضبة الغربية. وقد كان من شأن النظام الدقيق الذى اتبع فى جلب آلاف العمال وتقسيم العمل بينهم ومراقبة أدائه بدقة أن يعنى كذلك بشئون العمال لفائدة العمل الضخم الذى يقومون به حتى لا تفتر همتهم، وتقعد بهم عقيدتهم عن أن يبلغوا فيه ما بلغوه من كمال وإبداع. وقد كان العمال يفيدون من عملهم الطعام والكساء فى وقت لا يستطيعون فيه العمل فى فلاحة الأرض(٣٣).

وتجسد مشاهد المقابر سلسلة طويلة من مناظر الفلاحة والحصاد وتربية الماشية، وتتابع مشاهد الحقول، وشاع فى النماذج التى انتشرت فى عصر الانتقال الأول وعصر الدولة الوسطى تصوير حظائر الحيوان، فى حين ندر وجودهما على جدران المقاصير الجنائزية. وإضافة إلى ذلك كان صناع النماذج الحجرية، والرسامون يفضلون تصوير مشاهد حصر الماشية، إذ كانوا يستمتعون على ما يبدوا بتجسيد الضرب المبرح الذى كان يتلقاه الفلاحون عند تحديد قيمة الضريبة السنوية التى تتغير حسب مقدار المحاصيل، فيتولى جباة الضرائب تحصيلها عندما يحين موعدها. وفى حظائر الطيور ينثر العاملون الشبان حفنات من الحبوب، وتجمع الطيور فى أقفاص صغيرة، أما الطيور ذات السيقان الطويلة، فيجرى تربيتها فى ساحات مسورة، كما يعمل النحال بجوار مناحله. وغالبا ما يتم الاشراف على محاصيل المزرعة ومنتجاتها داخل المزرعة نفسها أو فى المبانى الملحقة القريبة من مخازن الغلال وحظائر الحيوان أو فى الأروقة، ويضطلع بهذه الأعباء جيش من العاملين: خبازين وكرامون وقصابون وطباخون،

الذين يعدون الخبز والجعة والنبيذ والوجبات الطازجة والجافة والأطعمة المحفوظة، أو يغزلون الكتان وينسجونه فى الورش المجاورة(٧٤).

وقد أميط اللثام فى بعض النصوص القديمة أو مخلفات الانتاج التى اكتشفها الآثريون فى مواقع الحفائر. ولكن يغلب على مشاهد المقابر أنها تبرز أنشطة بعينها وتفضيلها على غيرها لاسيما المناظر التى تساعد الفنان على التعبير الحر عن ذوقه الفنى، فعندما يرسم الحيوان، فإنه يتحرر من كل قيد، ويطلق الفنان لقدراته الابداعية بلا حدود. أما فيما يتعلق برسم الفلاح فقد اقتصر اهتمامه على الحركات والأوضاع التقليدية المطلوب نقلها إلى عالم الأبدية(٧٥).

كما قدم الأدب المصرى صورة مبسطة من حياة الفلاح تكتفى بالخطوط العامة.

وتدل النقوش على أنه كان للعمال نظام غاية فى الدقة قائم فى البلاد منذ فجر التاريخ، ولدينا من الألقاب ما يشعر بقيام هذا النظام، وأن هؤلاء العمل كانت تدون أسماؤهم فى سجلات خاصة فقد ذكر لنا (بترى) أنه كان للعمال المدونة أسماؤهم مراقب خاص(٧٦).

وقد كان هؤلاء العمال مقسمين إلى فرق صغيرة، أو جماعات كبيرة، أو هيئات صناعية، والظاهر أن أسرى الحرب كانوا يخصصون لأشق الأعمال فى المناجم أو فى ضياع الحكومة أو المصانع الملكية، وهؤلاء بلا نزاع لم يكن لهم أية حقوق بل كان سيدهم له الحق فى التصرف فيهم كيف شاء ويقومون له بأى عمل يريده، على أنهم فى مقابل ذلك لا يأخذون إلا ما يسد رمقهم. وعلى أية حال فإن ما قام به أسرى الحروب من الأعمال لم يكن إلا ثانويا، وعند الحاجة كان يطلب

الجنود للأعمال الهامة وبخاصة إذا علمنا أن الحروب فى هذه الأوقات كانت قليلة ولذلك كانت تستخدم الجنود فى الأعمال الحكومية(٧٧).

وبرغم كل ذلك فإنه لم يكن فى استطاعة الجيش والأسرى العبيد أن يكونوا النواة الحقيقية لطائفة الصناع الذين كانوا يشتغلون فى المصانع والمعامل الحكومية وبخاصة فى الأعمال التى كانت تحتاج إلى مران ومهارة فنية، ولابد إذن من أن نبحث عن هؤلاء الصناع والعمال فى الطبقة التى تعلمت الحرف والصناعات الدقيقة وكانوا يقومون بهذه الأعمال سخرة، لأنهم كانوا عبيدا تابعين لأعاظم القوم، أو بأجر لأنهم كانوا أحرارا يشتغلون بعقود وتكتب بينهم وبين صاحب العمل كما أشرنا من قبل، وربما كان الرأى الأخير هو الرأى الذى يمكننا أن نسلم به وبخاصة إذا علمنا أن فى مراسيم دهشور وقفط ما يوجب على الأهالى تأدية التزامين للحكومة وهما الضرائب وأعمال السخرة(٧٨).

وإذا راجعنا الرسوم الكثيرة المدونة فوق مقابر الدولة الحديثة، تلك التى تبين الأعمال التى تجرى فى المصانع والنصوص الموضحة لها، فإنها تغرى بالاعتقاد أنهم كانوا يقومون بمختلف أنواع الحرف فى مكان واحد: كالنقاشين على الحجر والحفارين على الأخشاب وصانعى الأوانى من الأحجار والصياغ وعمال الجواهر وقاطعى الأحجار الثمينة وصانعى الأوانى المعدنية، والدروع والنجارين وصانعى العربات، وقد يكون هذا مجرد تصوير اتفاقى(٧٩). ويشرف على هذه الأعمال المختلفة كلها بعين ساهرة رئيس عام، قد رسم فى هيئة عملاق بينما رسم العمال الكادحون فى هيئة أقزام.

وكانت القاعدة العامة المتبعة فى كافة المصانع، أن تعرض الأشياء التى تمت صناعتها إما على موائد أو ترص فوق رفوف، ويقوم مدير

الأعمال بالتحقق من دقة صناعتها واتقانها وأنها صالحة لأن توضع ضمن مقتنيات الإله أو الملك[80].

وإذا كانت هناك بعض المواقف التى تشير إلى ندرة تقدير الصناع البارعين وبينهم الكثيرين من الفنانين أو أنهم كانوا يجازون بما يتفق ومواهبهم، إلا أننا فى العام الثامن من حكم رمسيس الثانى بمناسبة اكتشاف كتلة ضخمة أثناء زيارته لمحاجر الجبل الأحمر أقام لوحة تذكارية فى معبد أون أعرب فيها، بصفة خاصة - عن عنايته بكل أولئك الذين ساهموا فى صناعة تماثيل أبو الهول والتماثيل الواقفة أو الجالسة أو الراكعة التى ملأت معابد مصر[81].

وكان يتحتم على الفنان أن يكون على علم تام بمراسيم الطقوس الدينية والأساطير، وصفات الملوك والمعبودات، ولم يكن ذلك كله بالأمر الهين، ويمتدح الفنان بعد ذلك مهارته فى العمل قائلا:"وبالاضافة إلى أننى فنان موهوب فى فنى، فإنى على قدر من العلم يفوق المستوى المألوف، أنى أعرف تماما الأوضاع الدقيقة لتمثال الرجل، ووقفة المرأة، ....: وكيف يتهيأ الرجل ليطعن بالحربة، أنى على علم بنظرة العين الخاطفة، بالدهشة الطارئة التى تعترى الشخص الذى يستيقظ من نومه، بحركة ذراع رامى الرمح وهو يرفع ذراعه، مدى ميل جسم إنسان يجرى، أعرف سر تركيبات لا تقوى النار على حرقها ... ولا تستطيع المياه إذابتها"[82].

والتمييز بين عامل متخصص وحرفى فنان كان لا يرتكز إلى وجود مؤسسات تجمع كل فئة على حدة، وإنما كانت بعض المهن تساعد، أكثر من غيرها، على إبراز مهارات أصحابها وقدراتهم، فإن عملوا مثلا فى بلاط الملك، أو فى ورشة أو فى الانشاءات التى تهم الملك

بشكل خاص، تكون فرصتهم فى التميز أكبر وأعظم، ومن ثم تكون الترقية من نصيبهم مكافأة على اجتهادهم[٣٣].

ثالثا العقيدة الدينية

لقد كان الدين فى مصر فوق كل شئ ومن أسفل منه، فنحن نراه فيها فى كل مرحلة من مراحله وفى كل شكل من أشكاله. من الطوالطم إلى علم اللاهوت. ونرى أثره فى الأدب وفى نظم الحكم وفى الفن، وفى كل شئ عدا الأخلاق. وليس هو مختلف الصور والأنواع فحسب بل هو أيضا غزير موفور، ولسنا نجد فى بلد من البلاد - إذا استثنينا بلاد الرومان والهند - ما نجده من الآلهة الكثيرة فى مصر القديمة، وليس فى وسعنا أن ندرس المصرى - بل ليس فى وسعنا أن ندرس الإنسان على الإطلاق - إلا إذا درسنا آلهته[٣٤].

والواقع أنه لا توجد قوة أثرت فى حياة الإنسان القديم مثل قوة الدين، لأن تأثيرها يشاهد واضحا فى كل نواحى نشاطه، ولم يكن أثر هذه القوة فى أقدم مراحلها الأولى إلا محاولة بسيطة ساذجة يتعرف بها الإنسان ما حوله من العالم ويخضعه بما فيه الآلهة لسيطرته، فصار وازع الدين هو المسيطر الأول عليه فى كل حين، فما يولده الدين من مخاوف هى شغله الشاغل، وما يوصى به من آمال هى نصحه الدائم، وما أوجده من أعياد هى تقويمه السنوى، وشعائره - برمتها - هى المربية له والدافعة له على تنميته الفنون والآداب والعلوم[٣٥].

على أن الدين لم يمس حياته فى جميع نواحيها فحسب، بل الواقع أن الحياة والفكر والدين امتزجت عنده - بعضها فى بعض مؤلفة من المؤثرات الخارجية والقوى الإنسانية الباطنة، ولذلك كان طبيعيا ألا يقف الدين جامدا من غير أن يتمشى مع هذه العوامل الدائمة التطور

من مرحلة إلى مرحلة. هكذا كان الحال منذ أقدم العصور التى وصل إليها علمنا[٨٦].

وقد كان الأقوام الأول يمجدون آلهتهم لأحد أسباب ثلاثة، إما لفائدة ترجى أو خوف من شر يراد اتقاؤه أو الاعجاب بعظمة فيهم لا يمكن ادراكها. ولا شك أن حب المعبود لذاته لم يأت إلا بعد تطورات كبيرة حدثت فى بنى البشر، ومن هنا رأى المصرى الفطرى هذه الصفات المعنوية فيما حوله من قوى المخلوقات الطبيعية، فكان مثلا يعبد الثعبان اتقاء لدغته المميتة، كما أنه كان يرى حاجته للأشجار المثمرة الوارفة الظلال فيسجد أمامها إجلالا لما تغدقه عليه من ثمر وما تضفيه عليه من ظل وارف فى بلاد حرها لافح، كما أنه كان يعجب أيما إعجاب بنسور الجو وصقورها ويسرح خياله فى قدرتها وعظمتها عندما تحلق فى الفضاء ناشرة أجنحتها. غير أن عبادة المصرى للأشياء الجامدة لم يمكن الوصول إلى أسبابها الحقيقية، وإن كانت هناك بعض آراء نظرية محضة لا ترتكز على براهين بينة، فيقال أن المصرى كان يعتقد أن قوة إلهية كانت تسكن الكائن الحى كما كانت تسكن الجماد، وذلك على غرار أن الروح تسكن جسد الإنسان، وحقيقة الأمر أن عبادة المصرى لأشياء جامدة لم يمكن الوصول إلى كنهها[٨٧].

ويجد الباحث فى الديانة المصرية القديمة نفسه فى حيرة إزاء ذلك الكم الهائل من الآلهة المختلفة الأشكال والألوان والأسماء، ومع ذلك يمكن تقسيمها إلى الفئات التالية[٨٨]:

فلدينا أولا المذاهب التى قامت على عبادة الماشية، وهى عبادات عريقة معروفة منذ العصور السحيقة فى الفترة قبل التاريخية، وكان مجتمع الرعى الذى ازدهرت فيه هذه العبادات مازال قائما وقيمته الاقتصادية كبيرة ووزنه الثقافى له أهمية عن طريق الرعاة من الجنس

العامى بشرق أفريقيا الذين اعتبروا (البقرة) التى يقتات الإنسان على لبنها هى الأم الطبيعية للبشر. وكان الثور والكبش يمثلان القوة الغاشمة التى تجسد الفحولة، وبدون الخصوبة الأصيلة، التى تفيض من مثل هذه الآلهة، تذوى المحاصيل وتهلك الماشية ويموت البشر وتسود عبادة الماشية فى المجتمعات الزراعية البدائية. وقد احتفظت بأهميتها فى مصر حيث كانت الزراعة هى النشاط السائد، إلا أنها اكتسبت أفكارا أكثر رقيا. وقد استمرت هذه العبادة مع استمرار الوثنية، وحتى بعدها.

وتتمركز ثانى الاتجاهات حول المعتقدات المتأثرة بالظواهر الطبيعية التى تتميز بها مصر القديمة، فمظاهر فيضان النيل كل سنة وإغراقه للأرض الزراعية تحول الوادى إلى (الهيولى المائى) الذى ستبعث منه الحياة والدنيا من جديد، فكان الفيضان معجزة، تتكرر كل سنة وتنشأ منه الأرض مرة أخرى، فيظهر أولا نتوء من الرمال أو كثيب من الأرض من بين المياه المتخلفة، وفوق ذلك الكثيب الأول يثبت خالق الكون أقدامه ليؤدى عمله فى خلق الدنيا وما فيها من العدم، وقد تصور المصريون أن هذا الإله الخالق قد حط على هذا الكثيب، فى أول الأمر، على صورة طائر ضخم جسده على صورة صقر حينا، وعلى صورة عنقاء حينا آخر، وعلى صورة طائر أبو منجل فى غالب الأحيان. ومن الكثيب الأول تظهر الحياة النباتية الجديدة والحيوانات المختلفة التى تتغذى عليها أو على حيوانات مثلها. وترتفع المياه الجوفية سنة بعد أخرى وتحيط بالأرض الجافة (الميتة)، فتخصبها، ثم يأتى الفيضان فيلحقها ويجدد فيها الحياة. وقد تخللت هذه الفكرة عن البعث من باطن الأرض بواسطة مياه الحياة الجوفية فى المعتقدات المصرية عن هذه الدنيا والحياة الأخروية وشكلت تصورا متكاملا للكون.

وكان الاتجاه العقائدى الثالث هو عبادة الملك وتجسيد الإله، وهذا المفهوم - الملك الإله- اتجاه له أصول موغلة فى القدم من عصور ما قبل التاريخ أساسه الايمان بوجود الرئيس الذى هو صانع المطر الذى بقدرته السيطرة على العناصر وبسلطته يحفظ الشعب فى اتحاد ورضاء. وأصبح الفرعون فى عهد الأسرات هو الإله الأعلى، الذى هو التجسيد الحى للإله حورس. وحورس الذى يظهر نفسه على صورة الصقر كان هو إله السماء الكونى الذى سيطرت صورته على تفكير الأسرة الثامنة عشر، فكان الفراعنة يعتبرون صقورا فى أوكارهم (وهم أحياء) ثم يطيرون إلى السماء بعد الممات[٨٩].

وكان المجال الرابع هو الديانات التى تدور حول عبادة الشمس كمظهر للقوة الإلهية، وهو تطور يعتبر أحدث عهدا وأكثر تعلقا بالفكر. ويعود الفضل فى نشره واستمراره إلى كهنوت الإله (رع) بهليوبوليس الذين تمتعوا بمستويات فكرية وثقافية رفيعة، فكانوا يثيرون عقيدتهم ويجددونها بإضافة مثل تلك الأفكار العقلية الفلسفية إليها. وكان لهؤلاء سلطة كبيرة مستمدة من علاقتهم الوثيقة بالملكية. وكان إله الشمس (آمون-رع) يعبد بصفته خالق الكون وحاكمه الأول. وكان الفرعون هو خليفة الله الإله فى الأرض. نلاحظ تطورا هاما صاحب هذه العقيدة. فالفرعون حسب هذا المفهوم ليس تجسيدا للإله، ولكنه ابنه الذى أنجبته كبيرة الملكات عن طريق الإله الذى يتشكل هو فى صورة الفرعون كى يؤدى مهمته الخلاقة.

وعندما نفحص الدين المصرى فى أقدم وثائقه التى وصلت إلينا يتضح أن ظاهرتين عظيمتين أثرتا أعمق تأثير فى سكان وادى النيل، وأن الإلهين اللذين يمكن تبنيهما فى هاتين الظاهرتين سيطرا على التطور الدينى والعقلى منذ أقدم العصور، إنهما الشمس والنيل[٩٠] فى إله الشمس: رع، وأتوم، وحورس وخبرى ... وفى النيل: أوزيريس،

نجد الآلهة العظام فى الحياة والفكر المصرى الذين منذ البداية على التقريب، ولجوا منافسة للوصول إلى أعلى مكانة فى دين مصر، وهى منافسة انقطعت فقط بتبدد الدين المصرى فى ختام القرن الخامس من العهد الميلادى، إن ذاك الذى يعرف العناصر الجوهرية فى قصة هذه المنافسة الطويلة، سيعلم النهج الأصلى الذى سار عليه تاريخ الدين المصرى، إذا لم نقل أحد الفصول التى لها أعظم أهمية فى تاريخ الشرق القديم.

وقد افترض المصريون القدامى أواصر القربى والتشابه بين بعض معبوداتهم وبعض آخر، بناء على دوافع عدة يمكن تخمين أقدمها زمنا بما مر به مجتمعهم القديم من ظروف الاتصال المكانى والترابط المعيشى وإيحاءات السياسة، ثم اتساع آفاق التفكير. وعلى هذا النحو يمكن أن يفترض أن أولى خطواتهم للربط بين معبوداتهم قد بدأت عندهم منذ أدت دوافع السلم والحرب بقراهم وبلدانهم القديمة المتفرقة إلى التضامن مع بعضها البعض على هيئة أقاليم كبيرة نوعا خلال فترات متقاربة من فجر تاريخهم القديم، الأمر الذى شجع الفريق الأقوى فى كل أقليم على أن يسود معبوده، كما يسود حاكمه، على بقية الجماعات المشتركة معه فى نطاق إقليمه، وعلى أن تجعل هذا المعبود ممثلا لإقليمه ورأسا لمعبودات قومه فى آن واحد.

وعندما أدت الظروف مرة أخرى إلى ترابط مجموعات تلك الأقاليم على هيئة ممالك صغيرة، تحت تأثير تقارب المصالح المشتركة حينا وتحت ضغط القوة والغلبة حينا آخر، تكررت العملية السابقة بصورة تلقائية، فكفل الفريق الحاكم فى كل مملكة نوعا من الهيمنة لمعبوده على من سواه من معبودات الأقاليم الخاضعة للواء مملكته. ولما أفضت الحوادث إلى انتظام هذه الممالك المتفرقة فى ظل مملكة واحدة، لفترات متقطعة فيما قبل الأسرات، ثم للمرة الأخيرة منذ بداية العصور

التاريخية، أصبح لمعبود الملك فى المملكة المتحدة سيادته الواسعة على بقية معبودات دولته، وهو أمر يمكن افتراض مثله لكل من المعبودين (أوزيريس) و(رع) على التوالى فيما قبل الأسرات، ثم المعبود (حور) معبود أوائل ملوك العصور التاريخية، وراعيهم الذى غدا من ثم معبودا رسميا للدولة كلها وراعيا لها، لكن ذلك لم يؤد إلى إلغاء معبودات الممالك الصغرى ومعبودات الأقاليم[٩١].

وقد طمعت أغلب شعوب العالم القديم فى الخلود واستمرار واستئناف الحياة بعد الممات، ربما بما لايقل كثيرا عما فيه المصريون القدماء، ولكن، بينما رتبت تلك الشعوب طمعها فى الخلود على الأمل وحده ووقفت عنده، رتب المصريون القدامى طمعهم فيه على المنطق والعمل والأمل والعقيدة فى آن واحد، وكانوا أول أمة آمنت بالبعث والخلود من تلقاء نفسها[٩٢].

ولعل هذا ما يؤيده (برستيد) الذى كتب يقول: "لايوجد شعب قديم أو حديث، خلع على فكرة الحياة فيما وراء القبر، أهمية كتلك التى خلعها قدماء المصريين على تلك الفكرة. بل إن هذا الإيمان -الملح- بوجود (الآخرة) ربما كان يجد عوامل مشجعة ومواتية بسبب ما ترتب على صيانة الجسم الإنسانى صيانة فائقة على نحو لا يمكن أن يوجد فى الأحوال الطبيعية فى أى جزء آخر من أجزاء العالم"[٩٣]. إن الاعتقاد الباكر بأن الموتى يحيون فى القبر أو على مقربة منه، وعلى ذلك كان لزاما أن يعد لهيئه ضروريات الميت فى الآخرة، كان اعتقادا لم يتخلص منه المصرى أبدا تخلصا تاما حتى فى زمننا الحاضر. وكان الموتى كمخلوقات معادية -تعيث فى الجبانات- يرهب جانبهم، وكان من الضرورى توقى ضغنهم. وحتى الأهرام كان يجب وقايتها من الموتى الحقودين الذين يجوسون خلال الجبانة. وفى أزمنة لاحقة كان يمكن أن يصيب الإنسان سوء حتى فى بيته، يوقعه عضو فى الأسرة

توفى، تسير به قدماه من الجبانة. وعلى ذلك فإن عاداته الجنائزية كانت تعبر على الدوام عن عقيدته غير الاختيارية بأن الراحلين كانوا يداومون على سكنى القبر، واستمر هذا الاعتقاد زمنا طويلا بعد ظهور الآراء التى تطورت تطورا عظيما عن آخرة مباركة فى مكان آخر فى ثمة منطقة قصية. ولقد بقى هذان الاعتقادان جنبا إلى جنب: بقى الاعتقاد بأن الميت يظل قاطنا بالقبر أو عن كثب منه، وبقى فى الوقت عينه الاعتقاد بأنه رحل إلى مكان آخر، إلى ملكوت قاصية مباركة[٩٤].

وإذا تتبع الدارس نشأة عقيدة البعث والخلود باعتبارها إحدى المميزات الهامة فى الحضارة المصرية القديمة، فإن الأدلة لاتزال تعوزنا عن تاريخ نشأة هذه العقيدة ولكنها بلا شك تعود إلى العصور القديمة لما قبل التاريخ، ساعد على ذلك الايمان تأثير العوامل البيئية والطبيعية، حيث لاحظ المصرى فى مجتمعه دورة المظاهر الكونية المحيطة به وانسجامها وتوافقها بانتظام وخاصة تلك الظاهرة الهامة فى حياة ذلك الإنسان المعتمد على الزراعة، ونقصد بها ظاهرة الشمس التى تبدأ كل يوم، شأن معظم الظواهر الطبيعية الأخرى المحيطة به، ويأتى النيل فى مقدمتها يحمل فى مظاهره دورة حياة وخصب وموت ينتهى، ثم لا يلبث أن يبدأ من جديد يحمل الخير والأمان والاستقرار. ومن هاتين الظاهرتين والظواهر الأخرى الموجودة فى عالمه سواء النباتات التى تنمو بعد أن جفت الأنهار التى عادت إليها الحياة بعد ركود أو الجزر التى اختفت ثم عادت مرة أخرى إلى الظهور، ومن هذه الظواهر مجتمعة استمد الإنسان اعتقاده فى انتصار الحياة الأبدية[٩٥].

أيضا كان لارتباطه القوى بهذه الظواهر حيث أنه هو نفسه جزء منها، كل منهم يكمل الآخر يعتمد عليه وخاصة انطباق دورة الحياة والموت الأثر فى تنمية ذلك الاعتقاد فى البعث، وساعد على تأكيد

حيث اعتاد الإنسان المصرى القديم منذ فجر تاريخه أن يدفن موتاه فى الحواف الصحراوية أو الغربية بعيدا عن أرض الزراعة والسكنى، وبمرور الوقت نتيجة لقيامه بدفن جثة جديدة بجوار أخرى قديمة فلابد أنه قد لاحظ وتكررت ملاحظته أن موتاه لا زالت محتفظة بأجسادها فى حالة طيبة، ولذا نما لديه الاعتقاد باستمرار حياته وخلوده بعد الممات شأنه شأن كافة الظواهر الأخرى الموجودة فى مجتمعه(٩٦).

وتراوحت وسائل أجيال المصريين لتأمين الخلود وتحقيق سعادة الموتى، بين الماديات وبين المعنويات تبعا لتوالى العصور ونمو الامكانات وتطور الفكر والتصورات، فسادت الماديات فى العصور المبكرة، ثم غلبت المعنويات عليها شيئا فشيئا خلال العصور المتحضرة المتتالية، ولكن دون أن تمحوها، فإلى جانب الارتقاء المستمر بعمارة المقابر وتوسيعها وتأمينها ضد عوادى الزمن واعتداءات الغير، باعتبارها المساكن الباقية لجثث أصحابها، اقترنت الرعاية المادية فى العصور المبكرة بتزويد المتوفى فى قبره بما يمكن تزويده به من أوانى الطعام والشراب وما يعينه من الأدوات الضرورية وبعض مقتنياته الثمينة الخاصة، وتماثيل صغيرة رمزية لخدمه وجواريه إذا كان ثريا، وهو ما يمكن تفسيره، بالرغبة فى إكرامه وإيثاره وضمان بقائه وبالأمل فى أن ينتفع بما يوضع معه فى قبره خلال سفره الطويل، انتفاعا يناسبه، وكل ذلك مع الحرص على تقديم القرابين وتلاوة التراتيل(٩٧).

وتطورت نوعيات الرعاية منذ أوائل العصور التاريخية، فاستعاضت شيئا فشيئا عن الأطعمة والمشروبات الفعلية التى توضع فى أسفل القبر بتسجيل أسمائها وأعدادها ورموزها فى قوائم منقوشة على لوحات خاصة تتخذ أوضاعا محددة، ثم تصوير بعض مصادر الخيرات الدنيوية. وقد رمزت هذه النقوش والمناظر فى مجملها إلى أهم ما

استحبه أهلها في دنياهم وتمنوه لأخراهم، ثم عبرت بتفاصيلها عن أغراض شتى.

وليس أدل على أن المصريين لم يعملوا لتقبل الموت بقدر ما عملوا للتغلب عليه من آية التحنيط التى حفظت على جثث أغنيائهم خواص تقاطيعها، وجلودها وشعورها، وأصابعها بأظافرها، على الرغم من مرور ما قد يزيد على ثلاثة آلاف عام، ومعروف ما استهدفه المصريون من التحنيط من حيث الرغبة فى الإبقاء، على جسم المتوفى سليما واضح الملامح بقدر الإمكان، رعاية لصاحبه وضمانا لبعثه، وتشجيعا لروحه على أن تأنس إليه وتتلبسه. وقد سلكوا فى سبيل التحنيط مراحل وتجارب عدة[٩٨].

وقد كانت العدالة تمثل على شكل إلهة تعبد، وعزز من ذلك أن المصرى كان منذ القدم يخاف عقبى الآخرة، ويجتهد أن يعمل فى دنياه ما يشعر بأنه ينتظر يوما يعاقب فيه على كل سيئة اقترفها أو ذنب ارتكبه. وقد عثر على وثيقة من عصر الملك (منكاورع) لأحد كبار موظفيه ورجال الدين، نرى منها أن هذه الشخصية وقفت موقفا تبرئ فيه نفسها مما لابد كان يرتكبه غيرها من الآثام وأنواع الظلم فى هذا العصر، وهذا العظيم هو (رمنوكا) كبير كهنة الملك (منكاورع) وكبير كهنة هرمه، فهو من رجال الدين وممن يخافون الله. وقد ترك لنا عتبة باب علوية نقش عليها ما يأتى[٩٩]:

"إن الذى يحب الملك والإله أنوبيس الذى على قمة جبله، لا يأتى بأذى لمحتويات هذا القبر، من القوم الذين سيصعدون إلى الغرب (مقر الآخرة). أما من جهة هذا القبر الأبدى فإنى قد أقمته لأنى كنت (مقربا) لدى الناس والملك. ولم يحدث قط أنى اغتصبت أى شئ من أى إنسان لهذا القبر، لأنى أذكر يوم الحساب فى الغرب (الآخرة) وقد أقمت هذا

القبر مقابل أجور من الخبز والجعة التى أعطيتها للعمال الذين أقاموه. لا نزاع فى أنى قد أعطيتهم أجورا عظيمة من الكتان الذى كانوا يطلبونه، وقد دعوا الله لى من أجل ذلك ..." وليست هناك وثيقة تدل على مقدار خوف المصرى عقاب الدنيا وعقاب الآخرة مثل هذه، فصاحبها يقرر بأنه لم يغتصب شيئا من أى إنسان خوفا من حساب الآخرة، وفى الوقت نفسه يشعر الأحياء بألا يتعدوا على قبره لأنه أقامه من ماله ودفع أجورا عالية للعمال الذين أقاموه.

ولكن من سخرية القدر أننا وجدنا هذا الحجر الذى عليه هذا النقش قد اغتصب من مقبرة صاحبه، واستعمل ثانية مع أحجار أخرى لإقامة قبر حقير بجوار قبر (رمنوكا)[١٠٠].

وقد عمد ملوك الدولة القديمة منذ نهاية الأسرة الخامسة إلى نقش متون دينية طويلة على جدران غرف الدفن وبعض الغرف المتصلة داخل أهرامهم، وتعتبر هذه المتون أقدم ماحفظ من نصوص دينية على الإطلاق. وهى نصوص مستفيضة تكشف عن الكثير من عقائد المصريين وأفكارهم، وتتألف من أوراق مختلفة لا يجمعها رابط أو نظام، وكانت تهدف إلى تحقيق حياة سعيدة للملك المتوفى فى العالم الثانى، فمنها ما كان يعتقد أنه يقى الملك المتوفى الجوع والعطش والمرض ويعيد إليه حواسه، ويضمن له الصعود إلى السماء وحسن استقبال الآلهة له، ومنها تعاويذ ضد العقارب والثعابين، كما أن منها ما لا يعدو أن يكون قوائم طويلة بالقرابين. وقد روعى فى نقش هذه المتون على جدران غرفة الدفن أن تكون بحيث يمكن للملك وهو فى تابوته أن يقرأها. وليس من شك فى أن الكهنة كانوا يرتلونها قبل ذلك فى معابد الملوك السابقين، ولكنهم ما لبثوا أن أهملوا ترتيلها، فرئى أن فى تسجيلها كتابة ما يعوض عن إهمال تلاوتها فى المستقبل[١٠١].

وإذا كان البعض قد ذهب إلى أن متون الأهرام ذكرت محاسبة الملك على أعماله فى الدنيا وصعوده إلى السماء، ولكنها لم تذكر شيئا مثل ذلك لأحد غير الملك، وكأن الملك هو وحده الذى يحاسب ويصعد إلى السماء، أما من عداه من أفراد الرعية فلا، إلا أن هناك من يؤكد(١٠٢) من متون الأهرام نفسها أن هذا القول خطأ، لأن المتون تذكر بالعكس فى فقرات منها "الميت الذى يرقد تحت الأرض والتراب والرمل"، فميت كهذا ليس له ضريح مبنى بالطوب ولا هرم مشيد بالحجارة، فهو ليس ملكا. وهناك فوق ذلك فقرة أخرى تذكر من مآثر هذا الميت أنه "لم يسب الملك قط" فبديهى أنه لابد أن يكون شخصا غير الملك.

وفيما بين الدولة الوسطى والدولة الحديثة أخذ ينتشر ما سمى (بكتاب الموتى) حتى صار من العادات المرعية أن توضع نسخة منه مع كل ميت. وهذا الكتاب يشتمل على فصول مختلفة بعضها فى خلق الكون، وبعضها فى بيان الأخطار التى يستهدف لها الميت بعد موته، وبعضها تعاويذ سحرية كان الذين وضعوها يزعمون أنها تنفع الميت وتنقذه من الأخطار، وبعضها فى محاسبة الميت على أعماله فى الدنيا أمام محكمة أوزيريس(١٠٣).

وقد ظل المصريون حتى عهد امنحتب الرابع عام ١٣٨٠ ق.م يعتقدون فى تعدد الآلهة، وفى نفس الوقت يعبرون عن "بذور" التوحيد بطريقة خاصة فى التفكير لا ندركها نحن اليوم ولا نستسيغها. ولعل فكرة الخلق فى مصر القديمة انما تعطينا صورة لذلك، فالتراث الشعبى يقدم لنا ما يفيد أن الإله الخالق، فى بعض النظريات، إنما هو (آمون) وهو (بتاح) وهو (رع) وهو (خنوم)، ومن عجب أن هذا يرد فى نص واحد، وليس مجموعة نصوص مختلفة، مما يؤيد وجهة النظر القائلة أن الفكرة الشعبية عن (الإله) إنما كانت الوحدانية، وأن أسماء الآلهة ليست إلا تعبيرا عن إله واحد فى مظاهر مختلفة لهذا الإله، وليست

تعبيرا عن آلهة متعددة، وبديهى أن هذا لا يعنى أن القوم تصوروا الإله الخالق، على أنه واحد لا شريك له، بمفهوم الوحدانية المعروفة فى الديانات السماوية، والتى تظهر أوضح ما تظهر دونما لبس أو غموض، فى الإسلام، دين التوحيد المطلق، وإنما تعنى أن المصريين القدامى إنما آمنوا بوحدانية الإله الخالق، مع إعترافهم بوجود آلهة أخرى، لعل مهمتها الأولى أن تبرز صفات هذا الإله الخالق، ومن ثم فقد نظروا إليه على أنه آمون فى خفائه وهوائه، وأنه رع فى ضيائه وأنه بتاح فى صناعته، وأنه خنوم فى تشكيله للبشر، وفى إعطائهم صورة على عجلة فخارية، ولعلنا نستطيع أن نسمى هذا التوحيد المصرى، بحذر شديد، نوعا من التوحيد يمكن أن يطلق عليه وحدانية تغليب رب من الأرباب، وليس بالتأكيد توحيد تفكير أو توحيدا مطلقا[١٠٤].

أما الذى دعا صراحة إلى التوحيد فهو أخناتون، أمنحتب الرابع الذى قل أن حظى ملك مصرى بمثل ما حظى به هذا الرجل من اهتمام الناس، كما لم يحدث أن اختلفت الآراء بمثل ما اختلفت فى حكمها على هذا الرجل، فمجده البعض إلى درجة أن رفعوه إلى مرتبة الأنبياء، إذ اعتبروه أول من نادى بالتوحيد بين البشر، كما حمل البعض الآخر عليه حملات منكرة محاولا الحط من قيمته إلى درجة أنه قيل عنه: كان هذا الرجل شاذا فى خلقه، شاذا فى عقله، منحدرا إلى الحضيض فى بعض تصرفاته[١٠٥].

والقارئ لأنشودة اخناتون يستطيع أن يلمس كيف اتجه الفكر الجديد إلى تجريد الإله ونبذ تجسده فى أى شكل حتى ولو كان أرقاها، ونعنى به الشكل الإنسانى، فلم يجسد الإله فى شكل حيوان أو نبات أو جامعا بين الحيوان والإنسان كما كان معهودا. ولا ينقص هذا التجريد تمثيل الإله (آتون) على هيئة قرص الشمس بالأيدى الممدودة من أشعته، ففيه توكيد على تجدد شكل الإله، إله الشمس، فى حكمه الجديد المباشر وغير المحدود على الأرض[١٠٦]

ويرتبط بهذه النقطة فكرة عالمية الإله الذى لا يقصر تجلياته على مصر، بل على كل العالم المأهول، فكلهم أبناء الله بألوانهم ولغاتهم المتباينة التى يتجلى بها عدله.

كذلك أكد فكر الدعوة على مضمون الصدق وتمسك به بدرجة جعلت فيه وصف الملك "الذى يحيا على الصدق"، وربما كان الصدق هنا دلالة على الواقعية التى أراد أن يضفيها على نفسه ويضفيها غيره عليه[١٠٧].

ومن مآسى التاريخ أن أخناتون، بعد أن حقق حلمه العظيم، حلم الوحدانية العامة التى سمت بالبشرية إلى الدرجات العلا، لم يترك ما فى دينه الجديد من صفات نبيلة يسرى فى قلوب الناس ويستميلها إليه على مهل، بل عجز عن أن يفكر فى الحقائق التى جاء بها تفكيرا يتناسب مع الواقع. لقد خال أن كل دين وكل عبادة عدا عقيدته وعبادته فحش وضلال لا يطاق، فأصدر أمره، على حين غفلة بأن تمحى من جميع النقوش العامة أسماء الآلهة كلها إلا اسم آتون وشوه اسم أبيه بأن محا كلمة آمون من مئات الآثار، وحرق كل دين غير دينه، وأمر أن تغلق جميع الهياكل القديمة، وغادر طيبة لأنها مدينة نجسة، وأنشأ له عاصمة جديدة جميلة فى اخناتون (مدينة أفق آتون)[١٠٨].

ولو أن اخناتون كان ذا عقل ناضج لأدرك أن ما يريده من خروج على تعدد الآلهة القديم المتأصل فى عادات الناس وحاجاتهم، إلى وحدانية فطرية تخضع الخيال للعقل، لأدرك أن هذا تغيير أكثر من أن يتم فى زمن قصير، وإذن لسار فى عمله على مهل وخفف من حدة الانتقال بأن جعله على مراحل تدريجية، ولكنه كان شاعرا لا فيلسوفا، فاستمسك بالحقيقة المطلقة فتصدع بذلك جميع بناء مصر وانهار على أم رأسه.

ذلك أنه ضرب ضربة واحدة جرد بها طائفة غنية قوية من ثرائها فأغضبها عليه، وحرم عبادة الآلهة التى جعلتها العقيدة والتقاليد عزيزة على الناس. ولما أن محا لفظ آمون من اسم أبيه، خيل إلى الناس أن هذا العمل زيغ وضلال، فلم يكن شىء أعز عليهم من تعظيم الموتى من أسلافهم. وما من شك فى أن اخناتون قد استخف بقوة الكهنة وعنادهم وتغالى فى قدرة الشعب على فهم الدين الفطرى، وقام الكهنة من وراء الستار يأتمرون ويتأهبون، وظل الناس فى دورهم وعزلتهم يعبدون آلهتهم القديمة المتعددة. وزاد الطين بلة أن مئات الحرف التى لم تكن لها حياة إلا على حساب الهياكل أخذت تزمجر فى السر غضبا على الملك الزنديق، بل أن وزراءه وقواده بين جدران قصوره، كانوا يحقدون عليه ويتمنون موته. ألم يكن هو الرجل الذى ترك الدولة تنهار وتتقطع أوصالها بين يديه(١٠٩)؟

هوامش الفصل الثانى

١- فوزى الاخناوى، مصر الفرعونية، ص١١.
٢- أحمد صادق سعد، تاريخ مصر الاقتصادى الاجتماعى، دار ابن خلدون، بيروت، ١٩٧٩، ص١٠.
٣- المرجع السابق، ص١١.
٤- محمود عوده، الفلاحون والدولة، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٩، ص٥٤.
٥- المرجع السابق، ص٥٥.
٦- فتحى عبد الفتاح، القرية المصرية، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٧٣، ص١٢.
٧- المرجع السابق، ص١٣. ٨- المرجع السابق، ص١٤.
٩- رفاعه الطهطاوى، مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية، فى: محمد عمارة، الأعمال الكاملة لرفاعه الطهطاوى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٣، جـ١، ص ٤٣١.
١٠- المرجع السابق، ص٤٣٢.
١١- جمال حمدان، شخصية مصر، جـ٢، ص٥٤٢.
١٢- المرجع السابق، ص٥٤٣.
١٣- أحمد صادق سعد، تحول التكوين المصرى من النمط الآسيوى إلى النمط الرأسمالى، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨١، ص١٣.
١٤- المرجع السابق، ص١٤.
١٥- جمال حمدان، شخصية مصر، جـ٢، ص٥٥٤.
١٦- المرجع السابق، ص٥٥٥.
١٧- محمد على سعد، تطور المثل العليا فى مصر القديمة، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٩، ص٢٠.
١٨- المرجع السابق، ص٢١.
١٩- إبراهيم رزقانه وآخرون، حضارة مصر والشرق القديم، مكتبة مصر، القاهرة، د.ت، ص١٠٨.
٢٠- جريمال، تاريخ مصر القديمة، ص١١٠.
٢١- المرجع السابق، ص١١١. ٢٢- المرجع السابق، ص١١٢.
٢٣- أحمد صادق سعد، تاريخ مصر الاجتماعى الاقتصادى، ص٤٠.
٢٤- ابراهيم رزقانة وآخرون، حضارة مصر والشرق القديم، ص١١٢.
٢٥- المرجع السابق، ص١١٣.
٢٦- عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، جـ١، ص١٤٦.

٢٧- المرجع السابق، ص١٤٧.
٢٨- سليم حسن، مصر القديمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢، جـ٢، ص٨.
٢٩- المرجع السابق، ص٩. ٣٠- المرجع السابق، ص١٠.
٣١- المرجع السابق، ص٣٧. ٣٢- المرجع السابق، ص٣٩٨.
٣٣- سليم حسن، مصر القديمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢، جـ٣، ص٤١٠.
٣٤- موسوعة الفراعنة، ص٢١٤. ٣٥- المرجع السابق، ص٢١٥.
٣٦- بيير مونتيه، الحياة اليومية فى عهد الرعامسة، ترجمة عزيز مرقص منصور، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٥، ص٣٧٧.
٣٧- المرجع السابق، ص٣٧٨.
٣٨- سليم حسن، مصر القديمة، جـ٢، ص١١.
٣٩- المرجع السابق، ص١٢.
٤٠- سليم حسن، مصر القديمة، جـ١، ص٢٣٦.
٤١- المرجع السابق، ص٢٣٧.
٤٢- عبد المنعم أبو بكر، النظم الاجتماعية، فى (تاريخ الحضارة المصرية)، جـ١، ص١٢٩.
٤٣- المرجع السابق، ص١٣٠.
٤٤- موسوعة الفراعنة، ص٢١٦.
٤٥- مونتيه، الحياة اليومية، ص٣٨٠.
٤٦- سليم حسن، مصر القديمة، جـ٢، ص٤٤٩.
٤٧- المرجع السابق، ص٤٨٨. ٤٨- المرجع السابق، ص٤٩٢.
٤٩- المرجع السابق، ص٤٤٠.
٥٠- أحمد قدرى، المؤسسة العسكرية المصرية فى عصر الامبراطورية، ترجمة مختار السويفى وزميله، هيئة الآثار المصرية، القاهرة، ١٩٨٥، ص٣.
٥١- المرجع السابق، ص٥. ٥٢- المرجع السابق، ص٤٨.
٥٣- المرجع السابق، ص٤٩. ٥٤- المرجع السابق، ص٢٦٢.
٥٥- المرجع السابق، ص٢٦٨. ٥٦- المرجع السابق، ص٢٦٩.
٥٧- المرجع السابق، ص٢٧١.
٥٨- مونتيه، الحياة اليومية فى مصر، ص٣٠٦.
٥٩- المرجع السابق، ص٣٠٧.
٦٠- سليم حسن، مصر القديمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢، ص٤٧٨.
٦١- المرجع السابق، ص٤٧٩. ٦٢- المرجع السابق، ص٤٨١.
٦٣- المرجع السابق، ص٤٨٩. ٦٤- المرجع السابق، ص٥٠٣.
٦٥- المرجع السابق، ص٥١٠.

٦٦- نجيب يونس قنواتى، العمل والعمال فى الدولة القديمة فى مصر الفرعونية، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الأسكندرية، ١٩٦٨، ص١٦٥.
٦٧- المرجع السابق، ص١٦٩. ٦٨- المرجع السابق، ص١٧٣.
٦٩- المرجع السابق، ص١٦٧.
٧٠- سليم رزقانه، مصر القديمة، جـ٢، ص٢١٧.
٧١- إبراهيم رقانه وآخرون، حضارة مصر والشرق القديم، ص ١٢٤.
٧٢- المرجع السابق، نفس الصفحة. ٧٣- المرجع السابق، ص١٢٥.
٧٤- فالبيل، الناس والحياة فى مصر القديمة، ص٦٨.
٧٥- المرجع السابق، ص٦٩.
٧٦- سليم حسن، مصر القديمة، جـ٢، ص٢١١.
٧٧- المرجع السابق، ص٢١٢. ٧٨- المرجع السابق، ص٢١٣.
٧٩- مونتيه، الحياة اليومية فى مصر، ص١٩٦.
٨٠- المرجع السابق، ص٢١٠. ٨١- المرجع السابق، ص٢١٣.
٨٢- المرجع السابق، ص٢١٥.
٨٣- فالبيل، الناس والحياة، ص٦١.
٨٤- ديورانت، قصة الحضارة، جـ٢، ص١٥٥.
٨٥- ج. هـ. برستيد، فجر الضمير، ترجمة سليم حسن، مكتبة مصر، القاهرة، د.ت، ص٣٦.
٨٦- المرجع السابق، ص٣٧.
٨٧- سليم حسن، الحياة الدينية وأثرها على المجتمع، فى (تاريخ الحضارة المصرية)، جـ١، ص٢٠٨.
٨٨- سيريل ألدريد، أخناتون، ترجمة أحمد زهير أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢، ص١٤٢.
٨٩- المرجع السابق، ص١٤٣.
٩٠- ج.هـ.برستيد، تطور الفكر والدين فى مصر القديمة، ترجمة زكى سوس، دار الكرنك، القاهرة، ١٩٦١، ص٣٥.
٩١- عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، جـ١، ص٣٥٨.
٩٢- المرجع السابق، ص٣٦٥.
٩٣- بريستيد، تطور الفكر والدين فى مصر القديمة، ص٨٥.
٩٤- المرجع السابق، ص٨٨.
٩٥- محمد على سعد الله، تطور المثل العليا، ص٣٦.
٩٦- المرجع السابق، ص٣٧.
٩٧- عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، جـ١، ص٣٦٧.
٩٨- المرجع السابق، ص٣٦٩.
٩٩- سليم حسن، مصر القديمة، جـ٢، ص٣٨.
١٠٠- المرجع السابق، ص٣٩.

١٠١- إبراهيم رزقانه وآخرون، ص٩٩.
١٠٢- عبد القادر حمزة، على هامش التاريخ المصرى القديم، ص٥٤.
١٠٣- برت إم هرو، كتاب الموتى الفرعونى، ترجمة فيليب عطية، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٨٨، صفحات مختلفة.
١٠٤- محمد بيومى مهران، دراسات فى الشرق الأدنى القديم (٢) مصر، دار المعرفة الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٨، ص٣٧.
١٠٥- عبد المنعم أبو بكر، إخناتون، وزارة الثقافة، القاهرة، سلسلة المكتبة الثقافية (٣٥)، أبريل ١٩٦١، ص٣٩.
١٠٦- حسن محمد السعدى، المعالم الرئيسية لتاريخ مصر الفرعونية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٥، ص٢٧٤.
١٠٧- المرجع السابق، ص٢٧٥.
١٠٨- ديورانت، قصة الحضارة، جـ٢، ص١٧٦.
١٠٩- المرجع السابق، ص١٧٧.

الفصل الثالث

فلسفة التعليم وأهدافه

تقدير العلم وإعلاء قدر حملته:

قد لا يكون من قبيل المبالغة، على الرغم من أن حديثنا يتصل بعصور سحيقة فى القدم، أن نرجح أن المصريين القدماء قد أنزلوا العلم والمتعلمين منزلة لا تساويها منزلة.

وإذا كان المصريون لم يجعلوا للمدرسة ربا يعبد كما عرف عن السومريين، لكنهم رأوا فى المعرفة كلها ربا يعبد سموه (توت) وجعلوه فى هيئة الطائر أو الرجل الذى له رأس الطائر تارة وفى هيئة الحيوان تارة أخرى، أى أنهم رمزوا إليه بطائر مرة وبحيوان مرة أخرى، فأما الطائر فهادئ، وقور، وهو (أبو منجل)، وأما الحيوان فذكى نشط ينظر دائما نظرة المتأمل وهو (القرد)[1].

وكان (توت) فى عقيدة المصريين ملهم الحكمة، ورسول العلم، ورب السحر، وأمين السماء، وهو الذى ابتدع اللغة، وأحكم دورة الزمن، وصنع التقويم، وسطر القوانين، وحدد العدد، وعلم الحساب، وهو الذى يرعى الكتاب لأصحاب العلم و المعرفة، ويحميهم، وهو الذى يبتهل إليه المعلمون، ويضرع إليه طلاب المعرفة وعشاق الثقافة أن يتولاهم برعايته ويؤيدهم ويلهمهم الحكمة والمعرفة. فلنستمع إلى واحد من طلاب المعرفة يبتهل إليه بالدعاء فيقول:"إلى ياتوت، أيها الطائر المقدس، أيها الرب الذى يهدى (الأشمونين). أنت يا من يسطر رسائل التاسوعة، ياعظيم الأشمونين، إلى لتهذبنى وتهدى إلى من تجاربك فى صناعتك. إن صناعتك لتفضل كل حقيقة (فى الوجود)، فهى التى تسمو بالإنسان، ومن حذقها كان أهلا للمشورة، لقد رأيت

كثيرين ممن هديت، أولئك الذين أصبحوا اليوم فى مجلس الثلاثين أقوياء وأصحاب سلطان بفضل ما صنعت (لهم). أنت الذى هديتهم، وانك لتهدى من لا أم له. إن الحظ والسعادة بين يديك، إلى لتهذبنى، فأنا من سدنة بيتك. دعنى أعرفك عن طريق صنعتك أينما كنت. وهناك سوف يقول الناس ما أعظم ما صنع (توت). ولسوف يأتون بأولادهم ليسموهم بسمة صنعتك، وأنها لصنعة جميلة من لدن رب قوى وسعيد من يمارسها"[٢].

وإذا كان لقب (الكاتب) هو الشائع فى الآثار المصرية مما يشير إلى انصراف هذا اللقب إلى التعبير عن شاغل وظيفة كتابية، لكن يلاحظ ازاءه أن من تماثيل الكبراء التى مثلتهم فى جلسة الكاتب البسيط المتربع ما يمثلهم فى سن متقدمة بلغوا فيها أرفع مناصبهم، وذلك مما يرجح أن يكون هدف أصحابها هو التعبير عن فكرة تحصيلهم ثقافة الكاتب أكثر من التعبير عن وظيفة تعليمية يتقلدونها ولا يخلو من دلالة فى ذلك أن أقدم تماثيل الكتبة المعروفة كانت لأمراء، وأن من كتبة الدولة الحديثة من صوروا فى مكاتبهم يجلسون على المقاعد المرتفعة دون جلسة التربع البسيط التى اتخذها ابن حابو وحور محب، وذلك مما يزكى أن هذين الأخيرين قد استهدفا من جلسة الكاتب القديم مدلولها وليس وظيفتها، وبهذا فليس ما يحول دون أن نعتبر لقب الكاتب لدى المصريين، وسنجد أن ممن كانوا يتلقبون به المعلم وتلميذه على السواء، كان يرادف فى بعض أحواله لقب المثقف أو المتعلم[٣]، ويمكن أن يستشهد هنا بما كان للقب (الكاتب) عند العرب من معنى واسع، ففيه يقول ابن الاعرابى "الكاتب عندهم العالم، وقد قال تعالى "أم عندهم الغيب فهم يكتبون"، وفى كتاب الرسول إلى أهل اليمن قال:"قد بعثت إليكم كاتبا من أصحابى" -أراد عالما سمى به لأن الغالب على من كان يعرف الكتابة أن عنده العلم والمعرفة، وكان الكاتب عندهم عزيزا وفيهم قليلا"

أما فيما يتعلق ببقية التماثيل التى اتخذت جلسة الكتبة، فإن استنتاج هدف التعبير عن ثقافة الكاتب من بعضها لا ينفى أهدافا أخرى إلى جانبه، فمن هذه التماثيل ما جمع إلى جلسة الكاتب عمل القارئ حيث نشرت على فخذيه صحيفة البردى كتبت عليها دعوات للقربان، وذلك مما يرجح غرض صاحبه فى أن يقوم ممثلا فى تماثيله بتلاوة صيغ القربان بنفسه ولمصلحته الخاصة. وكان منها ما وضع فى معابد الشعائر الآخروية للملوك وذلك مما يدعو إلى احتمال رغبة أصحابها فى أن يبعثوا على هذه الهيئة فى خدمة فراعنتهم فى العالم الثانى. وكان حمل أدوات الكتابة فى الرسوم والصور المنقوشة - فى الدولة القديمة بخاصة - يعتبر من دلائل الشرف ويؤدى نفس الدلالة الى كان يؤديها تمثال الكاتب لصاحبه(٤).

وعرف المصريون، إلى جانب (توت) ربة للكتابة والتسطير سموها (سشات)، وكانت موكلة بالتسطير والتسجيل والحساب، كما كانت ربة خزانة الكتب.

واعتبر المصريون معرفة الرسم والتسطير مظهرا من مظاهر النشاط الإلهى الخلاق، وآمنوا بما للكلمة والصورة من قوة خلاقة، فبالصورة يرسم الشئ فيصبح له كيان، وبالكلمة يحدد معناها، فيصبح له فى مجال المعرفة مكان فما لا اسم له لا وجود له. وعند المصريين أن حدث الخلق كان بناء على (الكلمة)، فالإله الأول (الله) قال كلمته، ثم أعطى كل شئ خلقه (أى صورته)، ثم هدى (أى أعطى كل شئ اسمه ووظيفته)، فليس عجيبا بعد ذلك أن تصبح اللغة - ونواتها الكلمة مقدسة، فأولها (الكلمة) جرى على لسان الله، وصورة النطق بها (أى الكتابة) مقدسة من أجل ذلك لأنها صورة من القدرة الإلهية(٥).

وفى موضوع مدرسى من عصر الرعامسة، أخذ معلم يبصر تلاميذه بسمو مبدأ تقدير العلم لذاته، قائلا له: "إن كتابا لاحدا، لأعز قيمة من بيت البانى، ومن مقصورة فى الغرب، وأنه لأجمل من قصر مشيد ومن نصب تذكارى فى معبد"، وتناول المعلم جماعة من الآخذين بهذا المبدأ وهم الكتاب العلماء، الذين قامت كتبهم "مقام المقاصير والأهرامات فى ترديد أسمائهم"، وذكر منهم حور ددف وإيموحتب ونفرى وخيتى وبتاح م تحوتى وخع خبر رع سنب وبتاح حوتب وكايرسو. ثم وصف جانبا من حياة العلم التى اختاروها والتى أدت بأسمائهم إلى الخلود قائلا أنهم اعتبروا (الكتابة) كاهنا مرتلا ولوح الكتابة فاعمل (على أن تصبح) كاتبا وقرها فى ذهنك حتى تصبح شهرتك مثلهم. وقام إلى جانب هذا المعلم فى الدولة الحديثة آخرون كانوا يرغبون فى مثل مذهبه، وكان من قول أحدهم لتلميذه "أنها (الكتابة) أعز من إرث فى مصر ومن قبر فى الغرب". وقال: "هى ألذ من إمتاع النفس بسلة من باى (؟) وخروب". وقريب من هؤلاء الذين سجلوا فضل العلم فى خلود ذكر العلماء، جماعة ردوا شهرتهم بالذات إلى القلم دون غيره، وقال قائلهم "جعلنى يراعى من أصحاب المعرفة" وقال "(انى) من جعله يراعه مشهورا أو من هب له قلمه أن يشتهر)" وان كان هؤلاء الأخارى فيما يبدو أقرب إلى تقدير العلم المادى منه إلى العلم الخالص[١].

ولم يشذ الفراعنة أنفسهم عن هذا الاتجاه فى النظر إلى الكتابة وأصولها المقدسة، فظهر رمسيس الثانى فى بعض صوره يحمل لوحة الكتابة بمحبرتها وأقلامها، وجرى أبناؤهم الأمراء على مذهبهم، وظهر بعضهم فى تماثيله على هيئة الكتاب والقراء.

وربط مصريون آخرون بين المعرفة وبين كرامة الآخرة، فتصوروا رب الآخرة أوزيريس يغضب إذا وفد عليه جاهل، ويقول لمن وفد به

إليه "أتأتى إلىَ برجل جاهل، لا يعرف كيف يعد أصابعه؟". وتصوروا أن أحدهم لن يقترب من ربه (تحوتى) رب المعرفة فى عالم الآخرة، ما لم يؤكد لحارس كتابه، أنه من أهل الكتاب وأهل المعرفة(٧).

وترتب على هذه التصورات وأمثالها، أن الكهنة لم يأبوا أن يتمنوا للفراعنة فى نصوصهم الدينية، منزلة الكتاب والعلماء فى أخراهم، كما دعوا لكبار الأفراد بمنزلة الكتاب والمفسرين فى عالمهم الآخر.

وامتاز عن هؤلاء وهؤلاء من دعاة المعرفة، فريق ثالث، قليل عدده فى كل مجتمع وزمان لم يستهدف أصحابه من وراء المعرفة غرض الجاه وحده، ولا رضاء الأرباب وحده، وانما استهدفوا من ورائها كذلك متعة التذوق، وحب المعرفة لذاتها. واستقام نفر من المصريين على هذا المذهب، وأوشكوا أن يتبتلوا لحياتهم الفكرية، لولا أن مجتمعهم لم يألف تبتلا ولا عزلة، فخلد ذكرهم على مر العصور، وروى عنهم أنصارهم بعد أن مرت على وفاتهم عهود طويلة، أنهم صدفوا عن تراتيل الكهان وضخامة القبور، على خلاف أهل زمانهم، وعزفوا عن الخليلة والولد، واعتبروا المحظوظ كاهنهم المرتل، واللوح ولدهم المخلص، وجعلوا التعاليم أهرامهم، وقلم الغاب ولدهم وصفحة الحجر زوجتهم(٨).

لكننا لا نستطيع أن نرتب على كل هذا (شيوع) العلم وكثرة التعلم، ذلك أن التعلم لم يكن من الأمور الميسورة فى مصر الفرعونية، ولم يكن الطريق إلى المدرسة معبدا دائما، غير أن الميل إليه والرغبة فيه كانتا غالبا شائعة بين كثيرين، فهم قد كانوا يشهدون ما يجنى المتعلمون من ثمار التعليم، وهم قد كانوا يكرهون – كما قدمنا – الجهل ويفرون منه، بل كانوا يعدونه قذرا ينبغى أن يزال، بالتعليم، كما ينبغى أن يغسل القذر بالماء(٩).

فلنستمع إلى ما جاء فى قول حكيم من حكمائهم حين أخذ يتحدث عما ضم كتابه من فصول بلغ عددها ثلاثين، فينصح القارئ قائلا:

طالع هذه الفصول الثلاثين
انها لتتحدث، وانها لتعلم
انها جماع ....
انها تصير الجاهل عالما
وانه ليتطهر بها
املأ بها نفسك وأقرها فى صدرك
لتصبح رجلا يقدر على شرحها
فتشرحها كمعلم(١٠).

والبراهين على تقدير المصريين للعلم وأهله، ونفورهم من الجهل والجهال كثيرة، لا يكاد يحصيها العد، فمن ذلك أن يقال للصبى لا تكن بغير لب كمن لم يتعلم، أو قولهم: أن الأحمق من عدم المعلم، ومن لم يعلمه أبوه كان تمثالا من حجر.

الكتابة وأهميتها:

الكتابة هى أولى مظاهر الحضارة بالتقديم، فهى الصفة المميزة لها، وهى الدليل الذى يميز المجتمع المتحضر عن غيره، وهى بالنسبة إلى العصور القديمة تفصل بين عهدين مختلفين: عهد اقتصرت معلوماتنا، فيه على الآثار المادية وحدها مما لا يفى بمعرفة ما حفل به من أحداث وعقائد وأفكار، وبين عهد يتميز بنصوصه وكتاباته، مما يعول عليه كثيرا فى دراسة مختلف نواحى النشاط فيه، ولهذا يعتبر أول ظهور الكتابة بداية التاريخ الصحيح للأمم والشعوب على اختلافها(١١).

والرأى السائد بين علماء اللغات فى العالم أن المصريين هم أول من اخترع نظاما للكتابة، والمتفق عليه حتى الآن أن الفينقيين قد نقلوا عن المصريين نظام كتابتهم ومن ثم إلى أوروبا بعد تحوير وتبديل فى شكل الحروف الأبجدية(١٢).

والواقع أن اختراع مصر للكتابة قد وضعها فى مكانة ممتازةعن باقى أمم العالم، وجعل الحياة العقلية تنمو وتزدهر فيها فى وقت كانت الأمم الأخرى فى أنحاء العالم قاطبة لا يزال أهلها يعيشون مع الحيوانات المفترسة فى الغابات والأحراج، ولذلك كان لزاما علينا أن نتكلم بالاجمال هنا عن الكتابة المصرية وكيفية نشوئها لأنها أقدم كتابة معروفة. وتدل كل الظواهر على أن نظام الكتابة فى مصر قد بدأ بالصور كما فعل غير المصريين، وهذه الطريقة فى الواقع غير محكمة وقد استعملت ليتذكر بها الانسان شيئا ما فى ذهنه، ويصعب على شخص آخر أن يكشف الفكرة المراد التعبير عنها بالصور.

خذ مثلا خياليا لذلك: إذ اتفق شخصان على أن يورد أحدهما للآخر فى مدة ثلاثة أشهر ثورا وفى مقابل ذلك يعطيه الطرف الآخر خمس جرات من عسل النحل، فيكفى لتفاهم كليهما رسم القمر ليعبر عن الشهر، والثور والنحلة والجرة، ثم يضاف إلى ذلك ثلاث شرط أفقية لتدل على عدد الأشهر، وإذا وضعت أمام شخص آخر هذه الإشارات فإنه لا يمكنه أن يفهم بالتحقيق المراد منها.

وعلى ذلك كان لابد لهذا التركيب الأول من أن يرتقى كثيرا. وقد حاول كل قوم على حدتهم بطرقهم الخاصة ذلك حتى وصلوا إلى كل أنواع الكتابات والكلمات والمقاطع، وكان للمصريين وحدهم الحظ فى أن اتبعوا طريقة مجدية وصلوا بها إلى خير شكل للكتابة، الحروف الأبجدية(١٣).

وتمثل علامات الكتابة الهيروغليفية حيوانات وادى النيل ونباتاته، وأدوات المصريين وآلاتهم، وما أنشأوه من منشئات، وكل هذا لا يدع مجالا للشك فى أن الكتابة الهيروغليفية المصرية انما كانت من ابتداع المصريين أنفسهم، ويدل ما حفظ منها من عهد الأسرة الأولى على أنه قد اكتملت لها إذ ذاك خصائصها الأساسية التى لازمتها طوال تاريخها، وأن قواعدها قد استقرت إلى حد كبير. ومنذ الأسرة الثانية بدأ الخط الهيروغليفى يتخذ مظهره النهائى وأصبح شكله ونظام علاماته بعضها ببعض ذا طابع فنى جديد يمتاز بالوضوح والجلاء والتناسب. وتتألف العلامات الهيروغلفية من: علامات تصويرية، نعنى الشئ المرسوم نفسه أو ما يتصل به، وقد كانت لها أهميتها فى تقييد الأفكار دون الألفاظ، ثم علامات صوتية، وهذه لم يكن الغرض منها الدلالة على ما تمثله وانما مجرد لفظة أو نطقة. وأخيرا علامات مفسرة، وكانت تلحق بنهاية العلامات الصوتية لتعيين المعنى وتخصيصه على وجه التحديد أو للدلالة عليه بصفة عامة(١٤).

ويلاحظ الباحث على الكتابة المصرية فى فترة اعتمادها على التصوير مدى تأثر هذه الكتابة بالبيئة المصرية وما تحتويه من مظاهر كونية، فقد لاحظ المصرى شروق الشمس وغروبها يوميا بلا انقطاع، وعلى ذلك فإنه عندما أراد أن يعبر عن كلمة (يوم) فى كتابته اتجه تفكيره نحو الشمس التى يحدد شروقها بدء يوم جديد وغروبها انتهاءه، وعندما أراد أن يعبر عن كلمة (شهر) فى كتابته، اتجه تفكيره نحو القمر الذى يظهر فى السماء المصرية أول الشهر كهلال ثم يكبر شيئا فشيئا حتى يصبح بدرا فى وسط الشهر، ثم يأخذ فى التضاؤل حتى يعود سيرته الأولى فى نهاية الشهر، وهكذا، ومن ثم فقد استخدم المصرى صورته فى كتابته لتعبر عن كلمة (شهر)، ويعبر ذلك عن ارتباط الفكر الحضارى المصرى القديم فى هذه العصور المبكرة بالبيئة

المصرية وما تحويه من مظاهر كونية حظيت باهتمام المصرى وملاحظته منذ تلك العصور المبكرة[١٠].

ولما كانت بعض المعانى مجردة إلى حد يصعب معه تصويرها تصويرا حرفيا فقد استعيض عن التصوير بوضع رموز للمعانى، فكانت بعض الصور تتخذ بحكم العادة والعرف للتعبير عن الفكرة التى توحى بها لا عن الشئ المصور نفسه، فكان قدم الأسد يعبر عن السيادة: (كما هو فى تمثال أبى الهول)، وكان الزنبور يعبر عن الملكية، وفرخ الضفدع عن الآلاف. ثم تطورت هذه الطريقة تطورا جديدا فى هذا الطريق نفسه، فأصبحت المعانى المجردة التى عجزوا فى بادئ الأمر عن تصويرها يعبر عنها برسم صورة لأشياء تشبه أسماؤها مصادفة الألفاظ التى تعبر عن هذه المعانى، ومن ذلك أن صورة المِزْهر لم تكن تعنى المزهر نفسه فحسب بل كان معناها أيضا طيب أو صالح لأن منطق اسم المزهر فى اللغة المصرية – نِفِر – شبيه بمنطق اللفظ الذى يعبر عن معنى طيب أو صالح – نُفِر – ونشأت من هذا الجناس اللفظى، أى من الألفاظ المتفقة فى اللفظ والمختلفة المعنى – تراكيب غاية فى الغرابة[١١].

ومن وثائق عصر الدولة الحديثة نجد نصائح (آنى) لابنه (خنسحتب) التى تظهرنا على أهمية تقدير الكتابة والمعرفة وسمو عمل العالم، يقول: "إذا كنت ماهرا فى الكتابة: فإن الناس أجمع يفعلون ما تقوله. إذن خصص نفسك للكتب، وضعها فى لبك، وبذلك يكون ما تقوله ممتازا، كل وظيفة يعين فيها الكاتب، فإنه (لابد) يستشير فيها الكتب (وبذلك يلازمه النجاح)، فليس هناك ولد لملاحظ الخزانة ولا وارث لملاحظ الحصن. الوظائف لا أولاد لها ... (وفى هذه الحالة يحصل عليها الأكفاء الذين تعلموا كثيرا)"[١٧].

ومن عجيب ما وجد من آثار كتاب أشبه بالموسوعة ينبئ بشئ ولو ضئيل من الوعى بأهمية (التثقيف العام) للتلاميذ بصفة خاصة، وقد وصفه كاتب كتاب الإله فى بيت الحياة (أمنموبى) ابن أمنمولى. وقد اتخذ كاتب هذه الوثيقة لنفسه دور الكاتب الذى أراد أن يعلم التلاميذ العلوم كافة، لذلك يحمل كتابه عنوانا مطولا، إذ يقول: "التعاليم التى تجعل الفرد أريبا، وتعلم الجاهل علم كل كائن، وكل ما صنعه (بتاح) وما سجله (تحوت) والسماء ونجومها والأرض وما عليها وما تخرجه الجبال وما تجود به البحار وما له علاقة بكل الأشياء التى تضيئها الشمس وكل ما ينمو على الأرض"[١٨]

ولا جدال فى أن هذا العنوان له رنة عظيمة فى الآذان، إذ يجعل المستمع ينتظر معلومات ضخمة تكشف له الغطاء عن علوم هؤلاء القوم، غير أن الأمر أهون من ذلك، فالكتاب فى حد ذاته لا يخرج من مجموعة كبيرة من أسماء وألقاب، بعضها متداول معروف، وبعضها نادر غير مألوف، وقد وضعت بنظام مرتب ترتيبا منطقيا لا بأس به، فيذكر لنا أولا السماء وما فيها: السماء، والشمس، والقمر، والنجوم، والجوزاء، والدب الأكبر، والقرد المارد، والخنزيرة، والسحاب، والعاصفة، والفجر، والظلام والضحى والفئ ... وأشعة الشمس، ثم يتلو ذلك أشكال المياه الموجودة فى الطبيعة، فيذكر النهر والبحر والبركة وخزان المياه، ثم ينتقل إلى موضوع الصور الأرضية والنباتات والتربة، ثم يذكر فى ست مجاميع الألفاظ التى تدل على الكائنات الحية، فيذكر العلوية منها أولا، وهى الآلهة والإلهات والأرواح الذكور منها والإناث، ثم يعدد لنا المخلوقات البشرية مرتبة حسب مراكزهم فى المجتمع، فنجد أولا الملك، ثم الملكة، ثم يذكر لنا بعد ذلك كبار الموظفين، فرؤساء رجال الدين والعلماء، ويلى ذلك السواد الأعظم من صغار الموظفين، وأصحاب الحرف، وبعد ذلك يضع أمامنا التعابير التى يعبر بها عن بنى البشر، والجنود وأسماء

الشعوب الأجنبية والأماكن المختلفة، ثم ينتقل إلى ذكر أسماء ست وتسعين مدينة مصرية واثنين وأربعين اصطلاحا للمبانى وأجزائها، ومسميات للأراضى والحقول، ثم يعدد لنا كل ما كان يأكله الإنسان أو يشربه، ويدخل فى ذلك ثمانية وأربعين بزعامة اللحم المطبوخ[١٩]، وأربعة وعشرون نوعا من الشراب، وثلاثة وثلاثون نوعا من اللحم النيئ. وفى الجزء الثانى الذى وجد محطما، كان قد كتب عليه مسميات عن مختلف الطيور، وعدد عظيم من أسماء الماشية وغير ذلك من الأسماء التى جمعها (أمنموبى) بعناية ليضع أمام العالم صورة عن كل كائن، شاكرا للآلهين (بتاح) و(تحوت). ولا شك فى أن غرضه من جمع تلك المسميات وترتيبها تعليم تلاميذه كتابة المفردات كتابة صحيحة.

ولدينا كتاب أدبى من عصر الدولة الوسطى يحتوى على نصائح والد لابنه، وقد نقلته مدارس (الكتبة) وهو كتاب النصائح التى وجهها (خيتى بن دواوف) لابنه (بيبى) وقد ظلت هذه التعاليم أو النصائح تعرف بتعاليم (دواوف) إلى عهد قريب. والواقع أن صاحبها هو (خيتى بن دواوف)، وهذه التعاليم تصف لنا بصورة قاتمة عنيفة البؤس والشقاء الدائم الذى كان يعانيه كل فرد لا يحترف الكتابة (أى غير متعلم)، إذ كان الموظف المتعلم يعتبر مسيطرا على الناس، وكان يغبطه على عمله كل أصحاب الحرف الأخرى. وإذا كانت الأوصاف التى جاءت فى هذه التعاليم صحيحة فى تفاصيلها، فإنها تضع أمامنا صورة تدل على روح يغمره التحيز[٢٠]، أنها تعاليم ألقاها مسافر اسمه خيتى بن دواوف، لابنه (بيبى) فى سفينة حينما سافر مصعدا فى النهر إلى عاصمة الملك ليلحق ابنه بالمدرسة بين أولاد الحكام. وهذا العنوان وحده يكشف لنا عن حقائق خطيرة من الوجهة التعليمية والتاريخية، فمنه تعلم أنه كان يوجد مدرسة جامعة يتعلم فيها أولاد علية القوم فى عاصمة الملك، وأن العاصمة كانت وقتئذ فى الوجه القبلى، لأنه كان

على (خيتى) أن يقلع بسفينته مصعدا فى النهر. ومن الجائز أنها كانت وقتئذ (أهناسية المدينة) أو (طيبة). هذا إلى أن هذه المدرسة كان يعلم فيها أولاد حكام المقاطعات ومن فى طبقتهم.

ونجد أن أول ما يلقى (خيتى) على ابنه من النصائح هو أن يرسم له صورة قبيحة للجاهل، ثم يغريه بأن يحب العلم أكثر من حبه لأمه، ويقول أنه عاجز عن تصوير جماله، ثم يشير إليه بأن صناعة الكتابة تفوق كل الحرف، وأنه لو تعلمها هناه القوم على ذلك فيقول[٢١]: "لقد رأيت من ضُرب، فعليك أن توجه قلبك لقراءة الكتب، ولقد شاهدت من أعتق من الأشغال الشاقة، تأمل: لا شئ يفوق الكتب".

اقرأ فى نهاية "كمت"(لعله اسم كتاب قديم)، تجد فيه هذه: ان الكاتب عمله فى كل مكان فى حاضرة الملك، ولن يكون فقيرا. والرجل الذى يعمل على حسب عقل غيره لا ينجح ليتنى أجعلك تحب الكتب أكثر من والدتك، وليت فى مقدورى أن أظهر جمالها أمام وجهك. وأنها أعظم من أى حرفة ..، وإذا أخذ التلميذ فى سبيل النجاح، وهو لم يزل طفلا، فان الناس تهنئه، ويكلف تنفيذ الأوامر، ولا يعود إلى البيت ليرتدى ثوب العمل (مثل أرباب الوظائف الأخرى).

بعد ذلك يصف الأب لإبنه الفرق بين مهنة الكاتب وما ينال صاحبها من الشرف وبين المهن الأخرى التى يكون من جرائها تعب الجسم واضمحلاله، وتعرض محترفيها للأخطار، فيقول: "على أننى لم أر قط قاطع أحجار كلف برسالة، ولا صانعا أرسل فى مهمة"، ثم يتناول بالشرح كل مهنة وما فيها من متاعب وحقارة بالنسبة لمهنة الكتابة[٢٢].

وفى النهاية: نرى (خيتى) يقول لابنه: أنه قد وضعه على الطريق الآلهة، وأن ربة (حصاد الكتاب) على كتفه من ولادته، أى أنه لن يقاسى آلام الحاجة، وأنه بفنه يصل إلى أعلى وظيفة فى البلاط بأن يصبح عضوا فى المجلس الأعلى للحكام "قنبت"، بل قد يكون الرئيس فيه بما أوتيه من علم وحكمة، ثم يخبره أن هذه الطريق ممهدة أمامه وأمام أولاد أولاده(٢٣)

نظرات فلسفية:

لقد اعتاد مؤرخو الفلسفة أن يبدأوا قصتهم باليونان، وإن الهنود الذين يعتقدون أنهم مخترعوا الفلسفة، والصينيين الذين يعتقدون أنهم بلغوا بها حد الكمال، أن هؤلاء يسخرون من ضيق عقول الغربيين وتعصبهم، ولعلهم جميعا مخطئون فى ظنهم، لأننا نجد بين أقدم القطع المتناثرة التى خلفها لنا المصريون الأقدمون كتابات تمت بصلة إلى الفلسفة الأخلاقية، ولقد كانت حكمة المصريين مضرب المثل عند اليونان الذين كانوا يعتقدون أنهم أطفال بالقياس إلى هذا الشعب القديم، وأقدم ما لدينا من المؤلفات الفلسفية (تعاليم بتاح حتب)، وتاريخه يرجع فيما يبدو لنا إلى سنة ٢٨٠٠ ق.م، أى إلى ما قبل كونفوشيوس وسقراط وبوذا بألفى عام وثلاثمائة. وكان بتاح حوتب هذا حاكما على منف وكبير وزراء الملك فى أيام الأسرة الخامسة. فلما اعتزل منصبه قرر أن يترك لولده كتابا يحتوى على الحكمة الخالدة، ثم نقل بعض العلماء المصريين قبل عهد الأسرة الثامنة عشرة هذا الكتاب باعتباره من أمهات كتب القدماء ويقول الوزير فى كتابه(٢٤):

"أى مولاى الأمير: ان الحياة تقترب من آخرها، ولقد حل بى الضعف، وعدت إلى مرحلة الطفولة الثانية، والمسن يلاقى البؤس فى كل يوم من أيامه، فعيناه صغيرتان، وأذناه لا تستمعان، ونشاطه يقل،

وقلبه لا يعرف الراحة. فمر خادمك إذن أن يخلع سلطانى الواسع على ولدى، واسمح لى أن أحدثه بألفاظ الذين يستمعون إلى رجال الأيام الغابرة، أولئك الذين استمعوا إلى الآلهة فى يوم من الأيام. أتوسل إليك أن تسمح بأن يُفعل هذا"

ويتفضل الملك فيأذن له، ولكنه مع ذلك ينصحه بأن "يتحدث دون أن يبعث الملل" فى نفوس سامعيه، وهى نصيحة ليست الآن عديمة النفع للفلاسفة، فلما أذن له، أخذ بتاح حوتب ينصح ولده بقوله[٢٠]:

"لاتزه بنفسك لأنك عالم، بل تحدث إلى الجاهل كما تتحدث إلى الحكيم، لأن الحذق لا حد له، كما أن الصانع لا يبلغ حد الكمال فى حذق صناعته، والكلام الجميل أندر من الزمرد الذى تعثر عليه بين الحصا ... فعش إذن فى بيت اللطف يقبل عليك الناس طائعين ويقدموا لك الهدايا .. واحذر أن تخلق لنفسك الأعداء بأقوالك .. ولا تتخط الحق ولا تكرر ما قاله إنسان غيرك، أميرا كان أو فلاحا، ليفتح به قلوب الناس له، لأن ذلك بغيض إلى النفس.

وإذا أردت أن تكون حكيما، فليولد لك ولد لتسر الإله بذلك ... فإذا سار فى سبيله مقتديا بك، وإذا نظم أمورك على أحسن وجه، فقدم له كل الخير ... أما إذا كان عديم المبالاة، وخالف قواعد السلوك الطيب، وكان عنيفا، وإذا كان كل ما يخرج من فيه هو فحش القول، فاضربه، حتى يكون حديثه صالحا ... وفضيلة الابن من أثمن الأشياء للأب، وحسن الأخلاق شئ لا ينسى قط.

وحيثما ذهبت فاحذر الاتصال بالنساء .. وإذا شئت أن تكون حكيما، فمون بيتك وأحب زوجك التى بين ذراعيك .. واعلم أن السكوت أنفع لك من كثرة الكلام. وفكر فى أنك قد يعارضك خبير ممن يتحدثون فى

المجلس، ولذلك كان من السخف أن تتكلم فى كل نوع من أنواع العمل..

وإذا كنت ذا سلطان فاسع لأن تنال الشرف عن طريق العلم ورقة الطباع ... واحذر أن تقاطع الناس وأن تجيب عن الأقوال بحرارة، ابعد ذلك عنك، وسيطر على نفسك".

ويختم بتاح حوتب نصائحه بهذه العبارة التى تمتلئ بالفخر والاعجاب[٢٦].

"لن يمحى من هذه البلاد إلى أبد الدهر لفظ من الألفاظ المدونة هنا، ولكنها ستتخذ نماذج وسيتحدث عنها الأمراء أحسن الحديث ... ان كلماتى ستعلم الرجل كيف يتحدث .. أجل أنه سيصبح انسانا حاذقا فى الطاعة، بارعا فى الحديث، وسيصيبه الحظ الحسن .. وسيكون ظريفا إلى آخر أيام حياته، وسيكون راضيا على الدوام"

لكن هذه الروح المتفائلة تقابلها روح أخرى يخيم عليها اليأس من الحياة والتشاؤم سادت بصفة خاصة فى أواخر الدولة القديمة، وعبر عنها حوار سجله أديب مصرى على بردية بين رجل سئم عيوب الحياة فى عصره، وبين روحه، جاعلا الروح تتحدث فى هذا الحوار كأنها شخص مستقل، ودعته الروح إلى عدم اليأس محاولا تشجيعه على الحياة: ابتغ يوما هنيئا وتناسى الهم، لكنه ظل على موقفه، ونظم اجابته لها فى أربع مقطوعات قصار، وكشف لها فى الأولى عما أصاب سمعته وكرامته، نتيجة فيما يحتمل لتكفله بدعوة لم تجد سميعا ولا مجيبا بقدر ما قوبلت به من صد واساءة، فقال فى بيتين من أبياتها التى بدأت ببدايات متشابهة فى كل نظم على حدة[٢٧]:

كفاك أن عيف اسمى كفاك أكثر من رائحة الرخم فى نهار صائف اتقدت سماؤه

كفاك أن عيف اسمى كفاك، أكثر من سمعة زوجة ردد الناس البهتان عنها لبعلها.

وفى نظمه الثانى، أخذ يأسى على زوال المستجيب والصديق والقريب وانتفاء الخير قائلا:

لمن أتحدث اليوم – والأشقاء أشرار– وأصدقاء اليوم لا يرغبون!

لمن أتحدث اليوم–وقد قر الناس على السوء–وأهملت الحسنى فى كل مكان!

لمن أتحدث اليوم – وما عاد أحد يذكر الماضى – ولا معونة لأحد يعمل فى هذا الزمان!

لمن أتحدث اليوم – وما من رضى الفؤاد – ومن كان يرافق لم يعد له وجود!

لمن أتحدث اليوم – وبأساء ألمت بالبلاد – ما لها من حدود!

وفى نظمه الثالث عاود الرجل ذكر الموت، فما تصور دونه خلاصا من عجز مسعاه وما رآه من لؤم الطباع، وقال فيما قال:

بدا الموت أمامى اليوم كالبرء للسقيم والخروج إلى الفضاء بعد حجز

بدا الموت أمامى اليوم كعبير المر وجلسة تحت ظلمة فى يوم ريح صر

بدا الموت أمامى اليوم كتشوق رجل إلى وطنه بعد سنين عدة فى الأسر

وبعد أن فرغ من تشوقه إلى الموت، كما فرغ من قبل من ذكر مبررات ضيقه بالحياة، أكد فى نظمه الرابع الحياة بعد الموت، حيث الثواب وحسن المآب قائلا فيما قال(٢٨):

وأيم الحق، من وصل هناك، سيكون ربا يحيا، ويرد الشر على من أتاه

وأيم الحق، من وصل هناك، سيكون عالما بالأمر ولن يصرف عن شكواه لرع إذا ناجاه

وبعد انقضاء عصر بناة الأهرام، أخذ يظهر للعيان بازدياد مطرد بطلان الاعتماد على العوامل المادية، فإن ارتكان الملوك العظام الذين حكموا في عهد الأهرام على مثل هذه الوسائل المادية قد جعلهم يكافحون بلا طائل ضد الموت مدة قرون عدة، وهذا الكفاح قد أخذت آثاره المتداعية تدل في كل يوم على خيبة الطرق المادية في أداء الغرض منها، فقد كان صراع أولئك الجبابرة الذي استمر نحو خمسمائة سنة يتمثل جليا أمام الأعين في هيئة سور عظيم من الأهرام يمتد نحو ستين ميلا على حافة الصحراء الغربية، وكأنه خط من الحصون الأمامية الصامتة يشرف على حدود الموت وبعد ما يقرب من ألف عام أصبحت هذه الجبانة الهرمية ثاوية في صمت مقفر تشير إلى فشل الحماية التي كان يقوم بها آلهة الصحراء الجنازيون القدامى(٢٩).

على أنه إذا كان قد وجد في عصر الأهرام بعض الفتور في الاعتقاد بأن الإنسان بالقوة المادية المحضة يمكنه أن يتحكم في الخلود، فإن منظر تلك الخرائب الهائلة الآن قد أيقظ هذه الشكوك عند هؤلاء الحكماء، وزاد فيها حتى جعلها شكا علنيا، وهذا التشكيك قد عبر عنه بعد ذلك العهد بزمن قصير في صورة أدبية ذات تأثير ظاهر.

ولا شك أن ذلك العصر قد بعد كل البعد عن عهد التسليم بالعقائد التقليدية دون معارضة منها كما ورثت عن الآباء. فإن عقيدة التشكك تعني تجربة طويلة للعقائد الموروثة وبحثا مستمرا فيما كان معترفا به

حتى ذاك الوقت دون تفكير، ثم الشعور بالمقدرة الشخصية على الاعتقاد فى الشئ أو انكاره، وهى تعد خطوة مميزة إلى الأمام نحو نمو الوعى النفسى والوازع الشخصى[٣٠].

على أن عقيدة التشكك هذه لا تنمو إلا بين أفراد الشعب الذى له مدنية ناضجة، ولا تنبت قط فى الأحوال الفطرية، ولذلك فإن ذلك العصر، البالغ نحو خمسمائة سنة والذى يمثل قمته أولئك المتشككون الذين جاءوا عقب سقوط الاتحاد الثانى، يعد عصرا هاما فى تاريخ التقدم العقلى عند البشر. وقد عبر هؤلاء الحكماء عن حالتهم العقلية فى مرتبة كانت تغنى غالبا فى نوع من الأعياد كان يحتفل به فى الجبانة أهالى الموتى وأقاربهم عند قبور أجدادهم الراحلين.

والقارئ لأحدى قصيدتين تمثلان هذه الروح التشككية تشير إلى نفس المعانى التى قرأناها فيما بعد فى رباعيات عمر الخيام .. المعانى التى تشك فى جميع الطرق التى ظن أنها تؤدى للحياة بعد الموت، وبدلا من ذلك، الأفضل الانغماس فى الملاذ الشهوانية فى الدنيا أنه يقول:

"شجع فؤادك على أن ينسى ذلك (عالم الموت)
ولتسر باتباع رغبتك
وأنت على قيد الحياة
وزد كثيرا فى مسراتك ...
واتبع ما تشتهى وما يطيب لك
وهيئ شئونك على الأرض
حسبما يمليه عليك قلبك
إلى أن يأتى يوم مغيبك[٣١]...

أما بالنسبة لتكوين الانسان، فقد شاع لدى قدماء المصريين أن كل فرد يتكون فى حقيقة الأمر من عناصر خمسة[٣٢]: الظل، وهو القرين اللامادى لكل شكل من الأشكال التى يمر بها الفرد على امتداد حياته، والـ(آخ) والـ(كا) والـ(با) وأخيرا (الاسم). والـ(آخ) ذو أصول شمسية، وهو العنصر النورانى الذى يفتح الطريق أمام المتوفى لبلوغ عالم النجوم عند انتقاله إلى العالم الآخر. أنه المظهر الذى تتخذه قوة الآلهة أو الموتى، وهو روحهم، أما الـ(كا) فهو القوى الحيوية الكامنة فى كل فرد، ويتكاثر حسب قوة صاحبها، فللإله (رع) على سبيل المثال أربعة عشر (كاو). والغذاء أمر ضرورى له للحفاظ على فاعليته، وإذا تم تجهز الجسد تجهيزا ملائما فإنه يقهر الموت، فإن الـ(كا) هو الذى يعاونه ليحيى حياة جديدة شبيهة بتلك التى عاشتها فى الدنيا. ويعتمد (الكا) فى وجوده على ركيزة مادية، كما يحتاج إلى الغذاء، ولهذا السبب، ومنذ وقت مبكر توصل المصريون إلى إيجاد بدائل للجسد المعرض للتلف والتحلل على هيئة تماثيل المتوفى.

أما الـ(با) فهو أيضا عنصر لا مادى، حامل لقوة صاحبه سواء كانإلها أو من الأموات أو من الأحياء، أنه أشبه بقرين الفرد وله استقلاليته بعيدا عن الجسد، ويصور علىشكل طائر ذى رأس بشرية، وهو يغادر الجثمان لحظة الوفاة ليعود إليه بعد اتمام عملية التحنيط. أنه بمثابة (ذات ثانية) للفرد يمكنه أن يتحاور معها، ويترجمه جمهور العلماء بكلمة (نفس)، وهى ترجمة اصطلاحية. أما (الاسم) فهو آخر العناصر الخمسة المكونة للفرد. وكان المصرى القديم يعتبره عملية خلق متجددة للفرد، سواء عند ولادته لما قامت أمه باختيار اسمه تعبيرا عن طبيعته وما يرجى له من مستقبل، أو فى كل مرة ينطق به. ويدور محور سلوك المصرى فى مواجهة الموت حول إيمانه الراسخ بقدرة الكلمة الخلاقة. أن تسمية شخص أو شئ يعنى بعثه إلى الوجود رغم اختفاء شكله المادى، ومن هنا نشأت ضرورة الاكثار من العلامات

الدالة عليه ولتسهيل التعرف عليه. ويجمع الهيكل الجنازى أو المكان المعد للشعائر بشكل عام أكبر عدد ممكن من المعالم الدالة على صاحبها بأكبر قدر من الوضوح حتى يمكن للـ(كا) أن تستمتع دون لبس أو غموض بنصيبه من الخيرات(٣٣).

ونجد فى كتاب الموتى الفصل (٨٩) يعرض لمفهوم الروح (البا) و(الخو) وعلاقة كل منهما بالجسد (الخا) وله قاعدة طقسية تنص على أن "هذه الكلمات يجب أن تقال فوق روح من ذهب مرصعة بالجواهر الثمينة موضوعة على صدر (أوزيريس) أى المتوفى". ويذهب (بدج) إلى أن تلاوة هذا الفصل على الروح الذهبى (أى تمثال الطائر برأس الإنسان)، تجعل المتوفى قادرا على إجبار روحه (البا) -التى يسميها أيضا (روح القلب) - على المجئ من أى مكان لتتحد مع جسدها، فلا يمكن لهذا الجسد أن يفنى أو يتحلل. ويذهب أيضا إلى أن (روح القلب) (البا) تتحد مع البدن أو الجسد المادى (الخات)، بينما الروحى (الخو) تتحد مع الجسد الروحى (لسعح). ويختلف علماء المصريات فى تحديد هذه المفاهيم(٣٤).

وفى الفصل (٩٢) وفى نهايته فى بردية (آنى) قاعدة طقسية تنص على أنه "إذا عرف المتوفى .. هذا الفصل فسوف يخرج إلى النهار ولن تحبس روحه (البا) أبدا".

وأهمية هذا الفصل أنه يشير إلى الظل (خاب أو خبت) بالاضافة إلى (البا) و(الخو) وفى برديات أخرى (الكا) أيضا. أن كثيرا من المجتمعات البدائية تعتبر الظل عنصرا من عناصر الشخصية، لكن نظرة المصرى -خاصة فى العهود التاريخية - تختلف تماما عن نظرة البدائى، فالظل بالنسبة إليه لا يعدو أكثر من علامة من علامات الحياة للفرد ووجوده تحت الشمس، والدليل على ذلك أن الكلمة الهيروغليفية

للظل ترد على شكل مظلة ولا توجد أى اشارة متممة لإنسان أو كائن حى فى هذه الكلمة بخلاف كلمتى (البا) و(الخو)[٣٥].

ومن المعروف أن الأساطير قد لعبت فى الفترة الأولى من تاريخ البشرية دورا هاما فى الحياة الفكرية، لقد كانت الوسيلة المبكرة فى محاولة فهم العالم وتحديد معالمه، أنها البداية لرحلة طويلة يصارع الانسان فيها ليقيم علاقة مفهومة بينه وبين الطبيعة وقواها المختلفة، القاسية أحيانا، الرحيمة أحيانا، والإنسان فى تلك الفترة المبكرة أقرب إلى طفل يخرج إلى العالم، يحاول أن يتحسس كل شئ محيط به، ومن خلال طريق ملئ بكل ما هو غريب يحاول الطفل أن يفهم العالم المحيط به، يخطئ أحيانا ويصيب أحيانا حتى يتعلم كيف يستجيب لكل هذه المؤثرات دون أن يصيب نفسه بضرر[٣٦].

والإنسان المصرى شأنه شأن كل البشر فى أنحاء العالم فى فجر التاريخ، كان مشغولا بقضية الخلق، كيف جاء إلى الوجود، من صنع هذا العالم؟ ما القوى التى تتحكم فى حركته؟ كيف يرضيها ويتجنب خطرها؟ ومن مكونات البيئة المحيطة: الطبيعة، الحيوانات، الطيور، الأشجار، الشمس، القمر، النجوم، الماء، الأرض، بدأ الإنسان يصنع لغته الأولى لغة الأساطير، إنها لغة لا يحكمها المنطق الصارم المحدد الذى اكتسبه الإنسان بعد مرحلة طويلة من الخطأ والصواب، لغة نسجها من الخيال والواقع حيث الحدود الفاصلة بينها غير محددة، لغة تتسم بالتلقائية والانتقال السريع من فكرة إلى أخرى، والرغبة المتجددة فى الوصول إلى شئ جديد يحل هذه الألغاز التى تحاصره من كل جانب.

وليس غريبا أن تصبح قضية الخلق المحور الأساسى فى البناء الأسطورى المصرى القديم، فمصر هبة النيل تخلق كل عام من جديد،

يأتى الفيضان ويغطيها فتقف الحياة، ثم ينحسر الفيضان فتبرز إلى الوجود والأرض ومعها الحياة. أن هذه الظاهرة استرعت انتباه المصرى القديم، ومن هنا جاء تصوره للخلق بوعى أو غير وعى: الأرض الأولى التى تطل برأسها من الماء الأزلى وتصبح نقطة الحياة، ولكن الحياة لا تكون بغير النور والدفء، ومن هنا جاءت الشمس لتكون الخيط البارز في النسج الأسطورى(٣٧).

وتتردد هذة الفكرة في أساطير الخلق المختلفة التى صاغها العقل المصرى سواء فى عين شمس أو الجيزة أو الأشمونين أو الأقصر.

أهداف التربية:

تركزت أهداف التربية فى مصر القديمة فى ثلاثة أهداف: إعداد الموظفين اللازمين للجهاز الحكومى – الإعداد للحياة الآخرة – الاستقامة الخلقية فى الدنيا.

١– إعداد الموظفين: واضح لمن ينظر فى تاريخ المصريين عامة، وتاريخ التربية والتعليم عندهم بخاصة، أن طلب المعرفة والعلم نشأ نتيجة لبحثهم عن ايجاد حلول لمشكلاتهم الحيوية وبخاصة ما اتصل منها بأمور الزراعة وتنظيم أداة الحكم والادارة، ولم يكن هناك من سبيل لذلك التنظيم وضبط أموره إلا بالتسجيل الذى يقتضى معرفة الحساب والضبط والربط، وتلك أمور لا تتحقق إلا بمعرفة الكتابة. وقد اقتضاهم ذلك معرفة قدر كبير من أسرار الطبيعة التى أعانتهم على المضى فى هذا السبيل، والتى مالبثت أن انتظمت مع الزمن فى صور مناهج يدرسها النشء فى نطاق تعلم الخط والكتابة، أو بمعنى أدق تعلم القراءة والكتابة(٣٨).

هكذا قصد المصريون بالتعليم أولا قبل كل شئ، قصدوا إلى تخريج الموظفين اللازمين لأجهزة الحكومة، وكذا المتخصصين فى المجالات التى تحتاج إليها الدولة فى بنائها كالمهندسين والأطباء ورجال الفنون من كل صنف.

وإذا كانت رتبة (الكاتب) هى دليل التعلم وزينته التى يتزين بها هى القلم والمحبرة، هذه الزينة التى كانت بمثابة البراءة أو الشهادة الدراسية، إلا أنه لا يفوتنا القول أن رتبة الكاتب – مع الزمن – قد كان يحظى بها بعض الناس تشريفا دون أن يكونوا كاتبا بالمعنى المفهوم، فقد نجد بين الرسوم المنتشرة على صفحات القبور صور الأطفال من أبناء صاحب القبر يحملون تلك الرتبة كمظهر من مظاهر التكريم، والتدليل على مكانة الطفل من أبيه أو إشارة إلى أنه تتلمذ عليه ونفعه وهو ما يزال فى مطلع حياته. ونستطيع باختصار أن نقول أن شأن تلك الرتبة قد أصبح –مع الزمن – كشأن الرتب الحديثة التى كان يمنحها بعض الناس تشريفا، مثل رتبة (البيك) و(الباشا). ولا أدل على ذلك من أن المصريين كانوا يشفعون لقب الكاتب بوصف (الحقيقى) أو (الحق) – كما أشرنا من قبل– تدليلا على أن حامل اللقب قد كان من العاملين فى وظائف الدولة[٣٩].

وقد ورد فى لوحة الخلود فى عهد رمسيس الثانى أسماء خمسين كاتبا، كان الملك يخلد كل كاتب بصنع تمثال له تنقش عليه ألقابه وأعماله.. ولا يخلو متحف من المتاحف العالمية المشهورة من تمثال أو أكثر من تمثال الكاتب المصرى[٤٠].

وفى رسالة هامة ينصح والد ابنه بعد أن أدخله المدرسة، أن يثابر على تحصيل العلم ليكون كاتبا، والكتابة اعتبروها أعظم الحرف، إذ بها يمكن للإنسان أن يرتفع إلى أعظم المناصب الحكومية، ثم نراه يضع

أمام ابنه القواعد التى يجب أن يسير على نهجها حتى يصل إلى غرضه، ثم هو يحذره التراخى فى اتباع نصائحه، وإلا كان العقاب الجثمانى جزاءه، فيقول[41]:

إنى أضعك فى المدرسة مع أولاد العظماء لأربيك ولأجعلك تتعلم هذه الحرفة التى تعظم صاحبها.

انظر إنى أقص عليك كيف يكون حال الكاتب حينما يكون ... استيقظ فى مكانك، ان الكتب قد وضعت أمام زملائك ضع يدك على ملابسك وانظر إلى نعليك(؟)"

وعندما تأخذ (فرضك) اليومى ....، لا تكن كسلان ....

..... واقرأ بجد فى الكتاب. ولا تدع كلمة تسمع عندما تحسب فى صمت (أى حساب عقلى) ... اكتب بيدك، واقرأ بعينيك. واستشر من أهم أنبه منك (؟)، ولا تتراخ، ولا تمض يوما فى الكسل، أو يلحق الويل أعضاءك واعمل على فهم طريقة أستاذك واصغ إلى تعاليمه....

ثم يحث الأب ابنه على الاجتهاد، ويغريه بما ينتظره من المستقبل إن اجتهد، ويخوفه العقاب إن أهمل، وكنى عن أثر الضرب المفيد فى التعليم كناية ظريفة فجعل أذن الولد مركبة فى ظهره، وضرب له الأمثلة على أن التعليم أصبح يصل إلى الحيوان والطيور، والإنسان لا شك أجدر به منهما، قال[42]:

(كن مجتهدا أيها الكاتب. لاتكن كسلان. لا تكن كسلان، وإلا فإنك ستعاقب عقابا صارما، ,لا تجعلن قلبك ينغمس فى الملاهى، وإلا فمصيرك الخراب واكتب بيدك واقرأ بفمك واستشر من هم أعلم منك.

وحصل بنفسك وظيفة حاكم حتى يمكنك أن تصل إليها عندما تصير مسنا والكاتب الذى ينبغ فى حرفته سعيد، فهو أستاذ تربية، وثابر كل يوم، وبذلك ستتفوق فيها (الكتابة أو معرفة الكتابة). لا تمض يوما فى الكسل أو تضرب، وان أذن الولد على ظهره فهو يسمع حينما يضرب. واجعل قلبك يصغى إلى كلماتى، فإنها ستكون نافعة لك. وإن (الكايرى) – حيوان أثيوبى – يعلّم الرقص، والخيل يكبح جماحها، والحدأة (؟) توضع فى عش (؟) وجناحا الصقر يشدان (أى لأجل أن يصير مدربا)، ثابر فى طلب النصيحة ولا تهملها. لا تملن الكتابة. دع لبك يصغ إلى كلماتى وستجدها مفيدة.

وإذا كانت هذه الرسالة تصور هذا الحرص من الآباء على أن يتعلم أبناؤهم ليصيروا كتابا يشاركون فى العمل الحكومى، فقد شجعهم على ذلك عوامل ثلاث[٤٣]:

أ- قدرة الحكومة على استيعاب كل متعلم منهم فى وظائفها. والغالب أنهم لم يسرفوا كثيرا فى هذا التصور، فقد كفل للحكومة المصرية القديمة قدرتها الواسعة على استيعاب المتعلمين صغارهم وكبارهم، اهتمامها منذ أوائل عصورها التاريخية بتسجيل كل صغيرة وكبيرة من شئون البلاد وأهلها، ثم زادت حاجة الحكومة إلى الكتابة كما زادت قدرتها على استيعابهم فى عصور التوسع الخارجى وفى عصور الدولة الحديثة بخاصة، وذلك نتيجة للنشاط الكبير وما كان يتبعه من مهام، ثم للاهتمام بتنظيم شئون الحكم فى البلاد التابعة من كثرة التراسل.

ب- رغبة الوصول إلى مكانة طيبة تكفل لصاحبها الكرامة واحترام الغير، وتكفل له القوامة دون التبعية، كما تضمن له نصيبا من العيش المستقر الهنئ. والغالب أيضا أن من صوروا هذه المكانة

للكتاب لم يكن يعوزهم الاستشهاد بالمنطق بالمبررات الشكلية، وذلك أن حكومة الفراعنة المصريين التى وصفت بالقدسية لم تكن أدواتها الظاهرة لأفراد الشعب والمتصلة بهم غير هيئات الكتبة المنبثين فى كل ركن من أرض مصر يكتبون ويحاسبون ويراقبون وينفذون وينوبون عن الرؤساء، ويفترض الناس فيهم السلطة تبعا لهذا كله ويولونهم الاحترام. وكان مما يعظم من مكانة الكاتب فى نظر المتطلعين إليها أن باب الترقى فى السلك الحكومى كان مفتوحا أمام الجميع، من ناحية المبدأ على الأقل، دون قيد أو شرط عدا الكفاءة الشخصية وحسن السلوك(٤٤).

جـ- رغبة التخلص من أعمال الخدمة الاجبارية ومن تكاليف الضرائب. ولا يبعد أن الحكومة كانت تعفى موظفيها المتعلمين من السخرة والضرائب فعلا فى الوقت الذى لم تكن تعفى فيه مواطنا آخر منها ولو كان كاهنا (عاديا) كما تذكر احدى الرسائل التعليمية(٤٥).

٢- **الاعداد للحياة الآخرة:** وكان لايمان المصريين الوثيق بالبعث أثره التربوى الواضح، فما دام الإنسان سيحاسب بعد موته فى عالم الأبدية، فلابد من إعداده وتربيته حتى تجئ نتيجة الحساب لصالحه، وليس معنى ذلك أن نذهب إلى أن التربية قد استطاعت أن تحول قدامى المصريين إلى طوائف من الذين حازوا رضى الآلهة، ولكن ما نود اثباته أن هذا كان هدفا على أية حال، اتجهت إليه جهود الكهنة والآباء والمعلمين.

ومن أبرز الوسائل التى نراها قد استخدمت فى هذا السبيل تلك الأساطير والقصص التى تحكى عما حدث للإنسان بعد وفاته من حساب ومحاكمات، ففى بردية (آنى) يدخل آنى وزوجه القاعة التى يقرر فيها المصير مطأطئ الرأس بهيئة تدل على الخضوع ويطالب

(أنوبيس) – الإله الجنازى القديم فى الحال بقلب (آنى)، والاشارة الهيروغليفية التى تدل على القلب – وهى التى تمثل هنا قلب (آنى) تشبه كثيرا الإناء الصغير، ومن ثم نرى هذه الإشارة القلبية موضوعة فى احدى كفتى الميزان، كما نرى فى الكفة الأخرى ريشة – وهى الرمز الهيروغليفى الدال على الصدق أو العدالة أو الحق (يعنى ماعت)، ويخاطب (آنى) قلبه فى هذه اللحظة الحرجة قائلا[٦٦]:

"يا قلبى الذى أتيت من أمى
يا قلبى الخاص بكيانى
لا تقفن شاهدا ضدى
ولا تعارضنى فى المجلس (محكمة العدل)
ولا تكونن حربا علىّ أمام رب الموازين
ولا تدعن اسمى يصير منتن الرائحة فى المحكمة
ولا تقولن ضدى زورا فى حضرة الإله
ثم يضع (آنى) يده فى يد (حور) ويخاطبه (أوزير) فيقول[٦٧]:
"تأمل أنى أمامك يارب الغرب
ان جسمى خالى من الذنوب
انى لم أنطق كذبا على علم منى
وإذا كان ذلك قد فرط منى فإنى لم أكرره ثانية
دعنى أكن مثل أصحاب الحظوة من أتباعك"

ولا شك أن مثل هذه المواقف عندما تروى يكون لها أثرها فى النفوس.

وقد ظهرت فى عهد الدولة الوسطى طائفة من (الأدب الجنازى)، وهو ما يسميه علماء الآثار (متون التوابيت)، وهى صيغ مشابهة لمتون الأهرام وتتحد معها كل الاتحاد فى القيام بوظيفتها، غير أنها كانت أكثر ملاءمة لحاجات الإنسان العادى من أى شخص آخر من الطبقات

العاليـة، ولذلـك كـان كـل دهمـاء الشـعب يسـتعملونها فـى ذلـك الوقـت. وكانت متون التوابيت تكتب على أوجه التوابيت الداخلية المصنوعة من خشب الأرز، وكان كهنة كل بلدة يمدون كل صانع محلى لهذه التوابيت بنسخ من تلك المتون أو التعاويذ(٤٨).

وسبب ظهور هذه المتـون هـو الاعتقـاد أن عـالم الآخـرة هـو مكـان الأخطار والمشاق التى لا عدد لها، وأن معظم تلك الأخطار مادية، وإن كانت فى بعض الأحيان خاصة بتأهيل المتوفـى وإعداده إعدادا عقليـا، وكان السلاح الذى يستعمل للنجاة من تلك الأخطار والمشاق يعد ضمـن الوسـائل التـى يمكـن الحصـول عليهـا لحمايـة المتوفى، وذلـك بتمكيـن المتوفى من بعض القوى السحرية التى كـانت فـى العـادة رقيـة خاصـة تتلى عند اللحظة الحرجة – وقد تحـول هـذا الاتجـاه الفكـرى بعـد ذلـك، فصار (متون التوابيت)، ثم صار فى النهاية (كتاب الموتى) الذى جعـل من هذه المتون مجموعة من التعـاويذ تـزداد علـى مـر الأيـام، وكـانت تعتبر فى نظـر القـوم لا محالـة ذات أثـر فعـال فـى حمايـة المتوفـى أو تضمن له فى الحياة الأخروية الحصـول علـى أى نعيـم كـان يحبـه فـى الحياة الدنيا(٤٩).

"فى بردية (نو) نجد نصا يجئ فيه(٥٠).

"التحية لكم أيها الآلهة الذين يقطنون قاعة العدل والحق .....

إنى أعيش فى العدل والحـق وأطعم قلبـى علـى العـدل والحـق ومـا صدر كأمر للبشر قد فعلته وقمت بالأشياء – التى ترضى قلوب الآلهة. لقد أرضيت الإله لأنى قد نفذت مشيئته. أعطيت الخبز للجوعى والمـاء للعطاشى والكساء للعرايا وزورقا لمن تحطمـت مراكبهم. لقـد صنعـت القرابين للآلهة ومنحت وجبات المقبرة للموتى المبـاركين (الخـو) لذلـك خلصونى وامنحونى حمايتكم ولا ترفعوا ضدى اتهاما أمام الإله العظيم"

ولعل اسطورة أوزيريس كانت من أشهر الأساطير التى جرت على الألسن، مما كان لابد أن يكون له أثره فى أخلاقيات كثير من الناس، بما عبرت عنه هذه الأسطورة من قيم فاضلة، فإخلاص الزوجة لزوجها وبر الابن بأبيه والحنان والحب الخالص من الأنانية من الوالدين نحو الأبناء ونصرة الأبناء لوالديهم، كلها أدلة على أهمية السلوك الفاضل داخل الأسرة باعتبارها العامل الأول فى ظهور الأفكار الخلقية(٥١).

وكذلك يمكن أن نستنتج من نتيجة الأسطورة أن سلوك الانسان وأفعاله قد خرجت من النطاق الضيق فى الأسرة وأصبح السلوك عرضة للحكم عليه بالصواب أو الخطأ من المجتمع لأن قيم الإنسان وأفكاره ترتبط بحياته العملية وبسلوكه داخل المجتمع(٥٢).

وإذا كان التعليم قد استهداف تدينيا، فإن التدين نفسه قد ساعد على الاقبال على التعليم، ولعل أهم ما يذكر فى هذا الشأن، حاجة الكهنة إلى طرق سبيل التعليم حتى يمكن لهم القيام بالمهام المطلوبة منهم. كذلك فإن اعتقاد المصريين بما يمكن أن تسهم به النصوص الدينية المكتوبة فى تحقيق السعادة لأصحابها فى أخراهم، قد ساعد على تكوين طائفة أخرى كبيرة من المتعلمين (أو أنصاف المتعلمين) لكتابة ونقش هذه النصوص. وفضلا عن هذا وذاك فإن المصريين قد اعتقدوا فى آلهتهم العلم والمعرفة، بل وردوا إليهم كثيرا من العلوم والمعارف واعتبروهم الواضعين لأصولها، ثم تصوروا أنهم لن يتخلوا عن تقديرهم لهذه العلوم وللآخذين بها فى الحياة الآخرة. وكان من آثار هذا أن رأى بعض المثقفين أو المتدينين فى التزود من مناهل العلم والعمل بهديها نوعا من التعبد(٥٣).

٣- الاستقامة الخلقية: لايوجد مكان فى الأزمنة القديمة عبر فيه عن قدرة أحد على التحكم فى العالم المادى بمثل هذه التوفية فى آثار مادية باقية، كما فى وادى النيل. وفى أوج نشاطهم الزاخرة، أقاموا بنى من المدنية المادية، يخال أن آثارها لا يمكن للدهر أن يكتسحها اكتساحا تاما على الاطلاق، ولكن جوهر التقدم الإنسانى الحقيقى، ربما هو الذى يحدد أهم خطوة أساسية فى تطور المدنية، هو تلك القدرة التى أبداها المصريون على الحكم الخلقى النفاذ(٥٤).

وفى ذلك العصر المبكر مثل عصر بناة الأهرام، لأقدم جماعة بشرية، وصلت لنا أخبارها ساد الاعتقاد بأن حق كل فرد فى التحلى بالأخلاق الفاضلة يمكن أن يقوم على أساس النهج والسلوك اللذين يعامل بهما أفراد أسرته، وهم والده ووالدته وإخوته واخواته. وهذه الحقيقة تعتبر ذات قيمة بالغة ومكانة عظيمة، وقد أكدها لنا أحد أشراف رجال الوجه القبلى الذى كان يعيش فى القرن السابع والعشرين ق.م، إذ قال فى نقوش قبره بعد أن عدد لنا كثيرا من أعماله الطيبة "أننى لا أقول كذبا لأننى كنت انسانا محبوبا من والده، ممدوحا من والدته حسن السلوك مع أخيه ودودا لأخته". كما نجد بعد فترة من تاريخ هذا النقش أن أحد المقربين من الملك من أهل الصعيد الأقصى يؤكد أيضا "أن الملك مدحنى، وترك والدى وصية لمصلحتى لأنى كنت طيبا .. وانسانا محبوبا من والده ممدوحا من والدته ويحبه كل أخوته". وكثيرا ما نرى الأشراف فى عهد الأهرام يجمعون صفاتهم الحسنة فى العبارة الآتية "كنت إنسانا محبوبا من والده وممدوحا من أمه محبوبا من إخوته وأخواته"(٥٥).

من ذلك يتضح أنه هنا، فى المصادر المصرية التى يرجع عهدها إلى النصف الأول من الألف الثالث لما قبل الميلاد، نجد مجموعة من الأدلة تظهر لنا تاريخيا لأول مرة ما وصل إليه علماء النفس

الاجتماعيون المحدثون من ملاحظتهم عن حياة الإنسان كما نجده فى عصرنا الحاضر، ونحن نشير بذلك إلى ما وصلوا إليه من أن الوازع الخلقى فى حياة الإنسان نبت من المؤثرات التى تعمل فى العلاقات الأسرية". وفى ذلك ينقل برستيد عن (مكدوجل)، عالم النفس الشهير قوله "فمن هذه العاطفة (أى حنان الوالدين، ومن الدافع الذى يحدو بهما إلى الحب والرعاية، ينشأ الكرم والاعتراف بالجميل والحب والشفقة وحب الخير الحقيقى وكل أنواع الخلق المجردة عن الأنانية، ففى تلك العاطفة تنبت الجذور الرئيسة لكل تلك الصفات التى لولا هذه العاطفة، ما وجدت قط"(٥٦).

وأشهر التعاليم التى تفيض قيما ومبادئ خلقية تعاليم (بتاح حتب) إلى ابنه، وندهش لذلك الفكر الراقى الذى يتبدى فى سطورها الأول عندما نجده يحذر ابنه بألا يسئ استعمال الحكمة التى سيلقنه إياها بل ينتهج سبيل التواضع، فقال(٥٧): "لا تكونن متكبرا بسبب معرفتك، ولا تثقن بأنك رجل عالم، فشاور الجاهل والعاقل لأن نهاية العلم لا يمكن الوصول إليها، وليس هناك عالم يسيطر على فنه تماما. وان الكلام الحسن أكثر اختفاء من الحجر الأخضر الكريم، ومع ذلك فإنك تجده مع الاماء اللائى على أحجار الطواحين".

ثم يأتى بعد ذلك اثنتان وأربعون فقرة فى نصائح مختلفة، نذكر منها على سبيل المثال(٥٨):

- إذا كنت قائدا وتصدر الأوامر للجم الغفير، فاسع وراء كل كمال حتى لا يكون نقص فى طبيعتك. ان الصدق جميل وقيمته خالدة وانه لم يتزحزح منذ يوم خالقه، والذى يتخطى نواميسه يعاقب. وهو أمام الضال كالطريق المستقيم. ان الخطأ لم يقد مقترفه إلى الشاطئ.

حقيقة ان الشر يكسب الثروة،ولكن قوة الصدق فى أنه يمكث والرجل المستقيم يقول أنه متاع والدى".

- إذا كنت محترما، وكان لك بيت، وولد لك ابن رضى الله عنه فإذا عمل صالحا، ومال إلى طبعك، وسمع تعاليمك، وكانت خططه ذات نتيجة حسنة فى بيتك، ومعتنيا بمالك كما يجب، فابحث له عن كل شئ حسن، فهو ابنك الذى ولدته لك "كاك" - نفسك - ولا تنفرن قلبك منه، ولكن إذا عمل سوءا، واعرض عن خططك (ونصائحك) ولم يعمل حسب تعاليمك، وصارت خططه لا قيمة لها فى بيتك، وتحدى كل ما تقوله .. عندئذ اقصه لأنه ليس، ولم يولد لك[٠٩].

- إذا أردت أن تحافظ على الصداقة فى بيت تدخله سيدا أو أخا أو صاحبا، فاحذر القرب من النساء، فإن المكان الذى هن فيه ليس بالحسن. ومن أجل هذا يذهب ألف إلى الهلاك[١٠].

- إذا كنت تبحث عن أخلاق من تريد مصاحبته فلا تسألنه، ولكن اقترب منه، وكن معه منفردا .. وامتحن قلبه بالمحادثة، فإذا أفشى شيئا قد رآه، وأتى أمرا يجعلك تخجل له، فعندئذ احذر حتى فى أن تجاوبه .. كن صبوح الوجه ما دمت حيا[١١].

أما (آنى) من الدولة الحديثة فقد نصح ولده (خنسحتب) مفتتحا كتابه، معددا لابنه ما تحمله نصائحه من فوائد، وما سيعود عليه منها لو اتبعها، فيقول[١٢]: "أنى مخبرك بكل فاضل، وبما يجب أن تعيه فى ليل، فاعمل به، وبذلك تكون محمودا، ويبتعد عنك كل شر .. وسيقال عنك (إذا اتبعت ما أقول) أنه على خلق عظيم، ولن يقال: "أنه قد أتلف وأنه بليد"، وإذا تقبلت كلماتى، فإن كل شر سيبتعد عنك".

ثم يتلو هذه النصيحة الأولى عدة نصائح أخرى فى الحذق فى الكلام وقلته وعدم التفاخر بالقوة، ....

وهو يحـرص علـى تعليم ابنـه المعـاملات الاجتماعيـة، فيعلمـه أولا أدب الزيارة، فلا يدخـل بيتـا إلا بعـد الاسـتئذان، وعندمـا يدخـل يغـض طرفه عن كل عيب ولا يتكلم عن شئ رآه معيبا فـى زيـارة فيقـول: "لا تدخلن بيت غيرك، ولا تمعنن فى النظر إلى الشئ المنتقد فى بيتهـا إذ يمكن لعينك أن تراه. ولكن إلزم الصمـت، ولا تحدثـن عنـه لآخـر فـى الخارج، حتى لا تصبح جريمة .."

وبهذه المناسبة يحذره الزنا ويذكره بأن المرأة لغز ملتو، فلا ينخـدع بإغرائها، وبأن ارتكاب الفاحشة يعاقب عليه بالقتل أمام القانون[٦٣].

ومن بردية (نبسنى) تعداد لعدد من (المنكرات الخلفية) التى يحـرص على أن ينبه فى ساعة الحساب أنه لم يرتكبها، من هذه المنكرات[٦٤].

"..... انى لم أرتكب اثما
"..... انى لم أسطو ..
"..... انى لم أذبح رجلا أو امرأة
"..... انى لم أنطق بالأكاذيب ..
"..... انى لم أفعل شيئا خبيثا ..
"..... انى لم أنبس بكلمة ضد إنسان ..
"..... انى لم أغضب بلا سبب ..
"..... انى لم أرتكب الزنى مع زوجة أحد
"..... انى لم أختم أذنى عن كلمات الحق ..
"..... انى لم ألوث المياه .."!!

طرق التربية والتعليم:

تنوعت الأساليب والطرق التى استعملها قدماء المصريين فى تربية الأبناء وتعليم الطلاب، ويمكن الإشارة إلى أهم هذه الطرق والأساليب فيما يلى:

١- الاقناع: من الملاحظ من استقراء عدد غير قليل من النصوص التى كانت مهمتها ارشاد الإنسان إلى الطريق السوى أنها لم تقف عند حد وضع المبادئ والقواعد التربوية بل كانت تعقبها غالبا بـ(المبرر) و(السبب) و(الهدف) مما يشير إلى أهمية (الاقتناع) حتى تجد هذه المبادئ والقواعد طريقها إلى عقل وقلب المواطن ومن ثم إلى التطبيق والتنفيذ، ففى نص سابق ذكرناه نجد أن بتاح حوتب إذ ينهى ولده عن التعالى بالمعرفة ويأمره بمشاورة الجاهل والعالم يبرر ذلك بقوله "لأن حدود الفن لا تبلغ، بل وما من فنان استكمل مقوماته (جميعا) ولأنه وان كان جيد الكلم (أو الكلمة الطيبة) أشد استخفاء من الزبرجد الكريم، فإنه قد يتوفر لدى الإماء العاملات على المراحه.

وعندما يخفف من أوامره ونواهيه لولده بامتاع نفسه، لا يعدم إذ ذلك مثلا أو مبررا يسوقه فيقول: "لا تبتر وقت المتعة، فكريه للنفس إفساد وقتها (أى وقت متعتها). بل أن أكثر توجيهات بتاح حوتب نفعية لا تخلوا هى الأخرى من تبريرات، فهو إذ يأمره بطاعة الرئيس ولو كان فقير الأصل يقول له "لا تترفع ازاءه لما تعرفه عنه من قبل، بل احترمه بما آل إليه (أمره)، فالحظوظ لا تأتى (من تلقاء) نفسها، وانما هو نظامهم (الأرباب) مع من أحبوه، وكلما اتسعت خطا المرء حققت له الهيبة، والرب وحده وهو من يقدر الفلاح"[١٠].

وباستقراء توجيهات (خيتى) لولده، نجد أن من وسائلها فى الإقناع: الاستشهاد بالوقائع، وبما ذكرته الكتب القديمة وبالأمثال الجارية، ثم بما تأمر به العقائد الدينية وما يرفضه المتدين لنفسه، فقد طلب خيتى من ولى عهده أن يصبح قدره لنبلائه فى الحزم وتحرى الحق واستقامة الخلق، فقال له: "قل الحق فى بيتك يخشك عظماء الأرض، والأليق بالسيد أن يكون قويم السريرة"، ثم يعقب على هذا بقوله: "فسلاح (المرء) (اللسان)، وقد يكون الكلام (اللبق) أكثر فاعلية من أى عراك"(٦٦).

وتدل بعض التعاليم التى كانت تدرس فى مدارس الدولة الحديثة على وجود اتجاهين مختلفين فى تربية النشء: اتجاه محافظ يصر على مذهب ما كان ينبغى أن تنقص (فيه) كلمة أو تزاد، وما ينبغى أن توضع فيه كلمة مكان أخرى، وفيه تقاس فضيلة الابن بمقدار "اقباله على الاستماع والطاعة، وذلك على نحو قول بتاح حوتب "إن من يحبه الإله هو (الابن) المستمع، أما من لا يستمع فهو بغيض الإله"، وفيه أيضا كان يوضع ما لدى المربى عن النضج والخبرة وارادة الخير لربيبه فى المكان الأول وذلك على أساس أن "عينى الأب تريان وأذنيه كذلك تسمعان ما يفيد ولده"، وفيه أيضا كان يستحب التفكير وإعمال العقل من النشء، ولكن على ألا يتعارض ذلك مع اتجاه المربى والقواعد المرعية، وانما يكون متجها معها مستهدفا تفهم فوائدها وجليل أسرارها، وعبر (آنى) عن هذا المذهب فى مستهل تعاليمه فقال: "انى (محدثك) بهذه الأمور الصائبة التى (ينبغى أن) تحسب حسابها فى فؤادك، فإن حققتها أصبحت صالحا وانتفى عنك كل عيب وسيقال عنك (أنه) على خلق طيب، ولن يقال قد ضاع وأنه لبليد، (فتقبل كلماتى) وسينتفى عنك كل سوء"(٦٧).

ثم اتجاه آخر مناهض لهذه الأوضاع مال إلى الخروج عليها والاعتراف للنشء بالحرية والفردية وحق اختيار الطريق الذى يسلكونه معبرا فى ذلك، فيما يبدو، عن جانب من التطورات التى شهدتها الدولة الحديثة، ووأن ذلك ما تكشف عنه رسائل المعلمين من عناد التلاميذ لهم ورغبتهم الملحة فى اختيار مستقبلهم بأنفسهم فى الجيش أو المهمة الحرة دون مهنة الكاتب التى بالغ المعلمون فى الدعاية لها[٦٨].

وربط عنخ شاشنقى بين السبب وبين النتيجة فى نصائحه بروابط منطقية وعملية كثيرة فقال لولده وهو يقنعه بحكمة عدم تأجيل عمل اليوم إلى الغد "لا تقل هو (الآن) صيف له شتاء، فمن لم يجمع حطبا فى الصيف أعوزه الدفء فى الشتاء". وقال له وهو يفسر حكمة العدل بين الأبناء "لا تفضل أحد أبنائك على الآخر وأنت لا تعلم أيهم سيصبح عطوفا بك"، وقال له وهو يهديه إلى الحكمة العملية فى حسن معاملة الغير "لا تعامل إنسانا بما تكره فتشجع غيرك على معاملتك بالمثل". وقال له وهو يدعوه إلى الثقة بالقصاص الآلهى "لا تقل عاصى الرب يعيش يومه، وتطلع إلى الغد، وقل العقبى الطيبة فى نهاية العمر"[٦٩].

٢- اللعب: وإذا كان (الاقناع) طريقة تجد لها مكانا فى المجالات العلمية والفكرية، فقد كانت هناك وسيلة أخرى لأوقات الفراغ أحسن قدماء المصريين استغلالها فى تربية الأبناء ألا وهى (اللعب)، ومما يشير إلى ذلك منظر لمجموعة من ألعاب القرن العشرين ق.م كونت عرضا رياضيا مرحا، اشترك فيه خمسة غلمان، جمعهم زى موحد لا يخلو من تشابه مع أزياء الرياضة الحالية، ويتألف من إزار نصفى قصير مخطط محبوك على الخصر، وأشرطة عريضة ربطها كل لاعب حول معصميه ورسغيه. واتخذ أحد الغلمان الخمسة وضعا كلاسيكيا بسيطا، اعتمد فيه على ساق واحدة ودفع ساقه الأخرى إلى

الخلف، وبسط يده اليمنى فى شدة إلى الأمام، وأرسل يده اليسرى فى شدة إلى الخلف.

واشترك الثانى والثالث فى أداء لعبة واحدة، فانحنى أحدهما فى زاوية شبه قائمة، ووقف زميله منتصبا على ظهره، باسطا ذراعيه إلى الجانبين فى زهو برئ، و:انه فرحان بالنصر ...

وانثنى الرابع بيديه إلى الخلف، كأنه أراد أن ينحنى فى نصف دائرة. ووقف الخامس رافعا ذراعيه إلى أعلى، وكأنه تهيأ لوضع خاص، لم يشأ المصور أن يكمله(٧٠).

ومن ذلك أيضا منظر لمبارة بين اثنين لاقتلاع أداة أو أداتين مدببتين رشقتا فى كتلة خشبية مستطيلة، وقذفها بعيدا بضربة سريعة، وقد أمسك كلاهما بعصا فى كل يد وتهيأ للضرب فى آن واحد. ثم صورت نفس اللعبة فى بنى حسن بما يوحى بلعبها بطريقتين أخرتين إذ رشقت أداة طليقة فى الكتلة الخشبية ورشق أحد المتبارين عصاه المدببة بحيث تقاطعها وظل ممسكا بها فى يده بينما تهيأ زميله بعصويه ليضرب مما يعنى أنهما كانا يشتركان فى اللعب فى وقت واحد، أولهما عليه أن ينزع عصاه قبل أن يمسها والثانى يحاول أن يضرب الأداة المرشوقة وعصا زميله معا فيلقيهما بعيدا يمنة أو يسرة باحدى عصويه. وفى المنظر الثالث يشترك ثلاثة، يقف اثنان منهم متقابلين ويرشق كل منهما عصاته المدببة فى الكتلة الخشبية ويظل ممسكا بها لينزعها سريعا من قبل أن يمسها اللاعب الثالث بعصاه، وقد سميت اللعبة فى مسطبة بتاح حوتب باسم تصعب ترجمته(٧١).

وشاعت العرائس والدمى بين لعب الأطفال، ومثلت أشكالا انسانية، وأخرى حيوانية وثالثة جمعت بين الإنسان والحيوان، وصنعها

أصحابها بما يناسب امكانيات الأسر المختلفة فصنعوا العرائس من الخشب والطين والفخار والقيشانى والعاج والحجر، وصوروا على بعض العرائس صور القلائد ورسوما هندسية وحيوانية، وزينوها بخصل من الشعر الطبيعى وشعور مستعارة من الخيوط المجدولة، والصوف وحبات الطين المسلوكة فى خيوط على هيئة الخرز وميزوها بأذرع تتصل بأجسامها بوصلات خشبية صغيرة يستطيع الطفل أن يحركها ويتخيل الحياة فيها ...الخ.

٣- طرق تعلم الكتابة: ظل البردى أصلح ما يسطر عليه بالقلم، إلى أن اخترع الورق فى القرن الثانى الميلادى. وللقراطيس المنسوجة من البردى مزايا لا يستهان بها، فهى أصلح ما يسيطر عليه بالقلم، وهى متينة وخفيفة يسهل طيها ويتيسر حفظها، ثم هى أبقى وأقنى[٧٢]. والبردى فضلا عن هذا كان فى متناول الأيدى وظل يستعمل فى مصر حتى القرن الحادى عشر الميلادى برغم وصول الورق الصينى إلى مصر فى القرن الثامن.

ولم يكن يسمح للمبتدئين من التلاميذ بالتسطير فى القراطيس وانما كان يفعل ذلك المتقدمون منهم، وقد عثر على طائفة من تلك القراطيس التى نسخها التلاميذ وعليها تصويبات المعلم.

ولقد استخدم المصريون للتسطير بالمداد - غير قراطيس البردى - ألوانا من شطف الحجر الأبيض أو الفخار كانوا يقعون عليها غالبا عند عمائر البناء، ومصانع الفخار.

وكان لدى أسلافنا من المداد لونان، الأسود وكانوا يعدونه من الاسبيداج الممزوج بالصمغ، وكانوا يستخدمونه فى التسطير العادى،

والأحمر وكان من مادة متوفرة فى بعض مناطق الوادى الجبلية، وكان يستخدم فى تسطير العناوين، وأوائل المفردات[٧٣].

وقد أمكن الاستدلال على الطرق التى سار عليها المعلمون فى تعليمهم القراءة والكتابة من الأخطاء التى كشفها العلماء فى كتابات التلاميذ نذكر منها[٧٤]:

أ- طريقة النسخ المباشر، يوجد منه أخطاء الدروس المصرية ما يدل على استخدام هذه الطريقة فى المرحلتين التعليميتين الأولية والمتقدمة، ومن ذلك نجد أن تلميذا صغيرا يتخطى جملتين حين كتابته لفقرة من تعاليم خيتى بن دواوف ليس إلا لأن ما قبلها ينتهى بكلمة (تمساح) وأن ما بعدها يبدأ بكلمة (تمساح) أيضا.

ب- طريقة الإملاء، ومن الأخطاء الدالة عليها فى بعض الدروس أن يكتب تلميذ كلمة أو أكثر من النص بدلا من أخرى تختلف عنها هجاء ومعنى، ولكنها تتشابه معها منطقا، فقد تملى جملة (إرنك تاى توت) بمعنى (اتخذ لنفسك هذه الوظيفة)، فيكتبها (إن نك تاى ياوت) مما قد يعنى عفوا (إنما لك خبز الوظيفة).

ومن صور الخطأ السمعى، أن يكتب تلميذ: نن عحاتو، بمعنى (لن يحارب أحد) بدلا من (ن عحع ن تو)، بمعنى لم يتوقف أحد.

على أنه ليست الأخطاء وحدها هى الدالة على طريقة الإملاء فى الدرس، وانما يدل عليها أيضا حسن التصرف باستبدال كلمة غامضة بأخرى واضحة، أو باختصار النص اختصارا لا يعيبه، ومثل هذا التصرف أقرب إلى تصرف معلم يملى منه إلى تصرف تلميذ ينسخ[٧٥].

جـ- الكتابة عن الذاكرة، وتنم عنها كثرة الأخطاء غير المقترنة بظروف الخطأ (السابقة) كما ينم عنها تحوير عبارات المتن على نحو غير واضح، مع التقديم والتأخير فيها. ومن ذلك أن نجد درسين على لخفة يفصل بين كتابة أحدهما والآخر ستة أيام (أى بما يوحى بالرغبة فى الحفظ الشفهى قبل الكتابة)، قد تضمنا معا واحدا وعشرين سطرا حوت أكثر من عشرين خطا يبعد أغلبها كل البعد عن المتن الأصلى لفظا ومعنى.

٤- الترغيب والترهيب: كان أساس الفضيلة، وغاية السلوك عند قدماء المصريين هو الطاعة، وليست الطاعة كما نفهمها لفظا ومعنى بالشئ الهين اليسير، ذلك أنهم لا يطلبونها عن طريق الخوف والرهبة، بل عن طريق الايمان والرغبة، والسبيل إلى ذلك شاق عسير، ويكفى أن نتصور ما ينبغى لمن يسلكه من قدرات، أقلها وأهونها أن يعمل على تطهير نفسه بترويضها على السير فى سبيل التربية الذاتية التى تقتضى صاحبها أن يقهر نفسه ويهينها، ويحملها على الطاعة لتحظى بالعلم والمعرفة، وتلك أمور ليست هينة ولا يسيرة، وحسبنا أن نتصور ما يتطلبه ذلك من الصبر على المواظبة والبقاء فى قاعة الدرس، ثم الصبر على الإصغاء والتركيز وكبح جماح الشهوة العارمة فى نفوس المراهقين(٣١).

وقد رسم لنا المصريون صورة الطالب المثالى، فهذا واحد من كبار كهانهم يتحدث إلى الأجيال من بعده، فيقول: "أقول هذا لتسمعوا ما وقع لى منذ أيامى الأولى، ومنذ درجت من حجر أمى، عدوت كاهنا مطهرا، فكنت لأبى عكازة الشيخوخة ما امتدت به الحياة على الأرض. كنت أدخل وأخرج وأروح وأغدو بأمره، وعلى ضوء من هديه، لم أخالف مطلقا عن أمره، ولم أهمل واجبا حملنى إياه، ولم أغفل له أمرا، ولم أجروء على النظر فى وجهه محملقا، بل كنت أدير وجهى حياء

(منه) حين كان يخاطبنى، ولم أعط نفسى حق التصرف فى أمر دون أن يكون على علم بذلك، ولم أتعرف على جارية فى داره، ولم أواعد عذراء، ولم أسب واحدا من خدمه، ولم أضطر يوما إلى المثول بين يديه مسئولا. وكان يمدحنى من أجل ذلك، ولم ير فىّ عيبا، وظل مدحه فياضا علىّ حتى جاء أجله فمات"(٧٧).

ولم يكن المصرى القديم ليصل إلى مثل هذه الصورة إلا عن طريق عدد من الوسائل والأساليب التى تجمع بين (الترغيب) و(الترهيب)، منها:

أ- الضرب، فواضح من كافة ما اجتمع لنا من تراث وخاصة من أيام الدولة الحديثة - أن الضرب - كان من أوائل وسائل التربية إلى تقويم السلوك، من ذلك قول أحد المربين لتلميذه "لأعلمن قدميك كيف تزرعان الطرق والمسالك عندما تلهبان بسوط من جلد فرس النهر وإياك وتضييع يوم من أيام حياتك، وإلا أوجعت بالضرب أطرافك". ولنستمع بعد ذلك إلى قول واحد من مساعدى المعلمين وهو يقول مزهوا بنفسه "إن أصابعه تجعل من الأطفال عظماء"، ثم إلى ذلك المعلم يتحدث إلى أم جاءت تسأله عن حال ابنها فيقول: "لما كنت صبيا فى المدرسة، علمنى معلمى الكتابة بعد أن ألهب أطرافى من الضرب، فتعلمت ولم أهجر رغم ذلك معلمى"(٧٨).

ب- الحبس، من ذلك ما تحدث به أحد المربين مخاطبا واحدا من تلاميذه فيقول: "لما كنت فى مثل سنك قضيت فى الحبس وقتا بلغ الأشهر ثلاثة أقمتها جميعا بين جدر المعبد، على حين كان أبواى وأخواتى فى القرية، ولم أفلت من محبسى هذا إلا بعد أن مهرت يدى فى الكتابة، وأصبحت بذلك متفوقا على من كان يتقدمنى من الزملاء، ثم غدوت على رأسهم جميعا"(٧٩).

جـ- الاغراء، ولم يفت المربين من قبل ومن بعد، أن يغرو تلاميذهم بمستقبل باهر إن هم حرصوا على اغتنام شبابهم للاستفادة من الدرس والتحصيل ويدفعونهم إلى التطلع إلى حياة أفضل، من ذلك ما قاله مرب لتلميذه: "سطر بيديك، واتل بفمك، وافعل ما آمرك به، حتى لا يضيق صدرى بتعليمك، وستجد التعليم أغنى وأقنى من حياة غنية بالخبز والجعة. تفوق على زملائك، حتى يمكن تعيينك. اقبل على الدرس واهجر الرقص لتكون موظفا يقظا. اترك المصائد. واستدبر عصا الرماية. اكتب بالنهار واقرأ بالليل، وآخى القرطاس والدواة، فإنه فى ذلك نشوة ألذ من نشوة الشراب"(٨٠).

٥- الوعظ والارشاد: وعرف المصريون كيف يعظون ويرشدون، ايمانا منهم بأن ذلك من وسائل الاصلاح والتقويم، وقد أسرفوا فى ذلك إسرافا شديدا، حين اشتد ايمانهم بجدوى ترديده، فكانوا يسطرونه حوارا تارة، ووسائل متبادلة تارة أخرى. وآمنوا كذلك بالنصائح الخلقية يوجهونها صريحة إلى تلاميذهم. ولعل خير ما يمثل هذا قول الحكيم (آنى) إلى تلميذه (خنسوحتب) وهو يعظه: " لا تثق بتلك الفكرة الواهية، واخش ما أخذت به نفسك، ان شكواك فى رأيى ليست بذات موضوع، وأنى من أجل ذلك لموجهك، ان فحل النطاح الذى أهلك نظراءه ... لم يعد بقادر على أن يصرع، انه ليتغلب على طبعه، ويعى ما تعلم وانه كالثور الذبيح. والحصان يضع نفسه طائعا تحت النير، ويمضى إلى الحقل، والكلب يستمع إلى الأمر ويتبع سيده، والقرد يحمل الخشبة المعقوفة التى لم تحملها أمه، والأوزة تغادر الماء البارد حين تدعى إلى الحظيرة، ومن الممكن تعليم الزنجى والسورى بل وكل غريب لسان مصر. ألا فلتقل أنى فاعل ما تفعل الحيوانات"(٨١).

المعلم: وبطبيعة الحال لا نستطيع الزعم بوجود طائفة من المعلمين المتخصصين المتفرغين الذين تعينهم الدولة للقيام بمهمة التعليم فى مثل هذه الحقبة المبكرة من التاريخ، ذلك أن هذه المهمة كانت تتم فى أغلب الأحوال على أيدى موظفى الدولة فى المجالات المختلفة بالاضافة إلى عملهم الأصلى فى دوواين الحكومة ونفس الشئ يمكن قوله بالنسبة لرجال الدين فى المعابد وللضباط فى الجيش.

ومما يدعو إلى الاعجاب والفخر حقا أن ينظر المصريون القدماء إلى مهمة (التعليم) على أنها واجب على هذا الذى حصل قدرا لا بأس به من العلم والثقافة بحيث أصبح مستحقا اللوم لو أنه لم يفعل ذلك، فهذا نص يرد فيه الحاكم على مواطن جاء إليه شاكيا، ففى رد الحكم صورة من صور اللوم على جوانب التقصير فى عمل هذا الشاكى، ومنها أنه لم يعلم أحدا "انك لم تنطق ساكتا، ولم توقظ نائما، ولم تفتح فم من أغلق فمه، ولم تعلم جاهلا، ولم تهذب من خرق"[٨٢].

وبطبيعة الحال أيضا لا نستطيع الزعم بأن من يتصدون لمهمة التعليم كانوا يعدون لذلك إعدادا خاصا، ذلك لأن مثل هذا الاتجاه لم يظهر إلا فى تاريخنا الحديث نظرا لسيادة الفكرة التى تقول بأن شرط القيام بالتعليم هو أن يكون الإنسان على دراية طيبة بالفن أو الفرع الذى يريد أن يعلمه للآخرين، ومن ثم فإن المدارس أو المراكز التى كانت تعد المهندس أو الطبيب أو الكاتب هى نفسها التى تعد من يقوم بتعليم الهندسة أو الطب أو الكتابة.

ولم يعثر أحد حتى الآن فى الآثار المصرية المتعددة على ما يشير إلى (الهيئة) التى كان المعلم يتخذها أثناء عملية التعليم، فهل كان يُعلم

وهو واقف أم جالس؟ وان رجحنا اتخاذهم هيئة الجالس، الأمر الذى يشبه ما كان يتخذه (سيدنا) فى الكتاب!

وكان المتقدمون من التلاميذ، ونعنى من قرب منهم من النضج يعينون مساعدين فى المدارس، وكانت وظائفهم وأعمالهم أشبه شئ بوظائف من كانوا يسمون فى (الكتاب) ب (العرفاء) وكان أولئك المساعدين يقضون فى المران على أيدى أساتذتهم ورؤسائهم فترة طويلة تبلغ عدة سنوات[٨٣].

وإذا كنا قد ذهبنا إلى عدم وجود طائفة متخصصة لعملية التعليم متفرغة لها على وجه العموم، فإن هذا لا ينصرف إلى أبناء الملوك والأمراء، إذ أن من المرجح أنهم حظوا بمربين خصصوا لتعليمهم، فهناك ما هو معروف عن اشتراك أمراء الدولة القديمة فى حكم البلاد اشتراكا فعليا بحيث كان منهم الوزراء وكان منهم رجال الدين، وكان منهم من يجمع بين هذه الاختصاصات جميعها. وما من شك فى أن إسناد هذه المناصب والاختصاصات إليهم كان يستدعى شيئا من الإعداد الذهنى والعملى أيضا. ومن هنا وجدنا -مثلا- من ألقاب (كابونتاح) أنه معلم أبناء الملك، وأيضا من رجال الأسرة الخامسة (إرسخو)وجد أن من ألقابه أنه (مدير معلمى أبناء الملك) من صلبه"[٨٤].

وعلى الرغم من ترجيح النشاط التعليمى إبان العصر الأهناسى وما عرف من اهتمام فراعنته بتربية أبناء الخاصة وتثقيفهم، إلا أن الوثائق والآثار لم تكشف بعد عن شخصيات المعلمين الذين أسند إليهم تثقيف أمراء البيت المالك خاصة أو تثقيفهم وتثقيف أبناء خاصة معهم[٨٥].

ويتميز المعروف عن تعليم أمراء الدولة الحديثة بأنه يؤكد نوعا من تعليم الأمراء وبأنه يبرز خاصية هامة تلحظ فى تعليمهم منذ بداية

عصر الأسرة الثامنة عشرة وهى أن تعليمهم لم يعد ينحصر فى أجنحة القصر وفى عواصم الملك وحدها، وانما أصبح الأمراء يبرحون القصور والعواصم إلى حيث تتوافر نواحى التربية والتعليم لهم.

وهناك بعض النصوص التى تلقى لنا ضوءا على العلاقة بين المعلمين وتلاميذهم على وجه العموم والمبادئ التى تقوم عليها، فهذا معلم يقول لتلميذه ملخصا مهمته: "انما أبسط لك التعاليم فى مواجهتك وأقدم لك سبل الحياة"، وفى مثل قوله: "انما أعمل أن تدرك الصواب فى قلبك ولتفعل (بعد ذلك) ما هو قويم فى نظرك" وقال: "كنت أعلم الأولاد بالحديث الطيب والأناة"

وهذا يعنى أننا إذا كنا قد أشرنا إلى استخدام الضرب والتعنيف أحيانا فى عملية التعليم، إلا أن ذلك لا ينفى أبدا وجود مسالك أخرى كان يلجأ إليها معلمون آخرون، تقوم على غير ذلك.

وبالتالى نجد أن هناك من المربين والمعلمين المصريين من كان يرى أن مهمة التربية هى التوجيه دون الإرغام، ومن آمن بجوانب المتعة فى العلم وفى الاستمرار عليه.

هوامش الفصل الثالث

١- أحمد بدوى وجمال الدين مختار، تاريخ التربية والتعليم فى مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤، جـ١، العصر الفرعونى، ص٢٣٣.
٢- المرجع السابق، ص٢٣٤.
٣- عبد العزيز صالح، التربية والتعليم فى مصر القديمة، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٦، ص١٢٨.
٤- المرجع السابق، ص١٢٩.
٥- أحمد بدوى وجمال الدين مختار، تاريخ التربية والتعليم فى مصر، جـ١، ص٢٣٥.
٦- عبد العزيز صالح، التربية والتعليم فى مصر القديمة، ص١٣٧.
٧- عبد العزيز صالح، التربية الثقافية، فى (تاريخ الحضارة المصرية)، جـ١، ص١٨٠.
٨- المرجع السابق، ص ١٨١.
٩- أحمد بدوى وجمال الدين مختار، ص٢٣٧.
١٠- المرجع السابق، ص٢٣٨.
١١- إبراهيم رزقانة وآخرون، ص٧١.
١٢- سليم حسن، مصر القديمة، جـ٢، ص٣٨٣.
١٣- المرجع السابق، ص٣٨٤.
١٤- أحمد أمين محمد سليم، دراسة تاريخية للحضارة المصرية القديمة أثناء عصر الأسرتين الأولى والثانية، رسالة ماجستير، آداب الأسكندرية، ١٩٧٧، ص٢٨٨.
١٥- إبراهيم رزقانة وآخرون، ص٧٢.
١٦- ول ديورانت، قصة الحضارة، جـ٢، ص١٠٧.
١٧- سليم حسن، الأدب المصرى القديم، مؤسسة أخبار اليوم، القاهرة، ديسمبر ١٩٩٠، جـ١، ص٢٣٩.
١٨- المرجع السابق، ص٣٤٣.
١٩- المرجع السابق، ص٣٤٤.
٢٠- سليم حسن، مصر القديمة، جـ٣، ص٣٧٠.
٢١- المرجع السابق، ص٣٧١.
٢٢- المرجع السابق، ص٣٧٢.
٢٣- المرجع السابق، ص٣٧٨.
٢٤- قصة الحضارة، جـ١، ص١٤٩.
٢٥- المرجع السابق، ص١٥٠.
٢٦- المرجع السابق، ص١٥١.
٢٧- عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، جـ١، ص٣٨٦.
٢٨- المرجع السابق، ص٣٨٧.

٢٩- برستيد، فجر الضمير، ص١٧٤.
٣٠- المرجع السابق، ص١٧٥. ٣١- المرجع السابق، ص١٧٧.
٣٢- جريمال، تاريخ مصر القديمة، ص١٣٤.
٣٣- المرجع السابق، ص١٣٥.
٣٤- كتاب الموتى، ص٢١٦
٣٥- المرجع السابق، ص٢١٧.
٣٦- لويس بقطر، تأملات فى الأدب المصرى القديم، الهيئة اعامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩٥، ص١١.
٣٧- المرجع السابق، ص١٢.
٣٨- أحمد بدوى وجمال الدين مختار، تاريخ التربية والتعليم فى مصر، جـ١، ص١٤٨.
٣٩- المرجع السابق، هامش(١)، صفحتى ١٤٨، ١٤٩.
٤٠- سيد كريم، الكاتب المصرى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤، ص١١.
٤١- سليم حسن، الأدب المصرى القديم، جـ١، ص٣٦٦.
٤٢- المرجع السابق، ص٣٦٧.
٤٣- عبد العزيز صالح، التربية والتعليم فى مصر القديمة، ص١٣٢.
٤٤- المرجع السابق، ص١٣٣.
٤٥- المرجع السابق، نفس الصفحة.
٤٦- برستيد، فجر الضمير، ص٢٧٩.
٤٧- المرجع السابق، ص٢٨٠.
٤٨- سليم حسن، مصر القديمة، جـ٣، ص٤٩٦.
٤٩- المرجع السابق، ص٥٠١.
٥٠- كتاب الموتى، ص١٢٩.
٥١- محمد على سعد الله، تطور المثل العليا فى مصر القديمة، ص١١٢.
٥٢- المرجع السابق، ص١١٣.
٥٣- عبد العزيز صالح، التربية والتعليم فى مصر القديمة، ص١٣٤.
٥٤- برستيد، تطور الفكر والدين، ص٢٣٩.
٥٥- برستيد، فجر الضمير، ص١٣١.
٥٦- المرجع السابق، ص١٣٥.
٥٧- سليم حسن، مصر القديمة، جـ٢، ص٤١٨.
٥٨- سليم حسن، مصر القديمة، جـ٢، ص٤١٩.
* يعنى انه أحسن شئ أورثنى اياه والدى.
٥٩- المرجع السابق، ص٤٢٠. ٦٠- المرجع السابق، ص٤٢١.
٦١- المرجع السابق، ص٤٣٣.
٦٢- سليم حسن، الأدب المصرى القديم، جـ١، ص٢٣٢.

٦٣- المرجع السابق، ص٢٣٣.
٦٤- كتاب الموتى، ص١٢٤-١٢٦.
٦٥- عبد العزيز صالح، التربية والتعليم فى مصر القديمة، ص٨١.
٦٦- المرجع السابق، ص٨٢.   ٦٧- المرجع السابق، ص٨٥.
٦٨- المرجع السابق، ص٨٧.   ٦٩- المرجع السابق، ص٨٩.
٧٠- عبد العزيز صالح، التربية البدنية، فى تاريخ الحضارة المصرية، جـ١، ص١٧٤.
٧١- عبد العزيز صالح، التربية والتعليم فى مصر القديمة، ص ١١٢.
٧٢- أحمد بدوى، ومحمد جمال الدين مختار، ص١٩٠.
٧٣- المرجع السابق، ص١٩٢.
٧٤- التربية والتعليم فى مصر القديمة، ص٢٨٤.
٧٥- المرجع السابق، ص٢٨٦.
٧٦- أحمد بدوى، ومحمد جمال الدين مختار، ص٢٢٠.
٧٧- المرجع السابق، ص٢٢١.   ٧٨- المرجع السابق، ص٢٢٤.
٧٩- المرجع السابق، ص٢٢٦.
٨٠- المرجع السابق، ص٢٢٩.   ٨١- المرجع السابق، ص٢٢٨.
٨٢- المرجع السابق، ص١٨٦.   ٨٣- المرجع السابق، ص١٨٧.
٨٤- عبد العزيز صالح، التربية والتعليم فى مصر القديمة، ص٢١٢.
٨٥- المرجع السابق.

الفصل الرابع

وسائط التربية

إذا كان المجتمع قد خص المدرسة بوظيفة التعليم، إلا أن هذا ليس معناه أن هذه المؤسسة المتخصصة هى الوحيدة التى لها دورها فى تربية الأبناء، ذلك أن المجتمع المصرى القديم، شأنه شأن سائر المجتمعات البشرية الأخرى كان يضم عددا آخر من المؤسسات والنظم مما كان لها دورها الفعال فى العملية التربوية خاصة إذا التزمنا بمعناها الشامل الذى يجعل منها عملية تنمية وتطوير للسلوك الإنسانى. ومن هنا كان لنا أن نعرض هنا فى الفصل الحالى للدور التربوى الذى كانت تقوم به بعض التنظيمات.

١- الأسرة:

عندما أراد حكيم الدولة القديمة بتاح حتب .. الذى عاش منذ نحو ٤٥٠٠ سنة أن ينصح ابنه، كان من بين ما أوصاه به أن قال: "إذا كنت رجلا حكيما فكون لنفسك أسرة"، ذلك بأن المصرى القديم، كأخلافه من المصريين الحاليين، كان قد اعتاد، منذ أزمان طويلة على التبكير فى الزواج، واعتبار الزواج من أهم العوامل التى يقوم عليها المجتمع المصرى الصالح، فتكوين الأسرة عند المصريين القدماء كان أمرا بالغ الأهمية، يوصى به الرجل أولاده ليل نهار، فإذا ما كبر الابن واشتد عوده، فإن أول ما يفكر فيه والداه أن يبحثا له عن زوجة صالحة، يرزق منها بخلف صالح من بنين وبنات يفرح بهم قلبه وينشرح لمرآهم صدره، ويخلد بهم ذكراه، ويجد فيهم عونا على أمور حياته وشئون معيشته. وهذا المعنى يبرزه دائما أهل الحكمة فى أقوالهم التى تجرى

على ألسنتهم مجرى الأمثال خلال عصور التاريخ المصرى القديم كله[1].

فهذا حكيم فى الدولة الحديثة عاش منذ نحو ٣٣٠٠ قال يوصى ابنه وينصحه: "بأن من كان حكيما يتخذ له فى شبابه زوجة تلد له أبناء، فإن أحسن شئ فى الوجود هو بيت الإنسان الخاص به".

وإذا كان هذا النص يشير إلى هدف أساسى من الزواج، بأن يكون للإنسان بيت، وأن يكون الإنسان أسرة، حتى يشعر بالاستقلال والراحة فى بيت يختص هو به دون غيره، يشمله الهدوء ويسوده الاستقرار، فلم يكن هذا هو الهدف الوحيد ، فشيخنا (آنى) يزيد هذا الأمر وضوحا حين يعقب على ما سبق أن قال من "أن يتخذ المرء لنفسه زوجة وهو صغير"، إذ يستمر فيسبب ذلك بسبب هام هو: "حتى تعطيك ابنا تقوم على تربيته وأنت فى شبابك، وتعيش حتى تراه وقد اشتد وأصبح رجلا – ان السعيد من كثرت ناسه وعياله، فالكل يوقرونه من أجل أبنائه"[2].

ولم يكن يجمل بالرجل ولا يليق به البقاء على عزوبيته بحال، فلقد كتب رجل توفيت زوجته يقول: "أنه أمضى ثلاث سنين من بعدها بغير زواج على الرغم من أن ذلك لا يليق بمثله، وإن كان الوفاء قد فرض ما فرضه على نفسه".

وكانت عبارة تأسيس البيت أو إنشاء البيت من كتابات المصريين عن الزواج وتكوين الأسرة، حيث يكون الزوج صاحب البيت وتكون الفتاة كما كانوا يلقبونها سيدة الدار، وفى ذلك ما يدل على ما كان من طبيعة المجتمع المصرى آنذاك، إذ كان الولد يحيا فى كنف أمه وأبيه حتى إذا بلغ أشده واستوى، طلب الزواج وخرج عنهما ليستأنف مع زوجته حياة مستقلة عن آبائهما لا يعايشها أحد إلا بالمعروف[3].

وللأسرة المصرية القديمة فى طابعها العام خصائص متميزة، وهذه الخصائص وان لم تكن مما يؤدى إلى اعتبارها أسرة مثالية لتربية الطفل تربية جسمية وعقلية كاملة، إلا أنها كانت كفيلة بأن تنشئه نشأة نفسية ووجدانية هادئة مبسطة أميل إلى اليسر فى غالب أحوالها(٤).

فقد هيأ العرف القديم للأسرة المصرية من القواعد ما كفل لها نصيبا كبيرا من الاستقرار وما كان يحول دون تبددها وأن يقلل من مشاكلها. وقد كان من تعبيرات الزوج فيها لفظ (منى)، وهو لفظ يعنى الاستقرار والرسو والثبات. وكان من أوضح أركان الاستقرار فيها تقدير الزوج لزوجته أو لأخته (سنتف) على حد التعبير القديم، ونم عن تمسك رب الأسرة المصرى باستقرارها تصوير ساذج فى كتاب لتفسير الأحلام من الدولة الوسطى يجعل من انفصال الزوجين وانعدام الاستقرار بينهما شرا مستطيرا "فإذا رأى الإنسان فى رؤياه النار تلحق بسريره (فذاك) شر، ويعنى طرد زوجته" و"إذا رأى وجهه فى مرآه (فذاك) شر، ويعنى زوجة أخرى". أما "إذا رأى نفسه يشغل الحجر فى داره (فذاك) خير ويعنى استقرار الرجل فى داره" و"إذا رأى نفسه يقرأ فى مخطوط، فذلك خير ويعنى استقرار الإنسان فى داره"(٥).

ولعل أبلغ دليل على أسلوب الحياة المصرية وإيمانها بالأسرة أنهم عبدوا آلهتهم أسرا من زوج وزوجة وولد، فعبدوا فى منف بتاح وزوجته سخمت وابنها نفرتم، وفى طيبة عبدوا آمون وزوجته موت وابنهما خونمو، وذلك فضلا عن الثالوث المشهور من إيزيس وأوزوريس وابنهما حور، فإن حب الأسرة إذن لصادر من أعماق تغلغل فيها إيمان العقيدة وأشربت بتعاليم الدين، وكذلك حفلت آداب المصريين بما فيها من الأسطورة – والقصة والقصيدة والحكمة – بما يكشف عن تقدير الأسرة وتعلقهم بها تعلقا لا حد له(٦).

ولقد كان لأسطورة ايزيس وأوزوريس وابنهما حور الأثر البعيد فى نفوس المصريين، وذلك بحكم ما لها من طابع إنسانى مؤثر يصور حياة الأسرة فى المجتمع المصرى القديم، فهى قصة الأب الذى يرحل عن الدنيا قتيلا وقد ترك من خلفه زوجته ووليدهما اليتيم، فتبكيه الزوجة أشد البكاء ولا تعرف الراحة حتى تطمئن على دفن أشلاء زوجها الشهيد، ثم تتولى تربية الولد حتى يشب ويبلغ أشده، وهى أثناء ذلك تلقنه حب الثأر من عمه قاتل أبيه، والحرص على استخلاص إرثه المغصوب منه، وهى على طول المدى من وراء ولدها تناصره وتحميه وتدافع عنه وتجادل من أجله، حتى تظفر له بملك أبيه.

وفى حديث الأفعوان ملك الجزيرة، التى نجا منها الغريق، قوله مهدئا مبشرا إياه (فلسوف تملأ أحضانك بأبنائك وتقبل زوجتك، فإنه أجمل من كل شئ أن تبلغ وطنك وتعيش مع أطفالك وإخوتك)، ثم روى الأفعوان للبحار المصرى مصيبته التى كادت تهد كيانه لولا أن القوى من يتحكم فى قلبه، فلقد عاد يوما، فإذا أهله من إخوانه وبنيه كومة من رماد، إذ هوى من السماء شهاب أحرقهم أجمعين، وفيهم طفلة صغيرة جاءته بعد دعوات كان يؤثرها بحبه قال "وقد كدت أموت من أجلهم"(٧).

وكانت الروابط الأسرية أقوى الروابط الاجتماعية، فى مصر القديمة كانت العلاقات الزوجية وطيدة قوية. والواقع اننا لا نحس، ولا نرى فيما تركه المصريون من صور حياتهم ما يشير إلى هضم حقوق الزوجة أو التهوين من شأنها، بل أن المصريين كانوا من أحرص الناس على إسعاد زوجاتهم ومعاملتهن بالحسنى وإكرام مكانهم. وقد عدد الحكيم (بتاح حوتب) بعض الواجبات الزوجية فى تعاليمه وأوصى بأدائها قائلا: "إذا كنت عاقلا فأسس لنفسك دارا وأحبب زوجك حبا جما، وآتها طعامها، وزودها بالثياب، وقدم لها العطور، لينشرح صدرها ما عاشت، فهى (أى الزوجة) حقل مثمر لصاحبه، وإياك

ومنازعتها، ولا تكن شديدا عليها، فباللين تستطيع أن تمتلك قلبها واعمل دائما على رفاهيتها ليدوم صفاؤك وتتصل سعادتك. وهكذا يرى ذلك الشيخ الحكيم أن الزوج الموفق هو الذى يسعد زوجته عن طريق حبه وحسن معاملتها، ثم عن طريق تأكيد ذلك الحب بالبراهين العملية، فيقدم لها أطيب الطعام وأفخر الثياب، وسائر ما تحتاج إليه، وهذا أحد خلفائه من العصور المتأخرة الحكيم (آنى) يوصى ابنه بألا يمثل دور الرئيس مع زوجته، وأن يرعاها فى صمت، حتى يمكنه التعرف على أعمالها الحسنة، ويؤكد له أنها ستكون جد سعيدة إذا كانت يده معها[٨].

وقد دلت المتون المصرية على أن وضع الزوجة الأم قد هيأ لها من وراء الأب ما تؤثر به فى أولادها إلى حد مقبول، فكان من التعاليم المصرية ما يعقب حين ينصح الناشئ بالنسبة لزوجته بأن "يعلمها لتصبح إنسانة" وذلك على الأرجح لنفع زوجها من ناحية، ثم بما قدر لها من أثر فى طابع الأسرة وحياة الطفل المرتجى منها من ناحية أخرى. وكان من التعاليم كذلك ما يفصح عن تقدير الأب لجهد زوجته بأكثر مما يقدر لجهده بالذات فى تربية ولده، فقال والد لولده "... انها طالما تحملت عبئك (؟) ولم تلقه على"، وهذا التقدير ونحوه لأثر الزوجة الأم التى كانت تعتبر ست البيت (نبت بر)، ما من شك فى أنه كان يوصى بواجبات وحقوق فيما بينها وبين أولادها إبان طفولتهم الأولى وفيما بعدها، وما من شك كذلك فى أنه يفسر مثل قول الحكيم المصرى القديم عنخ شا شنقى لولده "أن نعمة الممتلكات زوجة حكيمة"، وقوله له: "احذر أن تتخير لنفسك امرأة سيئة الطبع زوجة، حتى لا تورّث أبناءك تربية فاسقة"[٩].

وكان الحب بين الزوجين هو الرباط الوثيق الذى يربطهما معا، وكان يسعد الزوجين إذا صورا أو نحتت لهما التماثيل أو يظهرا ذلك الحب، إذ تعبر الزوجة عن رقيق احساسها وصادق شعورها بذراعها

تطوق زوجها به أو تتعلق بذراعه، كما كان للأبناء كذلك وسائلهم في التعبير فيما يصور لهم مع أبائهم من المناظر والتماثيل، وزاد اخناتون في ثورته الدينية والفنية والاجتماعية فخرج على مألوف المصريين من حيث الاتزان في التعبير عن العاطفة بين الزوجين، فلم يجد حرجا في أن يصور وهو يقبل زوجته نفرتيتي[١٠].

ولو قرأنا بعض أغاني المصريين القدماء لعرفنا كيف يقدر الشاب فتاته وعمق ما يشعر به نحوها، ولأدركنا ما يسبق الزواج من العاطفة التي توجهه إلى اختيار زوجته ورفيق أيامه عن رغبة فيها واقتناع بها ثم استمساك بها حين يتزوجان، تقول أغاني الحب:

"(...) لقد وهبت لك قلبي
من أجلك إني أسير على هواك
عندما أرقد بين زراعيك
فإن رغبتي في أن أقدم على ذلك،
هو الكحل الذي تكتحل به عيني (...)"[١١]

كذلك تؤكد المراسلات الحقيقية أو الخيالية على العلاقات المشبعة بالحب والود والمثال على ذلك هذا الخطاب الموجه من أحد الكتبة إلى زوجته المتوفاه[١٢]:

"أيها التابوت المبجل حيث ترقد منشدة آمون، الأوزيريس
"أختاي" إنصت إليّ، وبلغ (هذه) الرسالة، أنت القريب منها أطرح عليها هذا السؤال "كيف صحتك، وأين تقيمين؟ وأخبرها "يااللمصيبة إذ فقدت "أختاي" الحياة! "هكذا يتحدث أخوك ورفيقك ويااللمصيبة! أنت الجميلة جدا! أنت التي لا مثيل لجمالك! وكان يستحيل على المرء أن يجد شيئا قبيحا فيك. إني أناديك كل لحظة. ردي على من يناديك ..."

ولم يكن المجتمع المصرى على كل حال مجتمعا من الملائكة والأولياء الذين لا يقترفون إثما أو يرتكبون سوءا، ولن نعدم المارق ولا الخارج فى مجتمع أينما كان، ولكن الحديث إنما يعالج صبغة المجتمع الغالبة وتقاليده السائدة وخصائصه البارزة. ومن شواهد وفاء الرجل بزوجته وقوة الرباط بينهما ما كتبه الرجل إلى زوجته المتوفاة كما دون على بردية فى متحف ليدن[١٣]:

"لقد كنت شابا عندما تزوجتك، وأثناء وجودى معك حصلت على أرفع المناصب، ولم أتركك يوما، ولم أعذب قلبك إطلاقا. هذا ما فعلته عندما كنت شابا وعندما شغلت أكبر وظائف فرعون له الحياة والصحة والقوة، لم أهجرك وبالعكس كنت أقول لنفسى: لتكن سعادتى معك وكنت أرفض كل وشاية بك، وكنت أقول إنى أعمل مستوحيا قلبك، لكن انظرى إلى ما حدث لى عندما كلفت أن أدرب ضباط جيش فرعون وجنوده كنت أكلفهم أن ينبطحوا على بطونهم أمامك وعليهم أشياء طيبة كثيرة لكى يضعونها أمامك، ولم أخف عنك شيئا من أرباحى حتى هذا اليوم من حياتى، لم يحدث لى أن خدعتك إطلاقا كما يفعل الفلاح الذى يتسلل إلى بيت سواه، لم أحاول أن أرسل عطورا أو فطائر أو ملابس إلى بيت أخرى، قائلا: "إن زوجتى هناك" لأنى لم أشأ أن أغضبك عندما أصبت بالمرض الذى ابتليت به، لم أرد أن أسبب لك حزنا فأحضرت لك طبيبا كبيرا قام بعلاجك وعمل كل ما أمرت به. ولما تبعت فرعون عندما ذهب إلى الجنوب، فإليك ما اتبعته معك: "أمضيت مرة ثمانية أشهر دون أن أتناول طعاما أو شرابا يلائم رجلا فى مستواى، ولما عدت إلى منف طلبت من فرعون منحى إجازة وتوجهت إلى المسكن الذى تستقرين فيه (إلى قبرك) وبكيت كثيرا أمامك أنا وأتباعى.

وكان من المتون الدينية ما ألف ليحول دون أى إبطاء أو تردد أو عائق فى جمع شمل رب الأسرة بأولاد. ومنها ما ألف ليؤكد له استمرار صحبته لهم ولزوجته على الدوام. وقريب من هذا الاتجاه ما بدا من حرص الأبناء على اتخاذ مثواهم بالقرب من مثوى آبائهم أو فى مقابرهم بالذات، وذاك أقرب إلى أن يعنى الرغبة الأكيدة من الآباء والأبناء معا فى أن يكونوا بعضهم بصحبة البعض باستمرار، أو هو يعنى كما ذكر أحدهم "رغبة الابن فى أن يرى أباه كل يوم والرغبة فى أن يكون معه فى موضع واحد". وإذا كانت مجموعات التماثيل قد جمعت أحيانا بين الشخص وأبويه وابنه وابنته، فإن النصب قد ذهبت بروح الألفة والاتصال العائلى إلى ما هو أوسع مدى من ذلك، بحيث جمع النصب الواحد أحيانا بين الأربعين والخمسين من أفراد العائلة، يكون فى مقدمتهم والدا المتوفى وأخوته وأخوانه الذين يحرص على أن يشركهم معه فى مشاهده الأخروية، وفى حفلاته العائلية حرصه على إشراك زوجته وأولاده(١٤).

غير أننا لانود -مرة أخرى- من استعراض هذه النواحى الطيبة للحياة العائلية المصرية أن نفترض أمثالها لكل أسرة مصرية قديمة، فما من شك فى أن الأسر المصرية القديمة قد تفاوتت حظوظها فى تآلفها وتنافرها وفى مسراتها وأتراحها، شأنها فى ذلك شأن غيرها من الأسر فى كل مجتمع وزمان. بل وما من بأس فى أن نضيف استكمالا لصورة الحياة الفعلية القديمة أن بعض التعاليم المصرية قد تضمنت عدة أمثال سائرة هدفت إلى تحذير الأزواج من بدوات الزوجات فضلا عن النساء الغريبات، فكان منها ما يحذر الزوج من أن يسلم قياده لزوجته أو يجعلها تملى رأيها عليه، وكان منها ما يحذره من ائتمانها على سره أو إطلاق يدها فى ماله، وما يحذره من الزوجة الجميلة والزوجة الذليلة والزوجة المتغطرسة، فضلا عن الزوجة الفاسقة، وكان منها ما يسمح له باستخدام العصا مع زوجته بشرط ألا يشوهها بها(١٥).

ونحن نلمس أن للنساء أثرهن الهام فى التربية المصرية القديمة، على أساس أن مركز المرأة ومدى نهضتها هو المقياس لمدى رقى الحضارة وتقدمها، ومن واجب التأريخ التربوى إذا أراد أن يعطى صورة صادقة لتربية شعب من الشعوب أن يهتم بدراسة حياة المرأة فيه وأثرها فى تربية الأبناء. وهنا نلمس كيف كان المصريون القدماء أول من آمنوا برسالة المرأة ودورها فى المجتمع، فقدروها واعتزوا بها وأعطوها حقوقها، فكانت بمثابة الدم الذى يجرى فى عروق البلاد لا تكاد تمس جانبا من جوانب الحياة دون أن نجد للمرأة مكانا فيه، فتبوأت مناصب لا تقل عن مناصب الرجال، واضطلعت بالكثير من التبعات(١٦).

يقول ماكس ميلر: "ليس ثمة شعب قديم أو حديث قد رفع منزلة المرأة مثل ما رفعها سكان وادى النيل"، فالنقوش تصور النساء يأكلن ويشربن بين الناس، ويقضين ما يحتجنه من المهام فى الشوارع من غير رقيب عليهن ولا سلاح بأيديهن، ويمارسن الأعمال الصناعية والتجارية بكامل حريتهن. ولشد ما دهش الرحالة اليونان – وقد اعتادوا أن يضيقوا على نسائهم السلطات – من هذه الحرية، وأخذوا يسخرون من الأزواج المصريين الذين تتحكم فيهم زوجاتهم. وكانت النساء يمتلكن ويورّثن، وقد ارتقت حتشبسوت وكليوبترا عرش مصر وحكمتا وخربتا كما يحكم الملوك ويخربون(١٧).

وكان الطفل يتلقى تربيته الأولى بطبيعة الحال من أمه، فهى التى ترضعه ثلاث سنوات وتتولى العناية والرعاية له وكانت الأسر الثرية تستأجر أحيانا المرضعات ويبدو أن مركزهن كان ملحوظا، فقد وجد فى كتاب طبى وصفة "لإدرار لبن مرضعة ترضع طفلا".

ومن أروع ما خلفه لنا الأدب المصرى القديم ما قالـه الحكيم (آنـى) عن الأم لابنه: "اعط المزيد من الخبز لأمك واحملهـا كمـا حملتـك، لقـد كنت عبئا ثقيلا عليها، وحين ولدت بعد تمام أشهرك حملتك على عنقهـا وظل ثديها فى فمك ثلاث سنين كاملة، ولم تكن تشمئز من قذارتك، ولم تقل (ماذا أفعل)؟ انها أدخلتك المدرسة لتتعلم الكتابة وظلت تنتظرك فـى كل يوم تحمل إليك الخبز والجعة من منزلها، وعندما تصبح شابا وتتخذ لك زوجة وتستقر فى منزلك فضـع نصب عينيك كيف ولدتك أمك، وكل ما فعلته من أجل تربيتك، ولا تجعلهـا توجه اللوم إليك، وترفـع يديها إلى الله لئلا يستمع إلى شكواها"[١٨].

وفى مجال التعليم والثقافة يمكن للباحث أن يلاحظ إشادة المصريين برجاحة عقل بعض النساء وباتساع ثقافتهن، ولدينـا نـص يتحـدث عـن سيدة احتلت مكانا مرموقا فى مجتمعها، واكتسبت محبة قومها، فيصفهـا بأنها كانت ذات حديث طلى لا يمل، وكان كل ما يمر بشفتيها كأنه مـن صنع آلهة الحق، فهى تنطق بكل ما هو حسن وتـردد مـا يحبـه النـاس، ولا يمـر القـول السئ بشـفتيها. كـانت امـرأة كاملـة تسـاعد الجميـع وترضيهم، فكثر الثناء عليها فى مدينتها وأحبها الجميع أشـد الحـب[١٩].. ويستدل من دراسة هذا النص علـى أن المـرأة المصريـة القديمـة كـانت تتمتـع بنصيـب مـن الثقافـة كمـا كـانت تتمتـع بحـق التعليـم تمامـا مثـل (الرجل) وأنه لم يكن هنـاك حـائل بين الإنـاث والتعليـم، ولقـد أظهـرت بعـض الوثـائق والنصـوص أن مـن الإنـاث مـن كـن يعرفـن القـراءة والكتابة، ويسهمن فى الثقافة ويتذوقـن الأدب، بـل ويتراسـلن بـه. ومـن النماذج المعبرة عن ذلك كانت هناك سيدة تتولى كتابـة رسـائل الملكـة، وهنـاك سـيدة أخـرى مـن الدولـة القديمـة كـانت تسـتطيع قـراءة الخـط الهيروغليفى بسهولة. ثم هناك من الأسـرة السادسـة أمـيرة كـانت تعتز بألقابها، وهى القاضية فى القصر وبنت تحوتـى. ومـن الأسـرة الحاديـة عشر يشير "خنواردو" الذى خدم فى بلاط إحدى زوجات الفرعون، إلى

ما كانت تتمتع به سيدته من مركز أدبى ممتاز، فقد أشار إلـى اهتمامها بإقامة دار للثقافة فى دندرة لتعليم المرأة وتثقيفها ممـا يشير إلى الدور الذى لعبته نساء تلك المرحلة فى الحياة التربوية إلى جانب الرجال. وقد عثر على ثلاث وثائق من الدولة الوسطى لقبت فيها المرأة بلقب كاتبـة، وأغلب الظن أنهن أخذن مهنة الكتابة عن آبائهن، حيث كان المعتـاد أن تتوارث هذه الطبقـة تلك المهنـة. وهنـالك أم الملك أحمس الأول من الدولة الحديثة التى وصفت بأنها عالمة "رخت خت" أى التى تعرف كل شئ. وقد عثر ضمن آثار الملك توت عنخ آمون على أداة للكتابـة تخص الأميرة (مريت أتون) ابنة الملك أخناتون[٢٠]، مما يشير إلـى أنها كانت تمارس الكتابة، وربمـا الرسم. وقد تخلفت بعض الرسـائل عن عصر الرعامسة استخدمت فيما بعد كنماذج تعليمية، وقد كتبتهـا بعض السيدات. ومن العصور المتأخرة، كانت هناك زوجة الكاهن بـادى أوزير التى اشتهرت برأيها السديد فى كتابة الأرباب ومعرفتهـا بالكتابـة الهيروغليفية.

ولم يكن رباط الأبوين بأولادهما بحكم ما خلق الله من عاطفة بذرها غريزة فيهما فحسب، بل لقد كان الولد بالنسبة لأبيه حامل اسمه ووريثه الذى يتولى بيته من بعده، إذ كان حريصا على أن يظل بيته وآلـه على ما كانوا عليه حال حياته من العز والسؤدد، وذلك ما نعبر عنـه فـى أيامنا بالبيت المفتوح، وما كانوا يعبرون عنه بالبيت المؤسس، لأن فـى عمار بيت الرجل من بعد موته ورفاهيتة بنيـه تخليدا لذكراه كما كـان الولد الأكبر رجل البيت من بعده، وتردد أصداء تلك العاطفة فى كتـاب مؤثر بعثت به امرأة إلى زوجها تذكره بما كان فى أيامه الأخـيرة وهو على فراش الموت، حيث كانت جالسة عند رأسـه تمرضـه وترعاه، وكان الرجل قد دعا ولده الصبى إلى فراشه يحدثه ويوصيه بمـا ينبغى على الأبناء من إقامة بيوت الآباء فيقيم الولد بيت أبيه، ثم يقيم ابنه بيتـه وهكذا، ثم تدعو لابنها بأن يتمكن من إقامة بيـت أبيـه، لذلك كـان الأب

إذا أحس بوهن الشيخوخة يشب فى أعضائه، ودعا إليه ولده أو أولاده فيحدثهم بوصيته التى يستودعها إياهم بما شاء، كما يوصيهم بقبره وما يجب أن يكون له من زينة الموت وجهازه وقربانه وشعائره، ولذلك كانت نظرة المجتمع إلى من حرم الولد نظرة الرحيم المشفق إلى الشقى المحروم ولو اجتمع له الجاه والمال الموفور، وكان الأولاد يصدعون بأوامر آبائهم فيما أمروا به من وصايا ويحترمونها بحيث تقع منهم موقع الإجلال والإلزام الذى يوجب التنفيذ، وكانوا إنما يصدرون فى ذلك الحي الذى يكنوه نحو آبائهم أولا وعن الحرص على كسب رضاهم فى الآخرة إذا ما انتقلوا إليها حيث يلقنوهم هناك، فيكونون عندهم من المقربين، ويكون لهم بذلك الأمر والمثوبة حيث يشفع لهم آباؤهم عند الإله العظيم، وكان المصريون يؤمنون بالشفاعة فى يوم الحساب، حيث كان رضاء الأب مجلبة لرضوان الله[٢١].

وقد اطمأن المجتمع المصرى إلى رعاية الأم لطفلها فى سنينه الأولى، فكانت تحتضنه طيلة أعوامه الثلاثة الأولى، ترقده بجانبها، وتحمله على خاصرتها أو كتفها أو حول كتفيها، وإذا خرجت به حملته بالأوضاع نفسها أو حملته عنها خادمة على خصرها وشدته إليها بشال عريض، وإذا استطاع الطفل المشى أمسكته أمه بيدها حين الخروج أو تركته إلى خادمة تتبعها به، أو أجلسته معها فى محفة الخروج، واحتفظت المناظر والتماثيل المصرية الصغيرة بأوضاع طريفة تمثل الأم فى دارها تمشط شعور بناتها، وتضم إليها أولادها[٢٢].

وشارك الأب المصرى امرأته فى الحدب على صغارها، ولم يكن أبا غليظا يتباعد عن أطفاله، فصورته المناظر يضع يده فى يد ابنه، أو يضع يده على رأس ابنه، وصورت البنت تستند بيديها على كتف أبيها، أو تمسك كتفيه، وهو يلعب النرد مع أمها، وصورت الوالد يتطامن لولده الصغير حتى يصعد على فخذه ويقف عليه مستندا على ذراعه،

وصورته يجلس ولده على حجره ويحيطه بذراعيه. وصورت أخناتون يجلس بناته على حجره ويرفعهن بين يديه ليقبلهن. وصورت الأخوة الصغار يمسك بعضهم بأيدى بعض، ويدلل بعضهم بعضا، ويضم بعضهم بعضا، ويركب بعضهم فوق ظهور بعض. وكشفت المناظر بذلك عن روح سمحة طلقة أخذت الأسرة المصرية بها فى معاملة صغارها، ولم تر فى تصويرها داخل المقابر ما يجافى قداسة المقابر ووقارها[٢٣].

وكانت الرعاية الصحية من أبرز أمور العناية بالطفل وتربيته، يبدأ الإعداد لها قبل مولد الطفل، ونستطيع أن نتبين ذلك مما جاء فى كتب الطب من ذكر العناية بالحامل وتسهيل عملية الولادة وتأمينها من كل خطر، ثم ما يجب عمله لوقاية الطفل وقت الولادة، ومن كثرة ما لجأ إليه الوالدات من الاستعانة بالتمائم، والتوسل بصالح الدعوات لسلامة الحامل وإنجاح الحمل. وقد اهتم المصريون بعملية الولادة التى كانت تباركها ربة الحمل والولادة وتقوم بها قابلات متخصصات. ومما هو جدير بالذكر أن القابلات فى مصر القديمة كانت لهن فى المجتمع مكانة مرموقة، وكان الناس يعتقدون أن صنعتهم مقدسة[٢٤].

ثم تستمر تلك الرعاية بعد مولد الطفل، فهذه كتب المصريين الطبية مليئة بذكر العلل والأمراض وأعراضها، وطريقة الوقاية من عواقبها وبخاصة ما يتصل منها بتبول الطفل وسعاله، والوعكات التى تصحب ظهور الأسنان، وغير ذلك من أمراض الأطفال المعروفة، يضاف إلى ذلك أن الأطفال فى مصر كانوا ينشأون فى جو صحى يخلو من الرطوبة، ولذا حرص المصريون على ترك أطفالهم عراة فى سنواتهم الأولى لأطمئنانهم إلى جفاف الجو واعتدال هوائه وصفاء سمائه. والمؤرخون الذين كتبوا فى سيرة هذا الشعب يشهدون لأفراده بسلامة أبدانهم.

وعرف المصريون لكل سن ما يناسبها من لعب وألعاب ويفى من لعب أولادهم لعب وعرائس ودمى كثيرة، صنعها أصحابها من الخشب والعاج والطين والحجر والجلد[٢٥]. وأمتع اللعب المصرية هى اللعب المتحركة، ويحتفظ متحف القاهرة ومتحف ليدن بلعبتين صغيرتين، تمثل كل منهما رجلا يطحن الحب بمرحاة دقيقة فوق سطح منحدر صغير ويتدلى خيطان من جذع الرجل، يشدهما الطفل فيوقفه، ويرخيهما فيجعله يميل.

وإلى جانب اللعب الإنسانية المتحركة، صنع هواة اللعب لعبا حيوانية متحركة، وأطرفها يمثل تمساحا خشبياً ذا فك متحرك يحركه الطفل بخيط يتصل به، وضفدعة عاجية صغيرة ذات فك متحرك، ولبؤة خشبية ذات فك متحرك تبدو وكأنها تسير فى خطو متثاقل وئيد.

وشاعت العرائس والدمى بين لعب الأطفال، مثلت أشكالا إنسانية، وأخرى حيوانية، وثالثة جمعت بين الإنسان والحيوان، وصنعها أصحابها بما يناسب أمكانيات الأسر المختلفة فصنعوا العرائس من الخشب والطين والفخار والقيشانى والعاج والحجر[٢٦]. ومن أطرف الدمى، دمية تمثل قردة أجلست بنتها أمامها لتمشط شعرها على نحو ما تفعل الأم البشرية مع بناتها.

ويشب الطفل عن طوقه، وينصرف عن العرائس والدمى والألعاب الفردية إلى الألعاب الجماعية ومزاملة الرفاق من سنه، وفيما بين حدائق القصور وسطوح الدور، والأزقة والأطلال والحقول، مارس الأطفال المصريين صنوفا عدة من الألعاب المرحة لاتفترق عن ألعاب أطفال اليوم فى شئ كثير[٢٧].

ولقد علم الآباء أولادهم آداب السلوك وقواعد المعاملة فى أثناء تربيتهم الأسرية وسلحوهم بكرائم الأخلاق والمثل العليا منذ الصغر، وليس أدل على ذلك من أن كتب المصريين فى التربية قد صيغت فى أسلوب النصائح والوصايا يزود بها الآباء أبناءهم، فيها ذخيرة من تجارب الحياة التى يمر بها الآباء وسجلوا فيها ما ينير سبل الحياة لأبنائهم، وفيها نماذج من الفضائل الخلقية يجدر بالأبناء أن يتدرعوا بها بغية السلامة من الزلل. لقد كان الآباء يحثون أبناءهم على التسلح بالتقوى والخوف من عقاب الله، ثم يغرونهم بالتحلى بالمثل الخلقية السائدة كالبر بالوالدين وحسن معاملة الزوجة، واحترام الغير، والتسامح وعدم التطفل[٢٨]. والرحمة بالضعفاء والتواضع، والصراحة والاستقامة، والعدل، والعطف على الخدم والجوارى، وتقدير الرؤساء، وحفظ السر، والأمانة، والإخلاص، والصبر، والمثابرة، وحسن اختيار الأصدقاء، وغير ذلك من القيم، كما حذر الآباء أبناءهم من الخمر، والنساء، وشهادة الزور، والتعدى على الغير، والنميمة، والكذب، وغير ذلك من كبائر الإثم.

وحث المصريون أبناءهم على توقير الشيوخ، وأصحاب المقامات العلى، وهذا حكيمهم (بتاح حتب) ينصح (ابنه) فيقول "إذا وجدت رجلا أكبر منك سنا، وأكثر حكمة يتحدث إليك فاصغ إليه، واحن ظهرك أمامه دليلا على الطاعة"، وذلك الحكيم (آنى) يحذر (ولده) من الجلوس إذا رأى من أكبر منه سنا أو أرفع مقاما واقفا[٢٩].

وهذا أب ينصح ابنه فيقول: "ما أجمل أن يصغى الابن عندما يتكلم أبوه فسيطول عمره من جراء ذلك. ان من يسمع يظل محبوبا من الله، ولكن الذى لا يسمع مكروه من الآلهة، والقلب هو الذى يرشد صاحبه فيجعل منه شخصا يسمع أو شخصا لا يسمع، فقلب الإنسان هو حياته وسعادته وصحته، ما أجمل أن يستمع الابن إلى أبيه"[٣٠].

ويرسم عقاب عاق الوالدين قائلا:

"أما الغبى الذى لا يسمع لوالده نصحا ولا كلاما فلن يلقى نجاحا، فهو ينظر إلى العلم كما لو كان جهلا، وإلى الخير كما لو كان شرا، ويجلب على نفسه اللوم فى كل يوم لأنه يفعل كل ما هو مكروه من الناس، ويعيش على ما يسبب الموت للناس، إن قال السوء فهو طعام فى فمه وسيعرف الحكام خلقه وسيموت وهو حى فى كل يوم .. وسيتجنبه الناس لكثرة مساوئه التى تتكرس فوقه من يوم إلى يوم"

وهناك نصائح موجهة إلى جمنيكاى، وهى بردية من انشاء الدولة الوسطى، ولكن كاتبها نسبها إلى الدولة القديمة، ويجمع الجزء المحفوظ من هذه البردية بين بعض النصائح الأخلاقية وبين آداب السلوك والذوق، فمثلا نقرأ منها[٣١]:

"لا تتفاخر بقوتك بين أقرانك فى السن وكن على حذر من كل إنسان حتى من نفسك. إن الإنسان لا يدرى ماذا سيحدث أو ما الذى سيفعله الله عندما ينزل عقابه".

ومن النصائح الموجهة إلى مريكارع ويحض فيها ابنه على عمل الخير[٣٢]:

"هدئ من روع الباكى ولا تظلم الأرملة ولا تحرم إنسانا من ثروة أبيه ولا تطرد موظفا من عمله وكن على حذر ممن ينتقم مما وقع عليه من ظلم. لا تقتل، فإن ذلك لن يكون ذا فائدة لك، بل عاتب بالضرب والحبس، فإن ذلك يقيم دعائم هذه البلاد، اللهم إلا من يثور عليك وتتضح مقاصده لك، فإن الإله يعلم خائنة القلب، والإله هو الذى يعاقب أخطاءه بدمه .. لا تقتل رجلا إذا كنت تعرف جميل مزاياه".

وهكذا رتب الحكماء المصريون تعاليمهم بما يتفق ومطالب مجتمعهم والروح العامة التى سرت بين طبقاته، فوافقوا الآباء على ما فرضوه لأنفسهم من حقوق الطاعة والإشراف على أبنائهم وأكدوها لهم، وقالوا معهم بأنه ما من مولود يستطيع أن يبلغ الحكمة من تلقاء نفسه. ولكنهم آثروا التوسط فى تعاليمهم، واستحبوا من الأب أن يشفع أمره ونهيه بوسائل الاقناع، ونبهوا الابن إلى أن فضيلته تعود بالنفع عليه وحده، وان خير ما يمكن أن يرثه عن أبيه هو توجيهه إلى تحرى العدالة، ودعوة إلى أن يجدّ نحو الكمال من أجل نفسه وأجل الناس، بشروط ثلاثة، وهى أن يرضى بما قدر له، وأن يتجاوب مع الأوضاع القدسية التى ارتضاها الأرباب والفراعنة لمجتمعه، وأن يراعى التوسط فى معاملة رئيسه ومرءوسه، ومعاملة نفسه ومطالب بدنه، واختيار مناسبات صمته ومناسبات كلامه[٣٣].

وكان من الطبيعى أن يتفاوت رضا الأبناء بما دعاهم الآباء والحكماء إليه، فيكون منهم البار والعاق، والصالح والطالح، والمطيع والعاصى، والواعى، والغافل، فشاعت بين أخيارهم عادة احترام الابن لأبيه، وقيامه عند التحدث إليه، ومخاطبته على استحياء، وتوقير كبار السن عامة، وصور هذه العادات قصص مصرية قديمة كما صورها الفنانون ورددها الأبناء فيما كانوا يكتبونه عن سير حياتهم[٣٤].

غير أن قصر سلوك النشء المصرى القديم على النواحى الطيبة من السلوك، لا يصور الواقع كله، فليس من شك فى أن الميل الطبيعى من الشبان إلى التحرر من كل سلطة تفرض عليهم، كان له أثره فى تكييف سلوك بعضهم إزاء سلطة الآباء وتعاليم الحكماء، ولم تخل الآداب المصرية من الاعتراف بهذه الحقيقة، فقال الحكيم بتاح حوتب لولده فى حديثه عن الآباء والأبناء: ".. وكم من والد فى عناء، وأم ولود تجد غيرها أهدأ بالا منها".

وصورت مصادر مصرية أخرى انصراف بعض الفتيان إلى اللهو ومعاقرة الخمر، وإيثار مجالس الغناء والنساء، ووصفت بعضهم بأنه قد يسهل ترويض الأسود وكبح جماح الخيول وتدريب العجماوات حتى ترقص وتطيع، بينما لا يسهل ترويضهم هم أو كبح جماحهم أو تعويدهم على الطاعة. ووصفت بعضا آخر بأنهم يتسكعون من حي إلى حي تسبقهم رائحة الخمر، فإذا وصل أحدهم إلى حارته جمع البنات حوله وجلس يضرب بيديه على بطنه كأنه يضرب على الطبل(٣٥).

٢- المعابد:

مرَّ بنا إشارات عدة إلى مكانة الدين فى حياة قدماء المصريين مما يؤكد أن مراكز العبادة الدينية تعتبر فى الوقت نفسه مؤسسة كان لها دورها البارز فى توجيه سلوك أبناء البلاد كبارا وصغارا.

وكان المصريون يعتقدون أن لابد للآلهة من بيوت تسكنها، وتؤدى لها فيها حاجاتها من طعام وشراب وكساء وعطر، ولذلك كانت المعابد تسمى بيوت الآلهة وتحظى بأكبر عناية فى تشييدها، بيد أن المعبد كان فى بداية الأمر كوخا بسيطا من أعواد النبات ذى سقف مقبى، يتقدمه فناء يقوم على مدخله صاريان تعلوهما شارتان، ثم لم تلبث المعابد أن شيدت بالحجر على خلاف قصور الملوك والأمراء وبيوت الأفراد التى ظلت تبنى من اللبن، وذلك لما ينبغى أن يكون لبيوت الآلهة من ثبات واستقرار(٣٦).

وقد عرفت مصر نوعين من المعابد، المعابد التى اعتبرت منازل للآلهة، ثم المعابد الجنائزية التى خصصت لإقامة الشعائر للملوك بعد وفاتهم، والتى سميت فى الدولة الحديثة بـ (قصور ملايين السنين).

وإذا كانت المعابد لها وظيفتها الأساسية التى تطلبت إعدادا خاصا إلا أن قوة نفوذها وعلو مكانتها، وانتشارها جعل منها مراكز لأنشطة أخرى متعددة كان لابد منها لتسيير شئون المعبد مما كان له دوره كذلك فى إعداد القوى البشرية اللازمة(٣٧).

فإلى جانب هذا العالم الملئ بالأسرار تنشط مكاتب هذه المعابد وإدارتها ومخازنها وورشها فتعكس لنا صورة مغايرة تماما. ورغم قرب هذين العالمين من الناحية المكانية، فالمسافة التى تفصل بين طبيعة نشاط كل منها شاسعة. وتشكل المكاتب والمخازن والورش الركائز المادية التى لا غنى عنها لعالم المعابد، وتستأثر هذه المكاتب الادارية بالإشراف على عوائد أملاك الآلهة واستثمار الأراضى المنتشرة فى طول البلاد وعرضها، والعناية بالماشية، وامتيازات استغلال المناجم إلى آخره. كما تتولى إعداد حسابات المحاصيل والموارد التى تجلبها الحملات، وحصر الغنائم التى جمعها الملوك فى حروبهم الخارجية، وكل هذا تمجيدا للإله وتبجيلا له. وإضافة إلى ذلك، فقد كان من المألوف أن يضطلع العديد من المسئولين عن هذه المكاتب أيضا بالأعباء التى تخص الإدارة الحكومية، حيث كانوا يحلون محلها تطوعا فى القيام بكثير من مهامها، وبذلك اتسعت دائرة نفوذهم وتعاظمت. وعن اكتشاف سرقات المقابر المشهورة فى آخر عصر الرعامسة، كانت المحاكمات تنعقد فى نطاق معبد آمون بالكرنك، وبازدياد الدور السياسى لمسئولى هذه المكاتب اضطر ملوك مصر إلى السعى دوما لاسترضائهم والحصول على اعترافهم بشرعية اعتلائهم عرش البلاد(٣٨).

ويعمل جيش من الفلاحين والعمال والحرفيين والخدم فى أراضى المعابد وفى حرمه ويقومون بنفس أعمال أقرانهم فى الأملاك الملكية فى إنتاج المواد الغذائية والمواد المصنعة. كان العمل فى ورش أملاك

آمون فى الدولة الحديثة له سحر خاص، فالعديد من كبار الموظفين الذين شغلوا فيها مناصب كبيرة اهتموا بنقل مشاهد هذه الأنشطة على جدران مقاصيرهم الجنائزية. وفى عهد رمسيس الثالث، كان عدد من يعمل فى الأملاك التابعة لآمون يتجاوز المائة ألف شخص(٣٩).

وكان المفروض أن الملك فى الأصل هو صاحب الحق الأول فى إقامة الشعائر للإله بوصفه الكاهن الأول، غير أنه كان بطبيعة الحال ينيب عنه كاهنا أكبر أو أحد عظماء رجال الدين لأداء تلك الشعائر وغيرها، وقد كانت الشعائر تقام لتمثال الإله الذى كان يوضع عادة فى محراب صغير، يصنع فى معظم الأحيان من الخشب المموه بالذهب، والمزخرف بالألوان، والمطعم بالأحجار الثمينة. وكان محراب الإله، أو بعبارة أخرى قدس الأقداس فى المعبد مغلقا بباب ذى مصراعين مقفل مزلاجه بإحكام ومختوم. وكان على الكاهن قبل أن يقترب من قدس الأقداس أن يطهر نفسه، ويرتدى ملابس الكهانة الخاصة بهذا الحفل. وبعد أن يتخلص من أقذائه الجسمية يبخر بالمبخرة، ويتقدم مطهرا بعبيق البخور الأماكن التى يمر بها وهو متجه إلى الإله(٤٠).

وتحدثنا النقوش المصرية القديمة عن أن أيام السنة كلها كانت أعيادا تقام للأموات والآلهة ولا أدل على ذلك من أن أيام الشهر كان كل واحد منها يقام فيه عيد له اسمه الخاص به. غير أننا لا نعرف شيئا عن الكثير من هذه الأعياد أكثر من أسمائها. ولا نزاع فى أن هذه الأعياد ترجع فى نشأتها إلى أقدم عصور التاريخ المصرى القديم، إذ قد ولدت مع العقائد الدينية المصرية العتيقة(٤١).

وبطبيعة الحال كانت هذه الأعياد فرصة للتعريف بجوانب متعددة بالعقيدة الدينية وبممارستها مما كان له شأنه فى تربية أعداد غير قليلة تربية دينية.

وإذا كان الدين هو القوة المسيطرة على مشاعر الشعب المصرى وغيره من شعوب العالم القديم، بحيث كان الفرد فى بادئ الأمر يتضرع لربه ليدرأ عنه الشر أو يجزيه الخير، إلا أنه فى الوقت نفسه كان يريد أن يحتال على قضاء حوائجه المستعصية بطرق أكثر قوة، وأشد فاعلية من الإله الذى يعبده، وبذلك اختلط عليه الأمر منذ البداية، فنجد أن الإنسان قد اعترف بأنه فى كل زمان ومكان محوط بقوى خفية خارجة عن نطاق فهمه، ولم يكن فى استطاعته أن يقاومها بما فى متناوله من وسائل. وقد حاول أن يستميل هذه القوى بالتضرع تارة وبالفن تارة أخرى، والواقع أن الدين والسحر هما وليدا هذا المجهود الإنسانى المزدوج. ولما كانا وليدى ضرورة واحدة بعينها، أصبح من الطبيعى إذن أن يتقابلا فى نقاط عدة، فهما يستعملان فى غرض واحد، وذلك لأن الإنسان فى حالة بؤسه يلجأ غالبا إلى ربه تضرعا أو خيفة، ورغبة أو رهبة، وإذا عجز عن نيل مطلوبه، لجأ إلى السحر الذى يسيطر حتى على الآلهة[٤٢].

وقد كان للثورة الاجتماعية التى شهدتها مصر فى عهد الدولة الوسطى أثارها فى وظيفة المؤسسة الدينية، إذ نجد بعض الأفكار الدينية الشعبية الجديدة أخذت تظهر فى المتون الدينية الخاصة بهذا العهد، أى العهد الاقطاعى الأول، وأول ما ظهرت هذه العقائد الشعبية فى (متون التوابيت)، على أن مثل هذه المتون الدينية الجديدة لم تكن شائعة فى بداية الأمر، بل كانت محلية، وإن أصبحت فيما بعد ذائعة منتشرة وكونت وحدة فى عهد الدولة الحديثة، إذ ظهرت فى صورة كتب يتداولها أفراد الشعب على السواء، ونخص بالذكر منها كتاب (أمى دوات) – أى ما يوجد فى العالم السفلى، ثم (كتاب البوابات)، وهى الأبواب التى كان لزاما على المتوفى أن يمر بها فى طريقه إلى عالم الآخرة الذى هو جنة المأوى، وأخيرا (كتاب الموتى) الذى كان

يحتوى على عدة فصول توضع بجوار المتوفى فى تابوته ليكون دليلا له وحافظا من كل الأخطار التى تعترض سبيله إلى جنة الخلد[٤٣].

وأول كتاب ظهر من هذا النوع فى مقابر الشعب يرجع تاريخه إلى عهد الدولة الوسطى على التوابيت المصنوعة من الخشب، وهو الكتاب الذى اصطلح على تسميته حديثا كتاب (الطريقين) وهو يصف لنا العقبات والمصاعب التى كان لابد أن يجدها المتوفى أثناء انتقاله من هذا العالم الدنيوى إلى العالم السفلى الذى ينطق فيه الإله (أوزير) كما تصورته أخيلة الشعب. وقد كان لزاما على المتوفى أن يتخذ سبيلة إلى هذا العالم السفلى احد طريقين، إما طريق الماء أو طريق اليابسه، وكان يفصل هذين الطريقين بحيرة من نار يسقط فيها المتوفى إذا حاد عن الطريق الذى اختاره لنفسه من الطريقين المذكورين[٤٤].

ووجد فى كل الأقاليم، وفى كافة المدن، من الطقوس الدينية والقصص المحلية ما يمكن أن يستخلص منه مادة غزيرة للتمثيليات. ولا يمكن الشك عندما نتصور فقط فخامة المعابد وعدد رجال الدين، والموظفين الذين كانوا يشتركون فى الحفلات إلى أى حد كان الشعب المصرى محبا للانتقاد واللوم، ففرعون نفسه، هذا المعبود الذى لم يكن ليتسنى لأحد الاقتراب منه دون أن تعتريه الرعشة من الخوف، كان هدفا للنقد، فقد قيل عنه فى القصص أنه قد ضرب خمسمائة عصا، وقد خدعته نساؤه، وهو أعجز من أن يتحمل المسئولية أو يتخذ قرارا فكان بذلك عبدا للمستشارين والسحرة، وفى غفلته يسرقه مهندسوه[٤٥]. ولا شك أن أمرا كهذا كان يظهر فترات الضعف كصورة من صور عدم رضى الشعب عما يجرى.

وعلى الرغم من أن تعليم رجال الدين لم يتوافر عنه حتى الآن صورة واضحة مع ما للدين من هذه المكانة التى تحدثنا عنها، إلا أننا

نستطيع أن نعتمد على بعض الركائز التى كشفت عنها دراسة الدكتور عبد العزيز صالح مثل[٤٦]:

- أن التعليم الكتابى كان ضروريا للطوائف الرئيسية على الأقل من الكهنة، ومنهم الكهنة المرتلون الذين يدل تعلمهم ما تعنيه حرفية تلقيب كل منهم تلقيب (خرى حبت) بمعنى من يحمل كتاب الطقوس، وتصويرهم أحيانا بكتب يقرءون منها، ثم اتخاذ بعضهم لقب (كاتب الكتب المقدسة) منذ الدولة القديمة، وكان من الطبيعى أن يكون الكهنة الكبار فى العبادات الرئيسية متعلمين أيضا.

- أن من جوانب ثقافة الكهنة ما كان يتفق مع مناهج التعليم العامة، ويدل على ذلك قيام بعضهم بتدريس نفس الموضوعات التى كان يدرسها غيرهم من المعلمين المدنيين، وذلك فضلا عما هو معروف من أن الكهنة المصريين لم ينعزلوا عن الحياة العامة، وأنه قلما اقتصر كاهن ذو أهمية على أعمال الكهانة وحدها دون الوظائف المدنية فى القصر أو فى الحكومة أو فى ذات معبده.

- يذكر كاهن عصر الرعامسه باكنخنسو أنه "قضى أربع سنوات فى التعليم الكتابى الأولى ثم عاد بعد ذلك (وبعد فترة ١٢عاما قضاها بالاسطبل الملكى)، فتعلم ليصبح كاهنا مطهرا فى دار آمون بصفة ابن تحت اشراف (يد) أبيه"، مما يشير إلى أن اتجاه الابن إلى تخصص أبيه كان يلعب دوره فى التوجيه الكهنوتى أحيانا[٤٧].

- أنه إزاء ما ذكره باكنخنسو عن التعليم الفردى على يد أبيه، يحتمل كذلك وجود نوع من تخصص المعلمين فى المعابد، وذلك مما ينم عنه لقب (مدير معلمى آمون) الذى اتخذه من يدعى أمنمحات فى عصر الأسرة الثانية عشر. وقد أضاف باكنخنسو عن مجهوده

الخاص فى كبره أنه كان "والدا عطوفا لمرءوسيه وكان يعمل على تنشئة صغارهم".

- أن تعليم الأناشيد وتوقيعها فى المحيط الكهنوتى كان تعليما جماعيا فى غالب أمره، ويزكى التعليم الجماعى للأناشيد الدينية متن فى عصر الرعامسة يتقرب فيه صاحبه إلى آمون بدعاء يقول فيه "أنشد لك ثملا ببهائك، ويداى فوق القيثارة، وأعلم أبناء المنشدين الاشارة ببهاء طلعتك"[٤٨].

- أما فيما يختص بالمعارف الكهنوتية ذاتها، فإنه يمكن القول فى إيجاز بأنها اعتمدت قبل كل شئ على معرفة أسماء الآلهة وأسماء الإله الذى يخدمونه بخاصة وما تنم عنه من صفات ومناسبات ومعرفة التراتيل التى تلقى أمام آلهة معبدهم والشعائر التى تقام لهم، والتفسيرات أو التسميات الرمزيةالتى كانت تطلق على كل صغيرة وكبيرة من الشعائر، ومعرفة القصص الرئيسى فى حياتهم وقصص الإله الذى يخدمونه بخاصة ومعرفة الأعياد وطقوسهاوما يتصل بهامن ذكريات، وربما أضافوا إلى ذلك نظرية أو أكثر من النظريات الكبرى فى خلق الكون، وما يكون من أمر الآخرة وآلهتها ومسالكها وعقباتها، وربما أضافوا كذلك المعرفة بتقويم لأيام السعد والنحس وشئ من الفلك والتنجيم والسحر وما مثل ذلك[٤٩].

ويحفل الأدب المصرى القديم بالعديد من النصوص التى كانت تستخدم بهدف التربية الدينية على وجه العموم وإعداد العاملين بالمعابد على وجه الخصوص، من ذلك قصيدة للحكيم (إيبور) فى الدولة القديمة، يقول فيها:

[تتضمن مقدمة القصيدة الخامسة حديثا عن عبادة الآلهة، وكيف كانت تعبد فيما مضى، وكيف يجب أن تعبد فى المستقبل. وتبدأ أبياتها بكلمة: "تذكر". وقد ورد فى هذه القصيدة:]

"تذكر كيف ينفح بالطيب والبخور، كيف يقدم الماء من إبريق فى بكرة الصباح.

تذكر! كيف يحضر الأوز السمين، ويقدم وهو والبط والقرابين المقدسة للآلهة.

تذكر! كيف تقام أعمدة الأعلام وتنقش أحجار القربان ويطهر الكاهن المعابد، ويبيض بيت الله كاللبن، ويعطر الأفق (أى المعبد)، ويخلد خبز القربان.

تذكر! كيف تنمو الثيران، ويوضع الأوز ويقدم قربانا[٥٠].

ومن أبرز الأدوار التى قامت بها المعابد فى إثراء الوعى الدينى المصرى، ما كانت تذيعه من قصص تتصل (بالخلق)، وعلى سبيل المثال، فى منف عاصمة الدولة القديمة، فإن الكهنة المشتغلين بالفكر اللاهوتى كتبوا به بحثا جيد الشكل لكى يفسروا ميلاد الكون بشكل ذهنى أكثر كثيرا من غيره، وبالفعل، فقد تم العثور على لوحة كبيرة من الجرانيت تشير إلى أن (بتاح) هو الخالق طبقا لما ورد فى وثيقة لاهوت منف: "لقد خلق نفسه، هو الذى خلق الكون وأوجد الآلهة". أن عملية الخلق لم تكن مادية أبدا بل ذهنية محضة، فالإله يتصور الكون فى قلبه ثم يحققه بواسطة الكلمة[٥١]:

"تأتمر كل الأعضاء للقلب واللسان، وهو ما يفسره العلم الذى أثبت وجود القلب فى كل الأبدان ووجود اللسان فى كل الأفواه للآلهة وللبشر وللماشية.. ولكل الأحياء. هكذا تتحول الرغبة إلى فكرة، ثم يصدر إليها الأمر لتكون. وهكذا تأخذ كل كلمة من كلمات الإله شكلا طبقا لما تصوره قلبه وكما نطق به لسانه ... وأضحى بتاح راضيا بعد أن خلق

كل الأشياء بفضل الكلمات الإلهية، فقد أنجب الآلهة فى أجسادها المصنوعة من خشب أو حجر أو صلصال وكل أنواع الأشياء الأخرى التى اتخذت أشكالها فيها. كما خلق كل الأشغال والفنون ونشاط الأيدى ومشى السيقان ووظائف مختلف الأعضاء حسب النظام الذى تصوره القلب وعبر عنه اللسان وغدا مرئيا فى كل شئ منذ ذلك الوقت"

ومن التعاليم التى أثرت عن (أمنموبى)، نجد الفصل الخامس عن (الأمانة والرزانة فى المعبد) جاء فيها:

- لا تسيئن استعمال أنصبة المعبد
- ولا تكونن جشعا (حتى) تجد الخير العميم (أكثر مما كنت تنتظر).
- ولا تعزلن خادم إله.
- لكى تؤدى خدمة لآخر.
- ولا تقولن إن (اليوم مثل الغد)
- فكيف تكون نهاية هذه الأشياء؟
- فإن الغد يأتى واليوم رائح.
- وقد تصبح الجنة العظيمة حافة من الأمواج.
- وتتكشف التماسيح ويصير جاموس البحر على اليابس
- والسمك يلقف الهواء
- وبنات آوى تصير بطانا والطيور المفترسة تصبح فى عيد.
- والشباك تصبح خاوية.
- أما من حيث الحلماء كلهم فى المعبد.
- فإنهم يقولون إن الشئ العظيم رضا رع طيبا
- احرص تماما على الرجل الحليم وبذلك تجد الحياة.
- وسينعم جسمك على الأرض[٥٢].

٣- الإدارات والمصالح الحكومية:

تعددت وتضخمت وظائف الدولة المصرية القديمة بفعل الظروف التى أشرنا إليها عدة مرات حتى أصبحت (البيروقراطية) هى السمة العامة لنظام هذه الدولة، فهى التى تتولى مهام ضبط النهر والرى وتوزيع المياه وتنفيذ المشاريع العامة ومواجهة الفيضانات وإدارة وتنظيم السخرة ومسح الأراضى وحصر الحيازات وتوزيع وإعادة توزيع الأرض للزراعة سنويا أو دوريا وفرض وجباية الضرائب وتنظيم التجارة الخارجية واستخراج المعادن، ثم تقنين وتنفيذ هذا كله، حتى النقل الداخلى النهرى أو البرى والبريد هى وظيفة مركزية تحتكرها الدولة لأنها أساسا تحمل شبكة مخابراتها اللازمة للضبط والربط وإحكام السيطرة على الشعب(٥٣).

ومن هنا كان لابد أن تستعين الدولة بجهاز ضخم من الموظفين لا يقل حجما وعددا عن جيش المحاربين فى أكبر حالاته، فالحكومة الفرعونية النهرية فى جوهرها حكومة تكنوقراط، والمجتمع المائى المصرى القديم مجتمع موظفين إلى حد بعيد، وحدة الجهاز الأولية هى الكاتب الذى كان يمثل قيمة خاصة للغاية فى الهيئة (الاجتماعية والعامة)(٥٤).

وبطبيعة الحال فلنا أن نحكم بأن الإدارات والمصالح الحكومية وإن كانت لها وظائف فى القيام بشئون الدولة، إلا أنها فى الوقت نفسه كانت حريصة على (تعليم) الموظفين الجدد قواعد وآداب ومهارات أساسية خاصة وأن بعض الأبناء كانوا يلتحقون بنفس الإدارة التى يعمل بها الأب مما كان يلقى على الأب مسئولية تعليم ابنه نفس المهام التى يقوم هو بها، وقد عرفت عدة حالات من الدولة القديمة، اشترك فيها الأبناء مع آبائهم فى إدارة حكومية واحدة، وممكن قرن هذه الحالات بما عرف عن أمل كل ذى ثقافة ومنصب فى مصر القديمة فى أن يخلفه ولده فى

منصبه(٥٥). ومما يشير إلى ذلك قول قائل فى كتاب الكمال من العصر الأهناسى(؟) "لقد علمنى أبى كتب أسلافه النافعة (أو هدانى أبى إلى كتابات أسلافه النافعة)"، وقول آخر من الدولة الحديثة "لقد علمنى أبى ما يعرفه وهذبنى ما لا حصر له من المرات"، على أنه يبدو هنا أيضا أن تعليم الأب أيا كانت صورته لم يكن يكفى وحده، وإنما كان كمال التعليم يرتجى من المعلم، فهذا الأخير الذى قال بتعليم أبيه له ما لا عد له من المرات كان قد عيره خصمه بعيوبه نتيجة لأنه"أعوزه (تعليم) المعلم"(٥٦).

أما فى عصر الرعامسة فيعتمد هذا النوع من التعليم، أى من حضور الصبية المساعدين على الكتبة القدامى، على قرائن مادية واضحة وتتمثل المراجع عن طبيعة هذا التعليم وعن القائمين به فى مجموعة برديات أو كراسات تعليمية كتب موضوعاتها تلاميذ من عصر الرعامسة وضمنوا بعض هذه الموضوعات أسماء معلميهم وما كانوا يشغلون من مناصب حكومية ومما يرجح اعتبار هذه البرديات كراسات تعليمية، وجود الخصائص التالية(٥٧):

أ- احتفاظ بعضها بعناوين تحدد الغرض التعليمى منها، وذلك مثل عنوان (بداية تعليم الرسائل الذى قام به الكاتب (فلان) لمساعده (أى تلميذه) الكاتب (فلان).

ب- اهتمام أغلب موضوعاتها بالدعوة إلى الموظبة على الدرس والتحصيل.

جـ- اشتمالها على كثير من التصويبات التى يدل بعضها على أنه من عمل معلم.

ثم خصائص أخرى أقل أهمية، وهى: أن منها ما تخللت موضوعاته ودروسه تآريخ تحدد بداية العمل اليومى ونهايته. وأن كثيراً من موضوعاتها صب اللوم والتعنيف الشديد على رأس نفس التلميذ الذى كتبها، وليس من السهل أن يحط الكاتب (أى التلميذ) من قدره وكفاءته مختارا أو لمجرد التسلية.

ومعلمو إدارات بيت المال يمكن تقسيمهم فريقين: فريق رؤساء أمناء المخطوطات، وفريق الكتبة العاديين، والأولون يتميزون، أولا- بالمنصب المستقر نسبيا وذلك بالنسبة لمن سواهم من الكتبة العاديين الذين كانوا يكلفون بالأسفار ومهمات تحصيل الضرائب - وهذا الاستقرار لاشك فى أنه كان يهيئ لهم فرص التعليم أكثر من غيرهم.

ثانيا- بأنهم رؤساء، وميزة الرئاسة قد تكون على أساس أنه يتوافر للرئيس من المعرفة والخبرة أكثر مما يتوافر لغيره، ولهذا يؤتمن على التعليم أكثر مما يؤتمن غيره، أو تكون على أساس أن ما يتوافر من الوقت الفراغ للرئيس يكون عادة أكثر مما يتوافر للمرءوس فيستطيع الأول أن يتوفر للتعليم أكثر مما يستطيع الثانى، أو تكون على أساس أن التلاميذ كانوا فى ذات الوقت كتبة مساعدين بنفس الإدارات ولهذا كانت تبعيتهم للرئيس مباشرة تكفل إلزامهم الطاعة والنظام وأداء الواجب[٥٨].

أما الفريق الثانى، فهؤلاء كما يبدو من ألقابهم لم يكونوا أكثر من كتبة ليس لهم فى الرياسة أو أمانة المخطوطات أو الاستقرار نصيب، ولهذا لا يتبقى من مبررات إسناد مهمة التعليم إليهم إلا تميزهم بالكفاءة الشخصية والمواهب الفردية، وذلك مما يمكن ترجيحه لواحد منهم على الأقل وهو كاتب بيت المال (قاجابو)، وذلك اعتمادا على وفرة الدراسات التى قام بها تلميذه الكاتب (اننا) تحت إشرافه، فقد بقى لهذا

التلميذ النابغة خمس كراسات جمعت من موضوعات للأدب القديم والقصص المعاصر ودراسة الرسائل بأنواعها. وتنوع هذه الدراسات وان كان يشهد بنشاط التلميذ ونبوغه فإنه يدل كذلك على كفاءة خاصة لمن درسها له أو أشرف على دراسته لها(٩).

وتلقيب المعلم لتلميذه فى إدارات الحكومة بلقب الكاتب يحتمل معنيين، فهو قد يعنى اعتراف المعلم لتلميذه بنصيب سابق من العلم أو الثقافة يستحق معه أن يلقب بالكاتب، أو هو يعنى أن تلميذه كان يقوم معه بعمل الكاتب المساعد فعلا. والواقع أنه ليس هناك ما يحول دون قبول المعنيين معا. أن تلميذ الادارة الحكومية كان له نصيب سابق من العلم اكتسبه فى مرحلته التعليمية الأولى، لأنه كان يعمل مع رئيسه ويعلمه بصفة كاتب مساعد له وذلك على أساس تبعيتهما معا لادارة حكومية واحدة. على أنه مع قبول المعنيين معا للكاتب المساعد صاحب الكراسة، فإنه يغلب أن صلته بمعلمه فى أثناء كونه مساعدا أو فى أثناء كتابته لكراساته، كانت للدراسة أكثر مما كانت للعمل، ويدل على ذلك أن رسائل المعلمين أو توجيهاتهم لتلاميذهم التى تضمنتها الكراسات غالبا ما كانت تدعو إلى الاهتمام بالكتب والكتابة وأقوال الإله، وقليلا ما كانت تدعو إلى الاهتمام بالعمل أو أداء الوظيفة(١٠).

وهنا يبرز تساؤل عما إذا كان هذا النوع من التعليم فرديا أو جماعيا؟

الحق أن هناك نصوص يمكن الاستدلال منها على وجود النظامين. وتعليل ذلك يرجع إلى احتمال قد لا نجد ما يؤيده، ولكن لا بأس من فرضه حتى يستجد من البحوث ما يثبته أو ينفيه(١١)، وهذا الاحتمال هو أن تكون الدراسة المتقدمة فى المدارس الجماعية مما يستدعى نفقات من نوع ما، بحيث لا يقوم عليها غير الأثرياء، ويستوى فى ذلك أن

يكونوا من طبقة عليا أو من طبقة وسطى، وربما كان هذا هو ما جعل (خيتى بن دواوف)يقول لولده فى سياق تعاليمه "ولاحظ أن القيام بالرحلة جنوبا للعاصمة انما فعلته لفرط حبى إياك"، ويقول له: "ادع الإله لأبيك وأمك اللذين وضعا(ك) على طريق الأحياء"، وذلك مما يمكن أن ينم عن أنه قد تحمل من أجل تعليمه ووضعه على الطريق المؤدى إلى المستقبل الواسع شيئا لم يكن يتحمله غير القليل من أهل طبقته.

وهناك من الأسباب ما يرجح أن احتمال القبول فى مدارس تعليم الإدارات (الجماعية) على أساس تميز الطبقات احتمال بعيد ولا يجد سندا له. ومن هذه الأسباب أن (خيتى) نفسه الذى مال لوالده "لقد ألحقتك بالمدرسة مع أبناء الكبراء" لم يكن من الطبقة العليا، وأن الأنظمة فى عصره لم تكن تفرق بين ابن نبيل وبين ابن فقير وانما تحتبى الفرد بكفاءته". ويغلب أن هذا ظل نفس الشأن خلال أيام الدولة الحديثة أيضا، ومما يمكن أن تكون له دلالته فيما يعرف عن التدريس فى الدولة الحديثة أن التعاليم الأدبية والتهذيبية كانت تدرس للجميع على سواء، فكما كانت تدرس تعاليم الوزير بتاح حوتب درست تعاليم خيتى بن دواوف، وكما كانت تدرس تعاليم الملك امنمحات درست تعاليم الكاتب آنى – أى أنه لم تكن هناك ارستقراطية فى التوجيه كما أنه لم يكن يستكثر على أبناء العامة أن يتأدبوا بما يتأدب به أبناء الخاصة[١٢].

وقد سرد كبار رجال الدولة والموظفون أهم أحداث حياتهم دون التقيد بترتيب زمنى صارم، ووصلتنا على شكل (مدونات)، قد تطول أو قد تقصر، نقشت على سطوح جدران الهياكل الجنائزية فى المصاطب والمقابر منذ بدايات الدولة القديمة، ثم على اللوحات الحجرية فى وقت لاحق، ونقشوها على سطوح التماثيل أو الدعامات الرأسية خلف التماثيل بالتحديد مع حلول الدولة الحديثة. لم يكن الهدف من تسجيل

هذه الحكايات هو الترفيه، ولكنها كانت أحاديث فاضلة تستهدف (التعليم) كما كانت تستهدف تبرير سلوك كل فرد خلال حياته، ورسالة موجهة إلى ذرية صاحب النقش ليطلعوا على سيرته الطيبة، فلا يبخلوا عليه بصلواتهم وقرابينهم جيلا بعد جيل[١٣].

وربما كانت هذه السير الذاتية مجرد تبرير أخلاقى أو شاهدا على ما كان هناك من اهتمامات فى الحياة العملية، أو أنها استهدفت بكل بساطة سرد حدث ما هام أو مغامرة فريدة، وفى أغلب الأحيان، فإن هذه الروايات تقدم صورة تجمل صاحبها، ولكن بفضلها يستطيع داعية الأخلاق أو المؤرخ أن يتعرفا من واقع هذه الخبرات على الحياة المصرية، أو بالأحرى على أسلوب التربية لكل واحد من أصحاب هذه السير.

وهناك نقطة مشتركة بين كل هذه السير الذاتية تقريبا هى: إعلان المبادئ الذى هو أشبه بالظل الذى يحدد مدى الحكمة وانعكاسها فى أذهان البشر، وفى إعلان المبادئ هذا يقول صاحب السيرة[١٤]:

"لقد قلت الحق. وسلكت طريق العدل، وفعلت الخير لأنى أردت للناس أن يكونوا سعداء. لقد بذلت ما فى وسعى لإنقاذ الضعيف ممن هو أقوى منه، وقدمت الخبز للجائع والماء للظمآن والملبس للعريان، وقمت بمراسم الدفن لمن لم يكن له ولد. واحترمت أبى وكرمت أمى"

ومن وثائق أواخر الدولة الثانية عشر "لوحة العرابة" المعروفة بالتعاليم تدلنا على فضل جيل الموظفين الجديد الذى عمل ملوك هذه الأسرة على إنشائه ليلتف حولهم وليكون لهم نصيرا وظهيرا على تسيير أداة الحكم فى البلاد، فلا غرابة أن نرى هؤلاء الموظفين حريصين على بث روح الطاعة والمحبة لمليكهم العادل فى نفوس

أولادهم. وقد بلغ بهم حب الفرعون درجة جعلت تعاليم بعضهم لأبنائهم تدور حول حب الفرعون وخدمته والإخلاص له(١٥).

و(سحتب اب رع) صاحب هذه التعاليم كان موظفا كبيرا فى المالية، وهو يقدم لأولاده "حكمة للحياة الصحيحة حتى تمضوا مدة الحياة فى نعيم". وينصحهم: "احترموا الملك "نيما عت رع، بأجسامكم، وألفوا بين قلوبكم وجلالته، وذلك لأنه "ملأ الأرضين قوة وحياة"(١٦).

وقد مر بنا الإشارة إلى المكانة العليا للكاتب التى حرص كثيرون على التأكيد عليها وتحقير ما عداها من المهن، فهذا (خيتى) يشير إلى ضآلة شأن حرف ومهن عديدة:

".... والاسكافى يحمل أوانيه (آلاته) إلى الأبد، وصحبته تكون كصحبة الجيفة وما يعض عليه هو الجلد"(١٧).

ثم يأتى بعد ذلك الكلام على حرفة الغسال ومجازفة صاحبها بنفسه أمام خطر التمساح مما يدل على كثرة هذا الحيوان فى ذلك العصر فى النيل، وما يلاقيه بسببها من تعب جثمانى وما يشعر به من تعس عندما يضع مئزر سيده ليؤدى فيه عمله.

"والتاجر (؟) يسبح إلى الدلتا ليحصل على ثمن سلعته، ويكد فوق طاقة ساعديه، والبعوض يقتله (لما يحمل من الجراثيم) ..."

- "وصانع اللبن (ضرب الطوب) الصغير الذى يصنعه من غرين النيل يقضى حياته بين الماشية (؟) ... وملابسه تكون خشنة ... وهو يشتغل بقدميه ويدق ...."(١٨).

والظاهر أن حرفة البناء كانت شاقة عند المصريين، حتى أن حكيمنا هنا قد رصد لها فقرتين غير ما ذكر.

ثم يصف الحكيم لابنه حالة البستانى، ويظهر أنه يقصد زارع الخضر والفاكهة على السواء: "أما البستانى فيحضر أثقالا وذراعه ورقبته تتألمان من تحتها، وفى الصباح يروى الكراث وفى المساء الكروم ... فحرفته أسوأ من أية حرفة".

ثم ينتقل إلى وصف حالة الفلاح، وهو الوصف الذى ينطبق على حالة فلاح مصرنا قرونا طويلة، فالأمراض تفتك به وصاحب الأملاك يستنفذ كل محصوله، فهو كالحيوان الضعيف الذى يعيش بين الأسود فهو لابد مأكول[٦٩].

أما مهمة الكاتب الحكيم، فيقول عنها: "ان صاحبها هو الذى يصدر الأوامر"، ثم يصفها بأنها أحسن من كل الحرف التى استعرضها، فيقول:

"تأمل ! فانه لا توجد حرفة من غير رئيس لها إلا صناعة الكاتب فهو رئيس نفسه، فإذا عرف الإنسان الكتب فإنه يقال عنه بحق: أنها مفيدة لك. وما أقوم به فى سياحتى إلى الحاضرة تأمل! أنى أقوم به حبا فيك. ويوم فى المدرسة مفيد لك وما تعمله فيه يبقى مثل الجبال"[٧٠].

أما (آنى) من الدولة الحديثة، فينصح ابنه قائلا:

"لا تقعدن إذا كان غيرك أكبر سنا واقفا أو آخر يشتغل فى مهنة (معك) زمنا أقدم منك" وأيضا: "إذا كنت ماهرا فى الكتابة فإن الناس أجمع يفعلون كل ما تقوله. إذن خصص نفسك للكتب وضعها فى لبك، وبذلك يكون كل ما تقوله ممتازا، كل وظيفة يعين فيها الكاتب فإنه (لابد) يستشير فيها الكتب (وبذلك يلازمه النجاح) ..."[٧١].

ولم يفت (آنى) أن يضع لابنه الخطط فى معاملة الرئيس حتى يكون سعيدا معه فيقول[٧٢]: "لا تجيبن رئيسا فى حالة غضبه، بل ابتعد من أمامه. واذكر حلو الكلام حينما ينطق. بمره لأى إنسان، واعمل على تهدئة قلبه، فإن الأجوبة الشديدة تحمل غضبا (تؤدى إلى ضربك) وبذلك تنهار قواك. وان الغضب يصوب نفسه نحو أعمالك فلا تنغصن نفسك، على أن الرئيس سيلتفت ويثنى عليك بسرعة بعد فوات ساعته المخيفة (ساعة غضبه)، وإذا كانت كلماتك مهدئة للقلب فإن القلب يميل لاستيعابها. وجدّ فى أن تكون صامتا واخضع لما يفعل".

وأشارت تعاليم بتاح حوتب إلى العديد من القيم والآداب التى يجب أن يتحلى بها القائم بالعمل الحكومى، ومن أمثلة ذلك:

- "... إذا كنت ممن يطلب منه مطلب (ذو منصب)، فاستمع بهدوء مهما كان من يتكلم ولا تسئ معاملة المتظلم قبل أن يقول لك لماذا أتى .. لأن الملتمس يفضل الاستماع إليه من تحقيق ما جاء يشكو منه"

"أما من يطرد من يقدم طلبا، فإن الناس سوف يتساءلون عن السبب فى حين أن الاستماع الجيد راحة للقلب .."

وعلى الرغم مما يحمله هذا المعنى من شفقة وحث على التحلى بها، فلا شك لدينا أن تلك الشفقة يجب أن تكون المعاملة الطيبة المبنية على الحق مصاحبة لها، فهو لا يكتفى بأن السائل يجب أن تسمع كلماته وعدم الاساءة إليه بل يرى أكثر من ذلك: "... ضرورة تحقيق ما سمع (ما جاء يشكو من أجله)..."[٧٣].

"ابحث لنفسك عن كل عمل صالح إذا كنت تملك سلطة اعطاء الأوامر حتى تكون أوامرك خالية من الضرر (أفعالك بدون خطأ).

فالعدالة شئ عظيم ولم تفقد قيمتها منذ أيام الذى فعلها وهى لم تمس منذ عصر (أوزير)، وهناك جزاء لمن يتجاوز حدودها وقواعدها... إنها الطريق الصحيح والخطأ لا يصل بفاعله إلى البر ..."

وربما كانت الأساليب السيئة تجمع الثروات، ولكن قوة العدالة (الحق) هى التى ستدوم وتستمر"[٧٤].

واحتلت قيمة (الطاعة) مكانة مرموقة فى التعاليم، ومن ذلك ما أوصى به بتاح حوتب.

"... ان الرجل الذى يحبه الإله هو الذى يطيع"

"... الطاعة مفيدة لمن يسمع"

"... الطاعة أحسن من كل ما فى الوجود ..."

ونتيجة لرضاء الملك (الإله) وطاعتك له فمن المؤكد أن عطايا الملك وكرمه سوف يزداد وسيكافأ نتيجة لذلك.

"... حيث ستملأ معدتك، وظهرك يكسى نتيجة لذلك"[٧٥].

وتضمنت التعاليم أيضا ما يختص بالعمل فى الحياة الدنيا والعلاقة بين الرئيس المباشر والعاملين معه فيدعو إلى تقدير الأمور ووزنها بالميزان الصحيح وعدم معارضة الشخص الأعلى والترفع عن الصغائر مما يؤدى إلى حسن سير الأعمال، ومنها[٧٦].

"... إذا كان رئيسك فيما مضى من أصل وضيع فعليك أن تنسى ذلك واحترمه للمكانة التى وصل إليها لأن الثمرة لا تأتى عفوا".

"... وعندما يصيب رئيسك شهرة التقدير فإنها ستبقى حسنة للأبد، والرجل العاقل يعرف بعمله"

ويضيف قائلا:

"... إذا أرسلك أحد العظماء لتوصيل رسالة فكن جديرا بالثقة التى منحها إياك، وبلغ الرسالة كما هى ولا تخفى شيئا مما كلفت به أول يوم ولا تغيب، بل انتظر حتى يأتى دورك وعندئذ كن مستعدا للدخول دون دفع أو تزاحم فالمكان رحب وقاعة المجلس يسيطر عليها نظام دقيق، وتسير أمورها وفق خطة محكمة، أنه هو الرب الذى يهب المرء مقعدا فيها يجزى به المستحقين ولا يناله المعتدون.

- إذا كنت بين جماعة من الناس، فاجعل حب الناس هدفك ومنيتك، ومبتغى قلبك وهواك، فيقول من يراك "هذا هو رجل ناجح واتته الثروة فلأقلده" فيحسن ذكرك وينبه، دون أن نتكلم. ويعلو قدرك بين جيرانك، ويكتمل من أمرك ما ينقصه. أما من يسير على هواه فلا يكون نصيبه إلا الاحتقار وهوان الشأن، وما هو ببالغ من حب الناس شيئا، فيصبح قلبه مليئا بالبؤس، وجسمه بغيضا، ويغدو مرذولا عند المؤمنين بالرب. ان من اتبع هواه ضل، وله من نفسه عدو مبين.

- كن صريحا، ولا تخف من أعمالك شيئا، بل صارح بها رئيسك فى مجلسه حتى ولو كان يعلم بها أفلا يضير المرء أن يقال له: "هذا شئ أعلمه"[٧٧].

- لا تردد كلاما قيل فى ساعة غضب، ولا تصغ إليه، لأنه خرج من بدن أحمته سورة الغضب. وإذا أعيد هذا الكلام عليك، فلا تستمع إليه، بل انظر إلى الأرض ولا تتكلم بشأنه فيخجل من هو أمامك

ويعرف الحكمة. وإذا أمرت باقتراف سرقة فعليك أن تتفادى الأمـر، لأن السرقة شنيعة طبقا للقانون[٧٨].

- إذا صرت رجلا عظيما، وكنت فى وقت من الأوقـات صغيرا، وإذا صرت غنيا، وكنت فى وقـت مـن الأوقـات فقيرا، فـلا تتكبر لأنـك بلغت هذه المرتبة العالية، فمـا أنـت سـوى قيـم علـى الحسنات التـى أعطاهـا الـرب لـك. ولست أنـت الأخير، فسرعان مـا يبلـغ سـواك المرتبة التى بلغتها فيكون مساويا لـك، يأتيـه مـن الـثروة والجـاه مـا أتاك[٧٩].

٤- الجيش:

ومن الطبيعى وقد أشرنا إلى مدى ما كانت مصر القديمـة تتمتـع بـه مـن قـوة عسكرية جعلتهـا مهابـة الجـانب تمتد خـارج حدودهـا لتكـون امبراطورية ضخمة، أن يكون (الجيش) أداتها الأساسية وأن يكون ذلـك الجيش بوتقـة رئيسية لتكوين وتربيـة وإعداد الجندى الشـجاع الـذى يخوض غمار الحروب سواء لرد الغارات أو لتحرير البلاد أو للغزو.

لقد اقتضت ظروف الدولـة المصريـة الفرعونيـة مـن المصريين أن ينـاضلوا وأن يقـاوموا وأن يقـاتلوا المعتدين علـى وطنهـم بـل ويقـاتل المواطنون بعضهم بعضا فى بعض الفترات، ويـرون يومئذ أن القـوة هى الوسيلة إلى النصر والغلبة. وهناك نراهم يمارسون ألوانا من فنـون الرياضة البدنية يدربون بها أنفسهم على النضال والمقاومة، وتحمل كـل شاق من العمل. وفى مقدمة مـا مارسـوا مـن ألـوان الرياضـة فـى ذلـك الوقت المصارعة التى أتقنوها وحذقوها بحيـث بـزوا بهـا نظرائهـم فـى بلدان أخرى[٨٠].

وعندما يخوض المصريون غمار الحرب مع الهكسوس، تتعدد صور التدريب وتتنوع، وكانت تربية القادة وأمراء الجند تتطلب كثيرا من الثقافة السياسية والعسكرية مما اقتضى من المصريين أن ينشئوا مدرسة حربية فى (منف) يتلقى فيها الشباب فنون الحرب والرياضة العسكرية وصرامة النظم التى أخذوا أنفسهم وأبناءهم بها، فهذا فرعون مصر العظيم (تحتمس الثالث) يبعث ببكره وولى عهده (أمتونيس) وهو لم يزل بعد صبيا غض الإهاب إلى (منف) ليتربى فى مدرستها الحربية، ثم حذا حذوه خلفاؤه من بعده(٨١).

وكان عصر الرعامسة فى الدولة الحديثة يتميز بأنه عصر الانطلاق الحربى وعصر الانتصارات، أى عصر العسكرية والعسكريين بالذات. وأفاضت عملياته الحربية على مصر فيضا من الجزى والهدايا والمغانم والخيرات، وأثارت انتصاراته أخيلة الفتيان والغلمان من أهل المدن والحواجز، ودفعت التلاميذ إلى حياة الطموح الواسع والأمل العاجل، وشجعتهم على أن يقارنوا بموازينهم الخاصة بين حياة الدراسة التى يتصورونها رتيبة مملة، وبين حياة الجيش التى كانوا يشهدون مواكبها الفخمة الضخمة، ويسمعون عن امتيازاتها وأمجادها، ويتصورون وراءها المجد والحيوية والعظمة جميعها.

وتوزعت نفوس أولئك التلاميذ بين تحصيل العلم فى المدارس والدواوين، وبين اشتهاء السمعة والمجد والثراء فى الجيش، ولم يتردد بعضهم فى أن يتراجع عن دراسته، ولم يتردد بعض آخر فى أن يجابه معلمه صراحة بما يراه ويسمعه من أن "الجندى لابد أن يكون أسعد حالا من الكاتب"(٨٢).

وكان من الطبيعى أن يحرص المعلمون على مهنتهم، وأن يبالغوا فى تصوير متاعب الجندية فيما يكتبونه ويدرسونه، بما يعادل مبالغة

تلاميذهم فى تصوير مميزات العسكرية وتقليلهم من شأن الكتابة والدراسة وأهلها، فضخموا لتلاميذهم ما لابد من حدوثه من أهوال الحروب وشرورها، وضخموا لهم ما يتركه فراق المجندين لأهلهم من لوعة وحسرة وألم، وضخموا لهم ما يتعمده القائمون على التجنيد من مظاهر الأمر والنهى وضروب السيطرة. وضخموا لهم ما تتعمده فترات التدريب عادة من العنف والخشونة.

وليس من ضرورة، بطبيعة الحال، إلى الظن بأن نغمة أولئك النفر من المعلمين، كانت نغمة المعلمين والكتاب جميعا، أو أنها تدل على ضعف روح المقاتلة عندهم وعند مواطنيهم، أو أنها شاعت بينهم دون أن تجد آراء أخرى تقف فى وجهها، أو أنها تصدق برمتها فيما أتت به عن سوء حال العسكرية والعسكريين فى عصرها، فقد حرص الأدباء والكتاب المصريين فى نفس العصر، ومن قبله ومن بعده، على أن ينظموا المدائح والقصائد فى تفخيم الانتصارات الحربية والإشارة بالجرأة والشجاعة[٨٣]. وحرص جماعة من المعلمين أنفسهم على أن يرددوا هذه المدائح والقصائد أمام تلاميذهم، ويدفعوهم إلى كتابتها وترتيلها.

ولم يأب طابع الحرب على العسكريين المصريين أن يستمسكوا بطابع التدين، فحرص فراعنتهم على أن يسجلوا فضل أربابهم عليهم فيما أحرزوه من نصر وسلطان، واعتادوا على أن يصوروا رموز أربابهم فيها وكانوا يرسلون مع جيوشهم نفرا من الكهان ليثيروا حماس الجنود، ويذكروهم بفضل الأرباب. وترتب على هذا كله أثر لا يغفل فى الترقيق من حواشى القادة وتهذيب خشونة الجنود[٨٤].

وأتى رجال الحرب المصريون فى حروبهم ما يؤتى فى الحروب عادة من ضروب العنف والنهب والتدمير. غير أن تنكيلهم بأعدائهم إذا

قيس بمقياس عصورهم، وقورن بتنكيل المجتمعات المحاربة الأخرى التى عاصرتهم أو أعقبت عصورهم، دل على أنهم كانوا أخف المجتمعات القديمة كلها فى حب البطش والانتقام والتنكيل، حتى إذا وضعت الحرب أوزارها لم يؤثر عنهم إسراف فى إذلال الأسرى، فى غير القليل النادر، ولم يؤثر عنهم ميل إلى التهوين من شأن معبودات الخاضعين لهم. ولم يعمد فراعنتهم إلى فقء عيون كبار أسراهم كما فعل حكام سومر فى العراق، ولم يجعلوا جماجم أعدائهم مشاعل يوقدونها فى محافلهم كما فعل الأشوريون، ولم يجعلوها كؤوسا للشراب كما فعل الرومان، ولم يجبروا أسراهم على مقاتلة بعضهم ومنازلة الوحوش الضارية كما فعل الرومان وأيضا البابليين.

وقد تميز بلاط جميع ملوك الأسرة الثامنة عشر بوجود مجموعة من الضباط (المعلمين) الموثوق بهم والذين كانوا يقومون بتربية وتعليم أمراء وأميرات الأسرة المالكة. وكانت هذه الظاهرة على درجة كبيرة من الأهمية، فهؤلاء الضباط المعلمون كانوا على أعلى مستوى من الثقافة والمعرفة والمثل الأخلاقية العليا التى يجدر أن ينقلوها إلى تلاميذهم من الأمراء والأميرات. وقد قام هؤلاء المعلمون بدور واضح فى نقل وتقديم ثقافة (الشمال) -الوجه البحرى- إلى البلاط الملكى، وذلك باعتبار أنهم أنفسهم متأثرون إلى حد بعيد بهذه الثقافة، بالنظر إلى أن (القيادة العامة) وأغلب الفيالق الحربية التى يعملون بها كانت مرابطة فى الشمال[٨٥].

ومنذ بداية عصر الأسرة الثانية عشر، وضع نظام صارم لتجنيد الرجال وتعبئة كل الموارد الاقتصادية للدولة. وكان هذا العمل الاستراتيجى الكبير، يتم بفضل (هيئة عسكرية) جديدة التكوين، تعمل

داخل الاطار العام للجيش المصرى، وهى (هيئة كتاب التجنيد) أو (هيئة كتاب امدادات الجيش).

والملاحظ أن جميع الرجال الذين كانوا يعملون فى تلك الهيئة، كانوا مدربين تدريبا خاصا لإجادة (فنون الكتابة) جنبا إلى جنب مع (الفنون العسكرية القتالية). وكانوا يبدأون حياتهم فى السلك العسكرى عادة باعتبارهم (جنودا كتابا) بالقسم الادارى بوحدات الجيش، ثم يتدرجون فى سلم الترقى للرتب العسكرية الأعلى، من هذا المنطلق. وكان بعضهم يصل إلى رتبة (رئيس الكتاب العسكرين) أو رتبة (كاتب الجيش)، بل وأيضا إلى رتبة (قائد الجيش)[٨٦].

وعلى الرغم من أن اختصاصتهم الرئيسى كان ذا صبغة إدارية، إلا أنهم كانوا على قدرة كبيرة فى القيام بالأعمال الأخرى ذات الصبغة العسكرية القتالية وكان يعهد إليهم فى حالات كثيرة بقيادة فرق الجيش.

أما تدريب المجندين الجدد، فكان أمرا فى غاية الأهمية فى جميع الوحدات العسكرية التى كانت تتكون منها القوات المسلحة المصرية بفروعها الثلاثة (المشاة والمركبات الحربية والأسطول)، وكان يقوم بالتدريب نخبة ممتازة من الضباط المؤهلين لأداء هذا الاختصاص على أعلى قدر ممكن من الكفاءة، ويحملون ألقابا ورتبا عسكرية مضمونها القيام بمهمة تدريب الجنود وتأسيس وتنظيم الوحدات العسكرية طبقا لخطة التدريب فى كل فرع من فروع القوات المسلحة. وعلى جدران مقبرة (تينى) الذى كان يتولى منصب (كاتب التجنيد)، نجد نصا يدل على رتبة لمنصب عسكرى كان يتولاه ضابط مصرى اسمه (سنيد جموسى) وكان لقبه "حامل راية التدريب بالأسطول الحربى"[٨٧].

وكـان (للإسطبلات الملكيـة) شـأن كبـير بيـن معسـكرات الجيـش ووحداته فى الدولة الحديثة، وكان الانضمام إليها يستهوى شبان الطبقـة الراقية، كما كـانت تتضمـن فضـلا عـن الخيـول وفرسـانها إدارة كبيرة منظمة يشرف كتبتها على دخل الاسطبلات وخرجهـا، ويتولـون أمـور جند الثكنات وخيولهم فى السلم والحرب. ويحتمل، فضلا عن ذلك أنهـم كانوا يشرفون على الأعمال والمنشآت التى كان الجند يكلفون بهـا مثـل عمل الطرق الصاعدة والمعابر والقنوات وذلـك عـن طريـق الحسـاب والتنظيم. وفى احدى هذه الإدارات وربما فى بر رمسيس(؟) كان يعمل (حورى بن وننفر)، فى مكان ملحق بها سماه ديـوان الكتابـة أو الكتـب كان يقوم بالتدريس للمساعدين. وفـى واحدة أخرى من هـذه الإدارات كان يعمل (أمنموبى). وفى مكتب تابع لها كـان يوجد فـى ثـارو ويقـوم على تسجيل أسماء الرسل المتجهين من مصـر إلـى سـوريا وبـالعكس وتسجيل الرسائل التى يحملونها، كان أمنموبى يـدرس لمساعده الكـاتب بايبس (أوبابس)[٨٨].

ومما يشير إلى تمتع بعض معلمى الجيش بالثقافة العلمية والعسكرية رسالة طويلة للمعلم (حورى) كتبها لزميل له يثبت له فيهـا اتقانـه لأدب التراسـل والأدب القديـم، وعلمـه بمسـائل المسـاحات والحجـوم وبمواقـع البلـدان ومسـالك الجبـال. ويصـف نفسـه فيهـا بأنـه المتفـن فـى الأقـوال المقدسـة الـ .. والعـارف لأسـرار السـماء والأرض ومـن يفسـر خبايـا الحوليات كمن ألفها. أما ثقافته العسكرية فتتبدى مـن نفس الرسـالة فـى إصراره على التمسك بلقب الضابط بحيث يقـول لزميلـه "أسـرع مكـان (حفظـه) الكتـب ولسـوف تجـد اسـمى فـى القائمـة ضابطـا فـى اسـطبل رمسيس مرى أمون الكبير"، وتطوعه بشرح طبيعـة المـاهر ومـا يجـب أن يتوافر فيه، ثم فى افتخاره بأنه (المتبصر) -؟- فى أمـور-؟(راعـى الحرب) والراجح أن معلما تتوافر له هذه الثقافة المزدوجـة كـان يطبـع

تلاميذه بنفس ثقافته أو على الأقل يبث فيهم الروح التى توجههم وجهته.

وكان أمنموبى يعتز بثقافته كما كان يعتز (حورى)، ولهذا كان يكثر على تلميذه النصح بألا ينصرف عن التعليم فيصبح جنديا عاديا أو يصبح فارس عربة لا ثقافة له. وكان التلميذ بدوره يشعر بهذا الزهد من معلمه فيعمل على اشباعه فيه، ولهذا أخذ يصفه فى مواضع متفرقة فى كراسته بما يجمع إليه أطراف البلاغة والشجاعة معا(٨٩).

٥- دور الحياة:

كانت تقدم مستوى من التعليم بمثابة المرحلة المتقدمة لمن تعلموا الكتابة والقراءة ومبادئ الحساب والدين، فهى إذن تتيح فرصة الاستزادة من الدرس والتحصيل، وتعمقه والتوسع فيه، فلقد كان هناك فى الأغلب الأعم نوع من التخصص فى اللاهوت أو الهندسة أو الطب أو بعض الفنون، غير أنه لم يكن تخصصا بمعناه المعروف لدينا فى الوقت الحاضر، وانما كان اتساعا فى آفاق الدراسة يستلزم أمدا طويلا يتيح للدارس أن يتعمق الدراسة والبحث ويتمكن من التحصيل. ومن هنا نستطيع أن نقول – فى كثير من الحرص والتحفظ – أنها تقابل ما نسميه فى أيامنا بالدراسات العليا من جامعية ومعهدية، ومراكز مختلفة للبحوث. وكان مكانها عند آل فرعون يدعى (دار الحياة)، وكانت من ملحقات العبادة. ويذكرنا ذلك بما كان جاريا فى الكنائس أيام العصور الوسطى من دراسات كانت يومئذ مطمح الأنظار ومنتهى الآمال. ويذكرنا كذلك بما عرف من حلقات الدرس فى مساجد المسلمين. وليس من شك فى أن الدراسات الدينية فى كل العهود قد كان لها المقام الأول كما كان الملوك والحكام يحرصون على تنظيم تلك الدراسات ورعايتها(٩٠).

وليس يفوتنا - ونحن نستعرض تلك المسميات- ما كان لأصحابها الذين أنشأوها ورعوها - فى كل ذلك - من أغراض وآمال، فهم يغرون المقبلين على تلك المدارس بالعلم والمعرفة، وهم يريدون أن يعلم كافة الناس مقدار ايمانهم بالعلم حين يزعمون أن العلم عندهم هو السبيل إلى الحياة الكريمة فى الدنيا والآخرة[٩١].

وكان لدار الحياة عند آل فرعون مقام كبير، فيها يلتقى الأئمة من كتاب مصر وأكثرهم علما وأغناهم معرفة وأوسعهم ثقافة، وفيها تؤلف الكتب وتدون الرسائل وتنسخ النصوص ويتم تصنيفها وترتيبها وتبويبها، فنرى منها الدينى والقانونى، والطبى، والسحرى، والفلكى، ... الخ. وفى رحابها يلتقى الجادون والراشدون من طلاب العلم والمعرفة، وينشدون مختلف المعارف والثقافات الرفيعة بين أيدى الشيوخ والحكماء من كهان الديار. ومن المرجح أن تلك الدور قد كانت دورا للذخائر تضم كثيرا من نفائس الكنوز فى العلم والمعرفة والدين والقانون والطب والفلك وعلوم الرياضة والإدارة وتقويم البلدان.

ومهما يكن من أمر، فهى كانت دار تعليم تشبه إلى حد كبير ما يسمى Gymnasium فى بلاد أوروبا ودارا للتدين والنسخ كالتى يسميها الغربيون Scriptrium، مجمعا للكتاب فى آن واحد[٩٢].

وكانت دور الحياة عبارة عن معامل ينمو فيها العلم المقدس، ففيها كانت النصوص تدرس ويعاد نسخها وتدخر فيها، وربما كانت الضرورة تقتضى أن يقوم الكهان فيها بتدريس بعض المواد، فقد جاء على لسان أستاذ فى دار الحياة بأبيدوس كما ورد فى قصة Satni (ساتنى) أن الغلام الصغير (سى أوزيريس) حينما تعلم القليل من أصول الكتابة المصرية على أيدى أحد الكتبة لم يلبث حتى أخذ يقرأ الكتب السحرية مع معلمى (دار الحياة) فى معبد بتاح. ومن الجائز أن

يكون الغلام قد قام بمصاحبة بعض المعلمين المحترفين بقصد التمرين أو الاستفادة من علمه الذى كان يراه فوق طاقة البشر حسبما يشير الأسلوب العام للقصة(٩٣).

وكان أبرز ألوان النشاط فى (دار الحياة) هو إعداد الكتب الدينية اللازمة للعبادة، وذلك بإعادة كتابة المخطوطات القديمة وتصحيح ما فيها من أخطاء، وسد ما فيها من فراغ تسبب عما لحق القراطيس من فعل الديدان الأرضية، وكذلك كانت تعد هناك النصوص الدينية وبخاصة ما اتصل منها بأمور العبادة المتعلقة بكل معبد، وتسطر لكتب السحر الخاصة بالحماية من الشر، إلى جانب الجداول الفلكية، كما كانت تنسخ من (كتاب الموتى) آلاف النسخ وفيما بين ذلك كانت المشاكل الفلسفية والدينية تناقش فى كثير من الحماسة، ولم يهمل العمل فى الطب، ولا فى مجال النشاط الأدبى. ولم يكن العمل فى كل شئ يجرى فى هذه المعامل فى أسلوب قوامه النسخ الآلى. وانما كانت أكثر المحاولات والفكر والنصوص الدينية التى كتبت هناك لأول مرة نتيجة لتأملات وتبادل مثمر لوجهات النظر.

ويمكن أن نقرر بصفة عامة أن كل ما كان ينقش على جدران المعابد وكل ما كان ينسخ من قراطيس البردى التى كانت تقتضيها شئون العبادة أو سائر عناصر الثقافة الكهنوتية كان يخرج من دور الحياة.

ويمكن أن نستنتج من هذا كله أن دور الحياة كانت عبارة عن هيئة مكونة من العلماء ورجال الدين وذوى الخبرة، وهم الذين يحافظون على التقاليد الدينية، وهم الذين يحررون حوليات الملوك والمعابد، وهم الذين يسجلون الاكتشافات العلمية وتقدم الفنون، وهم الذين اخترعوا الكتابات السحرية ذات الرموز الخاصة(٩٤).

ويذكر لنا الملك رمسيس الرابع نفسه أنه كان يتردد بانتظام على بيت الحياة فى أبيدوس، وباطلاعه على مدونات تحوت السنوية التى كانت محفوظة هناك أمكنه أن يعلم أن أوزيريس هو أشد المعبودات غموضا وأنه هو القمر، وهو النيل، وهو الذى يملك فى العالم الآخر، ويهبط إليه إله الشمس كل ليلة، ويكون الروح المتحدة التى تحكم العالم، ويدون تحوت أوامره. وعندما اطلع على تلك المدونات الحولية التى يعرف وقائعها كما لو كان هو الذى دونها تبين له تنوع الموضوعات التى تناولها البحث والموضوعات التى يمكن الافادة منها. وعندما أراد أن يحصل لنفسه على تابوت من حجر (بخن) من وادى (روهانو) وجد فى الحوليات أخبار البعثات السابقة التى أحضرت الكثير من التوابيت والتماثيل إلى مكان (الحقيقة) والمعابد[٦٥].

وعندما عين الأمراء والعسكريين وكبار الموظفين الذين يكونون الهيئة العليا لبعثته لم ينس أن يضيف إليهم كاتبا من دار الحياة. وعندما استقبل أحد الرعامسة سفير أمير (بختان) Baxhtan رأى لزاما عليه أن يستشير كتاب دار الحياة قبل أن يرد عليه وعندما اكتشف فى عهد بطليموس فلادلف كبشا مقدسا جديدا، أرسل سكان مدينة مندس طلبا إلى الملك يلتمسون فيه أن يسمح بأن يفحص كتاب دار الحياة هذا الكبش[٦٦].

وأكبر الظن أن المصريين القدماء قد عرفوا (دار الحياة) منذ أيام الدولة القديمة، فقد عثر بين خرائب تل العمارنة على أنقاض دار من دور الحياة، وفيها لبنات تحمل اسمها (بر-غنح)=(دار الحياة) واستطاع الباحثون أن يتبينوا من أنقاض الدار أنها كانت من بنائين أحدهما كبير وعدد حجراته ست على الأقل، والثانى أصغر ويقع كلاهما على بعد ٤٠ مترا جنوبى المعبد الكبير، ونحو ١٠٠متر إلى الشرق من بناء المعبد الصغير.

وفى تراث الدولة الحديثة وما تلاها من عهود، عشرات النصوص تتحدث عن دار الحياة فى مجال الطب والسحر والكتابة، ونشير إلى صلة الدار ببعض المعبودات المصرية مثل (توت) رب المعرفة والعلم و(سشات) ربة الكتابة، و(ايزيس) صاحبة السحر، و(أوزيريس) رب الخير، ثم (خنوم) بارئ الخلق الذى يصورهم من صلصال كالفخار(٩٧).

اشتهرت تلك المعاهد المصرية، وطارت شهرتها إلى الآفاق فى شرق الدنيا وغربها، ونخص بالذكر (دار أون) - دار هليوبوليس= عين شمس - وكانت فى الأغلب الأعم أعرق دور العلم فى الدنيا عامة وفى مصر خاصة، فنحن نسمع أنها استقبلت فى أيامها المتأخرة أفواجا من طلاب العلم كانوا يغدون إليها من بلاد الأغريق، فينهلون من فيضها الزاخر ونحن نذكر من أولئك الطلاب الذين خلد التاريخ أسماءهم: صولون وليكورج وطاليس وأفلاطون.

وقد ظلت هذه الدار، كما ظلت مدرسة الطب فى (سايس) تستقبلان الوفود من طلاب الغرب حتى أدركت مصر أيام البطالمة وغدت الإسكندرية قاعدة حكمهم يومئذ مركز الإشعاع العلمى والثقافى(٩٨).

ومن أشهر دور الحياة فى مصر واحدة فى (أبيدوس) احدى عواصم الدين الكبرى، وكعبة عبادة أوزوريس، وكانت تلك الدار ملحقة بمعبد المدينة الذى لا يزال قائما إلى اليوم وثانية فى (منف) أكبر الظن أن يكون منشئها أمام علماء الدنيا فى العصر التاريخى، ونعنى (ايمحوتب) الذى عاش فى زمان الأسرة الثالثة ووضع على الأرض أول بناء حجرى معجز وهو (الهرم المدرج) فى جبانة صقارة، وثالثة فى (أخت-أتون) - تل العمارنة - وهى التى اشتهرت بالدعوة إلى التوحيد. ولن ننسى مدرسة الطب فى (سايس) والتى أشرنا إليها من قبل.

وما من شك فى أن توافر المعارف المتعددة لكتبة دار الحياة، كان يهيئ لهم فرص الاسهام بنصيب كبير فى مجالات التعليم والتثقيف، سواء باعتبار دارهم معهدا عاليا أو أكاديمية أو كلية أو جامعة على نحو ما رجح بعض الباحثين وعلى نحو ما تشير بعض المتون، أو بصفتهم الفردية وفق كفاياتهم الخاصة كما تشير متون أخرى. وإذا تجاوزنا عما حواه الأفق الثقافى لدار الحياة من معارف الدين والسحر والفنون، تبقى نشاطها التعليمى فى الطب وفى الآداب والمعارف العامة.

ولقد كان أقدم من عرف من رجال دار الحياة فى الدولة الوسطى (معلم لأبناء الملك) ومن الطبيعى ألا يكون تعليمه لهم فى سحر أو فنون، انما هو فى الغالب تعليم أدبى، وان لم يكن من بأس من احتمال اضافة بعض المعارف الدينية إليه، وذلك مع تقدير أن هذا المعلم بالذات كان رئيسا لبيت العقاقير، وذلك مما يرجح أخذه بنصيب من ثقافات دار الحياة المتعددة. وتلقب رجل آخر من الدولة الوسطى يدعى (سنب) بلقب (مدرس؟ دار الحياة) دون أى لقب آخر، وذلك مما يعنى انقطاعه للتدريس فيها. وألف أمنموبى (كاتب الكتب المقدسة فى دارالحياة) فى عصر الرعامسة مجموعة تعليمية أشرنا إليها من قبل، وقد أصبح لهذه المجموعة أثرها فى الحياة التعليمية فعلا، ووجد تصوير آخر لتعاليم قام بنسخها تلميذ يدعى أمينى تحت إشراف (كاتب) بدار الحياة يدعى خع[٩٩].

وهكذا أسهم كتاب دور الحياة فى تعليم الآداب والمعارف العامة معلمين ومؤلفين وناسخين. وورد فى المتون المتأخرة ما يزكى دورهم التعليمى كذلك فقد ذكر الطبيب المصرى (وزاحورسنت) أنه "زود دور الحياة بكل دارسيها (أو بكل هيئتها أو أهل الكتب فيها) من علية القوم دون أن يكون بينهم ابن وضيع" وأنه "جعلهم تحت إشراف كل ذى

معرفة حتى (يتعلموا) منهم فنونهم جميعا، ثم زودهم بكل نافع لهم وبكل مهماتهم التى كانت مدونة (لهم)، وذلك وفق ما كانوا عليه من قبل". وجاء من ناحية أخرى فى قول معلم يدعى (أمون نخت) لتلميذه (حورى مين): "كن كاتبا وجس (خلال) دار الحياة، تكن بذلك (؟) أشبه بخزانة كتب".

وإذن فقد كان فى دار الحياة معلمون ومتعلمون، وكانت تدرس فيها كل الفنون (كات نب) أو كل الدروس. وما من شك فى أنه تميزت من هذه الدروس، دروس الطب الذى خص وزاحور وسنت أقسامه بالذكر فى بداية متنه. وقد عرفت للطب كتب تأخذ بالطريقة التعليمية التوضيحية، ووجدت عدة لخاف كتبت عليها وصفات طبية لها من خصائص الصياغة ما أدى إلى ترجيح غرضها التعليمى كذلك، وإن لم تتضمن شيئا يصلها صراحة بدور الحياة[١٠٠].

وقد أسعدنا الحظ ببعض معلومات عن واحدة من مدارس الحياة، وكانت تابعة للمعبد الذى بناه (رعمسيس الثانى) للإله آمون فى الجهة الغربية من (طيبة) وهو الذى يطلق عليه الآن اسم (الرمسيوم)، وقد كانت ضمن المبانى العظيمة الخاصة بالإدارات المحيطة بالمعبد من جهاته الثلاث. وقد عثر فى هذا المكان على عدد عظيم من (الاستراكا) يستدعى النظر، وبخاصة ما وجد منها على كومة صغيرة من الأوساخ. وتدل ظواهر الأمور على أن مدرسة المعبد كانت قائمة فى هذا المكان. ويبدو أن التلاميذ عندما كانوا ينتهون من كتابة بعض هذه (الاستراكا) كانوا يلقون بها فى هذه البقعة. وبدرس هذه القطع التى كان ينسخها التلاميذ وجدنا أنها فوق احتوائها على بعض الموضوعات الانشائية التى تنتمى لعصر الدولة الحديثة تتألف من ثلاثة كتب عثر منها على مقتطفات عدة متكررة، وهى تعاليم الملك (أمنمحات) وتعاليم خيتى بن دواوف وأنشودة النيل، وكلها تنسب إلى عهد الدولة الوسطى[١٠١].

ومما يسترعى النظر أن هذه القطع الآدبية الثلاث عثر عليها جميعا على ورقتين من البردى تدل الظواهر على أنهما ترجعان إلى أصل (منفى). ولا شك فى أنهما كانتا تؤلفان الموضوع الرئيسى المعتاد لمنهج المدرسة، وقد وجدت مدونة بأكملها على هاتين الورقتين. أما ما وجد على قطع (الاستراكا) فكان يشتمل على مختارات قصيرة من هذه الموضوعات ومن كتابات أخرى لعظماء الكتاب. ومما يلفت النظر أننا نجد باستمرار فى معظم الأحيان نفس المختارات معادة، ولا يبعد أنها كانت القطع المنتخبة المقررة التى كان لزاما على كل فرد متعلم أن يحفظها[١٠٢].

كما كان يحفظ فى دار الحياة كتب أو برديات تتضمن دعوات سحرية لحماية إله الشمس من هجمات الشيطان (أبوفيس)، وكذلك لحماية الفرعون من الأضرار، ومثل هذه الكتب كانت سرية بحيث لا يراها ولا يعرفها إلا واضعها أى كاتب دار الحياة أو الملك أو كبير الكهنة المرتلين فقط، فنقرأ : "هذا الكتاب السرى فى (دار الحياة) الذى لا تراه عين الكتاب السرى لقهر أبو فيس"، وربما كان يحتفظ فى دار الحياة أيضا ببعض التمائم والتعاويذ السحرية الخاصة بالحماية من الشرور.

ويذكر أحد النصوص أنه التماسا للخلاص من المجاعة التى أمتحنت بها البلاد سبع سنوات أرسل الملك (زوسر) كاهنا يسترشد بمحفوظات الأشمونين، فقدم الكاهن إليه بعد عودته تقريرا مفصلا لكل ما تمكن من معرفته من منطقة الشلال حيث وجد بيانات عن الأشياء التالية:

وصف لمنطقة فيلة وتعداد لأسمائها الأسطورية، والنيل والفيضان والإله (خنوم) صفاته وألقابه والمنطقة المجاورة، وجبال مفتوحة

للمحاجر، وبيان بالآلهة الموجودة بمعبد (خنوم) وأسماء الأحجار التى يمكن العثور عليها فى المنطقة.

ويبدو أن (لوحة المجاعة) هذه كانت تمثل فصولا من الكتاب المخصص للجغرافية الدينية لإقليم (فيلة)، ويقع كل ذلك كما لو كان، الكاهن الرسول قد عثر فى مكتبة الأشمونين على مؤلف عن الأقليم الأول من أقاليم مصر العليا، فاستخلص منه ما استخلص. وعلى هذا لنا أن نذكر -بناء على ما ذكر- أنه لم يكن لكل اقليم سجل تفصيلى لجغرافيته الأسطورية ومحصولاته المختلفة وحسب، بل له فوق ذلك مجموعة خاصة كاملة من تلك المؤلفات فى أشهر المكتبات وهى مكتبة الأشمونين[١٠٣].

٦- القصور الملكية:

حرص عدد غير قليل من ملوك مصر القديمة على اختصاص أبنائهم وأبناء المقربين إليهم من أبناء الخاصة والمتعلمين بالبلاط بتعليم يناسب مواقعهم السياسية ومراكزهم الاجتماعية، وقد استدل المؤرخون على ذلك من بعض الآثار الخاصة ببعض هؤلاء الذين أتيحت لهم فرصة هذه النوعية من التعليم، وفى مقدمة هؤلاء (شبسسبتاح) الذى عاصر اثنين من أواخر ملوك الأسرة الرابعة وأربعة من أوائل ملوك الأسرة الخامسة، ومما ذكره يمكن استنتاج ما يلى[١٠٤]:

- أن قصور الفراعنة كانت تهتم منذ النصف الثانى لعصر الأسرة الرابعة على الأقل بتنشئة أبناء الخاصة فيها ومع أمرائها.
- لم يكن أبناء الملك وحدهم هم الذين يختصون بتربية القصور.
- كان هناك جناح خاص فى القصر يستخدم لتربية الأمراء ومن ينضم إليهم من أبناء المقربين والخاصة.

- يبعد أن يكون التعليم الدينى هو كل ما كان يتعهد القصر به تلاميذه الذين كان منهم أبناء الملك نفسه.

ومن المرجح أن اتخاذ لقب (الكاتب الملكى) الذى كان واسع الانتشار، كان يعبر عن تخرج صاحبه من مدرسة القصر، كما أن اتخاذ لقب (كاتب الإله) كان يعبر عن تخرج صاحبه من مدرسة ذات صلة بمعبد ما، وان كان بعض الباحثين لا يميل إلى هذا الترجيح مؤكدا أن لقب (الكاتب الملكى) كان قليلا إزاء بقية القاب الكتبة[١٠٠].

وأضافت وثائق العصر الاهناسى ضوءا مناسبا على تربية وتثقيف أبناء الخاصة فى القصور الفرعونية، ومع أمرائها، إذ يذكر خيتى ملك أهناسيا لابنه مريكارع عبارة لا تدع مجالا للشك فى اهتمام منهاج القصر بالتعليم الأدبى كأساس للثقافة، فقال له "لاتفتك برجل تعرف فضائله (وسبق أن) جودت معه المتون". وعبر نفس الملك عن ضرورة إحاطة الملك نفسه حاشية مثقفة بقوله: "عالم رب الضفتين، وما ضل ملك وهو صاحب بحاشيته (مثقفة)". وذكر خيتى أحد حكام أسيوط من العصر ذاته أنه كان وريث جده لأمه فى حكم أسيوط، وأن ملك أهناسيا الذى دانت له أسيوط بالولاء قد استقدمه إلى قصره "ورباه وهو (لايزال) طفلا" وأنه كرمه بأن سمح له بأن "يتعلم السباحة مع الأمراء أبنائه". وأغلب الظن أنه لم تكن السباحة وحدها هى التى اشترك خيتى فى تعلمها مع أبناء ملك أهناسيا، وذلك لاشتراكهم مع غيرهم فى تعلم القراءة، ويحتمل أنه خصها بالذكر لغرض فى نفسه[١٠١].

وقد تميز من ربوا فى قصور الفراعنة فى عصور الدولة الوسطى فريقان: فريق قليل العدد أكد أفراده رعاية الفراعنة لهم منذ (الطفولة) وفريق كبير العدد كان اللقب المميز لأفراده هو لقب "طفل جناح التربية". ومن الأسلوب الذى عبر به أفراد الفريق الأول عن روابطهم

بالفراعنة يبدو أن الفراعنة كانوا يختارونهم منذ سنيهم المبكرة ليكونوا تبعا خصوصيا لهم، ولهذا كانوا يوالونهم بتوجيهاتهم وينشئونهم على ما يحبونه من معرفة وسلوك(١٠٧).

ومما يضاف لأيام الدولة الوسطى على حذر، ما تناهى إلى ديودور الصقلى من أنه عند ميلاد الملك سيزوسيس (سنوسرت الثالث؟) جمع أبوه إليه كل الأطفال الذكور الذين ولدوا معه فى نفس اليوم وخصهم جميعا بتربية واحدة وتعليم متجانس(١٠٨).

وكان أطفال "الكاب" أو "الكب" هم غالبية من انتسبوا إلى تربية قصور الفراعنة فى الدولة الوسطى، وكان اللقب المميز لهم هو ما معناه "طفل أو ولد جناح التربية" على وجه التقريب.

وبالجمع بين الأمثلة المعروفة من عصرى الدولة الوسطى والحديثة يمكن أن نستخلص ما يلى(١٠٩):

- لم يكن يراعى فى اختيارهم أن يكونوا من أبناء طبقة معينة من الناس، فقد عرف منهم أبناء كتبة وأبناء كهنة، وابن القاضى؟ وابن سيدة بالبلاط، وأبناء وأقارب لقادة كبار وصغار.

- أن كثيرين منهم ظلوا مرتبطين فى حياتهم الوظيفية بأجنحة القصر المختلفة، فمنهم من أصبح تشريفاتى الديوان الملكى، ومنهم من أصبح مربيا للأمراء، ومنهم من عمل ساقيا، ومنهم حملة المراوح ومهم من ترأس جناح الجوارى، ومنهم من أصبح كاتبا لبيت الأمراء أو أصبح حاكما للأقطار الجنوبية، وتلقب تبعا لذلك بلقب الأمير (ابن الملك)، ومنهم من كانت له أهمية فى الجيش، وفى الكهنوت، وفيما سواهما.

وقد عرفت قصور الفراعنة فى الدولة الحديثة جماعة من التلاميذ المتميزين الذين عرفتهم قصور فراعنة الدولتين القديمة والوسطى وهم الذين نسبوا تربيتهم أو تعليمهم للملك مباشرة دون أن يذكروا لهم صلة ما بجناح التربية.

ومما أمكن جمعه عن تربية قصور الفراعنة لأبناء الخاصة والمتصلين بالبلاط فى العصور المختلفة يمكن تلخيص أهداف القصور من هذه التربية فى ثلاثة أهداف(١١٠):

١- بث روح الولاء للفرعون وأسرته التى تتكفل بهؤلاء الأبناء التلاميذ فى جناح من القصر قد يكون على اتصال بجناح الأمراء أو أن يكون على اتصال بجناح الحريم. ويبدو أن هذا الهدف كان يتحقق فى كثير من الأحيان بحيث نجد من أولئك التلاميذ من كان يقول أنه كان "براء من مخالفة مولاه الذى رباه منذ الصغر".

٢- تكوين تبع خاص منهم للفرعون، ومن هنا وجدنا أوصافا مثل: ممن تربى "لدى قدمى الملك"، ومن كان "رئيسا لأتباعه" و "من لم ينفصل عن ركاب مولاه".

٣- تزويد البلاط بالأتباع الأكفاء المخلصين: وعنى الفراعنة فى عصور التوسع الخارجى بتربية عناصر جديدة من الأطفال والشبان الأجانب "وكان هؤلاء الأجانب فريقين"(١١١):

أ- فريق أبناء الحكام من أمثال من ذكرت حوليات تحتمس الثالث عن بعضهم أن جلالته "استقدم أبناء الكبراء وإخوتهم ليكونوا ودائع على أرض مصر حتى إذا هلك أى واحد من هؤلاء الكبراء عمل جلالته على إيفاد ابنه ليقوم مكانه". هؤلاء لا شك فى أنهم كانوا يلقون

معاملة خاصة، وان برنامج تربيتهم كان يوضع بحيث يكفل تشبعهم بالتقاليد المصرية وتقاليد القصور ونظم الحكم والإدارة، وحتى يكفل تقديرهم لمميزات الحضارة المصرية وولائهم للفراعنة.

ب- الفريق الثانى يغلب على الظن أن أفراداً كانوا يختارون من بين الأسرى ورقيق الجزى،ثم يوزعون على دور الحريم الملكية المتعددة ويؤهلون لخدمة البلاط فى أغلب الأحوال.

ولم يشر أحد من ملوك الدولة القديمة أو أمرائها إلى كيفية تعليمه وتثقيفه، ومع ذلك فهناك أكثر من سبب يدعو إلى ترجيح أخذهم من العلم والثقافة بنصيب مقبول، فهناك أولا ما تقدم عن ثقافة أبناء الخاصة الذين اشتركوا معهم فى تربيتهم، ومن المعقول ألا يقل اهتمام الفراعنة بتثقيف أبنائهم عن اهتمامهم بتثقيف أبناء غيرهم ان لم يكن يزيد. وهناك ما ذكر عن معرفة بعض الملوك للكتابة "باصبعيه" وقراءته للرسائل الخاصة الواردة إليه، وكتابته بنفسه ما تميل نفسه إليه من الآداب. وهناك ما هو معروف عن اشتراك أمراء هذه الدولة القديمة فى حكم البلاد اشتراكا فعليا بحيث كان منهم الوزراء، وكان منهم قادة الجيش، وكان منهم رجال الدين، وكان منهم من يجمع هذه الاختصاصات جميعها. وما من شك فى أن اسناد هذه المناصب والاختصاصات إليهم كان يستدعى شيئا من الاعداد الذهنى والعملى أيضا، ويؤثر ذلك أن من أقدم تماثيل الكتاب (المعروفة) هى الأمراء. ثم أن هناك أخيرا ما تواتر عن نبوغ بعض الملوك والأمراء فى أنواع معينة من العلوم والمعارف[١١٢].

وبالنسبة للعصر الأهناسى فإن تعاليم خيتى ملك أهناسيا لا تدع مجالا للشك فى ثقافة فراعنة ذلك العصر وأمرائه، فهى تشير إلى أن (الأمير) مريكارع كان ينشد أو يجود المتون مع زملاء له، وتذكر أن

خيتى الأول مؤسس الأسرة كانت له تعاليم مدونة مكتوبة، ثم هى تقول لمريكارع: ".. أن (العقل؟) يصقل بالمعرفة، وراع أن أقوالهم (أقوال آبائك وأسلافك) خالدة فى الكتب فافتحها، واقرأ حتى تبلغ الحكمة فبذلك المفن (تصير) مثقفا"، وذلك مما يؤكد تعلمه. وتقول له "ان الملك الحكيم قدوة (؟) للكبراء، وتأكد أنهم لن يتخطوه ما داموا يدركون معرفته"[١١٣].

ويتميز المعروف عن تثقيف أمراء الدولة الحديثة بأنه يؤكد تنوع تثقيف الأمراء، وبأنه يبرز خاصية هامة تلحظ فى تثقيفهم منذ بداية عصر الأسرة الثامنة عشر، وهى أن تثقيفهم لم يعد ينحصر فى أجنحة القصر وفى عواصم الملك وحدها وانما أصبح الأمراء يبرحون القصور والعواصم إلى حيث تتوافر نواحى التربية والثقافة المناسبة لهم فى الكاب أو فى أبيدوس أو فى منف أو فى غير هذه وتلك من المدن.

ولم يكن اهتمام حتشبسوت بتثقيف بنتيها بأقل من اهتمام غيرها من الفراعنة بتثقيف أبنائهم، فقد أوكلت تربيتهما إلى المهندس (سنموت) وأخيه (سن مين) والقائد العجوز (أحمس بان نخبة)[١١٤].

ومع قلة المعروف حتى الآن عن تربية الأمراء وتثقيفهم فيما تلا ذلك من عصور الدولة الحديثة، إلا أنه يغلب على الظن أنها لم تكن تختلف فى شئ عما سبق من تنوع الثقافة فيها والاهتمام معها بالتنشئة العسكرية التى يدل عليها كثرة تقلد أمرائها للمناصب العسكرية واشتراكهم فى الحروب وتفاخرهم بمواقفهم فيها.

ومثلت توجيهات الملك إلى وزرائه صورة من صور التربية السياسية والاجتماعية، من ذلك خطاب وجهه الملك مشافهة إلى وزيره الأعظم يرجع تاريخها إلى عهد الدولة الحديثة، وقد كان الملك يلقى

ذلك الخطاب كلما إسندت مسئولية الحكم إلى وزير أعظم جديد، والخطاب هو كما سيأتي[١١٠].

"اجتمع أعضاء المجلس فى قاعة مجلس الفرعون (له الحياة أو الفلاح أو العافية!) وقد أمر الواحد (يعنى الملك) باحضار الوزير الأعظم (س) الذى نصب حديثا (إلى قاعة المجلس). وقال له جلالته: تبصر فى وظيفة الوزير الأعظم، وكن يقظا لمهامها كلها. انظر انها الركن الركين لكل البلاد". "واعلم أن الوزارة ليست حلوة المذاق، بل انها مرة ... فالوزير الأعظم هو النحاس الذى يحيط بذهب بيت (سيده) .. واعلم أنها (يعنى الوزارة) لا تعنى اظهار احترام أشخاص الأمراء والمستشارين، وليس الغرض منها أن يتخذ بها الوزير لنفسه عبيدا من الشعب". "واعلم أنه عندما يأتى إليك شاك من الوجه القبلى أو من الوجه البحرى أو من أى بقعة فى البلاد، فعليك أن تطمئن إلى أن كل شئ يجرى وفق القانون، وأن كل شئ قد تم حسب العرف الجارى، فتعطى كل ذى حق حقه، واعلم أن الأمير يحتل مكانة بارزة وأن الماء والهواء يخبران بكل ما يفعله، واعلم أن كل ما يفعله لا يبقى مجهولا أبدا".

وبعد ذلك يضع الفرعون لوزيره الأعظم التفاصيل التى يجب أن يسير على نهجها فى القضايا التى تقدم إليه: "احذر ما قيل عن الوزير (خيتى) فإنه يحكى أنه جار فى حكمه على بعض عشيرته الأقربين منحازا للغرباء من أن يتهم بمحاباة أقاربه خيانة منه، وأنه عندما استأنف أحدهم ذلك الحكم الذى أصدره ضدهم أصر على إجحافه، واعلم أن ذلك يعد تخطيا للعدالة.." فلا تنس أن تحكم بالعدل، لأن التحيز يعد طغيانا على الإله، وهذا هو التعليم الذى أعلمك إياه، فاعمل وفقا له".

"وعامل من تعرفه معاملة من لا تعرفه، والمقرب من الملك كـالبعيد عنه. واعلم أن الأمير الذى يعمل بذلك سيستمر هنا فـى هـذا المكـان .. ولا تغضبن على رجل لم تتحر الصواب فى أمره، بل اغضب على من يجب الغضب عليه. واجعل نفسك مهيبا ودع الناس يهابونك والأمير لا يكون أميرا إلا إذا هابه الناس .. واعلم أن الخوف من الأمير يأتى مـن إقامته العدل".

"واعلم أن الإنسان إذا جعل الناس يخافونه أكثر مما ينبغى دل ذلـك على ناحية نقص فيه فى نظر القوم، فلن يقولوا عنه (انـه رجـل بمعنـى الكلمة). واعلم أن رهبة الأمير تبعث الرعـب فـى نفـس الكـاذب عندمـا يعامله (الأمير) بما يفزعه منه"(١١٦).

ويلاحظ هنا أن أهم تشديد فى كل هذه الوثيقة الحكومية ينصب علـى العدالة الاجتماعية، فلم يكن الغرض من الوزارة إظهار تفضيل الأمراء والمستشارين على غيرهم أو استبعاد أحد من أفراد الشعب، بل أن كـل عدالة تجرى يجـب أن تكـون حسـب القـانون فـى كـل قضيـة، علـى ألا ينسى الوزير أن وظيفتـه بـارزة جدا، ولذلـك كـانت تصرفاتـه معروفـة ظاهرة بين الناس. ولا تعنى العدالـة أن يقـع ظلـم علـى مـن لهـم مكانـة سامية كما حدث فـى القضيـة الشـهيرة التـى ينسـب أمرهـا الـى الوزيـر القديم (خيتى) المنفى الأصل، وهو الذى حكـم فيهـا ضـد أقاربـه مـع أن الحق كان فى جانبهم، وليس هذا من العدل فى شىء.

وتعنى العدالة من جهة أخرى، الحياد المطلـق والتسـوية بيـن النـاس دون تمييز فرد على فرد، فيكون سواء لديك من تعرفه ومن لا تعرفـه، ومن قرب من الملك ومن لا علاقة له بـأحد مـن بيـت الملـك. إن إدارة الأمور بتلك الكيفية تضمن للوزير الاستمرار الطويل فى منصبه. ومـع أن الواجب المحتم على الوزير أن يظهر منتهى الحكمـة عنـد الغضـب،

فيجب عليه أن يجعل من موقفه ما يكسبه احترام الشعب له بل وهيبتهم منه، ولكن هذه الرهبة يجب أن يكون عمادها الوحيد إقامة العدل من غير تمييز لأن "الرهبة الحقيقية من الأمير هى أقامته للعدل"، ومن ثم لا يكون فى حاجة إلى تكرار إرهاب الناس بالشدة والغطرسة، إذ أن ذلك يولد تأثيرا كاذبا عنه بينهم، فإقامة العدل كافية وحدها لأن تكون لهم رادعا(١١٧).

٧- دور الكتب:

إذا كان لنا أن نتحفظ على ما ذكره بعض الباحثين من أننا "لانعرف من المكتبات فى مصر أى شئ قبل العصر الهيلينستى" (١١٨)، إلا أننا يجب أن نصرف عن أذهاننا تصور تقارب بين دور الكتب كما نعنيها الآن وبينها فى مصر القديمة، ففى مصر القديمة لم يكن الكتاب مجموعة أوراق بين غلافين وإنما هو مجموعة (برديات) ملفوفة، ولم تكن المكتبة أكثر من (مخزن) لهذا النوع من الكتب.

وقد عرفت دور الكتب فى مصر القديمة، منذ الأسرة الثالثة على أقل تقدير.

وكثيرا ما ذكرت دور الكتب المصرية بغير تحديد مكانى أو تخصيص، وقليلا ما خصصت بأنها دار كتب الإله، أو دار الكتب الإلهية أو دار الكتب المقدسة، وذلك مما يدعو إلى افتراض صبغة مدنية للأولى، أى التى ذكرت دون تخصيص وافتراض صبغة دينية للثانية التى كانت تنسب بصفتها المقدسة إلى القصور الفرعونية أحيانا(١١٩).

وتعددت دور النوع الأول منذ أيام الدولة القديمة، ووجدت لها إدارة تنظمها، وكانت على الرغم من الصبغة المدنية أو الإدارية الغالبة عليها

بحيث يمكن اعتبارها دورا للوثائق أو الأرشيف أكثر من الكتب الثقافية، تتميز بوضع خاص عما سواها من إدارات الحكومة، ويدعو إلى هذا الاحتمال أنه ذكرت إلى جانبها صراحة فى الدول القديمة دور أخرى "للوثائق الملكية.." و"السجلات المختومة"، وذلك مما يعنى تميزها عنها. ومن تعاليم خيتى بن دواوف لابنه: "راع أنه لا يوجد ما يفوق الكتب، ولسوف أجعلك تعشق الكتب أكثر من أمك وأبث محاسنها فى مواجهتك".

وفى موضوع مدرسى من عصر الرعامسة أخذ معلم يبصر تلميذه بقيمة الكتب قائلا له: "إن كتابا واحدا لأعز قيمة من بيت البانى ومن مقصورة فى الغرب، وأنه لأجمل من قصر مشيد ومن نصب تذكارى فى معبد"[١٢٠].

ويتسم طابع (دور الكتب الإلهية) أو (المقدسة) بشئ من الوضوح، ففضلا عما يؤكده اسمها من اتصاف كتبها بالقداسة، فإن كتابها اتخذوا لقب (كاتب دار الكتب المقدسة)، ويمكن تفسير قداسة كتبها بصفتها الدينية العامة، أو لمثل تسميتها فيما بعد بأرواح رع أو (قدرات رع)، وذلك لما فيها من قدرة واقية تحفظ حياة أصحابها فى الدنيا، وقدرة خالصة تكفل استمرار حياتهم فى الآخرة، وتحيل نقوش مقابرهم إلى حقائق معنوية، كما تحيل نفع قرابينهم إلى العالم غير المنظور الذى سينقلان إليه أو تخلقها لهم خلقا[١٢١].

وقد قدرت هذه القيم فعلا لكتب المكتبة بحيث أصبح يرتجى للمتوفى أن يكتمل له زاده "بجوار دار الكتب". ومن الأدعية الأخروية فى متون التوابيت ما كان يرجو المتوفى أن يعامله الآلهة "وفق الكتابة التى وصفها تحوتى فى دار الكتب المقدسة"

وعلى الرغم من إيحاء اسم هذه المكتبات بأن محتوياتها (دينيـة)، إلا أن هذا لم يمنع من وجود مخطوطات تتعدى النطاق الدينى إلى أصـول الفلك وقواعد الفنون.

ويذكـر أحـد البـاحثين أن الاتصـال بيـن دار الكتـب ودار الحيـاة هـو اتصال سلبى. ولكن منذ الدولة القديمـة كـان يوجـد فـى كـل معبـد (دار الكتب)، وقد وصلنا منها ما هو موجود فى معبد ادفو وفيلة. ولمـا كـان الوصف التوضيحيى لها صغير جدا يمكن التخيل أنهـا تحتـوى علـى صناديق بها لفائف البردى، ففى فيلة لا توجد غير مقصـورة واحـدة لا تكفى سوى لصندوق واحد. وفى ادفو نجد النيش أصغر، والتى فى فيله موجودة فى أول الفناء وليست فى صالة الاحتفالات مثل ما هو موجـود فى معبد ادفو[١٢٢].

وهناك فى ادفو نجد ثلاثة منـاظر مـن (١١) منظـر خـاص بـالكتب، فهم يقومون بعمل فهارس للكتب، ويقدموهـا للإلـه (فـى المنظـر الأول) وفى (المنظر الثانى) يقدم الملك (لتحوت) كل أدوات الكتابة.

وكـل هـذا يوضـح أنـه يوجـد فـى ادفــو دار خـاص بـالكتب سـببه (التخلص من الأعداء واطالة عمر الملك). وفى بردية نجد نصـا يُفهـم منه أن (دار الكتب) تماثل (دار الحياة). كما أننا نجد أن الإله (سشـات) تسمى (سـيدة دار الكتـب) وسيدة (دار الحيـاة). وكذلـك ورد عـن الإلـه (ايزيس): "سحرك فى دار الكتب وسحر جمالك فى دار الحياة[١٢٣].

وكان المعبد دائما هو المأوى الطبيعى للمكتبـة المصريـة، ولـم يكـن هناك معبد من المعابد الفخمة بدون مكتبة، وأن مدارس المعابد اسـتندت بالضرورة على هذه المكتبات التى كانت دون شك مخزنا للعلـم، وكـان ضمن ما تحويه من كتب، كتبا عن التنجيم والجغرافيا وكتبا عن الطـب والكتب التاريخية ..الخ.

وكان الفرعون يولى مكتبة المعبد أكبر عناية، وتعتبر المكتبة أصل المعرفة للملك الإله، فهو يزورها شخصيا لكى يقرأ فى الكتب الموجودة. "ان قلبى ليتوق لرؤية كتب آتوم المبجل". وتقرأ فى نص على مكتبة ادفو "أنا أحضر لك صناديق الكتب الكثيرة ولفائف الجلد الأبيض النقى"(١٢٤).

وكانت قراطيس الكتب تحفظ ملفوفة فى كسوات ضيقة محفورة فى الحوائط، كما كان ينقش على تلك الحوائط لون من السجل يبين الكتب المحفوظة فى هذه الدور، وفى القراطيس البردية والمخطوطات الكبيرة من الجلد النقى التى تتيح: "ضرب الشيطان وطرد التمساح وصيانة الساعة، والمحافظة على الموكب ونزهة الفلك الكبيرة، كتاب للخروج بالملك فى موكب. كتاب الأمامة فى العبادة، حماية المدينة والدار والتاج الأبيض للعرش والعام، كتاب تهدئة "سخمت"، كتاب صيد الأسد وإبعاد التماسيح وإبعاد الزواحف، ومعرفة كل أسرار المعبد، ومعرفة القرابين المقدسة بكل تفاصيلها، وكل سجلات الهيئات الباطنة للإله، وكل مظاهر الآلهة والمعاونة التى يعاد رسمها كل يوم من أجل المعبد ... كتاب سجل المعبد، كتاب لإرهاب الناس، كتاب لكل ما كتب عن المعارك، كتاب فى نظام المعبد، كتاب الخدمات التى يجب أن تؤدى فى المعبد، ارشادات فى زخرفة احدى حوائط المعبد، حماية الجسد، كتاب لرقية الملك فى قصره، تعاويذ لاتقاء العين الشريرة، معرفة العود الدورى لنجمين (الشمس والقمر) دليلا لمعرفة الظهور الدورى للنجوم الأخرى، سجلا احصائيا بكل الأماكن المقدسة ومعرفة كل ما يوجد بها "كل الطقوس الخاصة بتجلى الإله خارج معبده أيام الأعياد"(١٢٥).

ووجدت كذلك دور كتب مقدسة تابعة للقصور، ويغلب أنها كانت تقدم صنوفا من الموضوعات الدينية، وبخاصة ما يتعلق منها بالتراتيل اليومية التى تؤدى للفراعنة وتراتيل أعياد الآلهة التى يحبونها، غير أن

هناك ما يحتمل معه أن مكتبات القصور لم يكن ينقصها التنوع هى الأخرى، وأنه كانت لها صلتها بالأدب والفنون، فضلا عن الكتب ذات الصبغة السحرية[١٢٦].

أما المجالات والميادين التى كانت تخدمها دور الكتب، فيمكن الإشارة إلى أهمها فيما يأتى[١٢٧]:

أ- الشئون الدينية، فقد كانت هى أهم ما تخدم دار الكتب وأهم ما يقصد رجالها، وتوجد نصوص تذكر ارتباط دور الكتب بالدين والشئون الدينية، ونستخلص منها أن من أهم أوجه النشاط فى دور الكتب:
- تفسير الكتب والكتابات للوقوف على ما يخص الآلهة.
- تفسير النصوص الدينية والكتابات المقدسة وكتب لمذهب التاسوع وأربابه والآلهة المختلفة.
- الوقوف على صيغ القرابين وطرق تقديمها ومناسباتها.
- الاسترشاد بمخطوطاتها فى تجهيز أو تأثيث المعابد.
- تسجيل المخصصات والأملاك الموقوفة للآلهة.
- الاستعانة بمخطوطاتها لمعرفة بداية خلق العالم وأصوله والأساطير الكهنوتية والفلسفية والفكرية، وأسرار الآلهة، وكل ما يتعلق بهم.
- تسجيل تراتيل الآلهة ووصفا لهم.
- الطقوس الخاصة بتجلى الإله فى الأعياد.
- طرق حماية الآلهة والمعابد والعبادات.
- كان يتعهد لرجالها بتبين العلامات الإلهية فى الحيوانات المقدسة وصياغة الطقوس الدينية الخاصة بها.
- ارتبطت دور الكتب بأسماء العديد من الآلهة والالهات.
- ارتبطت دور الكتب بالعديد من الكهنة.

ب- السحر والتعاويذ والرقى.
جـ- الاطلاع على الأسرار.
د- الطب البشرى.
ح- الفلك.

ى- الترميم. ل- الجغرافيا.
هـ- الطب البيطرى. و- التحنيط.
ز- الصيدلة وعلم العقاقير. ط- الفنون.
ك- الحساب والإحصاء. م- التاريخ.
ن- أخبار الحروب والانتصارات
- ما يختص بالقانون والقضاء.
- ما يختص بالادارة والشئون الادارية.
- ما يختص بالجيش.

ولم تكن دور الكتب (المقدسة) بمثابة دور لحفظ المخطوطات فحسب وانما كانت للاطلاع وللاستزاده من العلم كذلك. وثم نصب من الدولة الوسطى يوضح لها هذا الدور الثقافى. ويروى (منتته) أن الفرعون نفر حوتب أحد فراعنة الأسرة ١٣ كان شغوفا بأن يرى كتابات أتوم (اله الشمس) العتيقة ويبحث فيها ويتعرف منها على تكوين التاسوع وقرابينه وطهوره ... وأن يتعرف على الاله (أوزير) فى صورته حتى يصوغ له تمثاله وفق ما كان عليه فى العهد القديم، حينما صاغ الآلهة تماثيلهم فى مجمعهم، وحتى تقام لهم الآثار على الأرض ... وقد أجابته معيته وفيهم الكتبة الحقيقيون والمطلعون على الأسرار جميعها: "فلتتفضل جلالتك إلى دور الكتب لتطلع على الأقوال المقدسة" فتقدم إلى المكتبة ونشر المخطوطات مع رفقته حتى عثر على مخطوطات دار (معبد) أوزير .. فى "حين لم يستطع كاتب من رفقته أن يجدها" ... وقال لرفقته بعد اطلاعه عليها "أنى أحيى أبى أوزير ....، ولسوف أصوغه، بدنه، ووجهه، وأصابعه، وفق ما اطلعت عليه فى (هذه) المخطوطات .... وهو بهيئة ملك الصعيد والدلتا حينما خرج من حوف توت ..."(١٢٨).

هوامش الفصل الرابع

١- محرم كمال، الأسرة والحياة المنزلية، فى تاريخ الحضارة المصرية، جـ١، ص١٣٣.
٢- المرجع السابق، نفس الصفحة.
٣- أحمد عبد الحميد يوسف، دفء الحياة الأسرية فى مصر القديمة، جريدة الأهرام، ١٩٦٩/٨/١٢، ص٧.
٤- عبد العزيز صالح، التربية والتعليم فى مصر القديمة، ص٦٣.
٥- المرجع السابق، ص٦٤.
٦- أحمد عبد الحميد يوسف، دفء الحياة الأسرية فى مصر القديمة.
٧- المرجع السابق.
٨- أحمد بدوى، وجمال الدين مختار، تاريخ التربية فى مصر، جـ١، ص١١٩.
٩- عبد العزيز صالح، التربية والتعليم فى مصر القديمة، ص٧.
١٠-أحمد عبد الحميد يوسف، دفء الحياة الأسرية.
١١-فالبيل، الناس والحياة فى مصر القديمة، ص١٣٤.
١٢-المرجع السابق، ص١٣٥.
١٣-مونتيه، الحياة اليومية فى عهد الرعامسة، ص٧١.
١٤-عبد العزيز صالح، التربية والتعليم فى مصر القديمة، ص٦٥.
١٥-المرجع السابق، ص٦٦.
١٦-نبيلة محمد عبد الحليم، ص١٤٥.
١٧-ديورانت، قصة الحضارة، جـ٢، ص٩٦.
١٨-وليم نظير، المرأة فى تاريخ مصر القديمة، دار القلم، القاهرة، ١٩٦٥، ص٣٥.
١٩-نبيلة محمد عبد الحليم، معالم التاريخ الحضارى والسياسى فى مصر الفرعونية، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٨، ص١٥٣.
٢٠-المرجع السابق، ص١٥٤.
٢١-أحمد عبد الحميد يوسف، مرجع سابق.
٢٢-عبد العزيز صالح، الأسرة فى المجتمع المصرى القديم، وزارة الثقافة، القاهرة، المكتبة الثقافية (٤٤)، سبتمبر ١٩٦١، ص٥٤.
٢٣-المرجع السابق، ص٥٥.
٢٤-أحمد بدوى وجمال الدين مختار، تاريخ التربية والتعليم فى مصر، جـ١، ص١٣٤.
٢٥-عبد العزيز صالح، الأسرة فى المجتمع المصرى القديم، ص٥٦.
٢٦-المرجع السابق، ص٥٩.

٢٧-المرجع السبق، ص٦١.
٢٨-أحمد بدوى وجمال مختار، تاريخ التربية والتعليم فى مصر، جـ١، ص١٣٩.
٢٩-المرج السابق، ص١٤٠.
٣٠-محمد عبد الحميد بسيونى، آداب السلوك عند المصريين القدماء، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤، ص٥٩.
٣١-المرجع السابق، ص٦٠.
٣٢-المرجع السابق، ص٦١.
٣٣-عبد العزيز صالح، الأسرة فى المجتمع المصرى القديم، ص٨٢.
٣٤-المرجع السابق، ص٨٣.
٣٥-المرجع السابق، ص٨٦.
٣٦-إبراهيم رزقانه وآخرون، ص٩٣.
٣٧-فالبيل، الناس والحياة فى مصر القديمة، ص٢٨.
٣٨-المرجع السابق، ص٣٣.
٣٩-المرجع السابق، ص٣٤.
٤٠-سليم حسن، الحياة الدينية، فى (تاريخ الحضارة المصرية)، جـ١، ص٢٥٥.
٤١-المرجع السابق، ص٢٥٦.
٤٢-المرجع السابق، ص٢٦٠.
٤٣-سليم حسن، مصر القديمة، جـ٣، ص٥٢٠.
٤٤-المرجع السابق، ص٥٢١.
٤٥-مونتيه، الحياة اليومية فى مصر، ص٤٠٢.
٤٦-التربية والتعليم فى مصر القديمة، ص١٨٧.
٤٧-المرجع السابق، ص١٨٨.
٤٨-المرجع السابق، ص١٨٩.
٤٩-المرجع السابق، نفس الصفحة.
٥٠-محرم كمال، الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء، وزارة الثقافة، القاهرة، المكتبة الثقافية (٧١)، اكتوبر ١٩٦٢، ص٥١.
٥١-كلير لا لويت، الأدب المصرى القديم، ترجمة ماهر جويجاتى، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة، ١٩٩٢، ص٥٨.
٥٢-سليم حسن، الأدب المصرى القديم، جـ١، ص٢٥٤.
٥٣-جمال حمدان، شخصية مصر، جـ٢، ص٥٥٦.
٥٤-المرجع السابق، ص٥٥٧.
٥٥-عبد العزيز صالح، التربية والتعليم فى مصر القديمة، ص١٤٨.
٥٦-المرجع السابق، ص١٥٠.
٥٧- المرجع السابق، ص١٧٤.
٥٨-المرجع السابق، ص١٧٦.
٥٩- المرجع السابق، ص١٧٧.
٦٠-المرجع السابق، ص١٨٣.
٦١- المرجع السابق، ص١٨٥.
٦٢-المرجع السابق، نفس الصفحة.

٦٣-كلير لالويت، الأدب المصرى القديم، ص٢٩.
٦٤-المرجع السابق، ص٣٠.
٦٥-سليم حسن، مصر القديمة، جـ٣، ص٣١٢.
٦٦-المرجع السابق، ص٣١٤.
٦٧-سليم حسن، الأدبالمصرى القديم، جـ١، ص٢٢٥.
٦٨-المرجع السابق، ص٢٢٢. ٦٩- المرجع السابق، ص٢٢٣.
٧٠-المرجع السابق، ص٢٢٦. ٧١- المرجع السابق، ص٢٣٦.
٧٢-المرجع السابق، ص٢٣٩.
٧٣-محمد على سعد الله، تطور المثل العليا فى مصر القديمة، ص٧٨.
٧٤-المرجع السابق، ص٧٩. ٧٥- المرجع السابق، ص٨١.
٧٦-المرجع السابق، ص٨٢.
٧٧-محرم كمال، الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء، ص-ص٣٠-٣١.
٧٨-المرجع السابق، ص٣٤. ٧٩- المرجع السابق، ص٣٦.
٨٠-أحمد بدوى وجمال الدين مختار، تاريخ التربية والتعليم، جـ١، ص٢١٢.
٨١-المرجع السابق، ص٢١٣.
٨٢-عبد العزيز صالح، التربية العسكرية، فى تاريخ الحضارة المصرية،جـ١، ص١٩٢.
٨٣-المرجع السابق،ص١٩٣. ٨٤- المرجع السابق، ١٩٩.
٨٥-أحمد قدرى، المؤسسة العسكرية المصرية فى عصر الامبراطورية، ص٣٩.
٨٦-المرجع السابق، ص٤١. ٨٧- المرجع السابق، ص٤٤.
٨٨-عبد العزيز صالح، التربية والتعليم فى مصر القديمة، ص١٧٨.
٨٩-المرجع السابق، ص١٧٩.
٩٠-أحمد بدوى وجمال الدين مختار، تاريخ التربية والتعليم فى مصر، جـ١، ص١٧٨.
٩١-المرجع السابق، ص١٧٩. ٩٢- المرجع السابق، ص١٨٠.
٩٣-سمير أديب، مرحلة التعليم العالى فى مصر القديمة، العربى للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٠، ص٢٤.
٩٤-المرجع السابق، ص٢٥.
٩٥-بيير مونتيه، الحياة اليومية فى مصر، ص٤٠٤.
٩٦-المرجع السابق، ص٤٠٥.
٩٧-أحمد بدوى وجمال الدين مختار، تاريخ التربية والتعليم فى مصر، جـ١، ص١٨٠.
٩٨-المرجع السابق، ص١٨١.
٩٩-عبد العزيز صالح، التربية والتعليم فى مصر القديمة، ص٢٢٤.
١٠٠- المرجع السابق، ص٢٢٥.

١٠١- سليم حسن، مصر القديمة، جـ٥، ص١٥٢.
١٠٢- المرجع السابق، ص١٥٣.
١٠٣- سمير أديب، مرحلة التعليم العالى، ص١٥٩.
١٠٤- عبد العزيز صالح، التربية والتعليم فى مصر القديمة، ص١٩٤.
١٠٥- المرجع السابق، ص١٩٨.
١٠٦- المرجع السابق، ص١٩٩.
١٠٧- المرجع السابق، نفس الصفحة.
١٠٨- المرجع السابق، ص٢٠١.
١٠٩- المرجع السابق، ص٢٠٤.
١١٠- المرجع السابق، ص ص٢٠٧، ٢٠٨.
١١١- المرجع السابق، ص٢٠٩.
١١٢- المرجع السابق، ص٢١١.
١١٣- المرجع السابق، ص٢١٤.
١١٤- المرجع السبق، ٢١٥.
١١٥- برستيد، فجر الضمير، ص٢٢٣.
١١٦- المرجع السابق، ص٢٢٤.
١١٧- المرجع السابق، ص٢٢٥.
١١٨- سمير أديب، دور الكتب والوثائق والمحفوظات والأرشيف فى مصر القديمة، رسالة دكتوراه، آداب الزقازيق، بنها، ١٩٩٣، ص٢٧٨.
١١٩- عبد العزيز صالح، التربية والتعليم فى مصر القديمة، ص٣٦٠.
١٢٠- سمير أديب، دور الكتب، ص٢٨٠.
١٢١- المرجع السابق، ص٢٨٤.
١٢٢- المرجع السابق، ص٢٩٧.
١٢٣- المرجع السابق، ص٢٩٨.
١٢٤- المرجع السابق، ص٣٢٨.
١٢٥- المرجع السابق، ص٣٥٣.
١٢٦- المرجع السابق، ص٣٦٦.
١٢٧- المرجع السابق، ص٤٠٤ وما بعدها.
١٢٨- عبد العزيز صالح، التربية والتعليم فى مصر القديم، ص٣٦٢.

الفصل الخامس

مجالات التعليم

تعددت ألوان المعرفة والفنون التى طرقها قدماء المصريين وتنوعت مجالاتها إلى درجة تثير التقدير حقا، فمن لغة إلى آداب إلى حساب وهندسة إلى طب وتحنيط إلى كيمياء إلى فلك، إلى موسيقى وغناء، ثم إلى فنون تطبيقية فى النحت والرسم والنقش والصناعات والزراعة:

١- اللغة:

كان من الأمور الطبيعية أن يقوم التعليم بكافة ألوانه وأشكاله على أساس من معرفة الكتابة، فبها وحدها تمكن القراءة، وبها وحدها يمكن الاطلاع، وبها وحدها يتيسر التحصيل، ثم بها وحدها يسطر العلم فى الكتب والأسفار، أو ينقش فى الصخور والأحجار.

وقد اعتقد قدماء المصريين أن لغتهم من مصدر إلهى، وتصوروا أنه من المحال أن يكون هذا الاختراع البديع من عمل البشر. اعتقدوا أن المعبود تحوت هو الذى اخترع لهم الحساب والطب والحكمة وكل العلوم والفنون، وهو الذى وضع الكلمات الهيروغليفية. وكانوا يرسمونه على صورة إنسان له رأس الطائر أبيس حاملا لوحة بيده اليسرى وقلما بيده اليمنى. وكانوا يحترمونه ويناجونه قائلين: "ومن تبع المعبود تحوت حفته العناية"[1].

وقد قال إرمن العالم الأثرى الألمانى أن اللغة المصرية القديمة قريبة من اللغات السامية (نسبة إلى سام بن نوح) كالعبرية والعربية، ومن لغات سكان أفريقيا الشرقية كالصومال ومن لغات البربر الواقعة

شمالى أفريقيا، ولابد أن يكون منشؤها فى بلاد العرب لما انتشر بنو سام فى بلاد بين النهرين وان حروفها ساكنة كاللغات السامية(٢).

والحق أنه حدث جدل طويل بين المتخصصين بين قائل بأصول اللغة المصرية القديمة السامية وآخر يرى أن أصولها أفريقية، بل وذهب البعض إلى افتراض أن أصولها أقيانية أما اليوم فيسود شبه اتفاق على أن المصرية والكوشية (اللغات السودانية) والبربرية واللغات السامية، تشكل كل منها مجموعة مستقلة عن الأخرى، وان كانت جميعها مشتقة من لغة قديمة مشتركة، وهو ما يفسر، فى ذات الوقت، ما نلحظه من أوجه شبه عديدة بين المجموعات المختلفة وبالتحديد بين المصرية واللغات السامية، وبين البربرية والمصرية(٣).

سجل الشعب المصرى أول خطوة فى سبيل تقدم الإنسانية والاستفادة من دور العقل البشرى، فقد اخترع هذا الشعب الكتابة التى أطلق الأغريق عليها بعد ذلك الهيروغليفية Hieroglyphic أى النقش المقدس Hieros Glupho، وذلك لنقشها -أغلب الظن- على المقدسات مثل جدران المعابد والمقابر والتوابيت واللوحات والمسلات والأعمدة أو نقشها على تماثيل الآلهة والملوك والأفراد وما شابه ذلك(٤).

ولقد بدأت ملامح الكتابة بالخط الهيروغليفى على اللوحات العاجية الصغيرة التى ترجع إلى عصر الأسرة الأولى ثم نجدها واضحة كاملة فى الأسرة الثانية.

ثم تطورت النقوش الهيروغليفية إلى نوع مبسط من الخط أطلق الأغريق عليه الخط الهيراطيقى Hieratic أى الخط الكهنوتى Hieratikos=Priestiy، وذلك بعد أن تعذر على الكهنة استخدام الخط الهيروغليفى فى شئونهم العامة، وقد اقتصر استعمال هذا الخط على

الكهنة فى العصـور المصريـة المتـأخرة (مـن ١٠٨٥ إلـى ٣٣٢ ق.م). وقد استخدم هذا الخط على أوراق الـبردى وعلـى قطـع الفخـار Ostraca والخشب وسجل به أغلب عقائد المصريين القدماء وآبائهم(٥).

ثم ظهر بعد ذلك شكل سريع مختصـر للهيراطيقيـة أطلـق الأغريـق عليه الخط الديموطيقى Demotic أى الخط الشعبى =Demotikos Popular، وقد استعمل هـذا فـى كافـة نواحـى الحيـاة العامـة، ابتـداء مـن الأسـرة الخامسـة والعشـرين الفرعونيـة (أى مـن ٧١٥ ق.م) حتـى نهايـة حكـم الرومان لمصر (أى ال حوالى ٣٩٥م)(٦).

وعلى رأس ما يشد الباحثين إلى الكتابة المصرية القديمة أنها نشـأت نشأة محلية أصيلة، فلم تستعر كل ما تستخدم مـن علامـات هيروغليفيـة من عالمى الحيوان والنبات فى وادى النيل فحسـب، وهـو برهـان علـى أن ظهورها ونموها كانا ظاهرة محلية، بل تصور هذه العلامات بعـض الادارات والأوانى التى كـانت تستخدم فـى مصـر منـذ العصـر الأدنـى للحضارات النحاسية الحجرية، وهو دليـل علـى أن الكتابـة هـى بـالقطع نتاج الحضارة المصرية دون غيرها(٧).

وقد ظلت الهيروغليفية مجهولة فترة طويلـة حتـى عثر أحد ضبـاط حملة نابليون على مصر سنة ١٧٩٩ أثناء الحفر فـى قلعـة رشـيد علـى قطعة من البازلت منقوشـة بثـلاث كتابـات مختلفـة، كـانت ثالثتهـا وهـى السفلية مكتوبة باللغة الأغريقية، وعبارة الكتابة مرسـوم ملكـى أصـدره بطليموس الخامس سنة ١٩٦ ق.م، وقد ذكر فـى النـص الأغريقـى أنـه نفس المتـن المكتـوب بالكتـابتين الأخريين وهمـا الهيروغليفيـة (الكتابـة المقدسة) والديموطيقية (كتابة الشعب)(٨).

وقد استطاع شاب عالم فرنسى هو (جان فرنسوا شامبليون) (١٧٩٠-١٨٣٢) أن يحل رموز هذه اللغة، وكان مغرما منذ نعومة أظفاره بالتاريخ المصرى.

وإذا كان المصريون بكتابتهم الهيروغليفية، يكتبون غالبا على الحجارة المسطحة للمعابد وعلى المقابر وبقية المنشآت ثم على الخشب، فقد كانوا نادرا ما يكتبون على المواد الطرية. وكان أولئك الذين لا يعرفون القراءة - وهم كانوا دائما يشكلون الغالبية - يتمكنون من فهم ما تريد أن تقوله تلك الكتابات بفضل الأشكال التصويرية (نقوش جدران على مواد صلبة أو رسوم بألوان متعددة على مواد طرية) التى كانت تصاحب النصوص.

لقد كان المصريون نادرا ما يستعملون الألواح الخشبية للكتابة، وحتى إذا ما استعملوها فقد كانوا يتركونها لكتابة النصوص القصيرة، وقد استعمل الرق للكتابة أيضا، ولكن فى حالات خاصة جدا كتدوين بعض وثائق الدولة التى لها أهمية خاصة وما شابه ذلك. وفيما يتعلق باستعمال الرق للكتابة فإن أقدم خبر عن ذلك يعود إلى الأسرة الرابعة (٢٥٠٠ ق.م)، ولكن أقدم نموذج للرق المستعمل للكتابة يعود إلى الأسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠-١٨٠٠٠ ق.م) وبعد ذلك بقى الرق يستعمل للكتابة من حين لآخر حتى أواخر عهد الدولة المصرية[٩].

أما أكثر مادة استعملت للكتابة خلال استمرار الحضارة المصرية فقد كان ورق البردى، وهناك أدلة مؤكدة تثبت أن ورق البردى استعمل منذ عهد الأسرة الأولى فى بداية الألف الثالثة ق. م، مع أن أقدم نموذج من ورق البردى يعود إلى زمن الفرعون نفريكر من الأسرة الخامسة. وفيما أصبح ورق البردى سلعة مهمة للتصوير فى البلدان المجاورة كما فى فينيقيا وسوريا منذ القرن الحادى عشر ق.م، ثم فى اليونان

وروما حيث ساد كمادة إلى أن حل محله الرق أولا ثم الورق أخيرا خلال القرون الوسطى.

وبفضل المناخ المصرى الملائم للغاية فقد تم الحفاظ على عدد كبير من لفافات البردى وخاصة فى المقابر كما فى بقايا المعابد، وحتى فى البيوت الخاصة. ولقد كان الكتاب المدون على ورق البردى فى مصر يأخذ دائما شكل اللفافة، وقد بقى الكتاب على هذا الشكل حتى فى العهود اللاحقة كاليونانى والرومانى.

أما فيما يتعلق بالكتابة، فقد استعمل المصريون أقلاما من نبتة تنمو فى المستنقعات يتراوح طولها بين ١٦-٢٣سم. وقد كانت هذه الأقلام تقطع بشكل مائل فى أحد أطرافها، ثم يبرى رأسها إلى أن يسمح بالكتابة الدقيقة جدا. وقد كانت هذه الأقلام تغمر فى حبر أسود أو أحمر ثم يكتب بها على ورق البردى أو على المواد الأخرى. وقد كانت أمثال هذه الأقلام تحفظ فى محفظة خاصة مصنوعة من القصب، أو فى علبة مستطيلة من الخشب، وأحيانا فى علب مصنوعة من العاج أو من المرمر. وفى هذه المحافظ أو العلب كانت توجد محبرتان، واحدة للحبر الأسود وواحدة للحبر الأحمر. وبالاضافة إلى هذا فقد كانت عدة الكاتب تشمل أيضا كيسا صغيرا من الجلد للماء المخصص لتمديد الحبر قبل استعماله، أو لمسح كلمة مكتوبة بالخطأ أو لمسح رسم مرسوم بشكل سئ.

وتصور لنا الأعمال الفنية كيف كان الكتاب يقومون بعملهم، فقد كان الكتاب يركعون على القدم اليسرى التى تحمل اللفافة، وقد كانوا يجلسون القرفصاء وحول هذا يوجد أشهر تمثال يبرز الكتاب فى هذه الوضعية فى متحف اللوفر بباريس[١٠].

ولسنا نملك من تراث المدرسة المصرية ما يصور لنا الطريقة التى كان الناشئ يتعلم بها الكتابة قبل انتشار الشعبية (الديموطبقية). ولدينا من هذا التراث ثروة واسعة ضخمة تتمثل فيما عثر عليه من اللخاف والشقف بين خرائب المدارس ودور التعليم، غير أن هذه الثروة الضخمة العريضة لا تمكننا -برغم وفرتها- من رسم الصورة الواضحة البينة المعالم والحدود للطريقة التى كان الناشئ يتبعها، والسبيل التى كان يسلكها لنترسم خطاه فى أول مراحل التعليم: هل كان يبدأ بتعلم الحروف والاشارات، ثم يثنى ببناء المفردات من تلك الحروف والاشارات لينتهى من ذلك إلى بناء الجملة؟ أو كان يبدأ بالمفردات بما تحوى من حروف وبيناء الجملة فى آن معا، أم كانت هناك طريقة أخرى، لا هى هذه ولا تلك[١١]؟

نستطيع أن نقرر -مطمئنين- أن الناشئ كان ينفق وقتا طويلا فى التعرف على الصور والاشارات التى تسطر بها اللغة والتمرن على اتقان رسمها نظرا لصعوبتها وتعدد ألوانها التى تبلغ المئات، ذلك أن الهيروغليفية كانت تسطر فى مجموعة من الصور والرسوم متراصة فى صفوف أفقية تارة ورأسية تارة أخرى، ويبدأ تسطيرها من اليمين إلى اليسار غالبا ومن اليسار إلى اليمين حين يقتضى ذلك اتجاه ما يصاحبها من صور ورسوم. وقد يحدث أن تسطر من أعلى إلى أسفل. وليست هناك فواصل بين المفردات ولا بين الجمل كتلك التى نراها فى تسطير اللغات الحديثة.

وتنقسم الرسوم والصور الهيروغليفية إلى صوتية وحسية وحسية معنوية. ومن الصوتية ما لا يعدو النطق بصوت واحد، ومنها ما يؤدى إلى النطق بصوتين أو أكثر. ومما يزيد هذه اللغة صعوبة خلوها - كسائر اللغات السامية - من الحركات، ولذا حرص المصريون على

تحديد معانى المفردات بإشارات مخصصة تحدد المعنى أو تشير إليه، منها العام ومنها الخاص[١٢].

ولسنا نشك فى أن التلاميذ فى أيام الدولة الحديثة وما تلاها من عصور، وقد كانوا يلقون العنت فى سبيل تعلم الفصحى، ذلك لأنها فضلا عما ذكرنا من صعوبة رسم مفرداتها – قد كانت تخضع لقواعد لم يألفوها فى اللغة التى كانت سائدة فى أيامهم. وأكبر الظن أن الناشئ كان عليه أن يتعلم رسم الاشارات الهيروغليفية وتحديد الخط معتمدا فى ذلك على مشق يعد له، كذلك الذى عثر عليه (بترى) فى خرائب (تانيس)، والذى نتبين منه – برغم ما أصابه من عطب أنه كان يحتوى على الاشارات والصور مرتبة فى صفوف رأسية. فإذا ما انتهى التلميذ من تلك المرحلة أخذ فى رسم المفردات ومعرفة معانيها، وقد كانت تعد له كراسات تضم طوائف من تلك المفردات، فيها ما يعنى أعضاء الجسم، وفيها أسماء البلدان الأجنبية، والأعياد الدينية، وأكبر الظن أن تلك المرحلة الأخيرة كانت تقتضى من التلميذ أن يقوم بترجمة الجمل والمقطوعات من اللغة الفصيحة إلى اللغة السائدة الدارجة[١٣].

وقد كشف د. عبد العزيز صالح لنا مجموعات تمارين لتعلم الخط وهى[١٤]:

أ- مجموعة توافرت فيها الخاصة الرئيسية لدروس تجويد الخط، وهى خاصية التكرار، وهى تتكون من تمرينين، الأول لتلميذ صغير مبتدئ من عصر الرعامسة كتبه بالخط الهيراطيقى على لخفة صغيرة من الحجر الجيرى، أما التمرين الثانى فهو من أواخر الدولة القديمة، كتبته يد متمرنة على لوح خشبى مكسو بطبقة رقيقة من الجص ويتضمن عبارات متكررة بالخط الهيروغليقى، وإلى جانبها عدة رسوم، أى أنه يجمع بين الخط والرسم معا.

ب- مجموعة تجمع تمارينها بين الخطين الهيروغليفي والهيراطيقي، ومن أمثلتها خمسة تمارين من عصر الرعامسة ومن دير المدينة، وهي لتلاميذ من المرحلة التعليمية الأولى، ويدل على ذلك أن ثلاثة منها على الأقل اقتصرت على اقتباس عبارة أو عبارتين من مقدمات قطع أدبية، وأن النصائح الخلقية التي تضمنها المثال الثاني منها هي أقرب في اختصارها وفي استقلال كل منها بسطر إلى أن تناسب تلميذا مبتدئا[١٥].

جـ- وترجع المجموعة الثالثة إلى دير المدينة كذلك وإلى عصر الرعامسة، وتعتمد تمارينها على فقرات مختلفة من كتاب اشتهر في الدولة الوسطى وهو كتاب (الكمال).

د- ويتمثل الاهتمام بالخط في المجموعة الرابعة في كثرة التصويبات الخطية التي أجراها تلاميذ المرحلة المتقدمة في كراساتهم أو أجراها المعلمون لهم فوق الصفحات وبين السطور[١٦].

ومن الدروس التحريرية التي يتضح فيها قصد تعليم الهجاء، درس أتت به لخفة صغيرة من دير المدينة ترجع إلى عصر الرعامسة، وتكونت عبارات الدروس من أربع عشرة عبارة صيغت كل منها على هيئة اسم شخص ذي مدلول معين وكتبها التلميذ في سطور أفقية على نهرين[١٧]ومن هذا التمرين يتضح أن غرض الهجاء لم يحل دون أن يكون للدرس فوائد ذهنية وتعليمية أخرى، منها التعويد على نعت الإله بصفاته المناسبة، ولا يبعد إذ ذاك أن التلميذ كان يكلف بحفظ هذه النعوت السبعة حفظا آليا، ثم الجمع بين تجويد الخط وتجويد الهجاء معا عن طريق التكرار، ففي الدرس تكررت كلمة (رب=نب) وكلمة (عبد=باك) سبع مرات، وقد كانت الكلمتان تستعملان استعمالا واسعا

فى التخاطب وفى الكتابة، فالأولى كانت للتوقير ويعبر بها عن معانيها الأخرى التى منها الشمول ومنها التبعيض.

ولا يزيد المعروف حتى الآن من تمارين القواعد التى ترجع إلى العصور الفرعونية عن تمارين وجدت لخفة أحدهما فى طيبة، ووجدت لخفة الآخر فى أبيدوس، وقد كتب كلاهما بالخط الهيراطيقى ويرجعان معا إلى عصر الرعامسة، وذلك إلى جانب تمارين أخرى للقواعد من عصور متأخرة(١٨).

على أن ثمة أمرين يستوجبان الملاحظة، وهما كثرة الأخطاء النحوية فى التمارين الأدبية لتلاميذ عصر الرعامسة بالذات، ثم قلة تصويبات المعلمين عليها، وكثرة أخطاء التلاميذ يمكن أن ترد إلى أن أغلب ما كانوا يكلفون بكتابته كان من الأدب القديم المتميز عن لغتهم المعاصرة بأسلوبه وقواعده، أى أن صعوبة إتقان القواعد القديمة من ناحية، ثم غلبة التراكيب والقواعد المعاصرة على تفكيرهم من ناحية أخرى كانا يعملان معا على تعرضهم لكثرة الأخطار، يتضح ذلك من المقارنة بوجه عام بين الموضوعات التعليمية التى كتبت فى بداية عصر الأسرة الثامنة عشرة وبين نسخها الأخرى التى كتبت فى عصور الرعامسة، حيث تمتاز الأولى بالصحة فى أغلب أحوالها لسهولة فهم اللغة القديمة على تلاميذ عصرها.

أما التصويبات النحوية للمعلمين، فهذه وان كانت قليلة حقا بالنسبة إلى كثرة التصويبات الخطية، إلا أنها ليست بالندرة التى تصورها البعض(١٩).

٢- الأدب:

وكان على الدارس إذا ما انتهى من تعلم اللغة قراءة وكتابة، واطمأن المريد إلى حظه من الإلمام بقواعد اللغة، وإلى أنه أتقن الرسم والتسطير، أخذوا يمرنونه على النسخ، ليستوثقوا لأنفسهم من قدرته، فيتركونه ينسخ مختلف المقطوعات الأدبية منها القصير ومنها الطويل[٢٠].

تلك كانت طريقة المعلمين من أسلافنا فى تمرين تلاميذهم على تجويد الخط، وتقويم الأسلوب، والتعويد على الفصاحة، والبلاغة، يكتسبون كل ذلك من كثرة ما يقرأون وينقلون من تراث الماضى. ولقد نعجب حين نرى بين مخطوطات التلاميذ كثيرا من ألوان الأدب الكلاسيكى، وكان المنتظر أن يكون ما يقدم إليهم من الأدب المعاصر الذى يألفونه، حتى إذا أتقنوه وجودوا أساليبه مالوا إلى النظر فى القديم. ثم يزول عجبنا إذا نحن ذكرنا كيف كان أسلافنا يحبون القديم ويعشقونه ويحنون إليه ويؤمنون به إيمانهم بالمقدسات.

ولقد حرص المصريون القدماء -وبخاصة من كان يعمل منهم فى بلاط فرعون - على اجادة صنعة الكلام، إذ كان ينبغى أن يعرف رجال القصر متى وكيف يتكلمون فيحسنون القول، وأن يتقنوا أساليب القول، وأدب الحديث. وبين أيدينا أقوال الحكيم (أمنموبى) الذى عاش فى زمان الأسرة الثانية والعشرين، تصف لنا ما ينبغى أن يكون عليه المتحدث من ثقافة ليستطيع أن يجيب عما يسأل عنه، ثم ما ينبغى لمنشئ الرسالة ليكون قادرا على حسن تحريرها وإجادة توجيهها. وقصة الفلاح الفصيح التى ترجع إلى نهاية الألف الثالثة قبل مولد المسيح تدل بأسلوبها الرائع الأخاذ على قيمة الفصاحة عند آل فرعون، وحسبنا أن يعجب الحاكم بفصاحة الفلاح، ويؤخذ بأسلوب شكواه فيهمله متعمدا بغية الاستزادة من سماعه والاستمتاع بفصاحته[٢١].

وتلك الغلبة التى استأثرت بها الآداب القديمة (الكلاسيكية) فى دراسات الدولة الحديثة يحتمل أن يكون مبعثها ثقة المعلمين بها باعتبارها تراثا من تعبيرات راقية وتشبيهات مختارة وحكم سديدة ارتضاها الذوق والأدب العام فيما تقدمهم من عصور، وعلى هذا أدرجوها فيما أطلقوا عليه تعبير الأقوال المقدسة، تقديرا لها وتثبيتا، ثم اعتبروها أساسا لابد منه للناشئ المتأدب. ولا يخلو هذا التقدير من شبه مع تقدير عصورنا الحديثة لآداب العصور العربية والإسلامية الأولى، من حيث قيمها البيانية والبلاغية، ومن حيث أن ما من بليغ مستحدث فى اللغة يقوم على غير أساس من التراث القديم، ثم من حيث هى تمثل الآداب القومية الخالصة قليلة التأثر بالاتجاهات والأفكار الأجنبية. ولم يكن تعلق الأدباء والمعلمين المصريين بأساليب الأسلاف وحكمتهم قاصرا فى واقع أمره على الدولة الحديثة وحدها، وانما كان شأن أهل الفكر فى الأجيال السابقة لها، تشهد بذلك تعاليم بتاح حوتب، حين استأذن فرعونه أن يعلم ولده "أقوال المتفقهين، وآراء السابقين الذين أطاعوا الأرباب وأخلصوا للأسلاف"- وحين قال عن أولئك الأسلاف "ان صوابهم هو (سر) مجدهم، ولن تزول ذكراهم من أفواه الناس بما كان عليه جمال حكمتهم وعلى الإنسان أن يتداول أقوالهم كلها، ... ولن تزول من هذه الدنيا إطلاقا". كما تشهد به تعاليم خيتى ملك أهناسيا حين تحدث إلى ولده عن أسلافه قائلا له: "وراع أن أقوالهم خالدة فى الكتب فافتحها واقرأ حتى تبلغ الحكمة فبذلك يصلح المفن متقفا"(٢٢).

ولا شك أن مصر أول بلد ربى فى نفوس أبنائه روحا أدبية خالصة للأدب، مجردة عن أى غرض آخر، فقد وضع المصرى المقتطفات الأدبية البحتة منذ سنة ٢٠٠٠ ق.م لا يريد بها شهرة سياسية أو تأييدا دينيا أو نفعا تجاريا، وانما يريد الأدب لذاته، يريد غذاء الروح واشباع النفس الصافية بسمو التعبير وعلو المعنى.وكانت قدم مصر السباقة فى

هذا المضمار، فلم يظهر الأدب العبرى إلا وليدا بعد اثنى عشر قرنا من ذلك التاريخ، والأدب البابلى كان يترنح فلم يكن انتاجه مظهرا خالصا للأدب ولا قصد به خدمة الأدب حبا فى الأدب كما كان الشأن فى مصر، فإن الأدب أريد به فيها ذلك الذى يحدث فى نفس قارئه وسامعه لذة فنية كالتى يحسها إذا استمع إلى شدو الشادى أو أذا رأى الصورة الجميلة وتحسس التمثال البديع[٢٣].

ويمتد الأدب المصرى القديم على طول مرحلة تاريخه تبدأ منذ خمسة آلاف سنة وتستمر حتى بداية انتشار المسيحية فى مصر، نقش على الحجر وكتب على البردى، وجاء شعرا ونثرا، أسطورة وتقريرا واقعيا، تسبيحا للآلهة وشكا فى عالمهم. ومن حيث التسلسل التاريخى يمكن اعتبار (متون الأهرامات) أقدم الأعمال الأدبية التى خطها قدماء المصريين أيام الدولة القديمة، اختلطت فيها الأسطورة بالتعاليم والأغانى الدينية فى محاولة لبعث الملوك إلى عالم السماء، واللغة والشعر والقدرة على فهم النص فى أحيان كثيرة صعبة، وتعتبر (متون التوابيت) و(كتاب الموتى) فى المراحل اللاحقة، الامتداد الطبيعى لهذا النمط من التعبير[٢٤].

وتتميز الدولة القديمة بنمط آخر من الكتابة الأدبية وهو أدب الحكمة الذى يرسى قواعد السلوك ويحدد القيم الخلقية التى يجب أن يتحلى بها الرجل الكامل وأكمل هذه الأعمال تعاليم بتاح حوتب.

وهناك أيضا لون من الكتابة الأدبية تميزت به مقابر النبلاء والقادة، إذ سطروا لمحات من تاريخ حياتهم وأعمالهم وغزواتهم ليتذكرهم القادمون بعدهم، وهى أشبه بالمذكرات التى تحوى شيئا من حياة أصحابها.

ثم هناك الحكايات التى كانت تصور حياة بعض ملوك الدولة القديمة وما يجرى فى بلاطهم، والسحرة الذين يصنعون المعجزات فى أسلوب شيق، وقد دونت هذه الحكايات فى فترة لاحقة، وإن كان أبطالها ينتمون إلى الدولة القديمة.

ومع تدهور الدولة القديمة وبداية مرحلة الصراع الاجتماعى ضاعت فيها المركزية وسيطرة الملكية الطاغية، وتميزت بالبحث عن لون من ألوان العدالة الاجتماعية، برزت إلى الوجود أعمال أدبية فيها لون من الاحتجاج على الظلم الاجتماعى أو الشك فى وجود العالم الآخر والقيم الدينية وتعددت أنماط التعبير من قصة مثل (شكوى الفلاح الفصيح) إلى حواريات مثل (الرجل الذى تعب من حياته)، إلى أشياء مثل أغانى عازفى القيثارة. وهذا لم يمنع من ظهور أعمال تتحسر على تبدل الأحوال حيث يتعذب النبلاء ويسعد الفقراء.

ومع بداية الدولة الوسطى وعودة الملكية شهدنا عملا قصصيا فيه طابع السيرة الشخصية: (سنوحى)، وان كان يضرب على أوتار كثيرة: التمرد، الاغتراب، البطولة، والمصالحة ثمنا للعودة إلى الوطن.

لقد انتشرت الأغانى الدينية، وتميز أدب الحكمة بالتوجه من ملك إلى ابنه ينصحه بأشياء كثيرة منها العدل واليقظة وعدم الثقة فيمن حوله، وهى تعكس محاولة الملكية فى مرحلتها الثانية أن تتلمس طريقها فى حذر وليونة حتى تحكم قبضتها من جديد.

ثم تأتى مرحلة انهيار الدولة الوسطى وسيطرة الهكسوس، ومن جاء بعدهم من ملوك ضعاف حتى تم التحرير من الهكسوس وبناء الدولة الحديثة وفيها تجاوزت مصر حدودها وغزت جيوشها بعض ممالك الشرق الأوسط، ثم انحسر كل هذا ليحكم مصر ملوك من الجنوب أو

الغرب أو تصارع القوى الزاحفة عليها، وأخيرا سقطت فريسة الفرس واليونان والرومان، وعكس أدب الدولة الحديثة كل تقلبات هذه الفترة سواء فى المجال العسكرى أو الدينى أو الاجتماعى[٢٥].

أما من حيث الأسلوب فقد كان الأسلوب الجميل موضع فخر الكاتب ومحل تقدير القارئ جاء فى بردية عن أمثال (بتاح حوتب): "أنها الأقوال التى صيغت فى أسلوب جميل، والتى تحدث بها الوزير عندما كان يثقف بالمعرفة ويعلم مبادئ الحديث الطريف". وجاء فى ورقة (نفررهو) على لسان الملك (سنفرو) يخاطب حاشيته "إيتو لى بإنسان يروح عن نفسى بكلمات جميلة وأقوال مختارة تجد فى سماعها جلالتى تسلية وراحة". واذا قرأنا "قصة الفلاح الفصيح" التى كتبت قبل عام ٢٠٠٠ ق.م وجدناها سلسلة من الأفكار السامية عن العدالة وحقوق الإنسان صيغت بأسلوب قوى بليغ بدا منه أن كاتبها أراد أن يظهر قدرتها الفنية على جمال الصياغة وروعة الأسلوب. وهذه الظاهرة التى تجعل عذوبة الأسلوب هدفا يرمى إليه الكاتب كانت بارزة واضحة فى مصر مطمورة منعدمة فى (بابل) جارتها ومعاصرتها، فلا جرم أن كانت مصر أول أمة شغفت بالثقافة الأدبية وعنها أخذ العالم[٢٦].

والأسلوب الذى يهدف إليه المصرى هو الأسلوب العذب الذى لا تكلف فيه والذى توجبه السليقة فينساب فى النفوس وترتاح إليه الأسماع، ولابد أن يكون مناسبا للموضع الذى يعالجه، فيقوى ويشتد فى الجلى وعظائم الأمور، ويرق فى التعبير عن العواطف أو الترجمة عن مكنونات الفؤاد. ولكن هذا الأسلوب الجميل قد دخلت عليه الصنعة بمرور الأيام فأفقدته روعته وعذوبته وأصابه التكلف والزخرفة واللفظية وأصبح الأديب يضحى بالمعنى السامى فى سبيل تزويق الألفاظ كما حدث للغة العربية فى العصر العباسى الثانى.

ولقد بدأ هذا الفساد يدب فى الأدب المصرى منذ الدولة الوسطى، وتظهر بوادر ذلك فى قضية (سنوهى). ولقد تعلق المصرى بهذا الأسلوب وأشرب قلبه حبه حتى أن التلاميذ فى الدولة الحديثة وبخاصة عصر الأسرة التاسعة عشرة والعشرين ملئوا كراساتهم نماذج منه يستظهرونها ويأخذون أنفسهم بمحاكاتها حتى يصلوا إلى ملكة تقدرهم على الإبانة عما فى ضمائرهم بهذا النوع المزخرف المحبب إلى أنفسهم.

ولم يكن فى مصر قانون أخلاقى، ولكن مجرد تجارب أناس يتسمون بالأمانة، اكتسبت خلال أجيال، وتناقلها الأبناء عن الآباء كتراث ثمين، فنرى مثلا الوزير بتاح حوتب، وقد طعن فى السن يبدى رغبته فى (صنع عكاز الشيخوخة)، ثم يعلن هذه الأمنية: "فليشغل ابنى مكانى لأكرر على مسامعه أقوال من أنصتوا، ونصائح من عاشوا فى سالف الزمان".

كان هدف أدب (التعاليم) و(الحكم)، وهو ذلك النوع الأدبى الذى ظل مزدهرا طوال تاريخ مصر، هو نقل التراث الروحى الذى تجمع شيئا فشيئا: التقاليد، وقواعد الحياة الشخصية والاجتماعية من جيل إلى جيل[٢٧].

وتتراوح النصائح المقدمة ما بين أصول اللياقة إلى أصول السلوك تجاه الله:

النصائح المادية: آداب المائدة (النظر إلى ما هو أمام الإنسان وليس إلى ما فى طبق المضيف، والحديث فقط عندما يوجه إليه سؤال، والضحك عندما يضحك المضيف حتى يبدو المرء لطيفا، الخ، وتجنب الإفراط فى الأكل والإسراف فى الشراب الذى يفقد المرء وعيه، وعدم الجلوس عندما يكون أحد المسنين واقفا ...) تلك هى القواعد العملية

للسلوك المهذب التى نجدها هنا وهناك في هذه المعالجات الأخلاقية، وان لم تشكل المضمون الأساسى لها، فالواقع أن هذه المعالجات تعنى فى المقام الأول بالسلوك الداخلى للإنسان.

ان الخصال الشخصية للإنسان التى تضمن له حياة لائقة وسعيدة تكمن فى الاتزان واحترام الآخرين، وضبط النفس هو من أهم هذه الخصال لأنه يسمح بإعمال العقل والفكر: "إذا كان قلبك جادا فاكبح جماحه، فالرجل الهادئ يتغلب على كل العقبات، ابتعد -فى كل شئ- عن الإسراف"- بتاح حوتب.

"لا تترك لسانك يوجه الدفة. فإذا كان لسان المرء سُكّانه، فإن سيد كل الوجود، الله، هو ربانه" فى أمنموبى[٢٨].

وان الشهامة والبرّ هما مكملان طبيعيان للحاجة إلى التوازن العادل الذى يشهد أيضا على احترام الآخرين وحب الأقرباء:

"إذا كنت تحرث، وهناك حصاد كاف من حقلك وأعطاك الله بسخاء، فلا تملأ فمك دون أن تفكر فى الآخرين". بتاح حوتب.

ولقد أدرك الملوك والكهان حب المصريين للقصة واقبالهم عليها وتأثرهم بها فكان أن استخدموها فى التربية الدينية والسياسية، وفى توجيه عواطف الناس وأفكارهم إلى بعض مذاهب الدين أو اتجاهات السياسة، فكانوا يستغلون شغف الناس بالقصة فيتحدثون إليهم بالقصة التى تثير الشغف والانصات، وهم فى أثناء ذلك يبثون فى تضاعيفها ما شاءوا من القيم والمفاهيم ويوحون للناس بما يجرون على ألسنة أبطالها من الأفكار والاتجاهات[٢٩].

ولعل قصة الفلاح الفصيح من أبرز الأمثلة الدالة على دور الأدب فى تربية الناس، فهذا (أخنوم أنوب) فلاح وادى النطرون، بطل القصة يصرخ فى وجه أميره: أيها السمير الكبير، يا سيدى. يا أعظم العظماء، انظر. لقد ضلت العدالة تحتك. الموظفون يقترفون الاثم، والأحكام جائرة ومن كان عليه القسمة العادلة يسرق، ومن كان عليه القضاء على الخطيئة يقترف هو نفسه الاثم ... أنت يا أعلم الناس، هل تظل جاهلا بأمرى؟ ان سلة من الفاكهة تفسد قضاتك"[٣٠].

ويستمر صراخ الفلاح الفصيح فى وجه صاحب السلطة: ".. ان أملاك الفقير أنفاسه. ومن أخذها كتم أنفاسه. لقد عينت لتسمع الشكايات وتفصل بين الخصوم وتقضى على اللصوص .. لقد وضع الناس فيك ثقتهم، فأصبحت معتديا وانما أقمت سدا منيعا للفقير تحميه من الغرق، ولكنك كنت عليه سيلا عارما".

والقصة فى طابعها الانسانى العام هى قصة صراع الفلاحين فى مواجهة السلطة، قصة الذئب والحمل فى طابعها الذى يجرى مع الحياة كجرى الليل والنهار. أن القصة تنشأ مما لا يتوقع المرء من قروى مسكين لم يكن يملك من قوته إلا ما تركه لهم من الكفاف. ان فلاح وادى النطرون لا يستسلم لعنف السلطة، انه يقاوم بطريقته الخاصة .. لقد طفق يشكو ويجأر بالدعاء .. واضعا فى السمير الأكبر كل آماله وعندما لم يستجب، إذا بالقروى الضعيف يكشف عن جرأته وشجاعته فى مخاطبة الحاكم، انه ينبس من خلال المظالم التى تقدمها عوامل الفوضى وبذور الاضطراب الاجتماعى فى عصره.

ان الذى يقلق أخنوم أبنوب ويعذبه أكثر من قصة القروى الفصيح ليس أن واحدا من خدام السلطة قد اغتصب حماريه عنده، انهم يريدون أن يصادروا حقه فى الشكوى، حقه فى أن يعبر عن مظلمته، حريته

فى التعبير. هذا الوعى الناضج، هذا الاحساس بأهمية التعبير الحر، والكلمة الحرة يتدفق على لسان أخنوم، وهو يخاطب مغتصبه: "أتضربنى وتسرق متاعى، ثم تريد الآن أن تنزع الشكاة من فمى"!!

وهناك (نشيد النيل) الذى تغنى فيه المصريون بفضل النيل عليهم[٣١]: "سلام عليك .. يامن تخرج إلى هذه الأرض وتأتى لتحيى مصر .. انك اللجة تنتشر على الحقول التى يخلقها رع. انك تعطى الحياة جميع الظمآنين .. أننى يامن إذا أضربت عن العمل أصابعه، أو مرض وقع ملايين من الناس فى البؤس وإذا قل ماؤه فى السماء هلكت الآلهة نفسها، وهلك الناس، واستولى الذعر على المواشى وصار كل من فى الأرض كبيرا أو صغيرا يعانى العذاب ... هو النيل جالب الخيرات ومفيض الكثير من المأكولات. هو موجد جميع الأشياء الطيبة. هو سيد جميع النطف والجراثيم. هو حلو للذين يصطفيهم. هو موجد العلف للمواشى، والقرابين لجميع الآلهة .. وإنه لينبض على البلدين (وجه قبلى –وجه بحرى) فتمتلئ مخازن الحبوب وتزدحم المستودعات – وتتوافر حاجات الفقراء .."

وكان ثمة ترابط وتلازم فى عصر الرعامسة بين ثلاثة موضوعات أدبية بعينها، وهى تعاليم خيتى بن دواوف وتعاليم أمنمحات الأول ونشيد النيل، وأن هذا التلازم بين الموضوعات الأدبية الثلاثة يدعو إلى الاعتقاد بأنه كان ثمة منهاج أو تقليد تعليمى قديم توارثته مدرسة عن مدرسة وتعلمه مدرس عن مدرس فعلمه لتلاميذه كما تعلمه، وعن هذا السبيل كتب لآداب العصور القديمة الدوام. ويمكن تتبع تلازم تلك القطع الأدبية الثلاث من أوائل عصر الأسرة الثامنة عشرة، مما يدعو إلى الظن بأنها كانت متلازمة كذلك فى مدارس الدولة الوسطى وموروثة عنها[٣٢].

وفى رأى د. عبد العزيز صالح -وهو رأى نرجحه- أن أساس الجمع بين هذه الموضوعات الثلاثة منذ أوائل الدولة الحديثة أو منذ عصور الدولة الوسطى، كان هو التنوع وليس التجانس كما ظن باحثون أخر، التنوع فى الصياغة وفى الأهداف، والتنوع فيما يمكن أن يستفيده الدارس من دراستها، فبالرغم من انتمائها جميعها إلى عهود متقاربة، إلا أن كلا منها يمثل موضوعا خاصا ويسلك اتجاهه المتميز، فتعاليم خيتى التى دارت حول الترغيب فى حياة العلم وفى مستقبل الكاتب، غير تعاليم أمنمحات الأول التى تناولت سير الملوك وأحداث الدهور الخالية. وتعاليم خيتى التى كانت كفيلة بإثارة زهو المتعلم من خلال وصفها لحرف الأميين ومتاعبهم، غير تعاليم أمنمحات التى كانت أميل إلى أن تدعو إلى التطبع بالحذر عن طريق وصفها لصنوف من طباع الناس وأطماعهم. وأسلوب خيتى بأوصافه وتعبيراته الشعبية والذى كان يمكن أن يعود المتأدب على يسر التعبير والوصف المرسل البسيط، غير أسلوب أمنمحات المتميز بأمثاله وتعبيراته المنتقاة.

ثم هناك الموضع الأخير فى هذه المجموعة الثلاثية وهو نشيد النيل، واختياره لم يكن يكفل التنوع من حيث أنه صيغ شعرا فى حين صيغ الموضوعان الأخران نثرا فحسب، بل أنه يتميز كذلك بأنه يتناول جود الطبيعة ونعم الآلهة،ويمكن أن يغرس فى ذهن الدارس الشكر وعرفان الجميل، وهى نواح لم يتعرض لها الموضوعان السابقان. ويمتاز نشيد النيل فضلا عن ذلك بأنه أليق لدراسة التلاميذ مما عداه من أناشيد الآلهة، إذ هو أقلها تأثرا بأسرار الديانة وأخيلة الكهنة كما أنه أقربها إلى عالم الحس والواقع والمنطق[٣٣].

وشارك المعلمون والأدباء المحترفون الآباء المثقفين فى تعاليم الحكمة والتهذيب، وكان أكثرهم حديثا معلمو وأدباء عصر الرعامسة. وقد أراد أحدهم أن يزكى النخوة والنجدة فى نفس تلميذه وقارئه، فقال

له: "إذا رجاك يتيم مسكين اضطهده آخر وود هلاكه، فسارع إليه وقدم المعونة إليه. اجعل نفسك منقذا له، فمن أعانه ربه حق عليه أن يعين كثيرين غيره .." وقال: حرر غيرك ان وجدته رهين القيد، وكن حاميا للضعيف، فلقد قيل ان الحسنى لمن لا يدعى الجهل بآلام غيره" .. وقال: "أيا ما كانت خبرتك بالكتب وكنت متعمقا فى التعاليم ..، فعليك أن تحترم الغير حتى تحترم، وأحب الناس بحبك الناس، ولا تبالغ فى أحاديثك"[٣٤].

٣- الطب:

يلاحظ الدارس للطقوس الدينية للدفن فى عصر ما قبل الأسرات أن المصريين كانوا أحيانا يشرحون الأجسام الآدمية وينتزعون ما عليها من لحم ثم يلفون العظام بكل دقة وعناية ويضعونها فى المقابر، وفى هذا دليل على أن المصرى كان منذ الأزمان المتوغلة فى القدم يعرف تشريح الجسم وفصل أجزائه المختلفة بعضها عن بعض[٣٥].

وفى العصر الطينى نرى المصرى يحنط الجسم منذ الأسرة الثانية، وهذا دليل آخر نعلم منه أن المصرى كان يعرف تشريح الجسم ومعالجته ظاهرا وباطنا، وإن كان بعض العلماء يعتقدون أن المحنطين كانوا طبقة خاصة غير طبقة الأطباء. وعلى أية حال فإن المصرى منذ فجر التاريخ كانت عنده فكرة واضحة عن الأمراض وأسبابها وطبائعها.

ولا شك فى أن علم الطب قد اكتسب فى مصر أولا بالتجارب والملاحظات ثم تلا هذا الدور تعليم فن الطب الحقيقى فى مدارس خاصة، ولا غرابة فى ذلك فقد كان الأغريق يشيدون بذكر الأطباء المصريين ويتناقلون كتب طبهم ويحفظونها ليهتدوا بهديها[٣٦].

وقد بدأت المعرفة الطبية فى التكوين لدى المصريين عن الخواص العلاجية وتأثيراتها الطبية لمختلف أنواع الأعشاب الطبية، نتيجة تلقين الأب العارف لكل هذه الخواص لأبنائه فى المنزل لكى يتمكنوا من مواصلة مهنته من بعده، وكانت بعض العائلات الشهيرة تحتكر هذه المهنة بسرية تامة، والذين نجحوا فى علاج المرضى مستخدين كافة أنواع العقاقير من نباتية وحيوانية ومعدنية مع تلاوة بعض العزائم والأدعية السحرية وتحضير بعض التمائم لإعطائها للمرضى لكى يثبتوها فى ملابسهم لاتقاء شر بعض الأرواح الخبيثة، وبذلك أصبحت هذه المنازل بمثابة المدارس الأولية لتعليم الأبناء والأقارب أسس الصيدلة والطب وعلومها، وكذلك تحضير الوصفات الطبية المختلفة وأسس القراءة والكتابة[٣٧].

وبمرور السنين، وخاصة بعد أن أصبحت القراءة والكتابة ميسورة للبعض مما أتاح للأطباء العشابين فرصة تدوين ما يعرفونه على ورق البردى، ثم حصول كهنة معبد مدينة آنو المقدسة (هليوبوليس) على هذه المعارف ومحاولة احتكارها وحجبها عن الآخرين وخاصة بعد وضع كتاب (الشعلة)، زاد اهتمام المصريين بالعلوم الطبية والصيدلية، ورغبوا فى تعلم المزيد منها فأجبروا الكهنة على ازاحة الستار عن هذه المعلومات المهمة الموجودة فى الكتاب بطريقة مبسطة لكى يفهمها الجميع فى كل المعابد. وبالتدريج أنشأ كهنة المعابد مدارس لتعليم المهن الطبية والصيدلية ومستشفيات خاصة بها لعلاج المرضى وصرف الأدوية اللازمة لهم وهذه المدارس كانت تتركز خاصة فى المعابد الرئيسية الكبيرة فى عواصم أقاليم مصر كلها وقام بالتدريس فى هذه المدارس كهنة متخصصون وذوو تعليم طبى سابق. وبالتدريج قام هؤلاء العلماء بتدريس كل العلوم المعروفة فى ذلك الوقت وأصبحت هذه المعابد بمثابة جامعات وأكاديميات عصرنا الحديث[٣٨].

وكانت الدراسة والتعليم فى هذه المعابد تمتد لعدة سنوات، وكان على الطلبة أن يحصلوا على تعليم أولى عن المبادئ الأساسية للعلوم ثم يختار أساتذتهم أكثر الطلبة ذكاء لكى يسمحوا لهم بمتابعة دراستهم العليا، وهذا النظام كان يتكرر فى كل مرحلة من مراحل التعليم. وفى نهاية مرحلة التعليم العالى فإن الذين يجتازون اختباراتها بنجاح، فإن المسئولين عن هذه المعاهد يحتفلون بهذه المناسبة بإقامة حفل تخريج لهذه الدفعة فى أكثر الأماكن قداسة فى المعبد حيث يحضره الأساتذة وكبار المسئولين فى الحكومة والخريجون الذين يرتدون ملابس خاصة بهذه المناسبة، ثم يقسمون قسما مقدسا يحوى ما يجب عليهم عمله نحو المرضى من مساعدتهم بكل ما فى وسعهم من علم وأن يعالجوا المرضى الفقراء بلا مقابل، وأن يحسنوا معاملة الجميع وعدم إفشاء أسرار المرضى، وهذا القسم كان يسمى قسم تحوت، وهو أصل ما عرف باسم قسم أبقراط فيما بعد عند الأغريق[٣٩].

وكان خريجو هذه المدارس الطبية والصيدلية يرغمون على قضاء مدة معينة بعد تخرجهم للعمل مجانا فى هذه المعابد ومستشفياتها كوفاء لما فعلته معهم من تعليم وتثقيف ثم يسمح لهم بمزاولة المهنة بكل حرية.

وقد أنشأ كل معبد عيادة خارجية ملحقة بالمستشفى الداخلى وكذلك بمدرستى الطب والصيدلة يجرى فيها الكشف على المرضى بالمجان ويصرف لهم الدواء بالمجان أيضا من الصيدلة الملحقة بالعيادة، وهذه الصيدلية كانت تحوى جميع الأدوية والعقاقير اللازمة فى تحضير مختلف أنواع الوصفات الطبية لعلاج المرضى، وكذلك كان بكل معبد حديقة نباتية كبيرة ملحقة به ويزرع بها كافة الأعشاب الطبية التى تدخل فى تركيب الوصفات الطبية ويقوم على العناية بهذه الحديقة صيادلة ذوو خبرة طويلة فى زراعة الأعشاب الطبية وجنيها وحفظها

ثم تنتقل إلى المعامل الملحقـة بهذه الحديقـة أو المزرعـة والتـى تحـوى كافة الآلات والأجهزة المعملية على أحدث الطرق والقواعد التى كـانت سائدة فى تلك العصور، ثم يقوم صيادلة متخصصون فى تحضير كافـة الخلاصات من هذه الأعشاب لكى تدخـل فـى تحضـير مختلـف الأدويـة والتركيبات الصيدلية، ويمكن التحقق من ذلك بزيارة معبد كوم امبو فى الوجه القبلى(٤٠).

ومن قوانينهم أن لا يرشح للمدرسة الطبية من الشـبان وغـيرهم إلا من يكون كثير الصمت شهيرا بالثبات والحلم وأديت له عمليـة الختـان، وأن يكونوا بعد تلقى الدروس وتلقينها فى أماكن التعبد خلف المحـاريب والهياكل حتى لا تدنـس نفوسـهم بمخالفـة السـفهاء فيعرضـهم ذلـك إلـى النقائض. وإذا ارتكب أحدهم هفوة تمس شهرته الأدبية وكرامة انتسـابه إلى هذه المعاهد السامية يغلظ له فى العقـاب (وقـد يـؤول إلـى الإعدام) أملا فى أن لا يلتحـق بهـا إلا المتصفـون بالفضيلـة الصادقـة والأخـلاق المهذبة ليحسن الأخذ عنهم بالتقوى والورع لأن الأطباء أمناء مـن قبـل الخالق على حياة الأمم، فلا تكون أرواحهم ألعوبـة فـى أيـدى أشـخاص غير أمناء لم يزينوا علومهم بالاستقامة النفيسة(٤١).

ولم يكن للتعليـم أمـد محـدود مـن السنين، بـل كـان التلاميـذ يتلقـون المبادئ الدراسية فى بضع شهور، ثم ينتقى الأساتذة الأكـثر نجابـة إلـى فـرق أخـرى يمتـازون بهـا وينتمـون مـن هـذه الفـرق الممتـازة طبقـات للأرقى، وهكذا حتى لا يحرم التلميذ النابغ من ثمرات التفوق ومميـزات الفطنة.

وكان لكل مستشفى كلية خاصة بكل ما يسـتطـاع ايجـاده مـن الفنـون العامة، وأخصها ما يتعلق بالطب ليسـتعين بهـا كبـار الأسـاتذة فـى حـل المسـائل الغامضـة التـى تمـر عليهـم وقـت العمـل. وبعـد المراجعـة

وتمحيص البحث يدون المكلف به حقيقة ما استنتجه فى كل حادثة على حدتها ليكون ذلك بمثابة ملاحق تكميلية يرجع إليها أيضا فى مثل هذه الأحوال، وهكذا كان كل جيل يؤدى فى أدواره خدما علمية جليلة لفائدة بنى الإنسان فى الأجيال القادمة.

والكتب الممتازة بالأهمية والاعتبار كانت تجعل فى خزانة منفردة بمكان محفور فى المبانى، وكثيرا ما وجدت الاكتشافات بالمكاتب التى كانت مشيدة فى العصور الأولى أوراق عديدة من البردى مكتوب عليها فصول ذات فائدة فى علوم متنوعة تدل على حرص القوم واجتهادهم فى تدوين المباحث وترقية المعارف جهدا استطاعتهم(٤٢).

وقد أمكن الكشف عن عدد كبير من البرديات فى الطب والجراحة، وهى موزعة الآن فى كثير من متاحف العالم وخاصة فى برلين وليبزج وباريس وروما ولندن ونيويورك. وعلى الرغم من أن خطها يدل على أنها من الدولة الوسطى أو الحديثة، إلا أن منها ما تدل لغته على أنها أقدم من ذلك، ومن هذه البرديات ما يشتمل على أبحاث طبية، ومنها ما يحتوى على مجموعة من الوصفات المشهورة، وأهمها جميعا بردية "أدون سمث" فى نيويورك وتدل لغتها على أنها من الدولة القديمة. وفى متحف الجامعة فى ليبزج فى ألمانيا "بردية(ايبرس)، وهى أكبر بردية من نوعها، ويدل خطها على أنها من بداية الأسرة الثامنة عشرة، ولكن لغتها وقرائن أخرى تدل على أنها منسوخة من برديات أخرى أقدم عهدا(٤٣).

وتدل بردية (إدون سمث) فى أكثر أجزائها على عناية ملحوظة بالناحية العلمية وبالمعرفة فى حد ذاتها دون الاقتصار على الناحية العلمية، وذلك بحرصها على ترتيب أبحاثها، وبأسلوبها العلمى الدقيق، وهى خاصة بالجروح وكسور العظام فى مختلف أجزاء الجسم، ولقد

عنيت بذكر اسم كل حالة، ووصف أعراضها الظاهرة، وتشخيصها بدقة، والرأى الطبى فيها، وطريقة علاجها، وذلك فى لغة مختصرة وتعبيرات دقيقة للتمييز بين الحالات المختلفة. ويقتصر العلاج على الراحة والغذاء والدواء، وفى الحالات التى كان يشك فى شفائها، كان يوصى بملاحظة العلة وتدرجها، دون أن ينسب استعصاؤها على الشفاء إلى أى عامل خارجى من سحر أو قوة خارجية، مما ينم عن روح علمية صحيحة. وهى بهذا تدل على أن الدولة القديمة لم تنقصها الأبحاث العلمية الصحيحة بما يتفق مع ما كان لها من أعمال جليلة فى الدين والفنون والصناعات المختلفة. وقد دل فحص بعض المومياء فى العصور التالية على أن المصريين كانوا يحسنون حقا علاج الكسر فى العظام.

وتدل النقوش المصرية من عهد الدولة القديمة على أنه كان فى مصر أطباء من كل نوع فى درجات مختلفة، فقد كشف عن مقابر أطباء فى منطقة الجيزة بحفائر الأستاذ (ينكر) وحفائر جامعة القاهرة نخص بالذكر من بينهم طبيب القصر الملكى (إرى) ولم يكن (إرى) هذا طبيب القصر الملكى فحسب، بل كان رئيس أطباء البلاط، يضاف إلى ذلك أنه كان متخصصا فى مرض العين والأمراض الباطنية، ولذلك كان يحمل لقب (الذى يفهم السوائل الداخلية وحارس الدبر)، مما يدل دلالة واضحة على أنه كان متخصصا بالطب الباطنى وعالما بالأمراض الخاصة بأعضاء الهضم[٤٤]. وهذا الاختصاص فى عهد الدولة القديمة يعززه وجود أطباء أسنان للقصر الملكى. والواقع أنه عثر فى عهد الأسرة الرابعة على حالة تدل على تقدم جراحة طب الأسنان فى ذلك العهد، أى منذ ٢٨٠٠ سنة ق. م.

وتدل النقوش على أن وظيفة الطبيب كان يتناقلها الابن عن الأب كباقى الصناعات فى مصر فى ذلك العهد.

كذلك تدل النقوش التى وصلت إلينا على أن أقدم كتاب فى الطب يرجع تاريخه إلى عصر الملك (أوسافيس) (دن) من الأسرة الأولى كما جاء ذكر ذلك فى قائمة ورقة (إيبرس)، (أول كتاب خاص بشفاء الأمراض هو الذى وجد بالكتابة القديمة فى صندوق من عهد الملك "أوسافيس")، وتوجد من جهة أخرى وثيقة من الدولة القديمة تدل دلالة واضحة على أن الملك "نفر إركارع" قد أحضر المخطوطات الطبية من مكانها الخاص لإسعاف مهندسه العظيم الذى كان يحتضر. وعلى ذلك يمكننا القول بأنه كانت توجد كتب طبية منذ بداية الأسرة الخامسة (منذ ٢٨٠٠ ق.م)، ولكن لم يصلنا منها شئ بخط اليد[٤٠].

ومن أشهر المعابد التى حوت مدرسة للطب، معبد آنو (هيليوبوليس) بالمطرية، من ضواحى القاهرة، وكان هذا المعبد يعد أقدم وأشهر المعابد المصرية والمعروف لجميع البلدان المحيطة بمصر والبحر المتوسط وذلك للمستوى العالى الممتاز فى الدراسة والتثقيف لعديد من العلوم، وكان الطلبة فى مصر والخارج يعملون جهدهم للالتحاق بهذا المعبد والذى يعتقد أنه أنشئ قبل سنة ٤٠٠٠ ق.م بقرون طويلة[٤١].

وهذا المعبد، وبخاصة مدرسته الشهيرة للعشابين كانت مشهورة بالمستوى التعليمى لخريجيها بحيث يكفى الخريج أن يقول أنه قد تعلم فى جامعة معبد آنو لكى ينال احترام الجميع. أما مدرستها الطبية، فكانت تدرس خلال السنتين الأوليين معلومات طبية عامة، فى حين أنها خلال السنوات اللاحقة كان الطلبة يلحقون فى مختلف الأقسام التخصصية الطبية مثل الطب الباطنى أو طب العيون، أو أمراض الجلد أو الجراحة أو طب الأسنان وغيرها.

وكانت مدرسة العشابين تدرس لطلبتها فى تحضير الأدوية والعقاقير والمستحضرات الصيدلية المختلفة من النباتات والمعادن والحيوانات مع

الاهتمام الخاص بطريقة زراعة الأعشاب الطبية ونموها وحفظها وغيرها.

ومن المعابد الشهيرة أيضا والتى تعلم فيها فلاسفة الأغريق والرومان، معبد ممفيس فى مدينة منف (جنوب القاهرة وحاليا البدرشين وسقاره) والتى أصبحت عاصمة مصر الموحدة فى عام ٣٢٠٠ ق.م وهذا المعبد أنشئ فى عهد الدولة القديمة سنة ٢٨٠٠ ق.م. وكان المعبد يحوى مدرسة شهيرة للصيدلة وأخرى للطب (والأخيرة كان من طلبتها الطبيب الشهير أمحوتب والذى أصبح بعد ذلك أحد أساتذتها ثم رئيس المعبد كله والرئيس الأعلى للكهنة والذى سمى المعبد بعد وفاته باسم معبد أمحوتب)، وكان يحوى مكتبة ضخمة بها مراجع وكتب مهمة فى علوم شتى. كذلك كان بالمعبد معبد صغير آخر لعلاج الأمراض وعلاجها بالطرق النفسية معتمدا على العلاج بالموسيقى وبعض الأعشاب الطبية المهدئة[٤٧].

وقد استطاع المصريون تشخيص بعض الأمراض وعلاجها بالطرق العلمية التى كانت متاحة لهم فى ذلك الوقت، كما ذكروا وصفا تفصيليا لبعض الأمراض، ولكنهم فشلوا فى علاجها فكانوا ينسبوها لفعل الأرواح الشريرة، وهناك أمراض لم يعرفوها لكنها تركت آثارا واضحة على الموميات المحنطة فاستطاع بذلك بعض الأطباء المعاصرين أن يشخصوها.

وقد تعرف المصريون على أصداع نصف الرأس، Migrain، وقد نقل الإسم الأوربى عن اليونانية التى نقلته عن الهيروغلفية، كما عرف المصريون نوعا من الحمى المصحوبة بطفح جلدى والتى قد تكون الطاعون أو الجدرى، ووصفوا نوعين من الديدان قد يكونا الاسكارس

والدودة الوحيدة، كما ذكروا مرضـا مزمنـا يحدث هزالا شديدا وبـولا دمويا سموه (عاع) ربما كان البلهارسيا أو الانكلستوما[٤٨].

وقد اشتملت بردية إيبرز على وصف ما يزيد علـى ٦٠ حالـة مـن أمـراض العيـون وعلاجهـا مثـل التهـاب الملتحمــة والتهابـات الجفـون والسحابة (المياه البيضاء) وتمدد الحدقة والرمد الحبيبى وانقلاب الجفـن للخارج ومرض الشعرة. وقد عالجوا مرض العمى الليلى بالتغذى علـى كبد البقر بعد تدخينه، وقد كان هذا العلاج مناسبا جدا للحالـة لاحتـواء الكبد على فيتامين(أ).

وقد ذكرت بردية ادون سمث عـددا كبيرا مـن العمليـات الجراحيـة، كمـا مثلـت بعض النقـوش رسـما ربمـا كـان يمثـل عمليـة فتـح القصبـة الهوائيـة (تراكيوتومـى)، وقـد اسـتخدم الأطبـاء المصريـون كثــيرا مــن المشـارط والابـر وآلات الجراحـة الأخـرى، وكـانوا يعـالجون الجـروح بالخياطة وأربطة الكتان واللحم الطرى أول يوم، ثم بالاعشاب القابضــة والعسل فيما بعد، وقد استطاعوا تشخيص الكسـور وفرقـوا بينهـا وبيـن "الجز ع" كما وصفوا كسر العمود الفقـرى ومـا يتبعـه مـن شـلل ربـاعى وتبول لا ارادى[٤٩].

وقد استعمل المصريون لعلاج الأمراض طرقا متعددة منها:

العقاقير من الداخل – المراهم وغيرهـا مـن الأدويـة الخارجيـة مثـل الدهانات واللصق– الجراحة، وتشمل خياطة الجروح وربطها بالأربطة اللصاقة واستعمال الجبائر، وفتح الخراريج والكى – الأربطـة والتدليـك والحركات العلاجية – السحر والتعاويذ[٥٠].

ولعل استعمال العقاقير يعتبر مثلا طيبا لتأثير النظريات الدينية على الطب، ويمكن القول بأن تركيب الأدوية وتعاطيها كانا مرتبطين بالدين، إذ أن العقاقير كانت تحضر فى معمل خاص فى المعبد اسمه(أسيت) فى جو تشيع فيه السرية المطلقة، ويمتزج تركيبها بالطقوس التى لا مرونة فيها، وليس أدل على ذلك من أن بعض الأرقام كانت تتميز بأهمية خاصة دون غيرها كأن تتناول الأدوية أربع أو سبع مرات فى اليوم، أو تخضع كميات العقاقير فى الأدوية المركبة لنسب معينة لها خواص حسابية مثلا - ١: ٢: ٤: ٨: ١٦: ٣٢: ٦٤، ولذا فقد ظن البعض أن فيثاغورث اقتبس نظرياته الخاصة بمعانى الأرقام من قدماء المصريين، وكانت المقادير فى حالة العقاقير تقاس بالحجم لا بالوزن.

ومن مظاهر السرية التى كانت تحيط بوسائل العلاج أن كثيرا من العقاقير كان لها أسماء لا يعرفها إلا فئة من المختارين، مما زاد فى صعوبة تفسير النصوص الدينية، ومما يحمل على الظن بأن أدوية عديدة نحسبها خيالية أو سحرية كانت فى الحقيقة مفردات طبية عادية رمز إليها بأسماء سرية(٥٠).

وكان الطبيب يعد الأدوية بنفسه، ومن الطريف أن الكتابة الهيروغليفية مكونة من المفصد والهاون وكأنهما يرمزان إلى استعماله الجراحة والعقاقير - غير ان هذين الرمزين لم يستعملا إلا لقيمتهما الصوتية فحسب.

ولم يعتادوا كتابة الروشتات، - التذاكر - للمرضى، والغالب أن قطع الخزف التى وصفها جونكير، والمكتوب عليها وصفات أدوية، كانت فى الحقيقة مذكرات يدونها الطبيب أثناء زيارته للمريض ليتذكر نوع الدواء الذى كان عليه أن يركبه عند عودته إلى منزلة.

ولعقيدة المصريين القدماء، اهتموا وابتكروا فن (التحنيط). وكانوا فى العهد السابق قبل التاريخ يضعون موتاهم فى حفر صغيرة لحفظها من الفناء ووقايتها من التلاشى نظرا لحرارة الجو وجفاف الأرض، ثم عولوا على ايداع الجثث فى أكياس ونحوها من الطين أو الجلد لتبقى فى حالة جيدة زمنا طويلا، ويضعون بجانبها أوانى الغذاء والشراب، وذوى الشهرة والثروة منهم كانوا يضعون بجانب ما ذكر آلات الصيد والقنص والقتال على ما كان لهم من عظم الشأن فى حياتهم(٥٢).

ثم اخترع الكهنة بعد توالى العصور الوسائل الأولية لفن التحنيط بواسطة الصمغ الصنوبرى، ليحفظ الجثة أزمانا طويلة على شكلها المعهود، لتكون أليق فى اتصال الروح بها بعد انتقالها من العالم الأول إلى العالم الثانى.

ثم تقدم فن التحنيط بقدر ما أرشدت إليه التجارب والاكتشافات العلمية، ولكن الكتب الخاصة به فى ذلك العهد لم تكن كثيرة التداول قبل ما دونه عنها المؤرخ اليونانى هيرودوت الذى كان يستمر فى الاستقصاء والتحرى، وجمع المعلومات عن التحنيط المصرى، وتكلم عن الاحتفالات الدينية التى كانوا يجرونها لاتخاذه، والمعاملات التجارية التى ساعدت على استحضار معداته.

وكان لرئيس المحنطين تأثير خاص فلا ينتقى للاشتراك معه فى إجرائه إلا من يثق بهم من رجال الكهنوت الأتقياء، ومن يأتمنهم من الجراحين والعملة وبعض أرباب الصنائع التى يستلزمها التحنيط طبقا لأسراره وتعليماته وإعداد اللفائف من غزل الكتان وغيره. وكان مساعدوه لا ينتمون لهذه المهنة إلا بطريق التوارث مما يصلح فيهم لها طبقا لتعليمات الفراعنة وعنايتهم الكلية بالتحنيط(٥٣).

ولابد أن تكون طريقة التحنيط قد أطلعت قدماء المصريين منذ زمن مبكر جدا على تكوين الأحشاء ومواضعها فى الجسم. ولا شك أن تعودهم على لمس الجثث ومعالجتها قد ساعد على رفع الحظر عن عمليتى تشريح الجثث وفحصها طبيا لمعرفة أسباب الوفاة. ولدينا ما يحملنا على الاعتقاد بأن بعض رجال الطب ولا سيما مؤلف لفافة أدوين سميث قد مارسوها بالفعل. ولقد أصبحت العمليتان فى عصر البطالمة جزءا من منهج تعليم الطب الرسمى، وبفضل استخدامها المستمر تمكن الطب السكندرى من تصحيح الكثير من الأخطاء التى تقع فيها الشعوب التى تحرق موتاها أو التى ترى فى مثل هذه العمليات انتهاكا لحرماتهم. فليس من قبيل المصادفة أن الطب السكندرى استطاع أن ينهض بالمعارف الخاصة بالدورتين الدموية والعصبية، فكان سباقا إلى التفرقة بين الأوعية الدموية والأعصاب وإلى تسجيل وظائف كل منها[٢٠].

وكذلك الأمر فى مقابلة الأعضاء المصابة بتغيرات مرضية بأعراض المرض فانه لابد أن يكون قد دعم موقف أولئك الذين كانوا يردون الأمراض إلى أسباب عضوية بحتة. وفى الميدان العلمى البحت، ساعد استخدام هذه الأربطة البالغة الطول على البلوغ بفن التضميد حد الكمال، وعلى خلق طبقة الأخصائيين القادرين على تضميد أى جزء من الجسم مهما كان شكله باتقان تام. ومن الطريف أن نجد أن عملية التحنيط التى كانت عليها عبارات روحانية بحتة، قد أسفرت عن كل هذه النتائج العملية الهامة.

وإذا كان البشر من قدماء المصريين قد لاقوا عناية وخصص لهم أطباء من أجل راحتهم، كذلك كان لحيواناتهم نصيب من هذه العناية. يقول "كليمانت السكندرى" أنه كان على الكاهن أن يكون عارفا بسمات الحيوان، أى متخصصا فى معرفة الحيوان، أما عن حدود هذه المعرفة

ومداها فيحدثنا هيرودوت الذى يقول: "فقبل التضحية بأحد الحيوانات كان لابد أن يقرر كاهن متخصص أنه طاهر، وكان الفحص يتم على النحو التالى: إذا رؤى فى جسم الثور شعرة سوداء واحدة فإنه يعتبر غير طاهر، وكان يقوم بهذا الفحص مفتش معين فيفحص واقفا وراقدا على أحد جانبيه، ثم يخرج لسانه ليطمئن إلى براءته من النجس، ثم ينظر إلى الذنب ليتأكد من أن شعره مرسل مرجل، فإذا تبين خلو الحيوان من أى عيب وسمه بالطهارة وذلك بلف قرنه بلحاء البردى الذى يعقد لفه بقطعة من الطين مختومة بختم الكاهن المختص، وحينئذ يصبح الحيوان مقبولا. وعند النحر يكون الحيوان معرضا لخطر الاعدام إذا خلا من هذا الضمان"(٥٥).

ومن المرجح أن سائر الحيونات التى كانت تقدم قربانا - وكانت وفيرة من طير وسمك ومن المها والبقر- لابد أن تستوفى شروط الصحة والسلامة، ولا شك فى أن الكاهن البيطار قد كان يملك قوائم تامة بأنواع الحيوان المحرم فى سائر البلاد بحسب توزيعها الجغرافى الدينى، وكانت كثيرة ومتعددة. فالتقويم الدينى بتانيس يتضمن معرفة المحرمات بين المعارف الضرورية لممارسة العبادة، وتلك خبرة لها أهميتها التى كانت تتجلى بوضوح فى أيام معدودات من أيام دور العبادة، وذلك عند اختيار الحيوان المقدس.

وقد ظهرت فى كثير من النقوش صور الماشية وقف أمامها المشرف عليها وسمى أحيانا (بالطبيب)، وأحيانا أخرى "بالكاهن الطيب"، الأمر الذى يوحى بأن هؤلاء الأطباء الكهنة كانوا مكلفين بفحص طهارة الذبائح، والطهارة فى مصر القديمة أمر ليس بالغريب خاصة وأنه تابع عقائديا. كما كانوا مكلفين بضمان مطابقتها لمقتضيات الطقوس الدينية، وقد نسب بعض الكهنة غير الأطباء أيضا إلى أنفسهم أحيانا أنهم "يعرفون الثيران"، ولكن بعض البيطريين كانوا من غير

الكهنة، وقد كانوا فى الأغلب يمارسون مهنتهم حسب علم مكدس يماثل ما نقرأه فى الجزء البيطرى من لفافة كاهون الطبية(٥٦).

وألحقت بكل موقع للتعليم الطبى فى مصر القديمة مكتبة هى مجموعة من لفائف البردى التى كانت تحفظ بعناية كبيرة فى صناديق محكمة.

٤- الرياضيات:

تدل الوثائق التى فى متناولنا على أن المصرى كان يستعمل الأرقام فى الحساب منذ فجر التاريخ، بل قبل عهد الأسرات بقليل، ولكن لم تصل إلينا وثائق مكتوبة عن الرياضيات إلا منذ زمن الأسرة الثانية عشرة. ويمكننا أن نؤكد أنه منذ عهد الملك (نعرمر) كان يوجد فى مصر نظام الأرقام بكل علاماته حتى العلامة التى تدل على ألف، يضاف إلى ذلك أن نقوش حياة (متن) قد كشفت لنا عن وجود مقاييس للأراضى، وقد حصل عليها بنفس الطريقة التى كانت متبعة فى ورقة (رند) التى يرجع تاريخها إلى عهد الدولة الوسطى. وقد أعطى فيها مساحة سطح المستطيل مضبوطة، وكان المصرى قد اتخذ وحدة للمقاييس السطحية الكبيرة "الحكات"، وقد جاء ذكر ذلك فى أوراق بردية ترجع إلى الأسرة السادسة. ومن المحتمل أنه كانت توجد وحدات للموازين أيضا(٥٧).

وخلافا لما ذكرنا لانجد لدينا ما يسمح بتتبع تاريخ بداية علم الرياضيات فى مصر حتى الأسرة الثانية عشرة، وهى الفترة التى نجد فيها وثائق عظيمة ذات اصطلاحات ثابتة. وهذه الوثائق هى ورقة مسكو وورقة كاهون وبرلين. وكذلك يعزى إلى هذا العصر ورقة (رند)، ومن هذه الوثائق يمكننا أن نأخذ فكرة عن علم الرياضيات المصرى قبل أن يتأثر بالرياضيات التى عرفها الأغريق.

وحسبنا أن نقول أنا نجد العلوم الرياضية متقدمة أعظم تقدم منذ بداية تاريخ مصر المدون، وشاهد ذلك أن تصميم الأهرام وتشييدها يتطلبان دقة فى القياس لا يستطاع الوصول إليها بغير معرفة واسعة بالعلوم الرياضية. وقد أدى اعتماد الحياة فى مصر على ارتفاع النيل وانخفاضه إلى العناية بتسجيل هذا الارتفاع والانخفاض وإلى حسابها حسابا دقيقا. وكان المساحون والكتبة لا ينقطعون عن قياس الأراضى التى محا الفيضان معالم حدودها. وما من شك فى أن القياس كان منشأ فن الهندسة، وشاهد ذلك أن اسمه الأجنبى Geometry مشتق من كلمتين معناهما قياس الأرض، والأقدمون كلهم تقريبا مجمعون على أن هذا العلم من وضع المصريين(٥٨).

وقد يسر للرياضيات المصرية القديمة سبيل التطور عاملان: عامل قديم، وهو اهتداء أصحابها إلى تصوير رموز مفردة بسيطة عبروا بها عن العشرات ومضاعفاتها، أى المائة والألف وعشرة الآلاف ومائة الألف وألف الألف (أى المليون)، منذ أوائل عصورهم التاريخية، خلال القرن الثانى والثلاثين قبل ميلاد المسيح على وجه التقريب، وذلك على خلاف ما جرى عليه أغلب أصحاب الحضارات الكبيرة الذين عاصروا المصريين وأعقبوهم، والذين اعتادوا على أن يعبروا عن مضاعفات العشرات الكبيرة بكلمات هجائية تتكون كل كلمة من عدد من الحروف والمقاطع الصوتية، خلال عصور طويلة من تاريخهم القديم(٥٩).

وأفضى استخدام المصريين لرموز المجموعة العشرية إلى ثلاث نتائج، وهى: سهولة ضرب وقسمة العشرات ومضاعفاتها، وسهولة تسجيل المجاميع العددية الكبيرة فى وجوه مرتبة متصلة، تستطيع العين أن تلمّ بها فى نظرة واحدة، ثم تعويضهم بعض الشئ عن عدم اهتدائهم إلى تصوير الأصفار واستخدامها فى تعبيراتهم المكتوبة.

أما العامل الآخر الذى دفع الرياضيات المصرية فى سبيل التطور، فهو تعدد المشكلات الحسابية والمساحية التى استمرت تشغل الكتبة المصريين خلال مسح الحدود الزراعية وتعيين الحدود الاقليمية فى أعقاب الفيضانات الكبيرة، وخلال تقدير أبعاد الأراضى الزراعية ومساحاتها عند بيعها وتأجيرها وتقسيمها باسم الدولة، وعند تقدير الضرائب عليها وعلى محاصيلها، ثم تعدد المشكلات الهندسية، التى استمرت تشغل المهندسين والفنيين عند تصميم المنشآت المعمارية الضخمة.

وقد استعمل فى العمليات الحسابية الجمع والطرح والضرب والقسمة، غير أنه كان يستعمل فى الضرب والقسمة طريقة الجمع، فمثلا لايجاد حاصل ضرب ٨×٨ كانت المسألة تحل بالكيفية الآتية(١٠):

مسألة ضرب

١	٨	٨ (مرة واحدة)	يساوى	٨
٢	١٦	٨ (مرتين)	يساوى	١٦
٤	٣٢	٨ (أربع مرات)	يساوى	٣٢
٨	٦٤	٨ (ثمان مرات)	يساوى	٦٤

أما فى عملية القسمة فلنأخذ مثلا رقم ٧٧ مقسوما على ٧ فتكون نتيجة ترتيبه كما يلى (١١):

١ ٧ فاستعمل نفس الطريقة الأولى فى الضرب وجعل يأخذ
٢ ١٤ من جهة اليسار الأرقام التى يكون مجموعها ٧٧ فكانت
٤ ٢٨ ٧و١٤و٥٦ ثم أخذ ما يقابل هذه الأرقام من جهة اليمين،
٨ ٥٦ فكانت ١و٢و٨ أى مجموعها ١١

وقد أعد المعلمون جداول لجمع وطرح وضرب وقسمة الكسور حتى يسهل على التلاميذ حفظها، ونورد هنا أمثلة مما أعده للتلاميذ ليحفظوه[١٢].

$$\frac{١}{٦}+\frac{١}{٦}=\frac{١}{٣}$$

$$\frac{١}{٢٢}+\frac{١}{٣٣}+\frac{١}{٦٦}=\frac{١}{١١}$$

$$\frac{١}{٥٠}+\frac{١}{٣٠}+\frac{١}{١٥٠}+\frac{١}{٤٠٠}=\frac{١}{١٦}$$

$$\frac{١}{١٠}\times\frac{٢}{٣}=\frac{١}{١٥}$$

$\frac{١}{٥}\times\frac{٢}{٣}=\frac{١}{١٠}+\frac{١}{٣٠}$ [$\frac{٢}{١٥}$ فى حسابنا الحالى]

وبقيت من المسائل المصرية الطريقة التى جعلها أصحابها مقياسا للنشاط الذهنى فى عمليات الجمع والضرب، مسألة نظرية قصيرة، افترض صاحبها أنه كان يوجد فى حى ما سبعة بيوت، وأنه تسللت إلى كل بيت من البيوت السبعة سبع قطط، فافترست كل قطة سبعة فيران، بعد أن قرض كل فأر سبع سنابل من الغلال، كان أصحاب البيوت يستطيعون أن يزرعوها فتنتج كل سنبلة منها سبع حقيات من الحبوب، وطلب صاحب المسألة حاصل جمع البيوت والقطط والفيران والسنابل ومكاييل الحبوب جميعها[١٣].

واستطاع كاتب المسألة أن يدون حل مسألته بطريقتين، رصد فى احداهما أعداد البيوت معا، وأعداد القطط معا، وأعداد الفيران معا، وأعداد السنابل معا، وأعداد الحقيات معا، ثم جمع مجاميعها فى وحدة واحدة. ولجأ فى طريقته الثانية إلى جمع نصيب كل بيت من القطط والفيران والسنابل ومكاييل الغلال جمعا ذهنيا على حدة، ثم ضرب مجموعها فى سبعة، أى سبعة بيوت، على النحو التالى[١٤]:

الطريقة الأولى:

البيوت	٧
القطط	٤٩
الفيران	٣٤٣
سنابل الغلال	٢٤٠١
مكاييل الغلال	١٦٨٠٧
المجموع	١٩٦٠٧

الطريقة الثانية:

١	٢٨٠١
٢	٥٦٠٢
٤	١١٢٠٤
المجموع	١٩٦٠٧

وكانت الطريقة المثلى فى أداء التلميذ لعملياته الحسابية هى: "حينما تحسب (فليكن ذلك)، وأنت هادئ ولا تدع صوتا يسمع". وقد وجهت هذه النصيحة إلى تلميذ ألحقه أبوه، بالمدرسة وذلك مما يرجح أن الرياضيات كانت تعلم فى المدارس ولا تترك للتدريس العملى أثناء الوظيفة[١٥].

أما المسائل فقد وضعت على أساس تقسيم رغيف ورغيفين وستة وسبعة وثمانية وتسعة أرغفة على التوالى، على عشرة رجال. وترتب على اختيار المعلمين المصريين لأمثال هذه المسائل التى تعتمد على توزيع الخبز والغلال والدهن والجعة، أثر واضح فى وصف أغلب الباحثين المحدثين للحساب المصرى فضلا عن العلوم المصرية بعامة، بالانصراف إلى الماديات دون المعنويات أو المبادئ المجردة. فرأى الأستاذ (بترى) أن من أسس الحساب المصرى ما لا يعدو ما كان يأخذ به جمهور الناس فى الحياة اليومية العادية، بحيث كانت طريقة القسمة

التجريبية المكتوبة هى بذاتها طريقة توزيع الخبز على عمال الحقول حين الغذاء. وقال بمثل هذا الرأى الأستاذان أدولف إرمان وهرمان رانكه، وأضافا أن الطابع العملى الصرف الذى اكتسبه الحساب المصرى منذ الدولة القديمة عجز عن التخلص منه حتى فى الدولة الحديثة ووقف عنده دون تحديد[٦٦].

ونحن لا ننفى أنه فى الرياضيات المصرية ما يحتمل هذا الرأى ونحوه، وأن ما كان يجرى فى الحياة العامة كان يترك صداه لدى المعلمين وهم يصوغون مسائلهم، غير أنه ينبغى أن نقدر إلى جانب ذلك أنه ما كان يتهيأ للمعلم أن يدلل على صحة جدوله ويقربه إلى تلاميذه بغير أمثلة تصطبغ بشئ من الحيوية المادية، ولا نقول من الواقع المادى، فتقسيم رغيف بين عشرة رجال يبعد أن يقوم به شخص متعلم، بل ويبعد أن يتم فى الحياة الواقعية. ويؤيد صحة هذا التفسير أن هناك مسألة يطلب المعلم فيها تقسيم مائة رغيف بين خمسة رجال بحيث يكون سبع نصيب الثلاثة الأول مساويا لنصيب الأثنين الباقين، ومثل هذا التقسيم المعقد، كمثل تقسيم الرغيف بين العشرة الرجال، يبعد أن يتم فى الحياة الواقعية، ففكرة تقسيم الأرغفة كانت مستمدة من الواقع حقا، ولكن المسائل المرتبة عليها ليست كلها مادية صرفة، وانما كسا الخيال بعضها وجعلها مسائل نظرية تعليمية. وفضلا عن ذلك فثمة أمر لم يفت باحثين آخرين، وهو أن من المسائل المصرية ما خلا تماما من التعبيرات المادية واعتمد على الأرقام وحدها. ومن هذه المسائل مجموعتان يمكن الاستشهاد بهما فى سياق مسائل الكسور، تألفت أولاهما من ثلاث مسائل لجمع الكسور وطرحها واشتملت ضمنا على قاعدة استخراج المضاعف، أما المجموعة الثانية فهى طريقة استخراج أجزاء معينة من الكسور ثم اضافتها إليها.

وتظهر مسائل المعادلات أكثر من دلالة تعليمية، وقد كانت منها البسيطة ومنها ما يمكن تقريبها إلى ما يسمى اصطلاحا باسم معادلات الدرجة الثانية، فمن نماذج المعادلات البسيطة تضمنت كراسة أحمس خمس مجموعات لكل منها ما يميزها، وتألفت المجموعة الأولى منها من أربع مسائل يسيرة تستهدف إثارة ذكاء التلميذ وتهيئته لحل ما هو أصعب منها، وكان من ذلك أن صيغ رأس المسألة الثالثة منها على النحو التالى: كم (أضيف) ربعه عليه فأصبح مساويا ١٥(فما هو؟)[١٧].

ومن المسائل الراقية التى يمكن تقريبها إلى معادلات الدرجة الثانية ما طلب تقسيم ١٠٠ إلى عددين، الجذر التربيعى لأحدهما يساوى ٣/٤ الجذر التربيعى للآخر، وأفصح بهذا عن الغرض التعليمى النظرى والصبغة الجبرية الغالبة[١٨].

وتضمنت الكراسات المصرية من مسائل المساحات ما يتناول مساحة المستطيل والمثلث الناقص والدائرة ومسطح(؟) نصف الدائرة، فضلا عن مسائل استخراج أبعادها، وفى بضع من هذه المسائل يتضح كذلك أن الصبغة التعليمية النظرية والصياغة المشوقة لم تغب كل منها عن المعلمين المصريين فى صياغة بعض مسائلهم إلى جانب ما كانوا يعنون به من إعداد الطالب لمهام الكاتب العلمية فى وظيفة ومجتمعه الزراعى، فضلا عن أنها تتميز كذلك بما يصحب رءوسها وحلولها من أشكال توضيحية تكتب الأبعاد عليها[١٩].

وشابهت مسائل الحجوم مسائل المساحات من حيث اتجاهها إلى إعداد التلميذ لمهام الكاتب الوظيفية فى مجتمعه الزراعى، فحين تناولت حجم المكعب والاسطوانة جعلت من أغراض مسائلها التمرين على تقدير مقادير الغلال الكبيرة وتقدير ما يلزمها من الأماكن، وذلك بتصوير المكعب أو الاسطوانة على هيئة شونة تذكر أبعادها وتطلب

تقدير ما تسعه من غلال أو تذكر ما يملؤها من غلال وتطلب أبعادها[٧٠].

٥- الفلك والتقويم:

فلسنا نعرف شيئا عما وصل إليه المصريون فى علمى الطبيعة والكيمياء، ولا نكاد نعرف ما يكفى عما وصلوا إليه فى علم الفلك. ويلوح أن راصدى النجوم فى الهياكل كانوا يظنون الأرض صندوقا مستطيلا تقوم فى أركانه الجبال لتمسك السماء. ولم يشيروا بشئ إلى الخسوف والكسوف، وكانوا فى هذا العلم بوجه عام أقل رقيا من معاصريهم فى أرض النيل، ولكنهم مع هذا كانوا يعرفون منه ما يكفى التنبوء باليوم الذى يرتفع فيه النيل، وأن يتجهوا كلهم نحو الشرق فى النقطة التى تشرق منها الشمس فى صباح يوم الانقلاب الصيفى[٧١]. ولربما كانوا يعرفون أكثر مما عنوا باذاعته بين شعب كانت خدماته عظيمة القيمة لحكامه. وكان الكهنة يرون أن دراساتهم الفلكية من العلوم السرية الخفية التى لا يحبون أن يكشفوا أسرارها للسوقة من الناس، وظلوا قرونا طوالا متتالية يتبعون مواقع الكواكب وحركاتها حتى شملت سجلاتهم فى هذه الناحية آلاف السنين، وكانوا يميزون الكواكب السيارة من النجوم الثوابت، وذكروا فى فهارسهم نجوما من القدر الخامس (وهى لا تكاد ترى بالعين العادية) وسجلوا ما ظنوه أثر نجوم السماء فى مصائر البشر. ومن هذه الملاحظات أنشأوا التقويم الذى أصبح فيما بعد أعظم ما أورثه المصريون بنى الإنسان[٧٢].

ومن آراء المصريين الفلسفية أن الزمن مكون من الماضى والحاضر والمستقبل، وهى جميعا متداخلة وليست متفرقة وفى آن واحد مجتمعة ومتفرقة، ذلك لأنه لو اعتبر الحاضر منفصلا عن الماضى فإنه لا يمكن أن يبتدئ حتى يصبح ماضيا فمن الزمن الذى يمضى يشتق الزمن الحاضر ومن هذا يأتى المستقبل.

وكانوا يعتقدون أن الشمس والقمر أبديان ولذلك رمزوا بهما للأبدية، كما رمزوا لأبدية الكون بالثعبان الملتف الذى يعض ذيله.

وكانوا يعتقدون أن السماء بحر عظيم يعتمد على أربعة أعمدة، وأن الشمس التى تولد فى كل صباح تعبر السماء فى زورق سماوى من الشرق إلى الغرب(٧٣).

ونستطيع أن ندرك العلة فى اهتمام المصرين القدماء برصد الأجرام السماوية ودراسة حركاتها فى السماء منذ فجر التاريخ بعد أن اتخذوا من بعضها وعلى الأخص الشمس آلهة يتقربون بها إلى الله خالق كل شئ، وأغراهم صفاء جو البلاد بأخذ الأرصاد بطريقة منتظمة.

ولم تكن الشمس وحدها موضع عنايتهم، فإننا نراهم قد أطلقوا على الكوكبات النجومية أسماء خاصة ورمزوا لها برموز مديريات القطر ومدنه، فكوكبة الدلو مثلا رمزوا إليها برمز جزيرة الفنتين المقابلة لأسوان، ورمزوا للمريخ برمز أبولونوبليس وهى بلدة ادفو الحالية، ورمزوا لبرج الحوت برمز بلدة اسنا وللمشترى برمز بلدة أرمنت، وللحمل برمز طيبة المدينة المقدسة وللزهرة برمز دندرة، وبالمثل لبلدان الوجه البحرى(٧٤).

وجعلت مجموعة أمنموبى (أمن م ابت) التعليمية أول معلوماتها الضرورية "لتفتيح العقل وتثقيف الجاهل"، عن الظواهر الفلكية والطبيعية العامة، ولم يضمن مؤلفها معلوماته كل معارف قومه عن تلك الظواهر، وانما اكتفى ببعضها، ويحتمل أنه تعمد ذلك على أساس الأعم منها وما يتيسر هضمه، بمعنى أنه استهدف منها صالح المتعلم قبل أن يستهدف بها صالح العلم، وهو ذات الاتجاه الذى اتصفت به أغلب الموضوعات التعليمية السابقة.

ومن دروس هذه المعلومات موضوع احتفظت به لخفة جيرية، أخذ عن مجموعة أمنموبى وبدأ بمقدمتها ثم اتبعها بذكر بعض الظواهر الفلكية والطبية. وفيما يتعلق بالجوانب التعليمية، لهذا الموضوع يتضح من مقارنة مفرداته بما يماثلها فى النسخ الأخرى قريبة العهد منه والتى أخذت مثله عن مجموعة أمنموبى، أن كاتبها أو معلمه لم يلتزم حرفية المعلومات فيها وانما تناولها بشئ من التصرف والتحوير(٧٥).

وحينما بدأ المصريون يقسمون الزمن كان من البديهى أن يعتمدوا فى تقسيمه على القمر، لأنه يبدو فى أول ظهوره صغيرا، ثم ينمو ليلة قليلة حتى يصير بدرا، ثم يتضاءل ليلة فليلة حتى يبلغ المحاق. فهو علامة بارزة كان من الضرورى أن يلتفت إليها الإنسان وأن يجعلها قبل غيرها قاعدته فى تقسيم الزمن. ومن هنا وجد الشهر القمرى ووجدت الشهور القمرية.

وقد وجد التقويم القمرى فى مصر، كما وجد فى البلاد الأخرى، ثم أخذ المصريون يدركون ما فيه من عيوب، وأغلب الظن أن البلاد الأخرى أدركت هذه العيوب أيضا، ولكن المصريين وحدهم هم الذين استطاعوا أن يخرجوا منها إلى تقويم آخر يصلحها، ليس الحساب فيه قائما على الدورة القمرية، بل على الدورة الشمسية، وهذا التقويم هو الذى وجده يوليوس قيصر حينما جاء مصر فحمله منها إلى روما، وهو بعينه الذى يستعمله العالم الآن باسم التقويم الجريجورى بعد تعديل طفيف فيه(٧٦).

أما كيف اهتدى المصريون إلى هذا التقويم الشمسى، فذلك أنهم لاحظوا أن الشهور القمرية التى تقع فى احدى السنين فى زمن الفيضان، أو زمن بذر الحبوب فى الأرض، أو زمن حصاد الزرع، تقع

بعد سنين قليلة فى أزمنة أخرى، فقام البرهان المادى لديهم على أن هذه الشهور لا يمكن التعويل عليها فى ضبط مواسم الزراعة، وهم قوم كانت الزراعة همهم الأول، وكان ضبط أزمنتها ومواعيدها ضرورة لهم قصوى. ففكروا فى ايجاد تقويم يضبط لهم هذه الأزمنة والمواعيد. وكانوا قد لاحظوا أن كوكب الشعرى اليمانية يسطع فى الأفق قبيل شروق الشمس فى يوم معين من السنة –هو يوم ١٥ يونية فى التقويم الجريجورى المستعمل الآن– ثم يمضى حول كامل حتى تعود الشعرى اليمانية إلى الظهور قبيل شروق الشمس فحسبوا هذا الحول فوجدوه ٣٦٥يوما، فجعلوه سنتهم، وقسموه إلى ١٢ شهرا، كل شهر منها ٣٠ يوما. ثم أضافوا إليها خمسة أيام هى التى سميت بعد ذلك أيام النسئ.

وقسموا السنة إلى ثلاثة فصول: هى فصل الفيضان، وفصل البذر، وفصل الحصاد، كل واحد منها أربعة أشهر.

وقسموا الشهر إلى ثلاثة أثلاث، كل ثلث منها عشرة أيام، وقسموا اليوم إلى ٢٤ ساعة نصفها لليل ونصفها للنهار.

أما الأشهر فهى بعينها الأشهر القبطية المعروفة الآن وهى: توت/ بابه/ هاتور/ كهيك/ طوبة/ أمشير/ برمهات/ برموده/ بشنس/ بؤنة/ أبيب/ مسرى[٣٧].

وحينما وضعوا هذا التقويم، اتفق أن وصل فيضان النيل إلى ايلفنتين فى اليوم الذىظهرت فيه الشعرى اليمانية قبيل شروق الشمس، فجعلوا هذا اليوم أول سنتهم، أى أول شهر توت، لأنه اليوم الذى اجتمعت لهم فيه ظاهرتان: ظهور الشعرى اليماينة قبيل شروق الشمس، ووصول الفيضان إلى ايلفنتين.

وكان حسابهم هذا صحيحا، لا يدخله غير خطأ طفيف مقداره ٦ ساعات وبضع دقائق فى السنة، فى حين كانت الشهور القمرية تختلف عن الدورة الشمسية بما لا يقل عن أحد عشر يوما فى السنة، ولذلك كان اهتداؤهم إلى هذا التقويم القائم على دورة الشعرى اليمانية بالنسبة للشمس عملا بارزا جليلا.

وظهر فى السنين الأولى من وضع هذا التقويم أن الفصول ومواعيد الزراعة تقع فى شهور هى بعينها كل سنة. ولكن ذلك الفارق القليل بين التقويم ودورة الشعرى اليمانية أخذ يحدث أثره على مر السنين، فصارت سنة التقويم تنقص عن دورة الشعرى يوما فى كل أربع سنوات، ثم توالت السنون، فصار الفرق يزداد، وصارت الفصول ومواعيد الزارعة تقع فى شهور غير التى قدرت لها.

ولم يخف الفرق على المصريين، بل أدركوه وعرفوا أنه ربع يوم فى السنة، ولكنهم تركوا التقويم على ما هو عليه، واكتفوا بأن يسجلوا الفرق كلما حانت فرصة لتسجيله.

ومن الكتابات الطريفة التى وصلت إلينا خاصة باختلاف الفصول عن الشهور التى قدرت لها فى التقويم كلما دعابة كتبها تلميذ فى زمن الأسرة التاسعة عشرة فى كراسة تمرينه على الكتابة والانشاء، هذا تعريبها[٧٨]:

"إلىّ يا آمون. أنقذنى من السنة المختلة، فالشمس لا تسطع، والشتاء يأتى فى وقت الصيف. والشهور تمضى القهقرى". ويؤخذ من قوله "فالشمس لا تسطع" أنه كتب كلماته هذه فى يوم غيب فى فصل الشتاء.

٦- الفنون:

مدلول الفن المصرى القديم مدلول مرن يتسع فى أضيق حدوده لكل ما اهتدى المصريون القدماء إليه وأبدعوا فيه، من أساليب الرسم والتصوير والنقش ووزخرف العمارة، خلال خمسة آلاف سنة على أقل تقدير، فضلا عن فنون الموسيقى والغناء.

وكان الفن أعظم عناصر الحضارة المصرية، فنحن نجد فى هذه البلاد، وفى عهد يكاد يكون فى بداية الحضارات، فنا قويا ناضجا أرقى من فن أية دولة حديثة. لقد كان ما امتازت به مصر فى أول عهودها من عزلة وسلم، ثم ما تدفق فيها بعدئذ من مغانم الظلم والحرب فى عهد تحتمس الثالث ورمسيس الثانى، مما أتاح لها الفرصة المواتية والوسائل الكافية لتشيد المبانى الضخمة، ونحت التماثيل المتينة، والبراعة فى عدة فنون أخرى صغيرة، كادت تبلغ حد الكمال فى هذا العهد السحيق. وان المرء ليقف حائرا مشدوها لا يكاد يصدق ما وصفه الباحثون من نظريات لتطور الرقى البشرى على منتخبات الفن المصرى القديم(٧٩).

وقد التزم الفنانون المصريون قواعد الفن التى استقرت أصولها منذ بداية الأسرات، وأخذوا أنفسهم بها حتى نهاية الحضارة الفرعونية، ومع ذلك فقد كان لهم فى كل عصر طراز فنى متميز، مستكمل الخصائص و الصفات. فالطراز الفنى فى الدولة القديمة غيره فى الدولة الوسطى أو الدولة الحديثة، بل أنه لم يكن يلتزم حالة واحدة فى كل من هذه العصور، وإنما كان يختلف تبعا لما يطرأ على المشاعر و التصورات من تغيير، ويتأثر بما تتعرض له البلاد من قوة أو ضعف وما يصيبه بعض طبقات المجتمع من مكانة وثراء، كما كان يختلف اختلاف الفنانين وازدياد أعدادهم، وبشيوع المعتقدات أو مدى الإقبال على منتجات الفنون(٨٠).

وقد تميز الفن المصرى القديم بعدد من الخصائص يمكن إجمالها فيما يأتى[٨١]:

أ- طابع الأقليم: فكثير من المميزات وخصائص البنية المصرية الطبيعية مما أشرنا إليه من قبل، كانت واضحة على مظاهر هذا الفن.

ب- الدين، فمن الصعب فى الواقع أن نجد حضارة يتم فيها التوافق التلقائى المشاهد بين الكهنة الذين يخلقون العقيدة الإلهية وبين أولئك الذين يتولون التعبير عنها تعبيرا تصويريا، هذا التوافق والانسجام بين الاطار الطبيعى والمفاهيم الدينية لابد أن يوجه روح الشعب إلى أن يتقبل بفطرته تلك المبادئ الدينية والعقائد المتصلة بالحياة الآخرة، وبدوام الحياة بعد الموت، طالما أن تلك المفاهيم قد أتت إلى الكهنة وإلى الشعب من المصادر الداخلية نفسها.

جـ- تأثير النظام الفرعونى: فقد تأثر الفن المصرى بسلطان فرعون، فكانت عهود عظيمة وعهود متدهورة تتجاوب وتتقابل تماما مع تقلبات وأمجاد الحكم الفرعونى. وعلى هذا، فإن طابع الأنظمة الدينية والسياسية، تلك الأنظمة التى كانت صارمة إلى حد كبير، ثم ذلك الأثر الذى انطبع فى روح الشعب المصرى من واقع المناظر المهيبة المتألقة الرائعة التى كان يتصف بها الأقليم الذى عاش ذاك الفن فى ربوعه، ومن واقع ذلك النهر العظيم، واللون الباهت الذى يغشى الصحراء، وتلك الهضبة الليبية المقفرة الممزقة، كل هذه الأمور قد تنير لنا الجذور العميقة الغامضة التى قام عليها الفن المصرى القديم بالصورة التى يعرضها لنا طرازه[٨٢].

د- ومن طبيعة البيئة مع طبيعة الشعب المصرى وتطور مسيرته تجئ خاصية (التماسك ووحدة الطراز)، وذلك أن جميع أعمال المصريين، معابد كانت أو تماثيل أو صورا أو مصنوعات يدوية، تتميز بالتجانس الشديد الذى ينتهى إلى شعور بطابع الوحدة والأستمرار.

وان ما يلفت النظر لأول وهلة فى الفن المصرى القديم من مظاهر عظيمة، ورابطة متصلة، تظهر سمة أخرى لهذا الفن تتمثل فى حياة نابضة، وتنوع يخلب العقول، وجمال تشكيلى فيه مشاعر نبيلة وأناقة وهدوء وصفاء، هذا الوجه الثانى الذى يتميز به الفن المصرى القديم، لا يلبث هو الآخر طويلا حتى يتكشف لنا، فيحدث فى نفوسنا سحرا، يتباين تباينا جميلا مع ذلك الأثر القوى الذى أحدثه الوجه الأول فى نفوسنا[٨٣].

هـ- الاهتمام بإبراز مظاهر القوة: فكما ظهر الآلهة والملوك وأصحاب القبور فى النقوش والرسوم ولهم قامة أعلى من قامة سواهم من الناس، فإن قدماء المصريين قد شعروا بالمثل بحاجتهم إلى اقامة مبانى ضخمة تبعث الشعور بعظمة وجلال آلهتهم وملوكهم، واستعانوا بأشكال معمارية تخضع لمقاييس هندسية دقيقة حتى يزيدوا من الايحاء بالضخامة.

و- التنوع فى الوحدة. ومع ذلك، فإن تلك الارادة التى تتجه صوب إبراز الفخامة والعظمة لا يتولد عنها أى شعور بالرتابة المملة، لأنها تنفذ بوسائل شتى كثيرة التنوع، تبعا للموقع الذى يقام عليه البناء. ويصل الإنسان إلى هذا عن طريق مجموعة متتابعة من الطرق المنحدرة والسطوح الفخمة التى تعادل فى جلالها وبهائها المبانى الاغريقية كما هو الحال فى الدير البحرى[٨٤].

ز- استهداف النفع وليس الجمال فى ذاته: فإنا نجد فى نصوص تكريس المعابد إشادة بجودة المواد التى استعملت فى بنائها، وندرة وبهاء ولمعان هذه المواد، وعدم قابليتها للتهدم ولكن لا نجد فيها اطلاقا أى ذكر لجمال القوام وصفاته، وما يتسم به الصرح ذو البداية من تناسب موفق فى الأجزاء، أو ما فى النقوش من جمال أخاذ. ولم يطالب الكهنة بأن يكون المعبد تحفة فنية، وانما كان يكفى هؤلاء الكهنة ذوى النقوش المادية النفعية أن يكون المعبد "دارا للخلود"، ولم يستهدفوا شيئا غير هذا حينما شيدوا تلك الصروح العملاقة ذات البوابات التى استطاعت حتما بضخامة كتلتها، وقوة خطوطها، أن توهم بمناعتها ضد أشد عوامل الهدم والدمار، بصورة لم يتأت لأى بناء أثرى أن يبلغها[٨٥].

ح- فن جماعى مجهول الصانع: فإذا كانت المبادئ النفعية هى الوحيدة التى اعتنقها الكهنة والملوك وأهل الفن، لم يهتم أحد بتسجيل وحفظ أسماء الفنانين، باستثناء عدد من المهندسين المعماريين، فضلا عن عدد قليل نادر، مثل (هو) وهو مصور، وشخص يدعى تحتمس وآخر يدعى (يويوتى) وكانا يديران ورشا للنحت فى عصر العمارنة، أو اسم ذلك الفنان الذى زين الفناء الداخلى لمعبد (أبو سمبل) الكبير بنقوش جريئة[٨٦].

وكانت العمارة أفخم الفنون المصرية على الاطلاق، فقد كان المصريون القدماء أول من وضعوا أسس فن العمارة، كما أنهم كانوا أول من استخدموا الأعمدة فى البناء، وليس من شك فى أنهم كانوا خير من ملك زمام نحت الأحجار وصقلها فبنوا ونحتوا ما شاء لهم من الجرانيت والمرمر والبازلت والديوريت، وقد سيطروا عليها سيطرة تامة. فى عهد الأسرتين الثالثة والرابعة أيام عصر بناة الأهرام، حين وصل الفن مبلغا لم يبلغه فى أى عهد من عهوده التالية[٨٧].

وتتميز العمارة المصرية فى أقدم عهودها بالبساطة والضخامة والعظمة التى تشعر بالقوة والاستقرار وتتجلى روح البساطة هذه فى أهرام الجيزة وهرم سقارة المدرج ومعبد أبى الهول. على أن هذه البساطة كانت مقرونة بالجمال والانسجام وغير ذلك من أصول العمارة.

ولقد كان المصريون أول من أقاموا الأبهاء الفسيحة ذات الأعمدة الشاهقة وكانوا يلجأون فى اضاءتها إلى جعل الأعمدة الوسطى أعلى كثيرا من الأعمدة الجانبية، وكان من نتيجة ذلك أن السقف عند الجانبين يكون أكثر انخفاضا عنه فى الوسط، وبذلك يدخل الضوء من خلال ما بين السقفين من فتحات.

وتتكون المعابد المصرية عادة من عدة قاعات تتتابع واحدة تلو الأخرى، وكان من عادتهم لكى يزيدوا جو المكان رهبة وروعة وسحرا أن يجعلوا ارتفاع هذه القاعات يتناقص كلما أوغلنا فى المعبد، فكانوا لذلك يرفعون الأرض تدريجيا ويخفضون الأسقف تدريجيا أيضا[٨٨].

وكان للمهندس المعمارى مكان ومكانة ممتازة فى العصور القديمة المصرية، حيث كان يختار الصفوة المنتقاة من أعلى وأرقى المستويات الادارية فى المملكة ذات المسئوليات الضخمة، فمثلا أيمحتب، ذلك المهندس المعمارى الذى بنى مجموعة المعابد الجنائزية للملك زوسر كان مستشارا للملك ورئيس وزرائه، ثم معبودا عبده الشعب بعد ذلك، كما كان آمون حوتب ابن (هابو) الذى أقام تمثالى "ممنون"ن نجد أيضا الكثير من مقابر المهندسين المعماريين وقد أحاطت بالاهرامات وبنيت حولها أجساد الأمراء والوزراء من المعماريين مما يثبت مكانتهم ودرجة قربهم من الملك أو الاله[٨٩].

أما الفنون الصغرى فكانت أعظم الفنون فى مصر، ذلك أن الحذق والجد اللذين شيدا الكرنك والأهرام، واللذين ملأ الهياكل بتماثيل الحجارة، قد انصرفا أيضا إلى تجميل المنازل من داخلها وتزيين الأجسام، وابتكار جميع متع الحياة ونعمها، فالنساجون قد صنعوا الطنافس والقماش المزركش الذى يزين الجدران، والوسائد الغنية بألوانها والرقيقة فى نسجها رقة لا يكاد يصدقها العقل وانتقلت الرسوم التى ابتدعوها منهم إلى سوريا، ولا تزال منتشرة فيها إلى هذه الأيام. ولقد كشفت مخلفات توت عنخ آمون عما كان عليه أثاث قدماء المصريين من ترف عجيب، وعما بلغته كل قطعة وكل جزء من قطعة من صقل بديع، سواء فى ذلك كراسيه المكسوة بالفضة والذهب البراقين، والسرر ذات الرسوم الضخمة والصناعة الدقيقة، وصناديق الجواهر وعلب العطور الدقيقة الصنع الجميلة النقش[١٠].

ومن الملاحظ أن الفنانين المصريين حرصوا على تصوير أغلب الأطفال الصغار عراة تماما، ويمكن تفسير ذلك بثلاثة احتمالات[١١]:

أولا- أنهم ورثوا تصويره فى عصور مبكرة بعيدة، ثم اعتبروه فى عصورهم المتقدمة الناضجة تقليدا فنيا واجب الاتباع. ويمكن رد المراحل الأولى لتصويرهم له إلى عصر بداية الأسرات (بين القرون ٣٢ و٢٩ ق.م)، وهو عصر مبكر ليس من المستبعد أن أهله لم يكونوا يتحرجون من إظهار أطفالهم عراة فى حياتهم العادية، بعد أن اعتاد أسلافهم على ذلك فى عصور فجر التاريخ القديمة، ولم يتحرجوا بالتالى من أن يسجلوا عرى أطفالهم فى صورهم وتماثيلهم.

ثانيا- أنهم اعتبروا العرى وسيلة فنية ناجحة للتعبير عن حداثة السن بوجه عام، ذلك لأنه يلاحظ أننا وإن تيسر لنا أن نفرق بسهولة

كاملة بين ملامح الوجوه وتقاسيم الأجسام وطريقة الوقوف والجلوس فى الصور المصرية للذكور والإناث، والشباب والشيوخ، إلا أنه يصعب علينا أن نتبين بوضوح ملامح الطفولة وليونة جسدها وامتلاء وجهها ودقة تقاطيعها، فى معظم صور الصغار المصريين الذين صور الفنانون تقاطيعهم قريبة من تقاطيع البالغين، وصوروا انتصابتهم حين وقوفهم، قريبة من انتصابة الغلمان مكتملى النمو متينى العظام!

ثالثا- أنهم أرادوا التعبير بالعرى عن بساطة الطفولة بوجه عام، وما يتصوره الأبوان فيها من براءة وسذاجة، ويتفق هذا الاتجاه فى بعض أمره وما يستحبه الآباء والأمهات حتى عصرنا الحاضر من تصوير الطفل الذى لا يزال فى طور الحبو والرضاعة عاريا كما ولدته أمه، بينما يدثرونه فى غير لحظة التصوير بما ينوء به من اللفائف والملابس، وذلك رغبة منهم فى تصوير بساطة حياته، وتصوير ما يتخيلونه فى جسمه من تناسق وحلاوة، فضلا عن الشعور بأنه ما من حرج فى إظهار عورته فى صورة يراها الصغير والكبير[٩٢].

أما من حيث فنون الموسيقى والغناء والرقص والدراما فواضح مما ترك المصريون من صور حياتهم أن الموسيقى قد كان لها فى تلك الحياة مكان أثير، ومع ذلك فمعلوماتنا عن طرق تعليمها قاصرة لا تكاد تعدو تمرين الفتيات على هز الصلاصل، يتعلمنه على أيدى معلمين من ذوى المكانات العالية ومنهم كبار الكهان. وواضح أيضا أن فتياتهم قد كن يمارسن ألوانا من الرقص بين أيدى مدربين يجدن صنعته وتوقيعه، وأكبر الظن أن ممارسة هذا الفن لم تكن من الأمور السهلة، وأن فتيات مصر لن يلقين من التعب فى سبيل اتقانه وتجويده ما يلقى طالبات (الباليه) فى العصر الحديث[٩٣].

ولن نجد دليلا على قيمة فنون الموسيقى وألوان الرقص لدى أسلافنا من آل فرعون، وحرصهم على اتقانها وتجويدها من أن نقع على آثار ذلك واضحة بين مناظر الحياة اليومية المسجلة على صفحات قبور النابهين من علية القوم وأصحاب المقامات العلى، يرون فيها ألوانا من ألوان الاستمتاع بحياة النعيم.

ولما كان للتعليم فى مصر القديمة طبيعة مهنية، وكان هناك -غير هواة الموسيقى والرقص- من يحترفونها احترافا، فقد اقتضى الأمر تنظيم التعليم والتدريس فى هذا المجال على أيدى معلمين مهرة يحذقون تلك الفنون.

وقد أثبت المؤرخون أن المصريين القدماء، استعملوا آلات الطرب المختلفة منذ أقدم العصور، سواء أكانوا فى منازلهم فى الولائم والأفراح أم فى المحال العامة فى الأعياد والاحتفالات الدينية، ونحن نستطيع أن نفرق بين نوعين منها: موسيقى منزلية وأخرى عامة، ونحن نعنى بالموسيقى المنزلية هذه الموسيقى التى تحتاج إلى الآلات التى كان من السهل العزف عليها لغير المحترفين، كما نعنى بالموسيقى العامة هذا النوع الذى يحتاج إلى مجموعة من الآلات التى لا بد منها لتكوين فرقة موسيقية كاملة، وهذه الآلات الموسيقية كما عثر عليها فى الآثار أو جاءتنا عن طريق الصور أو النصوص تدل دلالة واضحة على براعة قدماء المصريين فى صنع هذه الآلات وإجادة العزف عليها[٩٤].

وكان طبيعيا أن تتطور الموسيقى المصرية بتطور الحضارة، ومن هنا شهدت الدولة الحديثة تغيرا عما كانت عليه فى الدولتين القديمة والوسطى، فالهدوء والاعتدال والبطء والبساطة وغيرها من صفات الموسيقى القديمة، كل أولئك قد اختفى، وحل محله موسيقى على نقيض

تلك الصفات، كذلك تبدلت الآلات الموسيقية فى كثير من أنواعها، وما تبقى من الأنواع القديمة دخل عليه كثير من التغيير، فتعددت أنواع آلة الصنج، وكبر حجمها وزاد عدد أوتارها كثيرا، بالرغم من أن مركز هذه الآلة كان ثابتا جدا فى مصر لاستعمالها فى العبادة وما أكسبها ذلك من الأهمية الخاصة لحفظها بعيدة عن المؤثرات الخارجية، ومع هذا فقد ظهرت آلات جيدة أصبحت الموسيقى التى تؤديها جادة مبالغة فى الحدة، كثيرة الضوضاء[٩٥].

وكل من له اتصال تام بالمصريين فى عصرنا لا يسعه إلا أن يحمل معه ذكرى غناء الفلاحين والبحارة تتجاوب فى الحقول الخضراء وعلى مياه النيل الصفراء اللون. ولسنا نعرف إذا كان هذا الغناء الخاص يرجع إلى الوراثة من الزمن القديم، ولكن الشعور بلذة الغناء يرجع بلا شك إلى الوراثة، فكل من الفلاح وصاحب المهنة فى مصر القديمة كان يستعين على عمله الشاق بغنائه المتواضع حتى لقد كان الغناء يعد جزءا من العمل الذى يقوم به العامل، يدلنا على ذلك أن المثال عند تمثيل ما يريده كان يضيف الأغنية إلى الصورة الممثلة[٩٦].

وكانت العادة العامة عند قدماء المصرين تقضى بأن يتولى من يغنى ضبط النغم بتصفيق الأيدى، وكان المغنى يفعل ذلك بتحريك الأيدى فحسب، وقد كان للمصرين صلة لا انفصام لها تربط بين الغناء الفنى الصحيح والتصفيق، ويبدو هذا فى كلمة (يغنى) فى الزمن القديم، إذ كانت تكتب دائما بعلامة الذراع. وقد حافظت الدولة الحديثة على هذه العادة الخاصة بالتصفيق بالأيدى لضبط النغم، ويبدو هذا وضحا حتى يومنا هذا[٩٧].

ومن الأغانى التى كان يغنى بها العمال والفلاحون، أغنية يترنم بها الحمالون ترويجا لهم فى أثناء جر أكياس الحبوب إلى السفن، تقول كلماتها:

"انقضى اليوم بأكمله
نحمل القمح والحب الأبيض
لقد امتلأت المخازن
وجاوزت أكوام الحزم حدها
وامتلأت السفن الواسعة
وفاض القمح"(٩٨).
ويشكو فتى فى أغنية عاطفية فيقول(٩٩):
"سأرقد فى حجرة نومى
لما أصابنى من ضيم
عندما يأتى جيرانى ليرونى
وتأتى معهم حبيبتى
فتجعل الأطباء يخجلون
لأنها تعرف سبب علتى"!!

ولقد كانت الفكرة السائدة إلى عهد قريب عند السواد الأعظم أن الإغريق هم الذين اخترعوا (الدراما) وأن (ايسكلس) هو أبو "التراجيدى الغنائية"،(وان كان ما كتبه لا يمكن أن ينطبق عليه هذا الاسم كما نفهمه نحن الآن)، لكن الكشوف الأخيرة قد أثبتت ميزة السبق والاختراع لمصر بلا منازع فى القدم، إذ أن (ايسكلس) بدأت تظهر كتاباته فى عالم التأليف التمثيلى سنة ٤٩٩ ق.م على حين أننا نجد فى مصر (دراما تمثيلية) ظهرت حوالى سنة ٣٤٠٠ ق.م ونعنى بذلك (الدراما المنفية)، ثم كتب بعدها على ما يقال (الدراما) المسماة (انتصار حور على أعدائه)، فى الأسرة الثالثة، وأخيرا (دراما التتويج) التى كتبت فى أوائل عهد الدولة الوسطى أى نحو سنة ٢٠٠٠ ق.م(١٠٠).

ولعل البداية الحقيقية تعود إلى عالم المصريات (زيته) Sethe الذى قام بدراسة نصين، أحدهما (حجر شباكه) والثانى (بردية الرامسيوم

الدرامية)، واستخلص ما سماه بالملامح الأساسية للحوار المسرحى. والواقع أن (زيته) من خلال هذه الدراسة وضع أساسا نظريا مازال يمثل حجر الزاوية فى الدراسات اللاحقة لاثبات أو إنكار المسرح المصرى القديم(١٠١).

ولم تقف محاولة اكتشاف الدراما عند (زيته) بل تلقف (دريتون Driton) الكرة مبتدئا من الحوار كأساس للبحث وأن كان فى صياغة جديدة، فقد حدد أن الحوار المسرحى لابد أن يتسم بثلاث قسمات: ثبت بأسماء الشخوص الذى يكشف عن حوار بينها، الارشادات المسرحية، ونوعية الحوار، أى طابعه الدرامى(١٠٢).

والاضافة الثالثة، هى المسرحية التى قدمها (فيرمان Fairman)
وكان المسرح نوعين، فمن ناحية كانت الطقوس الدينية فى المعابد تصحبها أحيانا بعض الحركات الايمائية، وتلك كانت (أسرارا مقدسة). من ناحية أخرى ظهرت عروض عامة مستقلة عن المعبد وطقوسه، تقدم مسرحيات كتبت نثرا أو شعرا، وأحيانا تكتب بمزيج من النثر والشعر، تستمد مادتها من الميثولوجيا المصرية، وتقوم الآلهة فيها بأدوار البطولة، وقد وصلتنا أحيانا مستقلة، ولكنها غالبا ما كانت متضمنة فى الأشعار الدينية أو السحرية(١٠٣).

كما يمكن أيضا إلحاق (التلاوات الموسيقية الايمانية) فى باب المسرح الاستعراضى الذى كان قدماء المصريين مولعين بها، وهكذا، فإن (مراثى ايزيس ونفتيس) كانت تنشدها راقصات موسيقيات أمام بوابات المعابد فى فترة الحداد على (أوزيريس)(١٠٤).

٧- التربية البدنية:

الغالب أن برامج التربية فى المدرسة المصرية قد شملت تربية الأبدان إلى جانب تربية العقول والألباب، والمرجح كذلك أن يكون للطبيعة المصرية السمحة أثر فى تحبيب الرياضة إلى نفوس المصريين وإقبالهم عليها يمارسونها على مدار فصول العام. ولسنا نستبعد أن طبيعة حياتهم وظروفها قد اقتضتهم ذلك، فهم قد كانوا حريصين على صحة أبدانهم حتى تعينهم على تحمل مشقة العمل خاصة وأن الجمهرة الكبرى تعمل بالزراعة فتقضى نهارها كله فى الحقول والمزارع، وكانت الألعاب الرياضية من وسائلهم إلى ذلك يمارسون منها ألوانا مختلفة نراها بادية فيما بقى لنا من صور حياتهم المنشورة على صفحات قبورهم من زمان الدولة القديمة، ثم فى تماثيلهم ورسومهم الباقية فى ذلك العهد(١٠٠).

ولو أن للأغريق على الرياضة فضلا لا يمكن إنكاره، ذلك أنهم أسبغوا عليها أهمية حيوية عندما جعلوها دعامة أساسية من دعائم نظامهم التربوى وثبتوا لها الكثير من القواعد والمبادئ ووسعوا مبارياتها ومجدوا أبطالها، إلا أن المصريين القدماء كان لهم أيضا السبق فى ابتكار كثير من ألعاب الرياضة التى لم يعرفها الأغريق إلا بعد مئات السنين(١٠٦).

عرف المصريون القدماء من الرياضة: المصارعة وحمل الأثقال والقفز الطويل والتحطيب والعدو. ولقد حفظت لنا الآثار المصرية القديمة عديدا من المناظر التى تصور هذه الفنون، بقواعدها وأوضاعها المختلفة. صورت رياضة المصارعة لوحات من الدولة القديمة، اشترك فى أوضاعها صبية صغار، ولوحات من الدولة الوسطى، أدى أوضاعها فتية محترفون، وعلى الأقل فتية متمرنون، ولوحات من الدولة الحديثة، اشترك فى أوضاعها فتية مجندون.

وأوضح مناظر المصارعة من عهود الدولة القديمة، منظر سجلته لوحة صغيرة فى مقبرة بتاح حوتب، أحد وزراء القرن الخامس والعشرين ق.م، وسجلت فيه ستة أوضاع للمصارعة، مع ألعاب خفيفة أخرى، يؤديها صبية صغار عراة يبلغون الستة أو يجاوزونها، ويشاركهم فى لعبهم ابن الوزير نفسه، ومع بساطة أوضاع المصارعة التى صور عليها هؤلاء الصبية، فهى أوضاع رتيبة منظمة، وذلك مما يعنى أن أصولها الخشنة بدأت فى عصور قديمة تسبق العصر الذى صورت فيه، ثم تدرجت وتهذبت وسهلت إلى الحد الذى جعل الصبية الصغار يتشجعون عليها ويقبلون عليها.

وفى تصوير ابن الوزير فى هذه المجموعة، ما يعنى أن الطبقة العليا لم تكن تأبى رياضة المصارعة على أبنائها، سواء عن وعى تربوى أدركه الآباء أنفسهم، أو عن رغبة الأبناء فيها رغم عنفها، لما توفره لهم من متعة، وتشبعه فيهم من رغبة الغلبة، وإظهار المهارة.

وصورت لوحات المصارعة فى الدولة الوسطى خلال القرن العشرين ق.م أوضاعا أخرى أوفر عددا وأكثر نضجا ومهارة، كان يؤديها فتية ذوو مران فى سن الشباب، يحتمل مع وفرة أعدادهم التى صوروا بها، أنه كان منهم محترفون يتكسبون من مبارياتهم وعرض ألعابهم، ولو أنه يصعب أن نفترض رأيا أو آراء، فيما إذا كانوا يقيمون مبارياتهم فى مساحات عامة كالأسواق، وخلال مناسبات الأعياد، أم يقيمونها فى بيوت السراة، وخلال حفلاتهم الخاصة، وما إذا كانوا يعدون مساحة المبارة بشكل خاص، كأن يحددوا جوانبها بعلامات خاصة ويفرشوا أرضها برمل أو حصير، أم يكتفوا بتمهيد أرضها ويتركوها على حالها.

وعلى العموم فقد رمزت الفنون المصرية القديمة إلى طائفتين من الرياضة البدنية: طائفة يسيرة الأداء، بسيطة الأوضاع، تستهدف الرشاقة وتنمية البدن، فضلا عن أغراض اللهو والمتعة، كان الصبية والغلمان يلعبونها داخل الدور تقريبا وقريبا من الدور، وفي أماكن التعليم، وكانوا يؤدون فيها أوضاعا وحركات تشبه بعض أوضاع الجمباز الحالية، وطائفة أخرى من الألعاب، استلزم آداؤها نصيبا كبيرا من الجهد والمهارة والتمرين، وأداها الشبيبة، هواة ومحترفين، ومارسها العسكريون. وكانت منها ألعاب المصارعة وحمل الأثقال والقفز والتحطيب والعدو والسباحة والتجديف، وربما الملاكمة أيضا[١٠٧].

ولما كان لألعاب الأطفال ونشاطهم اغراء خاصا، وكانت باعثا للبهجة والسرور في أفئدة الآباء، فقد تسلى المصريون برؤية أطفالهم يلعبون ويمرحون. وقد أمدتنا الجدران بصور متعددة لأطفال منهمكين في ألعابهم ومبارياتهم، وبعض هذه الألعاب يشبه ما يمارسه أطفالنا الآن، والبعض الآخر لم نتوصل إلى فهم أصوله بعد[١٠٨].

وكانت معظم هذه الألعاب جماعية يشترك فيها عدة أطفال، وتخضع لقواعد ونظم خاصة، وكان اللعب بالكرة من أحب الألعاب إلى قلوب الفتيات ويكاد يكون مقصورا عليهم دون الفتيان، وكانت الفتيات يتقاذفن الكرة في رشاقة ومهارة دون أن تسقط على الأرض. وكن في بعض الأحيان يجمعن بين الركوب وتقاذف الكرات، كما كن قادرات على اللعب بعدة كرات في وقت واحد، أو يلعبن بالكرات في أوضاع خاصة، كأن يقذفن الكرات ويلتقطنها وقد ثنين أذرعهن.

ومن ألعابهم أن يجلس طفلان على الأرض ظهرا لظهر، وقد تشابكت أذرعهما، ويحاول كل منهما أن ينهض قبل الآخر، دون الاستعانة بذراعيه.

كذلك أغرم الأطفال الصغار بالصعود فوق ظهور الأطفال الكبار الذين يزحفون على الأرض حاملين هؤلاء الصغار(١٠٩).

وظلت المباراة بالعصى، رياضة مستحبة شائعة، ولم تقتصر على هواة الريف شأن لعبة التحطيب الحالية، وانما توافر لها هواتها كذلك من أهل المدن وشباب الجيش، وتوافرت لها طرق عدة وأوضاع فنية، وتطلبت مهارة لاعبيها مثلما تطلبت قوة سواعدهم.

ودلت مناظر اللعبة فى عصر الدولة الحديثة على أن الفراعنة كان يطيب لهم أن يشهدوا مبارياتها من شرفات قصورهم، وأن الأمراء كان يستخفهم الحماس أحيانا فينزل بعضهم إلى حلبة المباراة، ليكونوا على كثب من المتبارين، ويشجعوهم بعبارات التشجيع والتهنئة(١١٠).

وليس من شك فى أن الألعاب الجماعية تظل أكثر أثرا فى نفس الصبى أو الفتى وتكوينه من الألعاب الفردية، غير أن نجاح هذه الألعاب الجماعية يتطلب شرطين أساسيين، وهما: قبول رب الأسرة لاتجاه أبنائه إلى ممارستها واختلاطهم بغيرهم، ثم توافر المكان المناسب لها، وذلك فضلا عن شرط ثالث وهو وجود قواعد لها تجرى بمقتضاها.

ويدل على تقبل رب الأسرة المصرى لاتجاه أبنائه إلى الرياضة الجماعية، مالم يكن بحاجة إليهم فى كسب معاشه، رضاه بتصويرهم يلعبون مع أقرانهم فى مناظر مقبرته، فقد أتت بعض مساطب سقارة

من الدولة الوسطى بعدد آخر من مناظر رياضية تضم مجموعات من الفتية ومجموعات من الفتيان. ولم تأب التعاليم المكتوبة فى الوقت ذاته اختلاط الصبى بغيره[111]، وكان من ذلك أن قال خيتى بن دواوف فى تعاليمه لولده أن "صادق شخصا من أبناء جيلك (أى من سنك)"، وان كان قد دعاه فى الوقت نفسه إلى الابتعاد عن الرحماء.

ويحتمل ممارسة الصبية المصريين لألعابهم الرياضية الجماعية خارج الدور بالنسبة إلى التلاميذ فى المدارس، فثمة ثلاثة متون مصرية يحتمل معها وجود ساحات للعب كان تلاميذ المدارس يختلفون إليها، وان كنا لا نبلغ بهذا الاحتمال حد اليقين. والمتن الأول عبارة عن رسالة وجهها معلم إلى تلميذه ودعاه فيها إلى التفرغ للكتابة والقراءة قائلا: "لاتصرف ذهنك لساحة الملعب(؟) ودع الرمى ظهريا والقذف(؟) واقض يومك تكتب بأصابعك واقرأ بالليل". والمتن الثانى رسالة مماثلة يقول المعلم فيها "ان ما أعلمه لك ليس فى ذهنك ..."، وانما (أنت) وساحة الملعب (؟) فى مواجهتك دائما كالفرخ من خلف أمه"، فهل كانت ساحة الملعب هذه ساحة منظمة تمارس فيها لعبنا الرمى والقذف وبقية الألعاب الأخرى، ولها صلة ما بمدرسة كانت مجرد أرض فضاء يستغلها التلاميذ من تلقاء أنفسهم للعبهم الخاص بجوار مدرستهم ولهذا حاول المعلم أن يصرف تلاميذه عنها؟[112].

فى المتن الثالث بعض الاجابة على هذا، وهو عن قصة (الصدق والبهتان) وتحكى عن ولد ما صور أنه "ألحق بالمدرسة فتعلم أن يكتب جيدا جدا، وكان يمارس كل فنون النزال وتفوق على أقرانه الكبار الذين كانوا بالمدرسة". والأقرب إلى ترتيب عبارات هذا المتن أن فنون النزال، التى ربما لم تكن أكثر من الرياضة بالنسبة للطالب الناشئ إلا إذا كانت مبارزة مثلا، كانت تمارس فى المدرسة ذاتها وبصورة

جماعية، ولو تأكد ذلك لكانت ساحة الملعب التى ذكرتها الرسالتان السابقتان ذات صلة بمدرسة كذلك[113].

وكان الأطفال يلعبون أيضا ألعابا لا تحتاج إلى كثير من المال، فإذا كان عددهم كبيرا انقسموا إلى فريقين، وفى كل فريق كان كل لاعب يحوط بذراعيه خصر اللاعب الذى يتقدمه، وكان اللاعبان الأولان فى مقدمة الفريقين يقفان متواجهين وقدم كل منهما أمام قدم خصمه ويثنى ذراعيه فوق صدره ويحاول كل منهما اسقاط الآخر، ويشجع بقية الفريق اللاعب الذى فى المقدمة قائلين له: "ذراعك أقوى منه بكثر فلا تتخاذل"، ويردد الباقون، فريقنا أقوى انتصر عليه أيها الرفيق"[114].

أما لعبة "الجدى على الأرض"، فهى عبارة عن سباق القفز على الحواجز، إذ يجلس ولدان على الأرض متقابلين وأيديهم وسيقانهم ممدودة وأصابع الأيدى ممتدة فى انفراج وكعب القدم اليسرى فوق أصابع القدم اليمنى المستندة على الأرض، بهذا يتم تكوين الحاجز الذى يتحتم على اللاعبين الآخرين القفز عليه دون أن يمسكوا، واللاعبون الذين يكونون هذا الحاجز يحاولون بطبيعة الحال أن يمسكوا قدم اللاعب الذى يقفز فإذا أمسك بها انقلب على الأرض وأصبح "الجدى على الأرض" ولا يجوز لمن يقفز أن يأتى بحركات مخادعة بل عليه أن يقفز ويعلن بأعلى صوته قائلا: "أثبت جيدا، فأنا آت اليك أيها الرفيق"

حفلت حياة الناشئة المصريين اذن بما يناسب مراحل نموهم من أنواع الرياضة، فكان منها ما يشبع الميول إلى النشاط والمتعة، وما يستهدف رشاقة الجسم، وما يبتغى القوة ويستدعى الجرأة، كما أن منها ما لم يعوزه القصد التربوى، يزاولها بعضهم فى البيوت الرحبة أو فى الأرض الفضاء، وفى المدارس، ويزاولها بعضهم الآخر أو يجبر عليها

فى تمارين الجيش، ويكون مما يزاوله الكبار والمحترفون منها ما يستثير الصغار إلى تقليده. وليس من شك فى أن الألعاب المنظمة لم تكن مهيأة، لغير قلة من الناشئين، من أبناء السراة والمحترفين وفى تمارين الجيش. غير أن هذا لا يؤثر بشئ فى وصف المجتمع المصرى بالميل إلى الرياضة ما دام قد قبل مبدأها ولم ينكرها أهله إذا تهيأت لهم مزاولتها ولم يكونوا بحاجة إلى وقتهم كله فى كسب معاشهم، بل أن هذا لا يكاد يخلو من وجه شبه على ما كان عليه أمر الرياضة فى أكثر المجتمعات القديمة ايثارا لها وهو المجتمع الأغريقى، فالتربية الرياضية الحقة التى جعلتها أثينا دعامة من دعائمها التربوية لم تكن تتوفر فى الغالب لغير أبناء الأحرار، أو لم يكن يتوافر عليها غير أبناء الأحرار فيها، وكانوا قلة بالنسبة إلى سواهم، وذلك على حين اعتبرت التربية الرياضية فى اسبرطة من صنوف الإعداد الحربى قبل كل شئ[١١٥].

ويخوض المصريون غمار محنتهم الكبرى التى نزلت بهم على أيدى الهكسوس، فيعدون أنفسهم للخلاص منها بتقوية أبدانهم، ويمارسون لذلك ألوانا من الرياضة منها العدو، والتجديف والرماية والفروسية والمبارزة. ويفيق المصريون من غمرتهم تلك، وتضطرهم الظروف إلى أن يخوضوا غمار الحرب على الصعيد العالمى فيعدون أنفسهم لذلك إعدادا لم يسبق له مثيل. وكانت تربية القادة وأمراء الجند تتطلب كثيرا من الثقافة السياسية والعسكرية مما اقتضى المصريين أن ينشئوا مدرسة حربية فى (منف)، يتلقى فيها الشباب فنون الحرب والرياضة العسكرية، وفى مقدمتهم بكر فرعون وولى عهده، فقد جرت التقاليد على أن يؤمر هذا على الجيش[١١٦]. وفى وثائق التاريخ المصرى ما يدل على صرامة التربية العسكرية وصرامة النظم التى أخذوا أنفسهم وأبنائهم بها، فهذا فرعون مصر العظيم تحتمس (الثالث) يبعث ببكر وولى عهده (أمنوفيس)، وهو لم يزل بعد صبيا إلى (منف) ليتربى فى مدرستها الحربية، ثم حذا حذوه خلفاؤه من بعده.

وقامت التربية العسكرية على بث روح النظام، وتقوية البدن، والتعويد على الخشونة وتحمل المشاق، فضلا عن التدريب على أسلحة العصر، ونصيب هذا النوع من التدريب قليل فيما تبقى من متون رجال الجيش. ولكن بعض الفراعنة سجلوا لحسن الحظ، بضعة متون ومناظر صورت تربيتهم العسكرية فى صباهم، كما صورت تربية أبنائهم، وصورت عددا من الأوضاع العامة فى جيوشهم، فعوضوا بذلك جانبا فات القادة أن يسجلوه عن وسائل التدريب والتعليم التى تلقوها أو تكفلوا بها فى حياتهم العسكرية(١١٧).

ويغلب على الظن أن أولى تدريبات الجيش كانت تستهدف تنظيم الخطوة ومشية الصف، وهذه وإن لم يتخلف من المتون المصرية ما يتحدث عن مراحل تعليمها ويسجل نداءاتها، إلا أن ما تبقى من صور رجال الحرب ومجموعات التماثيل، يدل على أن الجندى المصرى كان يلتزم خطوة منتظمة واسعة منذ القرن الخامس والعشرين ق.م على أقل تقدير. فيسير الجندى تلو زميله من الدوريات المحدودة، ويسير الجنود فى صفوف يتكون كل منها من أربعة جنود فى الفصائل والسرايا، ويسير أكثر من أربعة جنود فى تشكيلات الكتائب والفرق الكبيرة(١١٨).

واهتمت تدريبات الجيش بالعدو ومباريات السباق. وشارك أبناء الفراعنة العسكريون زملائهم فى السباق، وافتخر أحدهم بأنه لم يكن يلحق به. وغالى المؤرخ ديودور الصقلى فى تقدير تمارين العدو عند المصريين، فروى فيما سمعه عن معاصرين المصريين، أن الفراعنة كانوا يلزمون أبناءهم بعدو طويل مع زملائهم الشبان، ولم يكونوا يسمحون لأحدهم بأن يتناول طعامه قبل أن يعدو مائة وثمانين مرحلة!!

ومارس العسكريون تدريبات المصارعة، وصورت مناظر المعابد فى طيبة مبارياتهم أمام الفراعنة فى مناسبات النصر الحربى ومحافله، وعند تلقى الهدايا والجرى واستقبال الرسل.

وخضع بعض صغار العسكريين لتمارين شائكة تطلبت من الخفة وحفظ التوازن أكثر مما تطلبت من صلابة البدن. ومن هذه التمارين تمرين يتسلق الغلمان فيه أعوادا طويلة ملساء من الغاب الغليظ أو خشب الصوارى أو المعدن، فى وضع رأسى ما أمكن، ثم ينزلقون عليها فى وضع مائل. ويجهزون مسرح هذا التمرين بأن يثبتوا صاريا غليظا مرتفعا فى وضع رأسى، ثم يسلكون فيه أعوادا مائلة تختلف أطوالها باختلاف مراحل التمرين واختلاف قدرة المتبارين[١١٩].

٨- الحرف والصناعات:

لم تقتصر الأمة المصرية على أن تضم أرضها رجال دين وعلماء فحسب، ولو كان الأمر كذلك ما وجدت الأهرام ولا المعابد والمدائن، وما كانوا قد انتزعوا من المحاجر عمودا من الجرانيت يبلغ طوله أكثر من ثلاثين مترا ونقلوه من أسوان إلى طيبة ويشكلوه على هيئة مسلة نقشوها بالكتابة الهيروغليفية الدقيقة، ثم أقاموها على قاعدتها، ولم يستغرق كل هذا العمل سوى سبعة شهور، مما يدل على ما استطاع المصريون أن يكتسبوه من مهارات عملية فائقة، وخاصة أن هذه العملية قد تكررت عدة مرات خلال كل حكم فى عهد الدولة الحديثة.

ونحن إذ نضمن مجالات التربية والتعليم (الحرف والصناعات) لا نقصد أن نذهب إلى أنها كانت تعلم فى مؤسسات تعليمية، فلم يكن العمل الزراعى أو الصناعى على درجة من الكثرة والعلمية والتنوع بحيث يحتاج إلى قضاء سنوات فى معهد يعلمها، وانما كانت تعلم من خلال (المحاكاة) و(التدريب) و(الممارسة)، فهى إذن صورة من صور

التعليم اللانظامى بحكم ظروف ومستوى المعرفة والمهارة فى هذا العصر.

ويعتبر اكتشاف الزراعة واستئناس الحيوان أحدى العلامات الهامة والخطيرة فى تاريخ البشرية إن لم يكن أهمها على الاطلاق. ويؤكد بعض الباحثين أن مصر – على الأرجح – هى المكان الأول والأوحد فى العالم الذى اخترعت فيه الزراعة، وأنها أول مكان يقوم (بتصدير) الحضارة الزراعية إلى بلاد أخرى مثل ما بين النهرين (العراق) والهند وغيرهما.

وكان هيرودوت يعتقد بسذاجة أن الفلاح لا يعمل شيئا اطلاقا بمجرد أن يفرغ من حرث الأرض وبذر الحبّ حتى يحين وقت الحصاد، ولو فعل هذا، لقضى على محصوله إذ أن الأمطار، حتى فى الدلتا ليست كافية فتغنى عن رى الحقول، وفى الصعيد بصفة خاصة سرعان ما تجف الأرض وتتلف الحبوب مثل الشعير الذى تلف فى حدائق أوزوريس عندما تركت دون أن تروى، فرى الأرض إذن كان أمرا ضروريا مما كان يرتبط به من جهود ضرورية[١٢٠].

ولا نزاع فى أن طرق الزراعة فى بلد ما يتوقف قبل كل شئ على مقدار مدنية أهلها، ثم تتدرج معها، ولكن فى أقاليم محدودة نجد أن استثمار الأقاليم من حيث النبات أو الحيوان خاضع إلى البيئة وبخاصة الجو وصلاحيته لنمو أنواع خاصة من النبات أو تربية نوع خاص من الحيوان، ولذلك فإن الطرق التى يجب أن يستعملها أهل بلد ما نراها مرتبطة بهذه الأحوال[١٢١].

وقد استقى المؤرخون معلوماتهم عن طرق الزراعة فى مصر فى عهد الدولة القديمة من مقابر عظماء القوم، والنقوش التى وجدت على

جدران الطرق الجنازية لملوك الأسر الخامسة والسادسة، وأهمها منطقة أهرام الجيزة وسقارة وميدوم، وكذلك مقابر أمراء أسوان من الأسرتين الخامسة والسادسة.

وقد أدرك المصرى منذ أقدم العصور أن ماء النهر هو عماد حياته، فجهد فى تهذيب النهر وشق القنوات والترع حتى غدت بلاده شبكة من القنوات يوجهها إلى أرضه الصالحة للزراعة ليفيد من ماء النهر جهد استطاعته.

كذلك حرص على رعاية القنوات وتطهيرها وتعميقها وتخليصها من الغرين الذى يسد مسالكها، وهذا أمر بالغ الأهمية لا يقل خطورة عن أمر الزراعة نفسها(١٢٢).

ولم تكن القنوات والترع لتصل إلى بعض الجهات المرتفعة الصالحة للزراعة، ولذا نراه من أقدم العصور اخترع (الساقية) و(الشادوف) للتغلب على هذه العقبة.

كذلك استطاع المصرى القديم، أن يعرف المواعيد المناسبة لبدء زرع الأنواع المختلفة من النباتات ومواعيد الحصاد وحفظ المحصول وتنظيم الرى، وبناء القرى، وغير ذلك من شئون الحياة الزراعية المستقرة. والملاحظ أن أيا من هذه العمليات لا يمكن أن يقوم بالمجهود الفردى(١٢٣).

أما بالنسبة للصناعة فلم يحفظ لنا من مصنوعات المصريين فى الدولة القديمة شئ كثير، فما سلم من عبث اللصوص لم يسلم أكثره من عوادى الزمن، ومع ذلك ففيما تبقى منها وفيما حفظت صوره على جدران المقابر ما يدل على ازدهار الصناعات المختلفة اذ ذاك، وعلى

كثرة ما أنتجه الصناع المصريون، وما بلغوه من ذروة الكمال والاتقان، وما كان لمصنوعاتهم من أشكال جميلة تنم عن شعور فنى جميل، ولا يرجع الفضل فى هذا كله إلى أدوات الصانع، فقد كانت كلها بسيطة، وانما يرجع بغير شك إلى ما كان للصانع من مهارة ممتازة وقدرة بارعة، وحسن ذوق[١٢٤].

لقد استغل المصرى المواد التى قدمتها له بيئته، فقد عرف خصائصها ومميزاتها وفوائدها، كما أنه بدأبه على العمل وكده واجتهاده، استطاع أن يصل باستمرار إلى أفضل الطرق التى يستخدم فيها هذه المواد، وأن يكيف هذه الطرق بما يلائمه، ولم يقف الصانع المصرى جامدا، بل يتضح تماما أنه كثيرا ما أدخل تعديلات شتى على صناعاته، وصل إليها أحيانا بالمران، وأحيانا أخرى بمحاولة تطبيق ما تبينه من أساليب أخرى أجنبية سرعان ما فهم سرها ولا يلبث أن يكيفها ويضفى عليها من براعته وجهده، ويخطو بها إلى الأمام خطوات واسعة[١٢٥].

وتدل الآثار المكشوفة فى مقبرة (حمكا) على أن المدنية المصرية قد بلغت شأنا بعيدا فى أواسط الأسرة الأولى، إذ تعتبر المجموعة التى وجدت فيها من الأسلحة، والأدوات المختلفة التى صنعت بإتقان، فريدة فى بابها، يضاف إلى ذلك مجموعة ثمينة من الأقراص رصعت من مواد مختلفة (الحجر) الخشب، النحاس، والعاج، وقد ثقب كل منها فى وسطه بثقب ينفذ منه عصا.

ومن عهد الأسرة الرابعة، نجد صناعة المعادن، وصناعة الأوانى من الحجر والفخار، وصناعة الأخشاب، وكل الصناعات الأخرى الدقيقة، قد برع فيها الصانع الفنان وضرب فيها بسهم صائب فى الرونق والجمال والرشاقة[١٢٦].

وعرفت مصر فى عهد الأسرات الأولى كيف تصنع بمزج النحاس بالقصدير وصنعت فى أول الأمر أدوات برنزية كالعجلات والهراسات والرافعات.

وصنع المصريون من نبات البردى الحبال والحصر والأخفاف والورق واستخدموا الكيمياء فى الصناعة.

وكانت الكثرة الغالبة من الصناع الأحرار، وقلتهم من الرقيق، وكان العاملون فى كل صناعة من الصناعات يؤلفون طبقة خاصة، وكان يطلب إلى الأبناء أن يتعلموا نفس صناعات آبائهم.

ومن الذهب صنع المصريون الحلى، وتدل صناعتها فى بداية الأسرات على مهارة كبيرة، كما صنعوا منه أسلاكا رفيعة وصفائح رقيقة كانوا يحلون بها بعض العصى ونماذج الموائد.

وصنع المصريون الأكاليل والقلائد والخرز من الأحجار الثمينة، وكانوا يثقبونه ويفعلونه بدقة وعناية.

ونحن إذ نسجل على هذه الصفحات مثل هذه المظاهر التى تقدم فيها قدماء المصريون فى الحرف والصناعات والفنون لا نقصد أن نسجل فقط هذا التقدم، وانما لنلفت النظر إلى أن استمرار هذه الحضارة فى هذه المجالات قرونا طويلة، إنما يدل على الاهتمام المتزايد بـ(تعليم) هذه الجوانب للأجيال الجديدة دائما، وإلا لحدث فيها انقطاع وما شهد تطورها هذا الاطراد فى التقدم والتحسن.

هوامش الفصل الخامس

١- أنطوان ذكرى، مفتاح اللغة المصرية القديم، د.ن، د.ت، ص١٢.
٢- المرجع السابق، ص١٣.
٣- جان فيركوتير، مصر القديمة، ص٣٦.
٤- سيد توفيق، معالم تاريخ مصر الفرعونية، ص٦٥.
٥- المرجع السابق، ص٦٦.
٦- المرجع السابق، ص٦٧.
٧- فيركوتير، ص٣٧.
٨- سليم حسن، مصر القديمة، جـ١، ص١٢٨.
٩- الكسندر ستيبتشفيتسن، تاريخ الكتاب، ترجمة محمد. م. الأرناؤوط، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، ٢١٦٩، يناير ١٩٩٣، جـ١، ص٣٨.
١٠- المرجع السابق، ص١٩٩.
١١- أحمد بدوى وجمال الدين مختار، تاريخ التربية والتعليم، جـ١، ص١٩٨.
١٢- المرجع السابق، ص١٩٩.
١٣- المرجع السابق، ص٢٠٠.
١٤- عبد العزيز صالح، التربية والتعليم فى مصر القديمة، ص٢٤٦.
١٥- المرجع السابق، ص٢٤٨. ١٦- المرجع السابق، ص٢٥١.
١٧- المرجع السابق، ص٢٥٢. ١٨- المرجع السابق، ص٢٥٦.
١٩- المرجع السابق، ص٢٥٧.
٢٠- أحمد بدوى وجمال الدين مختار، تاريخ التربية والتعليم فى مصر، جـ١، ص٢٠٠.
٢١- المرجع السابق، ص٢٠١.
٢٢- عبد العزيز صالح، التربية والتعليم فى مصر القديمة، ص٢٦٠.
٢٣- سليم حسن، الأدب المصرى القديم، جـ١، ص١٢.
٢٤- لويس بقطر، تأملات فى الأدب المصرى القديم، ص٧.
٢٥- المرجع السابق، ص٨.
٢٦- سليم حسن، الأدب المصرى القديم، جـ١، ص١٤.
٢٧- كلير لالويت، الأدب المصرى القديم، ص٢٢.
٢٨- المرجع السابق، ص٢٣.
٢٩- أحمد يوسف، القصة فى الأدب المصرى القديم، جريدة الأهرام، القاهرة فى ١٩٦٩/٨/٩.
٣٠- أحمد يوسف، القروى الفصيح، فى ١٩٦٩/٨/١٠.
٣١- عبد القادر حمزة، على هامش التاريخ المصرى القديم، ص١٨.

٣٢- عبد العزيز صالح، التربية والتعليم فى مصر القديمة، ص٢٦١.
٣٣- المرجع السابق، ص٢٦٢.
٣٤- عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، جـ١، ص٢٩١.
٣٥- سليم حسن، مصر القديمة، جـ٢، ص٣٦٤.
٣٦- المرجع السابق، ص٣٦٥.
٣٧- سمير يحيى الجمال، تاريخ الطب والصيدلة المصرية فى العصر الفرعونى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سلسلة تاريخ المصريين(٧٤)، ١٩٩٤، ص١٥٣.
٣٨- المرجع السابق، ص١٥٥. ٣٩- المرجع السابق، ص١٥٦.
٤٠- المرجع السابق، ص١٥٧.
٤١- يوليوس جيار، ولويس ريتر، الطب والتحنيط فى عهد الفراعنة، تعريب انطوان ذكرى د. ن، د. ت، ص١٦.
٤٢- المرجع السابق، ص١٧.
٤٣- إبراهيم رزقانة وآخرون، ص١٨٠.
٤٤- سليم حسن، مصر القديمة، جـ٢، ص٣٦٥.
٤٥- المرجع السابق، ص٣٦٦.
٤٦- سمير يحيى الجمال، تاريخ الطب والصيدلة المصرية، ص١٥٨.
٤٧- المرجع السابق ص ١٥٩.
٤٨- مختار رسمى ناشد، فضل الحضارة المصرية على العلوم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة المكتبة الثقافية(٢٩١)، القاهرة، ١٩٧٣، ص١٠٨.
٤٩- المرجع السابق، ص١١١.
٥٠- بول غوليونجى، الطب عند قدماء المصريين، فى (تاريخ الحضارة المصرية)، جـ١، ص٥٦٠.
٥١- المرجع السابق، ص٥٦١.
٥٢- يوليوس جيار ولويس ريتر، الطب والتحنيط، ص١١٨.
٥٣- المرجع السابق، ص١١٩.
٥٤- بول غوليونجى، ص٥٧٢.
٥٥- سمير أديب، مرحلة التعليم العالى، ص٩٥.
٥٦- المرجع السابق، ص٩٦.
٥٧- سليم حسن، مصر القديمة، ص٣٥٦.
٥٨- ول ديورانت، قصة الحضارة، جـ٢، ص١١٩.
٥٩- عبد العزيز صالح، الرياضيات فى مصر القديمة، فى (تاريخ الحضارة المصرية)، جـ١، ص٥٨٧.
٦٠- سليم حسن، مصر القديمة، جـ٢، ص٣٥٨.
٦١- المرجع السابق، ص٣٥٩.
٦٢- مختار رسمى، فضل الحضارة المصرية، ص١٦.

٦٣- عبد العزيز صالح، الرياضيات فى مصر القديمة، ص٥٨٩.
٦٤- المرجع السابق، ص٥٩٠.
٦٥- عبد العزيز صالح، التربية والتعليم فى مصر القديمة، ص٢٩٥.
٦٦- المرجع السابق، ص٣٠٣. ٦٧- المرجع السابق، ص٣٠٦.
٦٨- المرجع السابق، ٣٠٧. ٦٩- المرجع السابق، ص٣٠٩.
٧٠- المرجع السابق، ص٣١٠.
٧١- ول ديورانت، قصة الحضارة، جـ٢، ص١٢٠.
٧٢- المرجع السابق، ص١٢١.
٧٣- عبد الحميد سماحة، الفلك عند المصريين القدماء، فى(تاريخ الحضارة المصرية) جـ١، ص٥٧٥.
٧٤- المرجع السابق، ص٥٧٦. ٧٥- المرجع السابق، ص٥٧٦.
٧٦- عبد القادر حمزة، على هامش التاريخ المصرى القديم، ص٣٥.
٧٧- المرجع السابق، نفس الصفحة. ٧٨- المرجع السابق، ص٣٦.
٧٩- ول ديورانت، قصة الحضارة، جـ٢، ص١٢٧.
٨٠- ابراهيم رزقانة وآخرون، ص١٣٩.
٨١- كريستيان ديروش نوبلكور، الفن المصرى القديم، ترجمة محمود خليل نحاس وزميله، د.ت، د.ن، ص١٤.
٨٢- المرجع السابق، ص١٥. ٨٣- المرجع السابق، ص١٨.
٨٤- المرجع السابق، ص١٩. ٨٥- المرجع السابق، ص٢٩.
٨٦- المرجع السابق، ص٣١.
٨٧- توفيق أحمد عبد الجواد، العمارة فى حضارة مصر الفرعونية، الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٤، ص١٥٧.
٨٨- المرجع السابق، ص١٥٨.
٨٩- المرجع السابق، ص٢٤٦.
٩٠- ول ديورانت، قصة الحضارة، جـ٢، ص١٤٥.
٩١- عبد العزيز صالح، الفن المصرى القديم، فى (تاريخ الحضارة المصرية)، جـ١، ص٢٩٠.
٩٢- المرجع السابق، ص٢٩١.
٩٣- أحمد بدوى وجمال الدين مختار، جـ١، ص٢٠٦.
٩٤- باهور لبيب، لمحات من الدراسات المصرية القديمة، ص٨٣.
٩٥- محمود أحمد الحفنى، موسيقى قدماء المصريين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة المكتبة الثقافية (٤٧٩)، القاهرة، ١٩٩٢، ص٦٠.
٩٦- سليم حسن، مصر القديمة، جـ٢، ص٣٩٩.
٩٧- فكرى بطرس، الموسيقى والغناء عند قدماء المصريين، دار المعارف، سلسلة كتابك (١٥٨)، ١٩٨٣، ص١٤.
٩٨- المرجع السابق، ص٢٥.

٩٩- المرجع السابق، ص٣٩.
١٠٠- سليم حسن، الأدب المصرى القديم، جـ٢، ص١٠.
١٠١- لويس بقطر، تأملات فى الأدب المصرى القديم، ص٣٤.
١٠٢- المرجع السابق، ص٣٧.
١٠٣- كلير لالويت، الأدب المصرى القديم، جـ٢، ص١٠.
١٠٤- المرجع السابق، ص١٣٦.
١٠٥- أحمد بدوى وجمال الدين مختار، جـ١، ص٢١١.
١٠٦- عبد العزيز صالح، كان لهم سبق الابتكار حتى فى الرياضة، جريدة الأهرام، ١٩٦٩/٨/٢٥.
١٠٧- عبد العزيز صالح، التربية البدنية، فى (تاريخ الحضارة المصرية)، جـ١، ص١٧٣.
١٠٨- محمد جمال الدين مختار، وسائل التسلية والترفيه لدى المصريين القدماء، فى (تاريخ الحضارة المصرية القديمة)، جـ١، ص١٦٣.
١٠٩- المرجع السابق، ص١٦٤.
١١٠- عبد العزيز صالح، التربية البدنية، ص١٧٨.
١١١- عبد العزيز صالح، التربية والتعليم فى مصر القديمة، ص١٠٩.
١١٢- المرجع السابق، ص١١١. ١١٣- المرجع السابق، ص١١٢.
١١٤- مونتيه، الحياة اليومية فى عهد الرعامسة، ص١٣٥.
١١٥- عبد العزيز صالح، التربية والتعليم فى مصر القديمة، ص١٢٠.
١١٦- أحمد بدوى وجمال الدين مختار، جـ١، ص٢١٣.
١١٧- عبد العزيز صالح، التربية العسكرية، فى (تاريخ الحضارة المصرية)، جـ١، ص٢٠٠.
١١٨- المرجع السابق، ص٢٠١. ١١٩- المرجع السابق، ص٢٠٢.
١٢٠- مونتيه، الحياة اليومية فى مصر فى عصر الرعامسة، ص١٥٣.
١٢١- سليم حسن، مصر القديمة، جـ٢، ص٩٧.
١٢٢- نجيب ميخائيل، فى (تاريخ الحضارة المصرية)، جـ١، ص٥١٠.
١٢٣- مختار رسمى ناشد، فضل الحضارة المصرية على العلوم، ص٧٨.
١٢٤- إبراهيم رزقانة وآخرون، ص١٢٥.
١٢٥- عبد المنعم أبو بكر، الصناعات، فى (تاريخ الحضارة المصرية)، جـ١، ص٤٥٤.
١٢٦- سليم حسن، مصر القديمة، جـ٢، ص٣٤٦.

الفصل السادس

التربية فى العصر الهيلنستى

العصر الهيلنستى:

لما تولى قمبيز عرش ملك فارس فى أوائل القرن السادس قبل الميلاد، قام بحملة جبارة على مصر واستولى عليها عنوة بعد حرب مريرة عام ٥٢٥ ق.م، وبهذا الفتح الفارسى فقدت مصر استقلالها وأصبحت جزءا من أملاك الامبراطورية الفارسية التى كانت تشمل كل العالم المتمدن. ولا ريب فى أن هذا الفتح الفارسى كان يعد فى نظر الفرس أعظم انتصار لهم أمام العالم المتمدين آنذاك، كما كان يعتبر أكبر كارثة حلت بالشعب المصرى فى تاريخه. حقا ذاقت أرض مصر قبل انتصار الفرس عليهم مرارة الغزو والاستعمار الأجنبى، فقد اجتاح الهكسوس منذ أكثر من ألف ومائتى عام قبل الغزو الفارسى بلاد مصر، غير أن سيطرتهم عليها لم تشمل كل التربة المصرية إلا فترة قصيرة نسبيا انكمشوا بعدها فى الوجه البحرى، ثم ما لبثوا أن جلاهم المصريون عن البلاد جملة على يد أحمس الأول مؤسس الأسرة الثامنة عشرة، وبانى أول لبنة فى صرح الامبراطورية المصرية التى امتدت بعده على يدى خلفائه من أعالى دجلة والفرات حتى الشلال الرابع[١].

وإذا كان الله قد حبا مصر بوفرة من موارد الخير وأسباب الحياة الكريمة ما جعلها مهد الحضارة والعرفان ويسر على الراشدين من حكامها إعلاء شأنها، إلا أنه لفت أنظار الطامعين إليها حتى أصبحت قبلة كل دولة تنشد بناء امبراطورية عالمية, ومن هنا فإنه وقبل مرور قرنين من الزمان على الاحتلال الفارسى، كانت هناك دولة قوية ابتلعت دولة اليونان فى بلاد مقدونيا على رأسها الاسكندر الأكبر الذى

سار بجيوشه فاتحا كل أقطار العالم المتمدين، فاجتاح كل امبراطورية الفرس. وعندما وصلت جيوشه فى زحفها إلى أبواب مصر، سلم له الشعب المصرى تخلصا من النير الفارسى سنة ٣٣٢ ق.م[٢]، وبذلك طويت صفحة من تاريخ مصر الطويل، وفتحت صفحة جديدة التقت فيها الحضارتان المصرية والاغريقية جنبا إلى جنب.

والحق أن الاسكندر، حين انطلق قبل غزوه مصر بعامين على رأس قواته من المقدونيين واليونان عبر حدود العالم اليونانى متجها نحو الشرق فى صدامه الكبير مع الامبراطورية الفارسية كان يطوى فى حقيقة الأمر نهاية عصر ويخطو نحو عصر جديده له ملامحه الخاصة وقوامه الحضارى المتميز.

لقد كانت المنطقة التى أصبحت مسرحا لنشاط الاسكندر تمثل قبل ظهوره عالمين مختلفين: أحدهما شرقى فى نظمه ومعتقداته وقيمه ونظرته للحياة بوجه عام، ويضم أغلب المناطق الأسيوية والأفريقية المتاخمة للبحر المتوسط وامتداداتها نحو الشرق، والآخر غربى يختلف عنه اختلافا بينا فى كل هذه الأشياء، وهو الجزر وأشباه الجزر الأوربية التى تضم مقدونيا وبلاد اليونان، إلى جانب المدن اليونانية الواقعة على الشريط الساحلى الغربى لشبه جزيرة آسيا الصغرى. ولكن نشاط الاسكندر العسكرى والسياسى شكل همزة وصل بين هذين العالمين المتباينين، وكان العامل الأساسى فى هذا المجال هو أنه استطاع أن يحقق السيطرة الفعلية على المنطقة التى تجمع بينها بحيث توافرت امكانية اللقاء الحضارى بين الشرق والغرب[٣].

وقد تعارف الغربيون على تسمية هذا العصر الجديد الذى تداخلت فيه العناصر الحضارية الشرقية والغربية لتشكل حضارة من نوع جديد باسم (العصر الهيلنستى)، وهىتسمية أطلقها المؤرخ الألمانى يوهان درويسن Johan Droysen فى أواخر النصف الأول من القرن التاسع

عشر ليميز بها الحضارة الجديدة عن الحضارة اليونانية أو الاغريقية الكلاسيكية التى عاصر العالم المتحضر مرحلة نضجها فى القرنين الخامس والرابع ق.م، والتى عرفت باسم الحضارة الهيلينية - على أساس أن الحضارة الجديدة مقتبسة لهذه الحضارة السابقة أو متأثرة بها، كما تدل على ذلك نهاية كلمة (هيلينستى) Hellenistic, Hellenistique التى تشير إلى الانتساب أو التأثر[٤].

وقد كانت همزة الوصل أو الامكانية التى تم خلالها أو عن طريقها الاتصال بين كافة أرجاء المنطقة هى الثقافة الاغريقية التى قامت على ركيزتين أساسيتين: الأولى هى اللغة اليونانية التى أصبحت لغة الثقافة فى المنطقة بأكملها والتى أصبحت تمثل جواز المرور لكل من يريد أن ينال حظا من ثقافة العصر سواء كان ما يبتغيه علما أو أدبا أو فنا، بل لقد أصبحت هناك إلى جانب اللهجات المتعددة التى كانت شائعة بين أبناء العالم اليونانى، لهجة أو لغة اغريقية مشتركة أو عامة من الممكن أن تحمل الإنسان عبر المنطقة بأكملها من غربيها إلى شرقيها[٥].

الركيزة الثانية للثقافة اليونانية بالمعنى الواسع لهذه الكلمة فهى الاغريق أنفسهم الذين هاجروا فى أعداد غير قليلة إلى مختلف أرجاء المنطقة فى أعقاب فتوح الاسكندر وبخاصة بعد أن أقام خلفاؤه دولهم الجديدة على أنقاض امبراطوريته.

وكان لابد للظروف الدولية المحيطة بمصر أن تتغير تغيرا محسوسا، إذ بينما كان نجم الحضارات الشرقية آخذا فى الأفول، كانت حضارة الاغريق تقفز إلى الأمام قفزات خاطفة أوصلتها سريعا إلى ذروة المجد، حتى تضاءلت إلى جانبها الحضارات القديمة طرا، وغدا بحر ايجة أهم مراكز الحضارة فى العالم القديم. وقد ازدادت دعائم هذا المركز رسوخا حين أنشأ الاسكندر امبراطوريته وأدخل فى حظيرتها كل مراكز الحضارة القديمة. وعندما توفى الاسكندر فى شرخ الشباب

عام ٣٢٣ ق.م قبل أن تنظم وراثة العرش وطريقة الحكم فى تلك الامبراطورية واقتسمها قواده، كان لذلك نتائج عدة، يعنينا هنا من أمرها ثلاث: واحداها أن عرش مصر آل إلى أسرة مقدونية الأصل إغريقية الحضارة، والنتيجة الثانية نشوب صراع عنيف بين هؤلاء القواد دام أربعين عاما تمخض آخر الأمر عن قيام ثلاث دول فتية على أنقاض الامبراطورية المقدونية، وهى دولة البطالمة فى مصر، ودولة السليوكيين فى سوريا وبابل، ودولة مقدونيا. والنتيجة الثالثة هى احتدام المنافسة بين هذه القوى الثلاث، ولاسيما بين البطالمة والسليوكيين(١).

ووسط الأطماع التى تجيش فى صدور القواد، كان فوز بطليموس باستقلال مصر والمحافظة على هذا الاستقلال واحراز مكانة سامية فى السياسة الدولية – كان كل ذلك يتطلب تجنيد جيش كبير وبناء اسطول قوى، ولما كان تحت إمرة منافس البطالمة جيوش وأساطيل من الطراز الأول، إذ كانت مؤلفة من خيرة جنود العصر، وأعتى المقدونيين والاغريق، فقد اعتقد بطليموس وخلفاؤه أنه لتحقيق سياستهم الخارجية، بل المحافظة على كيان دولتهم لابد من أن يكون لهم جيش وأسطول من طراز جيوش وأساطيل منافسيهم، ومعنى ذلك ضرورة استقدام الاغريق وأشباههم للخدمة فى قوات البطالمة المحاربة(٢).

ولما كانت وفرة المال شرطا أساسيا لبناء الجيوش والأساطيل، وكانت مصر مع غنى مواردها الطبيعية لا تستطيع مواجهة المطالب الجديدة، إذا بقيت شئونها الادارية وحالتها الاقتصادية على ما كانت عليه عند الفتح المقدونى، فإنه لم تكن هناك مندوحة عن إعادة تنظيم شئون الادارة والنهوض بمرافق البلاد الاقتصادية واستغلالها استغلالا منظما دقيقا وتصدير أكبر قدر ممكن من منتجاتها وللقيام بهذه الأعمال الانشائية الواسعة استشعر بطليموس الأول وخلفاؤه الحاجة إلى رءوس أموال وإلى أعوان مخلصين يستطيعون فهم مراميهم والتفانى فى خدمتهم، ومعنى ذلك أنهم كانوا يستشعرون الحاجة أولا إلى الاغريق لا لبناء جيوشهم وأساطيلهم فحسب، بل أيضا لإعادة تنظيم شئون البلاد

الادارية والاقتصادية. فقد كانت تتوافر لديهم رءوس الأموال وكذلك الخبرة بأحدث الأساليب الاقتصادية ونظم التجارة السائدة فى البحر المتوسط(٨)، واستشعروا الحاجة ثانيا إلى السيطرة على الطرق البحرية لحماية مصر وتنشيط تجارتها الخارجية.

وحيثما وجد الاغريق القدماء فى أعداد وفيرة، كونوا لأنفسهم مدينة على نمط المدن اليونانية، وهكذا فعلوا فى مستعمراتهم المختلفة فى أنحاء البحر المتوسط ومنها (نقراطيس) فى مصر. وهكذا حاول الاسكندر أن يفعل حين خرج يبشر بالحضارة الهيلينية فى الشرق، وهكذا أيضا فعل خلفاؤه فى سوريا وآسيا الصغرى، وذلك لأن الاغريق كانوا قد ألفوا هذا النوع من الحياة، واعتبروا نظام المدينة اليونانية أسمى صور الاجتماع الانسانى. ولكن بطليموس لم يفعل هذا، وانما انتهج سياسة محافظة فى هذا الاتجاه، فأبقى على المدن اليونانية التى كانت موجودة من قبل وهى نقراطس والاسكندرية التى كان الاسكندر قد أسسها، ولم ينشئ هو من المدن الجديدة سوى مدينة واحدة أعلى الصعيد هى بطلمية، ولعل الهدف الأصلى من انشائها هو أن تكون مركز الحماية للدفاع عن الجنوب(٩).

أما عن السبب وراء هذه السياسة فإن نظام المدن اليونانية يعنى استقلال المدينة، فلمواطنيها الحرية فى تدبير شئونهم وانتخاب موظفيهم، ومثل هذا الاستقلال لا يتفق مع نظام البطالمة فى حكم مصر، وفى الوقت نفسه لم يكن من صالح سياسة الدولة الجديدة تجمهر جميع الاغريق فى نظام المدن لأن خطة التنمية الاقتصادية التى انتهجها البطالمة كانت فى حاجة إلى أن تنتشر أعداد كبيرة من الاغريق فى الريف المصرى فيقيموا على الأرض التى اقطعت لهم وبذلك يساهمون بجهدهم الشخصى فى زيادة الانتاج مباشرة(١٠).

ومع ما هو معروف من أن من النادر أن نجد مجتمعا يخلو من الأجانب فوجد بمصر الفرعونية أثيوبيين وليبيين وآسيويين وفارسيين ويونانيين، لكن العصر البطلمى شهد تدفقا أكبر نظرا لأن القيادة كانت أجنبية، وهكذا توافد كثير من السوريين واليهود والفينيقيين والليبيين وجماعات من آسيا الصغرى[١١].

وكان العدد الكبير من الأجناس المختلفة فى حاجة إلى تنظيم دقيق ليسهل الاشراف عليهم من ناحية والاستفادة منهم من ناحية أخرى، وقد حرص البطالمة على تنظيم الاغريق والجماعات المتأغرقة من الأجانب على حسب أسس خاصة، وقد تم ذلك عن طريق ادراج أعداد كبيرة من الاغريق من العناصر الممتازة فى عداد مواطنى المدن اليونانية فى مصر، أو عن طريق ضمهم فى جماعات كل حسب موطنهم الأصلى، أما سائر السكان من البقية الباقية من الاغريق والأجانب والأغلبية الساحقة من المصريين فكانوا ينظمون حسب حرفهم وأعمالهم[١٢].

وفيما يتعلق بوضع المصريين عموما فى الدولة البطلمية بالنسبة لسائر عناصر المجتمع، فيجب أن نذكر أنهم كانوا فى أول الأمر فى مركز المغلوب على أمره وأن الوضع الممتاز كان للأغريق، سواء بين رجال الحاشية الملكية أوالادارة أو الجيش أو ملكية الأرض، ففى كل هذه المجالات كان اليونانى هو الرئيس والمصرى هو المرءوس، باستثناء طبقة واحدة وهى طبقة الكهنة. فقط ظلت طبقة الكهنة مصرية فى تكوينها، كما كانت أقوى وأخطر مظهر يمثل المصريين. وأدرك البطالمة ذلك منذ البداية فحاولوا إضعاف مركز الكهنة بسلب المعابد بعض ممتلكاتها وامتيازاتها، ولكن ما أن أخذت الدولة البطلمية تضعف تدريجيا حتى رأينا المصريين عموما والكهنة خاصة يسعون إلى تأكيد مراكزهم فى المجتمع واسترداد بعض حقوقهم[١٣].

وكان اليهود هم أهم العناصر الأجنبية بعد الاغريق فى دولة البطالمة، ويرجع استقرار اليهود فى مصر إلى عهد يسبق عصر البطالمة كثيرا، لكن عددهم ازداد زيادة كبيرة فى أعقاب الفتح المقدونى، وكذلك بعد ضم فلسطين إلى مصر فى بداية عهد البطالمة. وتشير المصادر القديمة إلى انتشار اليهود فى مختلف أرجاء مصر، لكن أكثرهم كانوا يعيشون فى الحى الرابع فى الأسكندرية. وكان يهود مصر يزاولون مختلف المهن والحرف، وكان من بينها الاشتغال بالتجارة واقراض الأموال، لكن ذلك لم يكن وقفا عليهم ولا عملهم الرئيسى. وقد منح البطالمة الجالية اليهودية فى الأسكندرية قسطا من الحكم الذاتى لم يمنحوه لأى جالية أخرى فى أى مدينة أغريقية، لكنهم لم يمنحوهم حق المواطنين. وقد كانت السياسة الدينية التى اتبعها البطالمة بوجه عام ازاء اليهود، تقوم على أساس التسامح الدينى[١٤].

ومنذ أيام بطليموس الخامس، أخذ نفوذ روما يزداد تدريجيا فى مصر، بل أصبح مصير مصر متعلقا بمصير الصراع الحزبى فى روما منذ وفاة بطليموس التاسع فى عام ٨٠ ق.م. ولكن بالرغم من كل ذلك ظل البطالمة يحتفظون على الأقل باستقلالهم الاسمى. وعندما ارتقت كليوبترا عرش مصر سنة ٥١ ق.م واندلع لهيب الحروب الأهلية فى روما، لعبت كليوباترا دورا كادت أن تجنى من ورائه امبراطورية واسعة على حساب الرومان مما أفضى إلى صراع روما مع كليوبترا وهو الصراع الذى تمخض عنه القضاء على دولة البطالمة[١٥]. وقد تحولت مصر من مملكة مستقلة أثناء حكم البطالمة إلى ولاية تابعة للامبراطورية الرومانية سنة ٣٠ ق.م، وكانت المعركة التى حسمت مصيرها هى معركة اكتيوم البحرية التى نشبت سنة ٣١ ق.م بين قوات أنطونيوس وكليوباترا من ناحية وقوات أوكتافيانوس من ناحية أخرى[١٦].

وإذا كانت مصر قد انتقلت من يد الحكم الاغريقى إلى يد الحكم الرومانى إلا أن الثقافة الاغريقية ظلت هى المسيطرة لا على مصر وحدها وانما على الغازى الجديد نفسه، على دولة الرومان.

لكن مصر، إذا كانت قد خضعت لنفوذ هذه الثقافة وتأثرت بها، إلا أن العلاقة التربوية لم تقف عند حد تلقى مصر لهذه الثقافة الاغريقية، وانما كانت هناك علاقة تفاعل بين الحضارة الفرعونية والحضارة الاغريقية، وكان لهذا التفاعل آثاره التربوية مما سوف نبينه فى صفحات قادمة من الفصل الحالى.

أثر الثقافة الفرعونية على الثقافة الاغريقية:

من الأخطاء الشائعة بين مؤرخى الغرب - بل وبين بعض مؤرخى الشرق - أن الثقافة الاغريقية هى أم الثقافة الغربية الحديثة، وانها لم تكن فى حاجة إلى غيرها من المدنيات التى سبقتها، وأنها على ذلك لم تخضع فى أصولها وفى أزمان تطورها فيما بعد على وجه التقريب لأى تأثير وفد إليها من خارج تربتها. والواقع أن مصر قد لعبت دورا هاما عظيما فى الثقافة الهيلينية القديمة وبخاصة فى ثقافة القوم الذين كانوا قبل الشعب الهيلينى، وهم الذين ورث عنهم الاغريق حضارتهم ونعنى بذلك أغريق الجزر اليونانية وبلاد الاغريق الكلاسيكية.

وتدل شواهد الأحوال على أنه كانت هناك اتصالات غاية فى النشاط بين المصريين والعالم الخارجى قبل أن يظهر الشعب الاغريقى بصورة واضحة على مسرح التاريخ، فقد كانت كريت متصلة بمصر اتصالا وثيقا قد يسفر عن اشتراك فى الدم، فقد وجدت أشياء مصرية فى قصور (كريت)، كما وجدت أشياء كريتية فى مقابر مصرية[١٧].

ويحدثنا التاريخ الصادق أن اليونانيين كانوا ينظرون إلى مصر ودياناتها بعين الدهشة والإكبار، ويرون فى مدارسها ينابيع للحكمة والعرفان، ويجدون من الخير لهم ولبلادهم أن يربطوا معبوداتها، وأساطيرهم بأساطيرها وأن يحتذوا فى هذه وتلك مثالها. وقد كانت (نقراش) و(دفنة) هما المركزان اللذان وصل منهما تأثير الثقافة المصرية إلى بلاد الاغريق، وقد كان وجود هذين البلدين يعنى أن مصر كانت معروفة لا للسياح، بل كانت سكنا لجماعة من الاغريق فى مدن مختلفة، ففى عهد الملك (أمسيس) كان كثير من الاغريق ينتقلون ذهابا وإيابا بين (نقراش) ومدنهم فى بلاد الاغريق. ولابد أن تأثير هذا الاتصال كان عظيما، فمن ذلك ما نجده من قبل عهد الفتح الفارسى من آثار مصورة على أكروبرل أثينا منها صورتا كاتبين يلبسان ملابس أغريقية مقلدة عن اللباس المصرى[١٨].

وقد أثبت عالم من العلماء المتخصصين فى دراسة الحضارة اليونانية يسمى (فوكار) M. Paul Faucart وفى كتابه المسمى Recherches sur l'origine et la nature dey mysteres d'Eleusis، والمطبوع سنة ١٨٩٥، أثبت هذا العالم أن عبادة (ايلوزيس) التى كانت منتشرة فى اليونان منقولة عن عبادة ايزيس وأوزيريس المصرية فى طقوسها وتقاليدها ورموزها[١٩].

ومعروف أن كبير الآلهة فى الأساطير اليونانية كان يسمى (ذفس) Zeus، فهذه الكلمة معناها فى اللغة اليونانية (الذى يخفى نفسه)، وهذا هو بعينه معنى كلمة آمون التى كانت تطلق على كبير الآلهة فى طيبة. وقد ذكر ذلك الفيلسوف والمؤرخ اليونانى بلوتارك Plutarque فى الفقرة (٩) من كتابة الذى وصفه باسم (ايزيس وأوزيريس) وترجمه إلى الفرنسية Mario Meunier وطبعه سنة ١٩٢٤. وقد قال بلوتارك فى هذه الفقرة أن كلمة آمون معناها فى اللغة المصرية (الذى يخفى نفسه) وأن هذا هو بعينه معنى كلمة (ذفس) التى اختارها اليونانيون لكبير آلهتهم.

ومعروف أن (توت) هو الاله الذى يعزو المصريون اليه أنه علمهم الكتابة والعلوم والفنون، وقد قاس اليونانيون على هذا فجعلوا فى أساطيرهم إلها يسمى هرمس علمهم الكتابة والعلوم والفنون، فتوت المصرى هو هرمس اليونانى.

وهناك اقتباسات دينية أخرى، ويقول هيرودوت فى الفقرة (٥٠) من كتابه: "وتكاد جميع الشخصيات المقدسة فى اليونان أن تكون مأخوذة من مصر. نعم أن بحوثى الخاصة دلتنى على أن هناك شخصيات مقدسة أخذتها اليونان من المتبربرة، ولكننى أرى أن أكثر الشخصيات مأخوذة من مصر خاصة، فإنه فيما عدا هيرا وهسيتا وتميس وشميت وتربيد، فإن جميع الشخصيات المقدسة اليونانية موجودة فى مصر"[٢٠].

وتعلم الاغريق علم مسح الأرض من المصريين ومنها تطور علم الهندسة الذى برع فيه الاغريق، وقد أخذ (صولون) الأثينى قانون (أحمس) الذى يقول فيه أنه يجب على كل مصرى أن يعلن سنويا موارده التى يعيش منها لحاكم مديريته، وإذا عجز عن ذلك أو عجز عن أن يبرهن على أنه يعيش عيشة شريفة، عوقب بالموت[٢١].

والواقع أنه فى عهد الأسرة السادسة والعشرين كان فى مقدور الاغريق أن يزوروا وادى النيل ويقيموا فيه فى أحسن حال، وحتى فيما بعد فى عهد الفرس لم يكن هناك عائق يمنع السائحين والمؤرخين ورجال السياسة من أن يجوسوا خلال الديار المصرية بطمأنينة ويتعلموا عاداتهم وفنونهم ومعتقداتهم الدينية، وأكبر برهان على ذلك المؤرخ هيرودوت، والواقع أن كل الاغريق الذين أوتوا حظا عظيما من الذكاء كانوا على استعداد لأن يذهبوا إلى منبع الحكمة المصرية. وقد كان من الطبيعى أنهم أغروا على ذلك بما كان للمدنية المصرية من شهرة طبقت الآفاق.

وبعد أن أظهرنا حقيقة العلاقات العقلية بين المصريين والاغريق، بقى علينا أن نحدد هذه العلاقات، فمن المفهوم تماما أن ما بحثناه هنا لا شأن له اطلاقا بوضع صلة مباشرة بين أفكار مصرية معلومة، وبين تصورات الفلاسفة الاغريق الأول، إذ الواقع أنه لا يمكن بأية حال من الأحوال أن نفكر فى ذلك فى الحالة الراهنة للمسألة، بل نريد أن نبرهن أن الفكر المصرى لابد قد ترك بعض التأثير فى الفكر الاغريقى، وعندما نقول العلم المصرى والمعرفة المصرية يجب أن نفهم أن هذه التعابير لا يقصد منها إلا معنى عام جدا، وألا نرى فيها قط ما يقصد به من معنى لهذه التعابير فى أيامنا(٢٢). فلا نفهم من عبارة العلم المصرى المعلومات الفنية والعلمية والرياضية والفلكية وحسب، بل كذلك مجموع آراء دينية وفلسفية مضافة إلى عقائد وتجارب سحرية. والواقع أن هؤلاء العلماء الذين حضروا إلى مصر وتعلموا فيها ترك كل منهم أثره فى علوم الاغريق وعقائدهم بدرجة محسة، فمثلا قد استعمل الاغريق بدون شك عقائد مصرية مسلما بها خاصة بمصير الإنسان فى عالم الآخرة. ويجب أن يتتبعها فى حياته الدنيوية، وفى موضوع نهاية العالم الذى يعيش فيه نجد الاغريق كالمصريين كانوا يعتقدون فى وجود الروح المجنحة، فنشاهد على الآثار المصرية، وفى المقابر أن الروح مثلت فى صورة طائر برأس إنسان.

وجاء إلى مصر عدد من فلاسفة الاغريق وعلماؤهم وأخذوا كثيرا عن قدماء المصريين ثم هذبوه على طريقتهم ووضعوه فى قالب جديد علمى عقلى، وهؤلاء يرتبون ترتيبا تاريخيا ما بين القرن السابع ونهاية القرن الخامس قبل الميلاد تقريبا، وقد قال بلو تارك فى كتابه المشار إليه آنفا فى ذلك(٢٣):

"وهذا ما يؤكده أعظم اليونانيين المتنورين، وهم صولون، وطاليس، وأفلاطون، وابدوكس، وفيثاغورس. ويؤكده أيضا، على قول بعضهم،

ليكرج نفسه، وذلك أن هؤلاء اليونانيين المتنورين كانوا قد زاروا مصر وعاشوا فيها على أوثق اتصال بكهنتها، فمن ذلك يقال أن أيدوكس Eudoxe قد تلقى العلم على يد شرنوفيس الممفيس Chonophis de Memphis، وأن صولون تلقاه على يد سونشيس فى سايس (صالحجر)، وأن فيثاغورث اتصل بإينوفيس Enuphis فى هليوبوليس. وكان فيثاغورث خاصة عظيم الاعجاب بالأساتذة المصريين الذين كانوا هم أيضا يعجبون به، فحاول أن يقلد طريقتهم فى كتاباتهم الرمزية وتعاليمهم السرية، فأحاط نظرياته بالألغاز. وفى والواقع أنه لا يوجد أى فارق بين النصوص الهيروغليفية المصرية والكثير من التعاليم الفيثاغورية".

فهؤلاء هم مشرعون وفلاسفة ورياضيون وشعراء وموسيقيون يونانيون تلقوا علومهم فى مصر، ومنهم إثنان كان لهما الفضل الأكبر فى وضع الحجارة الأولى لبناء الحضارة اليونانية وهما المشرعان ليكرج وصولون، ومعهم أيضا الشاعر الكبير (هومر). ولم يقتصر الأمر على المشرعين والشعراء، بل شمل أطباء وبنائين وفلكيين ورياضيين وموسيقيين، وقبل هؤلاء وهؤلاء شمل عددا من الفلاسفة منهم[٢٤]:

- طاليس Thales، عاش زمنا طويلا، وقد تعلم عن الكهنة المصريين كل ما أمكنه وعاد إلى بلاده يحمل أفكار المصريين عن الرياضة والحساب والهندسة، وكان تأثير المصريين فيه ظاهرا فى مجال الفلسفة، والظاهر أنه أول من شغل نفسه بموضوع المادة التى يتكون منها العالم فكان يعتقد أن كل الأشياء مصنوعة من الماء الذى يدخل فى تركيب كل شئ، وهذا الرأى مأخوذ مباشرة من فكرة أصل تكوين العالم عند مدرسة هوليوبوليس الدينية.

- انكسماندر Anaximander، ومثالنا هنا الفكرة المصرية الخاصة بطريقة توالد الحيوان، وذلك بسبب أن الحيوانات التى تعيش فى الطينة السوداء الراسبة من فيضان النيل عند انحساره قد لفتت نظر المصريين، ومن هنا ظن المصريون أن الآلهة (أتيس) التى كانت زوج الإله (خنوم) إله الشلال، كانت تمثل فى صورة ضفدعة وأنها تولد من نفسها من غرين النيل الذى تخلف من فيضان النيل دون تلقيح آخر، وهذه نفس نظرية انكسماندر.

- أناكزيمين Anaximene الملـيزى و(ديوجنيس) الأبولينى Diogenes، وهذان الفيلسوفان فكرا فى أن أصل الأشياء هو الهواء بدلا من الماء، ومن اللانهائية عند طاليس وانكسماندر. وتدل الشواهد على أن هذه الفكرة مأخوذة عن فكرة المصرى فى أن أصل الحياة هو النفس الذى يعبر عنه المصرى (بنفس الحياة)، وبدونه لا توجد حياة وقد كان نفس الحياة منتهى أمنية يلتمسها المصرى من الفرعون[٢٠].

- فيثاغور Pythagoras، ولا نزاع فى أنه زار مصر وأقام بها حوالى عشرين سنة وأخذ علومه عن الكهنة المصريين، إذ الواقع أن أوجه الشبه التى توجد بين بعض العقائد المصرية وتعاليم فيثاغورس عن انتقال الأرواح من مخلوق لآخر لم تكن عفو الخاطر وقد أورد هيرودوت البراهين على أن هذه الفكرة مأخوذة عن المصريين.

- هيراقليطس Heraclitus، ومن المستحيل عدم التعرف على التأثير المصرى فى الدور الذى نسبه للنار، والواقع أن شمس هيراقليطس لم تفسر بأنها أحسن مظهر مادى وظاهر للنار فحسب، بل كذلك تفسر بأنها النار الخفية المنكرة، وبصورة ما تفسر بالنار الروحية التى تعتبر النار المادية صورة منها، فيقول فى ذلك أن الشمس ليست جديدة كل يوم فقط بل فى الواقع أنها دائما جديدة دون انقطاع، وفى

ذلك ما يكفى ليذكرنا بأسطورة الشمس المصرية التى تشرق، أو بعبارة أخرى تولد كل يوم فى شرقى أفق السماء باسم (حور أخت)، وتغيب أو تموت كل ليلة فى الغرب باسم (أتوم)، غير أن هذا الموت ليس إلا ظاهريا فقط[٢٦].

- زينوفون Xenophon of Colophon، فهو يحارب ويرفض فكرة تعدد الآلهة، وذلك لاعتقاده بوجود إله واحد. والتوحيد عنده عبارة عن وجود الإله فى كل شئ، ويقابل ذلك عند المصريين الإله (رع) الذى هو عبارة عن مظهر للشمس أو (لآمون رع).

- أمباد وقليس Empydocles، إذ ذكر أن العالم يتكون من عناصر أربعة هى الأرض والماء والهواء والنار، وهى تتجمع وتنفصل بسبب قوتين خارجيتين عنها متضادتين وهما الحب والبغض، وهذان العنصران لا يحسان ولا يريان. وهذه الفكرة تتفق مع فكرة الثنائية عند المصريين، وقد كانت فى بدايتها مادية، غير أنها أصبحت فيما بعد خلقية، والمثال الواضح على ذلك، القصة التى تصور النزاع بين (حور) و(ست)[٢٧].

وإذا كان اليونانيون قد اتصلوا بمصر حين نشوء مدينتهم وبعد نشوئها اتصال اقامة وتعلم، الا أن العلماء اليونانيين لم يحملوا إلى العالم شيئا من علوم مصر كما حمل العرب علوم اليونان إلى أوربا. وقد يقال أن مكتبة الأسكندرية قد أحرقت، ولو أنها بقيت لوجد العالم فيها كثيرا من علوم مصر وآدابها، وهذا عذر قد يكون صحيحا، ولكن من الصحيح أيضا أن علماء الأسكندرية نشروا كتبا تعد بالعشرات فى العالم المتحضر إذ ذاك، وقد بقيت كتبهم هذه إلى اليوم وليس فى واحد منها ذكر لعلوم مصرية ولا لآداب مصرية. كلا، لم يقل واحد منهم أنه اقتبس فكرة معينة من المدارس المصرية والكتب المصرية أو المدينة المصرية، وبنى عليها نظرية له الفضل فيها[٢٨].

وقد كان من نتيجة هـذا الصمت عن علـوم مصـر وآدابهـا أنـه لمـا دمرت الغزوات والحرائق الكتب المصريـة، وضـاعت اللغـة بـانقراض عارفيها، أسدل حجاب كثيف على كل ما يسمى علما مصريا ولولا أنـه كـانت توجـد آثـار ماديـة كـالأهرام والمعـابد والمسـلات وقبـور الملـوك تنطـق بعظمـة ذلـك العلم لمـا فطـن إليـه أحد. بـل لعـل الذيـن وجهـوا جهودهـم لكشـف اللغـة المصريـة وقـراءة خطوطهـا الهيروغليفيـة والديمقراطيـة والهيراطيقيـة، مـا كـانوا يعنـون بهـا ويكشـفون غطاءهـا، واذن كـانت مصـر القديمـة تبقـى غارقـة فـى ظلمـات المـاضى، وتبقـى علومها غارقة معها فى هذه الظلمات إلى الأبد.

اتصـل اليونـانيون بمصـر وتعلمـوا فيهـا، ولكنهـم لـم يذكروهـا فيمـا كتبوه، فهل هم مع ذلك اقتبسوا منها؟

ان العقل يجيب على هذا السؤال فيقول ان الاقتباس فـى هـذه الحالـة أمر لا مفر منه لأن المدنيات المختلفة ليست سوى حلقـات متتاليـة فـى سلسـلة واحـدة هـى سلسـلة الانسـانية، فكـل مدينـة تصـوغ نفسـها مـن المدنيات التى سبقتها ثم مما تزيـده عليهـا، وبهـذا يتحقـق تقـدم الإنسـان وتقدم العمران.

هذا هو جواب العقل، فما جواب الواقع[٢٩]؟

جواب الواقع هو بعينه جواب العقل، فقد عـرف منـذ مـائتى سـنة أو أكـثر أن التصويـر اليونـانى والنقـش اليونـانى والأعمـدة اليونانيـة هـى اقتباس من التصوير المصرى والنقـش المصـرى والأعمـدة المصريـة، مع شئ من التنويع.

وعرف أيضا أن كثيرا من المصنوعات اليونانية هي بعينها المصنوعات المصرية لم يدخل عليها إلا تهذيب قضى به اختلاف البيئة واختلاف الزمن.

عرف هذا منذ أكثر من مائتي سنة لأن التصوير والنقش والأعمدة والمصنوعات في مصر وفي اليونان، كانت في متناول كل من يريد أن يدرسها وأن يوازن واحدة منها بالأخرى. أما العلوم والآداب والديانات المصرية، فكانت إلى زمن قريب مجهولة، ولهذا كانت موازنتها بمثيلاتها اليونانية مستحيلة، ولا يزال أكثرها مجهولا إلى اليوم لأن ما عرف لا يزيد على جوانب من الديانات لا يزال في بعضها غموض، ثم طرف صغير من الآداب ممثل في بضع قصص وأناشيد وأشعار، أما العلوم، وخاصة العلوم الفلسفية، فلم يعرف بعد شئ عنها. ولهذا كان السؤال الذي تساءل فيه الباحثون منذ أكثر من نصف قرن، أي منذ أن شاعت ترجمة أوراق البردي المصرية هو: هل في الآداب والديانات اليونانية أثر من الآداب والديانات المصرية؟ وهل هذا الأثر واضح بحيث يمكن تعينه، أو هو مبهم غير واضح؟

لقد درس عالم فرنسي هو فيكتور بيرار Victor Berard، وهو من المتفرغين للآداب اليونانية والمعروفين بحبها وقد شهد أن بعض هذه الآداب مقتبس، أو أكثر من مقتبس، من الآداب المصرية. وهو بفرنسيته وتخصصه لا يعد موضع اتهام بأنه متحيز لمصر[٣٠].

أثر الاغريق الثقافي:

على الرغم من أن (الأسكندر) لم يمكث في مصر إلا أشهرا قلائل، فإنه خلال تلك المدة القصيرة تمكن من وضع أساس مملكة مقدونية أغريقية كانت غريبة في ظاهرها، مصرية في أصولها. وقد استمرت دولة البطالمة ثابتة الأركان قوية الدعائم ثلاثة قرون كاملة. وفي خلال

تلك المدة الطويلة نهضت مصر نهضة جبارة من حيث العلوم والمعارف والاقتصاد والتجارة والصناعة وازدياد عدد السكان بما يذكرنا بمجد مصر فى عهد الدولة الحديثة الفرعونية، غير أنه مما يؤسف له جد الأسف أن هذه النهضة لم تكن مصرية أصيلة، بل كانت فى مظاهرها اغريقية مقدونية[٣١].

من أجل ذلك لبست مصر فوق ثوبها المصرى الأصيل ثوبا جديدا، اغريقى المسحة غطى كثيرا على الثوب المصرى الوطنى، ومع هذا لم يكن فى مقدور حكام البطالمة ومن احتل مصر معهم من اغريق ومقدونيين أن يبلوا هذا الثوب المصرى العريق فى متانته. والواقع أن هذا الثوب المصرى قد ظل بلحمته وسداه يقرض الثوب الاغريقى البراق كلما وجد إلى ذلك سبيلا حتى تلاشى هذا الأخير فيه[٣٢].

وكان بطليموس، كما أشرنا من قبل فى حاجة إلى أعداد كبيرة من المقدونيين والاغريق بعد تمكنه من حكم مصر عقب وفاة الاسكندر، ولم تكن مصر خالية منهم من قبل، فإن الحاميات العسكرية التى تركها الاسكندر فى مصر كانت تتكون من هذه العناصر، كما أنه حين فتح بطليموس مصر، لابد أنه أحضر معه بعض فرق الجيش. بالاضافة إلى هذا كله، فإن مدينة نقراطس كانت مركزا تجاريا يونانيا يقوم فى شمال غرب الدلتا منذ القرن السابع ق.م، ولكن الجيش البطلمى كان فى حاجة ماسة إلى مزيد من آلاف الجنود، كما أن الاغريق المستقرين فى نقراطيس أو ممفيس لا يمكنهم أن يمدوا بطليموس بحاجته إلى الرجال لادارة جميع مرافق الدولة[٣٣].

من أجل هذا اتخذ بطليموس سياسة ثابتة لتشجيع وتنظيم هجرة الاغريق إلى مصر، فمنح الجنود فى جيشه قطعا من الأرض يمكنهم أن يقيموا عليها ويستثمروها فى وقت السلم. وكذلك طبق مثل هذا

النظام بالنسبة لموظفى الدولة خاصة وأن نظام المرتبات النظامية لم يكن ممارسا فى ذلك الوقت.

وإذا كان هذا النظام قد اتبع فى عصر الملوك البطالمة فيما بعد، لكن هناك بعض الأدلة تثبت أنه يرجع إلى عصر بطليموس الأول. من ذلك ما يرونه ديودور الصقلى من أن بطليموس الأول، بعد أن انتصر على ديمتريوس فى معركة غزة سنة ٣١٢ أرسل إلى مصر ما يزيد على ٨٠٠٠ جندى من الجيش المنهزم، ووزعهم فى بقاعها المختلفة. فإن العادة المتبعة فى ذلك الوقت هى أن جنود الجيش المنهزم كانت تنتقل عادة إلى خدمة القائد المنتصر. ولهذا كانت انتصارات بطليموس الحربية تجلب له عددا من الجنود المقدونيين والاغريق، فى حين أن هزائمه لم تكن تفقده الكثير لأن جنوده كانوا يرفضون الانضواء تحت لواء خصمه، وكانوا يفرون مسرعين إلى مصر حيث لهم أرض وممتلكات وأهل. وعلى أى حال لم يجد بطليموس عناء فى الحصول على أعداد كبيرة من الاغريق، فإن اشتهار مصر بالغنى واشتهار بطليموس بالكرم جعل جماعات كبيرة منهم تأتى إلى مصر.

ولم يقتصر الأمر على هجرة الجنود المرتزقة وأفراد من الطبقة الفقيرة ممن ضاقت بهم سبل العيش فى بلادهم، بل حضر إليها كثير من الشخصيات الكبيرة من أصحاب المواهب والفنون والآداب من أمثال ديمتريوس الفاليرى، السياسى والفيلسوف الأثينى الذى قام بتأسيس متحف الاسكندرية الشهير، وتيموثيوس الأثينى الذى ينتمى إلى أسرة دينية عريقة فى أثينا وكان حجة فى الديانة الأغريقية، وكذا كاليماخس الشاعر، واراستثيس الجغرافى[٣٤].

ولما كان الاغريق قد أحضروا معهم من بلادهم ديانتهم وعاداتهم وتقاليدهم، وكانوا يخضعون لقوانين اغريقية ويحاكمون أمام محاكم

اغريقية، ويعيشون عادة فى أوساط اغريقية ينشئون فيها مدارسهم ومنتدياتهم وجمعياتهم، وكانت أفواج الاغريق تفد على مصر باستمرار حتى أواخر القرن الثالث قبل الميلاد فتطعمهم بدماء جديدة، وكانت لا توجد قرينة على تزاوجهم مع المصريين حتى نهاية القرن الثالث، وكانوا يعتزون بحضارتهم الاغريقية، ولاسيما أن كان فى مصر ما يتمتعون به من الخير العميم، فلا شك فى أنه وسط هذه الظروف قد حافظ اغريق مصر على ثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم فبقوا إغريقا خالصين حتى نهاية القرن الثالث ق.م[٣٠].

ولا جدال فى أن اغريق مصر كانوا يعيشون فى أوساط اغريقية بوجه عام، لكن يجب ألا ننسى أن هذه الأوساط، حتى المدن الاغريقية، كانت تقوم فى بيئة غريبة عن الحياة الاغريقية إلى أقصى حد، ولذلك فإن المحافظة على قوة الروح الاغريقى بين اغريق مصر، كانت لا تتوقف على استمساكهم بثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم فحسب، بل كذلك على تغذية هؤلاء الاغريق على الدوام بدماء اغريقية جديدة من بلاد الاغريق تكون بعيدة عن كافة المؤثرات الغريبة عن الروح الاغريقى، ولكن منذ أواخر القرن الثالث ق.م انقطع وفود أفواج جديدة من الاغريق بسبب نقص عددهم فى بلادهم، فكان طبيعيا أن يضعف الروح الاغريقى تدريجيا بين اغريق مصر. ومع ذلك فانه مهما ضعف هذا الروح فقد بقى اغريق مدن مصر الاغريقية اغريقا خالصين نتيجة لعدم الاعتراف بالزواج بينهم وبين المصريين فى هذه المدن، ونتيجة لاستمرار المعاهد والمدارس الاغريقية فى متابعة نشاطها، ولاسيما أن الاسكندرية كانت لاتزال منارة الحضارة الاغريقية وتتمتع بشهرة عظيمة فى العلوم والفلسفة والآداب.

ان العامل الذى أدى إلى ضعف الروح الاغريقى فى مدن مصر الاغريقية كان له أثر قوى بطبيعة الحال خارج هذه المدن، ولاسيما أنه

منذ أواخر القرن الثالث أصبحت اقطاعات الاغريق وراثية، وبذلك أصبحت لأرباب هذه الاقطاعات مصالح دائمة فى البلاد. وقد كانت رعاية هذه المصالح تتطلب منهم أن يداروا أهل البلاد وألا يشمخوا بأنوفهم عليهم. وفى الوقت نفسه أخذ البطالمة يتبعون سياسة جديدة فى معاملة المصريين، فانهم منذ عهد بطليموس الرابع أخذوا يفسحون المجال أمام المصريين ويمنحونهم من الامتيازات ما رفع من شأنهم وضيق شقة الفارق بينهم وبين الاغريق وساعد على التقرب بين العنصرين، حتى لا يبعد أن يكون قد تكون عدد من الأسر المختلطة المصرية الاغريقية[٣٦].

وقد أسهمت هذه العوامل المختلفة فى إضعاف الروح الاغريقى بين اغريقى الأقاليم، غير أنه لما كانت الصبغة الاغريقية تكسب صاحبها مركزا ممتازا مهما كانت جنسيته، فهل نشك فى أن أغلبية الاغريق استمسكوا بحضارتهم الاغريقية؟ يبدو لنا أنه مهما ضعف روح اغريق الأقاليم حتى كانوا يختلفون اختلافا كبيرا عن الاغريق القدماء، وانه إذا كان بعض الاغريق قد عبدوا آلهة مصرية وتعلموا اللغة المصرية وتزوجوا مصريات واتخذوا أسماء وعادات مصرية، فإن أغلبهم بقوا اغريقا خالصين، وذلك بفضل أثر مدن مصر الاغريقية، وأثر معاهد الاغريق وجمعياتهم ومدارسهم التى كانت توجد حيثما وجد عدد كاف من الاغريق، وكذلك بفضل ما كان الاغريق يتمتعون به من مكانة ممتازة فى البلاد[٣٧].

وحيثما استقر الاغريق فى أعداد وافرة سواء فى مدن مصر الاغريقية التى أشرنا إليها أو فى المدن والقرى المصرية، كان الاغريق يقيمون المعابد أو الهياكل لآلهتهم، وتشير الأدلة إلى أنه فى كل قرية من القرى التى نزل بها الاغريق فى الفيوم، كان يوجد هيكل أو معبد صغير يقيم فيه الاغريق طقوس عباداتهم، وإلى أن الاغريق

أقاموا المعابد والهياكل فى طول البلاد وعرضها لزيوس وأبولو، وبسايدون واسكليبوس وبان ديوسكورى وهيراد ديمتر وكورا وافروديتى وقد كان الاغريق يألفون منذ عهد بعيد استخدام المذابح الخاصة التى تقام بجوار مداخل منازلهم لتقديم القرابين لآلهتهم. وقد كشفت الحفريات فى الفيوم عن عدد كبير من هذه المذابح، وفضلا عن ذلك كان الاغريق يؤلفون فى كل مكان جمعيات دينية لمزاولة شعائهم(٣٨).

وقد حاول إغريق الريف كذلك أن ينهجوا فى حياتهم نهجا اغريقيا فهم لم يكتفوا بتكوين جمعيات قومية Politeumata، بل أنشأوا كذلك فى كل مكان مراكز اغريقية ثقافية واجتماعية، فلم توجد الجيمنانزيوم البلايسترا والجمعيات الدينية فى المدن الاغريقية فحسب، بل كذلك فى كل عواصم المديريات، وحتى فى القرى التى كان ينزل فيها عدد وفير من الاغريق(٣٩).

وإذا كان المصريون قد تصوروا الحياة الآخرة على أنها قريبة الشبه جدا بالحياة الدنيا، وعلى ذلك كان الموتى يزودون بكل ما يلزمهم من طعام أو شراب وآنية وحلى وأثاث وتماثيل الأوشا بتى Ushabti من خدم وعمال لأداء الأعمال من أجل سادتهم فى محيطهم الجديد، فيبدو أن بعض أوراق البردى اليونانى دفن لمثل هذا الغرض، فاللفافة المشتملة على (الفرس) Persae لتيموثيوس Timotheus، ولعلها أقدم نص يونانى محظوظ باق ويرجع العهد بكتابتها إلى الربع الأخير من القرن الرابع ق.م، قد عثر عليها فى قبر وقد وضعت مع أحد اليونانيين من الموتى، والأمر كذلك بشأن نص من هومر عثر عليه سير فلندرز بيترى فى هوارة موضوعا تحت رأس امرأة. وقد تواردت الأخبار بأن ثلاثة برديات أدبية مشهورة مما هو محفوظ بالمتحف البريطانى – وهى رسالة لأرسطاطاليس عن الدستور الآثينى وأناشيد باكخيليدس Bacchylides، والتمثيليات الهزلية المعتمدة على التقليد لهيروداس Herodas– جاءت من مصدر مماثل، ولكن نظرا لأنها اشتريت من تجار

يبذلون جهد استطاعتهم للعمل على اخفاء المصدر الذى جاءوا منه بهذه السلع، فإن هذه الأقوال لا يمكن التعويل عليها[٤٠].

وبينما كان أحد الباحثين فى الآثار يقوم بالحفر والتنقيب فى احدى مناطق الفيوم، عثر على موميات كثيرة ملفوفة داخل غطاء كرتونى من البردى، فلما تم فك هذا الغطاء وأخرج ثمارا طيبة هى تلك المجموعة الباهرة المعروفة ببردى بيترى Petrie Papyri، وتاريخها يرجع إلى القرن الثالث ق.م، فضلا عن كثير من الوثائق التى تضمنتها تلك المجموعة، فإنها اشتملت على بعض من أوراق البردى ذات القيمة، والطابع الأدبى. ومن بين هذه قصاصات من لفافة محتوية على محاورتين ومن بين هذه المجموعة لفافة أخرى عليها أكثر من مائة بيت شعر من ملحمة شعرية ضائعة ليوربيدس هى أنتيوبى Aniope. وقد وفق المتحف البريطانى فى مستهل العقد التاسع (من القرن الماضى) إلى شراء صفقة رابحة من لفائف بردية اشتملت على رسالة ضائعة لأرسطو خاصة بالدستور الآثينى، وعلى خطبة أخرى لهيبريديس Hyperides، ثم على تمثيليات تصويرية أخرجها هيروداس Herodas[٤١].

ومهما كان من اعتزاز اليونانيين فى مصر، المقيمين بالاسكندرية بتقاليدهم اليونانية المتوارثة، ومهما بلغ من شعورهم بالتعالى على المصريين والنظر إليهم وقت الاحتلال بأنهم أعاجم متبربرون، فإن اليونانيين الذين استقربهم المقام فى الأقاليم الريفية ما لبثوا أن فقدوا ما يمكن أن يكونوا قد أظهروه أول الأمر من اعتزاز بشخصيتهم وترفع عن مخالطة غيرهم، فأخذ يعم التزاوج بينهم وبين الأهلين وبدءوا يسمحون باتخاذ أسماء مصرية يطلقونها على أفراد أسرهم ويتشكلون ويتطبعون شيئا فشيئا بظروف البيئة المحيطة بهم بمختلف الطرق والأوضاع، وفى خطاب من البردى يرجع تاريخه إلى القرن الثانى قبل الميلاد وتتحدث كاتبته عن ابنها وقد أخذ يتعلم اللغة المصرية على أنها

وسيلة من وسائل تحسين أحواله المادية، وكان هذا التطبع والاستيعاب ملحوظا بصفة خاصة فى نطاق الديانة(٤٢).

ولا شك أن تطبع بعض اليونانيين بما هو مصرى، لابد أن ينتج فى النهاية مخرجا لا هو يونانى تماما، ويستحيل أن يكون مصريا تماما، وانما من المرجح أن يكون مزيجا من الثقافتين معا فى حالة جدل وتفاعل، وآية هذا، ما ذكره سير هارولد ادريس بل من أنه إذا كان الشرقيون أو كثرتهم الكبرى قد اتخذوا لأنفسهم اللغة اليونانية لسانا، والزى اليونانى لباسا، واستوعبوا قسطا كبيرا من الثقافة اليونانية، فإن اليونانيين بدورهم قد اقتبسوا كثيرا من البنية الشرقية التى تحيط بهم، وبخاصة فى نطاق الدين، ويصدق هذا القول بصفة خاصة على مصر حيث كان معظم المتوطنين من الأجانب غير مقيمين فى دول المدن التى توافرت فيها الكفاية الذاتية وتمتعت بالحكم الذاتى، وانما كانوا متفرقين منتشرين فى أنحاء البلاد بين ظهرانى الأهلين من المصريين، وذلك فى بلد عرف بشدة الحرص على الاحتفاظ بشخصيته وذاتيته، وعلى هذا النحو تكونت ثقافة خليطة. ولكن ذلك المركب المزجى لم يعرف الاستقرار على حال، فالهيلينية بعد أن أخذ ينساب إليها فيض لا ينقطع من المؤثرات الشرقية المبّردة لها، ما كان فى وسعها أن تصمد لهذا كله مالم تلق العون الفعلى من الحكومة القائمة، وبخاصة أن تلك الهيلينية لم تكن تزيد كثيرا عن غشاء أو طلاء يكسو ما تحته من ثقافة عريقة فى القدم، وهى بحكم أصلها غريبة عن اليونانيين. وهذا الغشاء فى مصر أرق ما يكون فى الأقليم الطيبى الذى كان أبعد الأقاليم عن الأسكندرية وعن عالم البحر المتوسط، وقد بلغ نفوذ رجال الدين فى ذلك الأقليم النائى أقوى ما يكون، ولعله كان يضم أقل عدد ممكن من المتوطنين من اليونان(٤٣).

وساعد على التأثير الثقافى الاغريقى فى مصر أن البطالمة اتخذوا من النشاط الثقافى دعامة سياسية، ومن ثم وجهوا المكتبة والجامعة -

التى سوف نتحدث عنها فيما بعد – لتؤدى، الى جانب الغرض الثقافى الذى نيط بها غرضا آخر هو التدعيم الأدبى لدولة البطالمة عن طريق الدعامة لعاصمتها، فنحن نرى بطليموس الأول سوتر وبطليموس الثانى فيلادلفوس يعتمد على أن ديمتريوس الفاليرى، السياسى الأثينى الذى رأى فى العاصمة البطلمية الفنية الغنية بحيويتها الدافقة وامكانياتها الكبيرة خير مجال لفكرة راودته قبل ذلك مرات واتخذت حين خرجت إلى نطاق الواقع شكل أكبر جامعة فى العصور القديمة وأول مكتبة حكومية عامة عرفها العالم(٤٤).

ولم تذهب جهود البطالمة سدى فى ناحية الدعاية التى هدفوا إليها فسرعان ما توافد على الجامعة والمكتبة علماء وأدباء ومفكرون من جميع أنحاء العالم المتأغرق، من أمثال كاليماخوس الشاعر الذى أتى من برقة وهيروفيلوس الجراح والعالم فى التشريح وأرسترتوس العالم فى وظائف الأعضاء اللذين أتيا من آسيا الصغرى، وهبارخوس الفلكى الذى آتى من (نيقية)، وغير هؤلاء عشرات وعشرات – فقد وصل هؤلاء العلماء فى فترة ازدهار النشاط الثقافى فى الأسكندرية إلى نحو مائة – وكلهم ، فيما عدا استثناءات قليلة، أتوا من بلاد أخرى ليستقروا وليقوموا بعملهم العلمى فى الأسكندرية. وقد تمثل نجاح البطالمة فى ناحية الدعاية السياسة عن طريق النشاط الثقافى ذى السمعة العلمية العالية التى اشتهرت بها الأسكندرية كنتيجة طبيعية لهذا التركيز والتخصص الثقافى. وقد بلغ من قوة هذه السمعة، وبخاصة فيما يتعلق بالعلوم العلمية أن ذكر لنا مؤرخ مثل أميانوس ماركلينوس، مشيرا إلى هذه الفكرة، أن خير تزكية كان فى امكان أى طبيب أن يتحصل عليها هى أن يقال عنه أنه أتم دراسته فى جامعة الاسكندرية(٤٥).

وقد كان هذا الاتجاه من جانب البطالمة نحو الدعاية السياسية لدولتهم ولحكمهم عن طريق تركيز الأضواء على عاصمتهم كمركز للثقافة العالمية هو قطعا الذى دفع البطالمة إلى سلوك كل طريق ممكنة

لتزويد مكتبة الاسكندرية بالنسخ الأصلية من الرسائل التى وجدت فى عصرهم، فإلى جانب شراء الكتب بالطريق المعتادة، لجأ بعض ملوكهم فى سبيل الحصول عليها إلى وسائل تبعد قليلا عن الطريق السوية.

ومن ذلك أيضا المائتى ألف مجلد التى أضافتها كليوباترا إلى المكتبة حصلت عليها من ماركوس أنطونيوس الذى أهدى هذه المجلدات لفاتنته، بعد أن نهبها من مكتبة برغامة أثناء حروبه فى آسيا الصغرى، وقد كانت النتيجة الطبيعية لهذه الجهود، هى العدد الضخم من الكتب الذى ضمته مكتبة الاسكندرية، إذ من المرجح أن هذا العدد وصل قرب نهاية القرن الثالث ق.م إلى نحو أربعمائة ألف مجلد، بينما قفز فى الفترة التى زار فيها يوليوس قيصر مصر فى أواسط القرن الأول ق.م، إلى سبعمائة ألف مجلد، فإذا أضفنا إلى ذلك المائتى ألف مجلد التى أضيفت فى عهد كليوباترا السابقة، لكان الناتج تسعمائة ألف مجلد حوتها مكتبة الاسكندرية فى نهاية عهد البطالمة، وهو عدد كفيل بأن يجتذب الأنظار إلى الاسكندرية كأكبر مركز ثقافى موجود[٦١].

وقد دلت الكشوف الأثرية، فى أكسيرنخوس Oxyrhynchus، (محلها الآن قرية البهنسا مركز بنى مزار بمحافظة المنيا)، وهى حاضرة قسم فحسب، وليست مؤسسة يونانية، على وجود نطاق واسع المدى، وفيه تباين إلى حد يدعو إلى الدهشة، من ذخائر الأدب اليونانى الكلاسيكى وبدائعه، ميسرة للدراسة، وكان هومر - باعتباره الكتاب المدرسى الأساسى فى التعليم اليونانى - منتشرا بالطبع فى كل مكان، ولا حاجة بنا لأن تعترينا الدهشة لوجود هيسيود Hesiod، ولكن مما يدعو إلى أشد من ذلك عجبا أنه بالاضافة إلى المؤلفات التى بقيت بعد العصور الوسطى، والمؤلفين من أمثال سافو Sappho وميناندر Menander وكاليماخوس Challimachus وكان أغلب هذه قد ضاع إذ ذاك، ولكنها كانت مألوفة للقراء طوال القرون الأولى من العصر المسيحى - نجد

كثيرا من المؤلفات التى تسرع بعض الكتاب المحدثين فى الظن بأنها لم تكن متداولة فى ذلك الحين، ومن بين هذه المؤلفات قصاصات لكثيرين من أوائل كتاب الأناشيد والمقتنيات والأزجال ونتف من أناشيد النصر وأغانى الحرب وغيرها من أشعار بندار Pindar ومعاصريه وفقرات من روايات ايسكلس Aeschylus الضائعة (ومن المستطاع التعرف على أثر ما يقرب من أربعين من رواياته التمثيلية) وذلك عدا غيرها من شعر سوفوكليس ويوريبيدس وأرسطوفانيس وأمثلة من شعر الأغانى على مختلف بحوره(٤٧).

ومن الجلى أن القاطنين فى اكسيرنخوس - مثلهم بالطبع مثل الساكنين فى أنحاء أخرى من مصر - كان فى متناولهم مقدار هائل من ذلك التراث الأدبى الذى لم يبق منه للآن سوى اليسير، ولابد أنه كان هناك جمهور كبير من القراء إلى درجة لابأس بها، كما نشطت تجارة رابحة فى الكتب. ولدينا خطاب شيق جاء فى بردية نشرت منذ أمد ليس بالطويل، فكشف لنا النقاب عن المحيط الشغوف بقراءة الكتب وألقى لمحة من الضوء الساطع على تلك البيئة فى أكسيرنخوس، يقول فيه صاحبه: "انسخ لى صورا من الكتابين السادس والسابع من "شخصيات فى الكوميديا" للمؤلف هيبسكيراتس Hypsicrates ووافنى بها وذلك لأن هاربو كراتيون Harpocration يقول أنها موجودة بين كتب بوليون Polion، ولكن يحتمل أن لدى آخرين ولديه كذلك ملخصات نثرية من مؤلف ثيرساجوراس Thersagoras عن الأساطير فى التراجيديا، هذا ما ذكره كاتب الخطاب(٤٨).

مدرسة الاسكندرية ومكتبتها:

تبين لنا أن همّ بطليموس الأول لم يكن قاصرا على التوفيق بين السكان الجدد من الاغريق الذين وفدوا على مصر بعد فتوح الاسكندرية وبين السكان الأصليين فى مصر من الوجهة الدينية

فحسب، بل دلت الوثائق على أنه كان مهتما اهتماما بالغا برفع مستوى الثقافة ونشر العلوم وبخاصة فى الاسكندرية عاصمة ملكه الجديد ليدرج بها إلى أرقى مكانة فى العالم الهيلينستى فى عهده. والواقع أنه وصل بهذه العاصمة الجديدة التى كانت تضم تحت جانحها جثمان الاسكندر الأكبر إلى منزلة لم تتمتع بها مدينة أخرى فى العالم القديم، فقد كانت تدعى بحق فى خلال القرن الثالث ق.م عاصمة الأدب فى العالم الاغريقىفما من مجال فيه باستثناء الكوميديا - إلا ضربت فيه الأسكندرية بسهم صائب، وبحلول منتصف القرن الثالث ق.م كان نفوذ الاسكندرية فى عالم الشعر قد بلغ شأوا بعيدا لدرجة أن شاعرا عظيما مثل (أيوفريون) Euphorion الذى على ما يظهر كان قد قضى معظم سنى حياته فى بلاد الاغريق القديمة وسوريا، كان يعد مصريا كأى شاعر يقطن العاصمة المصرية[٤٩].

وأثناء عهد بطليموس الأول (٣٢٣-٢٨٤ ق.م) كان من الشخصيات الاغريقية التى وفدت إلى مصر كما أشرنا (ديمتريوس) الفاليرى الأثينى، وهو من الشخصيات الفذة التى اشتغلت بالفلسفة والسياسة معا، فقد كان من الفلاسفة المشائين الذى أخذوا عن أرسطو نفسه، وله مؤلفات فلسفية وأدبية لم يصلنا منها سوى القليل، وكان مجئ صاحبنا إلى مصر سنة ٢٩٥ ق.م فارا، فأكرمه بطليموس، ومن هنا بدأ يقوم بأعظم أعماله وأكثرها خلودا، إذ اقترح على بطليموس إنشاء مجمع علمى، تلحق به مكتبة تجمع فيها الكتب من جميع أقطار الأرض، وسمى هذا المعهد (الموسيون) Mouseion، وهى كلمة يونانية تعنى (معبد ربات الفنون والعلوم) اللائى يوحين للشاعر والكاتب والمفكر. ومن كلمة (موسيون) اليونانية اشتقت الألفاظ الأوربية Muoseum و Muse التى نترجمها اصطلاحا بكلمة (متحف)[٥٠].

وسرعان ما تم بناء الموسيون رائعا جميلا فى منطقة القصور الملكية المعروفة باسم Brucheion وقد رأى (استرابون) حين حضر إلى الاسكندرية فى نهاية القرن الأول ق.م وأقام بالموسيون خمس سنوات عاكفا على تأليف كتابه الخالد فى الجغرافيا، ووصفه بهذه العبارة: "والموسيون جزء من القصور الملكية، ويشتمل على منتزه ورواق به قواعد، وبيت كبير به قاعة لاجتماع العلماء أعضاء الموسيون". ومن سوء الحظ أن استرابون لم يبين لنا موقع المكتبة من هذا البناء. ومع ذلك فليس هناك شك فى أنه ألحقت بالموسيون مكتبة خاصة كبرى وأطلق عليها المؤرخون اسم المكتبة الكبرى أو الأم تمييزا لها عن المكتبة (الابنة) التى ألحقت بمعبد السرابيوم بعد ذلك، ذلك المعبد الذى أنشئ فى عصر بطليموس الثالث للإله سرابيس(٥١).

ولا نزاع فى أنه كانت هناك نظم للتعليم تتبع فى (ميوزيون) الاسكندرية منذ بداية تأسيسها، وعلى أية حال، فإنه يمكن معرفة الشئ القليل عن طبيعتها وامتدادها، ومن الاشارات العابرة القليلة التى وصلت إلينا عنها نفهم أن أساس الجانب التعليمى كان فى صورة مناقشات يومية فى المسائل العلمية، وهذه كان يسيرها منذ البداية مجموعة من أعضاء (الميوزيون) وقد قدر عددهم فى عهد البطالمة المزدهر بحوالى مائة عالم، من المحتمل أنه كانت هناك نخبة من المستمعين وقتئذ وان كانت البراهين على حقيقة الأمر تعوزنا(٥٢).

وقد كان الانتاج الدائم للميوزيون فى علوم الفقه بوجه خاص فى التعليم، ويمكن تقدير ذلك من ملحوظة المؤرخ (أميانوس مارسلينوس Ammianus Marcellinus، فقد أخبرنا فى زمنه أى فى القرن الرابع بعد الميلاد عن شهرته فى أنه درس الطب فى الاسكندرية، وكان ذلك أحسن تزكية يمكن أن ينالها طبيب فى ذلك العهد، فقد قيل أن آخر امرأة من نساء البطالمة وأذكاهن وهى كليوباترا قد حضرت مجالسهم

العلمية باهتمام وقد كان حضور أنطونيوس زوج كليوباترا لمناقشتهم سواء كان ذلك طوعا أو كرها منه لارضاء الملكة أو قد يكون ذلك نتيجة لالحاح منها، هذا وقد يكون من باب الخطأ اذن أن نعد إهداء كليوباترا آلاف الكتب التى نهبها ماركوس أنطونيوس من مكتبات مدينة (برجامم) نوعا من الاخلاص للعلم من ناحية، بل يحتمل أن الهدية كانت مجرد إظهار الولاء والاخلاص لهذه الملكة الساحرة(٥٣).

ولدينا خطاب كتبه (ارستاس Aristeas) وهو يهودى مشهور بالدعاية لقومه، إلى (فيلوكراتيس) Philocrates أخيه، وهذا الخطاب يعد مصدرا هاما يظهر فيه النطاق الواسع لاهتمام البطالمة الأول للحصول على الكتب. والغرض الذى يقصد من هذا الخطاب هو أن كاتبه يهودى معاصر للملك بطليموس الثانى وقد ذكر مؤلفه رغبة بطليموس الثانى فى ترجمة الأدب الدينى اليهودى إلى اللغة اليونانية ليصير فى متناول العالم الاغريقى، وكذلك للحصول على نسخ من هذه التراجم لمكتبة الاسكندرية(٥٤).

ولكى يضاعف بطليموس الثالث كتب المكتبة أصدر أمرا يقضى بأنه على جميع المسافرين الذين يرسون بسفنهم فى مرفأ الاسكندرية، أن يودعوا ما قد يحتويه متاعهم من كتب، وكلما دعت الحاجة كانت المكتبة تستولى عليها وتقدم لصاحبها نسخة رسمية معتمدة بديلا عنها. وقد قيل كذلك أنه استعار من أثينا النسخ الرسمية من مؤلفات ايسكلس Aeschylus وسوفوكليس Sophocles ويوربيدس Euripides لكى يحصل على صور مستخرجة منها تكون مطابقة للأصل، بعد أن دفع مبلغا كبيرا، وذلك على سبيل الضمان إلى أن ترد، ولكن الثابت أنه فضل أن يضحى بهذا المبلغ على أن يرد تلك الأصول التى بعث إلى أثينا بنسخ منها على سبيل البدل. وفى تلك المكتبة وضعت أسس علوم منها تصنيف الكتب ووصفها ونقد النصوص والمتون ووضعت قوائم حاوية

لفنون الأدب اليونانى الكلاسيكى وظهرت نصوص هومر وغيره من المؤلفين خالية من كثير من التحريف الذى كان قد علق بها فخرجت فى صور قشيبة تناقلها الناس فيما بعد، ولم يطرأ عليها سوى تغيير طفيف نسبيا حتى العصور الحديثة، وابتدع أسلوب الضبط والترقيم مما كان مصدر ضيق وسخط فى أحيان كثيرة لدى تلاميذ المدارس وطلاب الجامعة فى العصر الحديث، كما ابتدعت علامات الوصل التى لقيت هوى وترحيبا أكبر. ولم يهمل شأن العلوم والرياضيات، ففى الاسكندرية حدث أن وفق أريستارخوس Aristarchus فى الاهتداء إلى دوران الأرض حول الشمس مستبقا كبرنيقوس Copernichus فى ذلك الكشف، وكان فيها أن لازم التوفيق اراتسشينيس Eratosthenes فى قياس محيط الأرض (الى درجة يوثق بها من الصحة) وفيها أخرج اقليدس Euclid كتابه المسمى (العناصر)، وفيها أن هيرون Heron اخترع أو وصف من اختراع لآخر، الآله البخارية، والآلة التى تدار بوضع عملة صغيرة فى ثقب بها[**].

ونظرا للدور التأسيسى الذى قام به ديمتريوس بالنسبة للمكتبة، مع ما عرفناه عنه من تلمذة لأرسطو، لم يكن غريبا أن يوجه المكتبة والموسيون توجيها أرسطيا، وأول عمل قام به فى هذا الاتجاه، هو شراء مكتبة أرسطو التى كانت فى مدرسته (اللقيون) فى أثينا. فنحن نعرف أنه بعد موت أرسطو خلفه على رأس المدرسة ثيوفراسطوس Theophratos الذى خلفه نيليوس Neleus تلميذه ووريثه، وقد استطاعت مكتبة الاسكندرية، بفضل ديمتريوس بطبيعة الحال، أن تشترى من نيليوس مقابل مبلغ ضخم مكتبة أرسطو، التى كانت تعتبر من غير شك أعظم مقتنيات مكتبة الاسكندرية، ومن أكثر ما جلب لها شهرتها العالمية قديما وجعل كثيرا من الناس يقصدون الاسكندرية ليقرأوا فى مكتبة أرسطو بعد انتقالها إليها، ولعل هذا هو مبعث الخطأ الذى وقع فيه بعض الكتاب العرب وبعض الرحالة الغربيين فى العصور الوسطى

فأطلقوا على مكتبة الاسكندرية اسم مدرسة أرسطو، وأن أرسطو نفسه علم بها. ومن الطريف أنهم جعلوا السرابيوم حيث يقوم عامود السوارى هو موقع المدرسة(٥٦).

ولم تقتصر على الكتب اليونانية بل ضمت أيضا كل ما استطاعوا الحصول عليه من آداب وأخبار الشعوب الأخرى، ولابد أنها ضمت مثلا قدرا كبيرا من الأدب المصرى، ويدل على ذلك أن البطالمة اهتموا بنقل بعض تراث المصريين إلى اللغة اليونانية ليقرأها علماء الموسيون من الاغريق، ومن أمثلة لهذا العمل المعروفة أن كلف الكاهن المصرى مانيتون بتأليف كتاب باللغة اليونانية عن تاريخ مصر الفرعونية. ورغم أن الكتاب الأصلى قد ضاع، إلا أنه وصلتنا أجزاء منه، ولا يزال تقسيم مانيتون للتاريخ المصرى إلى ثلاثين أسرة معمولا به إلى الآن. وهناك تاريخ العراق القديم الذى ألفه باللغة اليونانية بيروسوس Berossos كاهن الإله (بعل -مردوك) من مدينة بابل وهو ممن عاصروا الاسكندر الأكبر وعاش فى أنطاكية فى القرن الثالث وعلم فى أثينا حيث أقيم له تمثال يحليه لسان من الذهب(٥٧).

ولابد أن المكتبة ضمت أيضا مجموعة من الكتب الفينيقية التى لم يصلنا منها سوى أسماؤها مثل كتب ميناندر الصورى وديوس هيبكراتس Dius Hypacrates وثيدوتوس Theodotus وموخوس ،خؤاعس من المؤرخين، وسانشوينوثون Sanchuoithon الذى كتب عن آلهة الفينيقيين.

ولابد أيضا أن بعض كتابات الهنود البوذيين قد أودعت المكتبة بعد أن أرسل Asoxs حاكم الهند فى النصف الأول من القرن الثالث ق.م يدعو الملك بطليموس الثالث إلى اعتناق البوذية(٥٨).

كانت المكتبة بمثابة العقل أو الكمبيوتر لأقسام المدرسة، إذا احتاج الأطباء إلى مؤلفات أبقراط ومن جاءوا بعده، أو احتاج الفلكيون إلى سجلات الأرصاد والنظريات الفلكية الأولى، أو احتاج المعماريون إلى الرسومات الهندسية لمشروعات سابقة، أو الجغرافيون إلى خرائط، أو المؤرخون إلى الوثائق والمستندات أو غيرهم من العلماء والأدباء والنقاد فهى كلها تحت أمرهم وفى متناول أيديهم(٥٩).

لكن إذا انتقلنا من دائرة العلوم الطبيعية إلى مجال الدراسات الإنسانية، فإن أهمية المكتبة تزداد بصورة هائلة، لأن المكتبة فى مجال الدراسات الإنسانية لا تقدم المعلومات العامة فحسب، بل تحتوى على أمهات المؤلفات الفلسفية والأدبية والفكرية الكبرى، فإذا كان فى استطاعة المشتغل بالتشريح – مثلا– أن يجد فى المكتبة كتبا، فإنه لن يجد أجساما لتشريحها، كما فى استطاعة الفلكى أن يجد كتبا فى الفلك، لكنه لن يجد النجوم ولن يرصد الكواكب، ذلك أن انجازات هؤلاء العلماء تعتمد فى المقام الأول على الأقسام التى ينتمون إليها فى المدرسة حيث المعامل والأجهزة والمراصد. أما إذا أراد الأديب أو الناقد أن يقرأ الإلياذة أو الأوديسا لهوميروس، أو مسرحيات ايسكولس وسوفوكليس وبوربيدس، أو كتابات طاليس وهيراقليطس، فسوف يجد تلك الذخائر وغيرها بين يديه فى المكتبة وحدها، وربما لم يكن فى استطاعته أن يعثر عليها فى مكان آخر(٦٠).

ولم تكن الخدمة المكتبية فى مكتبة الاسكندرية قاصرة على ترتيب وتصنيف الكتب وحفظها للإعارة الداخلية أو الخارجية كما يحدث فى مكتبات العالم المعاصر، بل كانت هذه الخدمة أكثر تعقيدا وصعوبة لدى أمناء المكتبة الذين واجهوا مشكلة عدد ضخم من لفائف البردى، بحيث ينبغى أولا معرفة ماتحتويه كل واحدة منها على حدة، ثم تصنيفها وفهرستها وتحقيق متونها. وكان هذا التحقيق سببا فى العديد من

الصعوبات (التعقيدات)، لأن غالبية المتون التى اشتملت عليها اللفائف لم تكن على نسق واحد. وكان ترتيبها وتصنيعها أمرا يكاد يكون مستحيلا، إذا لم تحقق تحقيقا دقيقا، وإذا لم تنقح لتعد للنشر، وترتب فى صورة واضحة أو صيغة منطقية.

وهذا يعنى أن أمناء مكتبة الاسكندرية لم يكونوا مجرد منظمين أو مفهرسين للكتب كما هى الحال فى المكتبات الحديثة، بل كان عليهم أن يكونوا علماء متمكنين فى فقه اللغة، فإذا كانت مدرسة الاسكندرية مهد علماء التشريح والفلك والهندسة والفيزياء والتكنولوجيا، فإن المكتبة كانت مهد علماء فقه اللغة والنقد والأدب والشعر والفلسفة والدين والتاريخ والجغرافيا. ولذلك لم يكن العلم فى لفائف البردى فحسب، بل كان أيضا فى عقول الأمناء القائمين على المكتبة[11].

هذا ويمكن تقدير المكانة الرفيعة التى وصلت إليها مكتبة الميوزيون فى العهد الهيلينستى من المكتبات العدة فى الممالك المعاصرة لها والتى أخذت نظمها عنها، وذلك بسرد أسماء قائمة العلماء الفطاحل المبرزين الذين نصبوا فى القرنين الثالث والثانى ق.م أمناء فيها من هؤلاء[12] (زنودوتس) Zenodotus من أهالى أفيسوس Ephesus، ويعد أول اغريقى من العصر الهيلينستى يضع العالم متنا منقحا لكتابى هومر (الالياذة) و(الأوديسة) وخلفه فى رئاسة المكتبة (أبوللونيوس) الأسكندرية، وهو مؤلف الملحمة المسماة الحملة الأرجونيتية Argnautic Expedition، ولا تزال تقرأ حتى أيامنا وكانت فى عصرها أكثر شهرة عما هى عليه الآن، كما كانت أحسن ملاءمة للذوق القديم أكثر من عصرنا الحاضر. وفى عهد رئاسة (أبوللنيوس) لمكتبة الأسكندرية نظم الشاعر الغنائى (كاليماخوس) فهرس مكتبة الأسكندرية المشهورة.

وثـالث أميـن للمكتبـة هـو الجغرافـي القديـر ذائـع الصيـت (أريستوفانيس)، وكان يشغل هذه الوظيفـة فـى السـنين العشـرة الأخـيرة من القرن الثالث ق.م، وخلفه في وظيفته هذه (أريسـيتوفانيس)، وكـانت له شهرة بين العلماء بوصفه ناشـر المتـون الممتـازة للشـعر الكلاسـيكى ولكتابات مؤلفين آخرين من الذين سبقوا أفلاطون[١٣].

وكان خامس أمناء مكتبة الاسـكندرية هـو (أبولونيـوس) وهـو كـاتب غير معروف كثيرا من حيث التصوير الأدبـى. وآخر علـم مـن هـؤلاء الأمناء وهو (أريستاركوس Aristarchus) وقـد قـام بنشـر كتـب للمؤلفيـن الاغريق المبكرين من أول عهد (هومر) حتى عهد (بندر) ويتضح من الأسماء السابقة أن معظم من تولوا وظيفة أمين مكتبة الاسكندرية كانوا مربين لأولاد ملوك البطالمة الذين عينوهم فى زمانهم.

وقد حلت كارثة بالمكتبة وبالميوزيون فى عهد بطليموس الثامن.
وكان لأدباء الاسـكندرية فـى عهد البطالمـة شـأن يذكـر فـى الشـعر الغنـائى والدرامـا، وآيـة ذلـك أن القـراء فـى العصـر الكلاسـيكى كـانوا يقنعون بالمتون التى تقع تحت أيديهم لأى مؤلف دون مراعاة إذا كـانت هذه المتون صـالحـة أو غـير صـالحـة للقـراءة تمامـا، وقـد شـعر علمـاء الأدب الاسكندرى أنه من واجبهم عند تناول أى مؤلـف أن يتثبتـوا مـن متنه، ثم يفسروا ما فيه من ألفاظ لغويـة مغلقـة ويوضحـون موضوعـه، ولا أدل على الطريق التى نهجوها فى هذا السبيل من طبعـات مؤلفـات (هومـر) التـى نشـرها (زندوقـوس) و(ريـانوس Rhianus) وأريسـتوفانس و(أريسـتاركوس) علـى التوالـى، ويلاحـظ فـى ذلـك النقـد العلمـى المستمر[١٤]. والواقع أن تعليق (أريستاركوس) على (هومر) كان عظيما لأنه كان يتناول المتن سطرا سطرا. أما المسائل العويصـة التـى كـانت تعرض لهؤلاء العلماء، فكانت تفحص فـى مقـالات منفـردة. وقـد طبـق

أريستوفانس مهارة النقد التى حصل عليها من هذه الدراسات على أنواع أخرى من الشعر.

ومما يطيب ذكره فى هذا المقام أن ثانى عمل جليل قام به علماء الاسكندرية بعد نقد المتون القديمة وعرضها عرضا صحيحا أنهم وضعوا علم قواعد النحو والأجرومية، كما يسمونها ولم يدفعهم إلى هذا الاختراع المجيد إلا حب العلم لذاته. وقد ساعدهم فى مجهودهم هذا طائفة من العلماء الرواقيين وبخاصة فى تدبر أصول اللغة وتطورها، وكانت أول أجرومية وضعت فى اللغة الاغريقية لأحد تلاميذ العالم (أريستاركوس) المسمى (ديونيسون التراقى)(١٥).

ولم يقتصر التأثير الاسكندرى على ميدان الأدب، بل قامت بمدرسة الاسكندرية حركة علمية ارتقت بعلوم الرياضة والطب والطبيعة والحيوان والفلك والهندسة إلى آفاق جديدة:

- الطب، كان أبرز علماء الطب فى الاسكندرية هروفيلوس العالم فى التشريح، وأراسيستراتوس العالم فى وظائف الأعضاء، وقد كانت أبحاث هروفيلوس التشريحية تدور حول المخ والأعصاب والكبد والرئتين وأعضاء التناسل، ووجه هذا العالم عناية كبيرة إلى دراسة المخ والأعصاب والقلب وضربات النبض. وقد كان طبيعيا أن يؤدى تقدم التشريح إلى تقدم الجراحة، ومن أسباب مجد طب الاسكندرية اختراع آلات جديدة للجراحة، واستخدام هذه الآلات بمهارة فائقة(١٦).

وكان أراسيستراتوس أكثر توفيقا من هروفيلوس فى أبحاثه عن القلب والمخ، وذهب إلى مدى أبعد منه فى التفرقة بين الأعصاب الحساسة والأعصاب المحركة.

وحوالى سنة ٢٨٠ ق.م أسس فيلينوس مدرسة طب جديدة فى الاسكندرية تدعى المدرسة التجريبية، وقد كان فيلينوس أحد تلاميذ هروفيلوس، لكن مدرسته تغاضت عن التشريح والفسيولوجيا، لأنها كانت ترى أن الطب ليس مختصا إلا بعلاج الأمراض دون الوقوف على أسبابها، ولذلك فإن واجب الطبيب هو أن يعطى العلاج الذى يشفى أعراض الداء التى يراها، على أن يهتدى إلى ذلك بملاحظاته الشخصية والتعليم والحالات المتشابهة.

– الفلك، أما الفلك كعلم له قواعده وأصوله، فقد بدأ فى المرصد الملحق بمدرسة الاسكندرية على يدى كل من (أريستيللوس) و(تيموخارس) فى النصف من القرن الثالث ق.م، فقد قاما بأرصاد فلكية قيمة برغم أن الأجهزة التى استخدماها كانت فى غاية البساطة.

ثم يأتى العالم الفلكى أريستارخوس الساموسى ليبز انجازات ونظريات معاصريه أريستللوس وتيموخارس. وقد أشار إليه أرشميدس فى كتابه (حاسب الرمل) على أنه من رواد علم الفلك، بعد أن وضع أريستارخوس رسالة عن (أحجام الشمس والقمر وأبعادهما)، على نهج اقليدس ودقته، ولكنها كانت تستند إلى بيانات غير صحيحة[١٧]. ويتضح من كتاب (حاسب الرمل) الذى وضعه أرشميدس حوالى سنة ٢٢٦ بعد وفاة أريستارخوس أن الأخير صحح بعض أخطائه البارزة بنفسه فى أواخر حياته.

أما فى النصف الثانى من القرن الثانى ق.م، فقد بزخ فى سماء الاسكندرية واحد من أعظم الفلكيين فى عصور عدة، هو هيبارخوس النيقى، وكانت جهوده فى الرياضة مجرد وسيلة لجهوده الفلكية التى كانت انجازه الفريد وغايته القصوى. وقد قام هيبارخوس بأرصاد

عديدة عجيبة فى دقتها برغم الامكانات المحددة للأجهزة الفلكية التى اخترعها[٦٨].

– التاريخ، الواقع أن المحصول التاريخى فى الجيلين اللذين أتيا بعد عهد (الاسكندر) كان عظيما، غير أنه مما يؤسف له جد الأسف ضياع مؤلفات المؤرخين الذين كتبوا عن هذا العصر ولم يبق لنا من كتاباتهم إلا بعض مقتبسات نقلها عنهم آخرون جاءوا بعدهم. وقد كانت أبرز غلطة ارتكبها مؤرخو هذا العصر هى العمل على جعل كتاباتهم مؤثرة دون مراعاة أى اعتبار آخر (كأنها موضوع دعاية وإعلام)، كان أول من أدخل هذه الفكرة (أسوكراتيس) وتلاميذه، ولم تكن وقت عصر البطالمة قد ماتت أو أوشكت على الزوال، وعلى أية حال فقد نشأ فى العالم الحديث وقتئذ لشعوره بالتعبير عن الحقيقة أوحى به إلى بعض الكتاب وبخاصة عند أولئك الذين كانوا يعملون فى الدوائر الحربية وهم الذين عرفوا الاسكندر وعاشوا معه، فأقلعوا عن البلاغة والمبالغة، ومن أجل ذلك نجد أن بطليموس عندما كتب تاريخه عن (الاسكندر) بعد عام ٣٠١ ق.م اعتمد على مذكراته الرسمية وغيرها من الوثائق الحكومية، مضافا إلى ذلك ملاحظاته الشخصية وذكرياته، وبذلك كان يقوم بعمل جديد فقد كان رجل عمل دوّن ما عرفه وما رآه[٦٩].

– الجغرافيا: يدل ما لدينا من مصادر على أن علماء الجغرافيا قد ساروا شوطا بعيدا فى ميدان الجغرافيا الوصفية والانسانية، ويمكن الانسان أن يلمس ذلك من المقتطفات القليلة التى بقيت لنا من مؤلفاتهم الهامة، ولا أدل على ذلك من الكتاب الذى وضعه الجغرافى الذائع الصيت والكتابات الجغرافية التى تركها لنا (بوليبوس)، والمقالات الجغرافية الكبيرة التى وضعها (أجاتاركيدس) مواطن (كنيدوس) Agatharchides of Cindus، وفى عهد (بطليموس فيلومتر) و(أريجيتس)

الثـانى عـاش الجغرافـى (أرتيميـدورس) Artemidorus مــن أهــالى (أفيسوس)، وقد كتب فى نهاية القرن الثانى ق.م. هذا بالاضافـة إلـى ما كتبه (بوزيدونوس) Posidonus فى الجغرافيـا الوصفيـة، ومـن سـوء الحظ أن هذه المؤلفات قد ضاعت ولم يبق لنا منها إلا نبذ(٧٠).

- الرياضيـات، وتحتـل الهندسـة مكانـة سـامية بيـن رياضيـات العصـر الهيلينستى، التى فـاقت فـى تقدمهـا سـائر فـروع العلـم الأخـرى، فـإن الهندسـة كـانت أسـاس كـل الرياضيـات عـن الاغريـق لعـدم درايتهـم بالأرقام، ولعل ما بلغته الهندسة من الاتقان كان سببا فـى عـدم تفكير الاغريق فى اختراع الأرقام، ولا سيما أن الهندسة كانت تشمل الكثـير مما يعتبر اليوم من علم الجبر. ولا يمكن تقدير الخدمات التى أسـداها اقليدس إلى الرياضيات، ويبدو أن هذا العـالم كـان يعـاصر بطليمـوس الأول، وعلى كل حال فإنه أسـس فـى الاسـكندرية مدرسـة تعلـم فيهـا الكثير من الرياضيين المبرزين. ويقـرن اسـم اقليـدس بأشـهر مؤلفاتـه وهو كتاب فى الهندسة يعرف باسم (العناصر). ولـم يعمـر كتـاب فـى العالم، باستثناء الكتب السماوية، مثل ما عمر هذا الكتاب الذى استمر تلاميـذ الهندسـة فـى مختلـف أنحـاء العـالم يسـتخدمونه منـذ العصـر الهيلينستى حتى عهد قريب جدا(٧١).

- وقد كان علم الطبيعة قبل الطب متأثرا بالروح الفلسفية التى أشـاعتها المدرسة الرواقية، فبعد ان كان قد استقل عـن الفلسـفة، واتخـذ منهجـا وضعيا ميكانيكيـا علـى يـد سـتراتون اللمسـاقى، أصبـح يقبـل المبـادئ الميتافيزيقيـة، ويدخلهـا فـى تفسـير أبسـط ظواهـر الطبيعـة وأهمهـا، فظاهرة مثـل ظـاهرة المد والجزر ترجـع إلـى نـوع مـن (التعـاطف) الكونى، أساسه حضور العقل الإلهى فى العالم كله، وعمل هـذا العقـل علـى ربـط ظواهـر العـالم فيمـا بينهـا - وان صـح تدخـل مبـادئ ميتافيزيقيـة كهـذا المبـدأ لتقسيم ظواهر طبيعيـة بسـيطة، فكـان يجـب

بالأولى الاعتماد عليها فى تفسير حركة الأفلاك، وربط هذه الحركة بأحداث العالم الجزئية، وبمصير كل انسان وبحياته؟ هذا موضوع علم التنجيم، الذى ابتدأ يشيع عند يونانيى الاسكندرية منذ عهد البطالمة حتى العصر الرومانى، وكانت تعاليمها قائمة من ناحية على مبادئ ميتافيزيقية غامضة، ومتجهة من ناحية أخرى إلى السحر، فالمهم عند الكيميائى القديم ليس هو البحث النظرى العلمى، ولا التجربة المنظمة، المهم هو ما سماه المورسيون (العمل) "Opus"، والعمل هو بوجه عام، تحويل المواد والمعادن المختلفة فيما بينها، وهو بنوع خاص تحويل المواد والمعادن الوضيعة إلى معادن وجواهر نفيسة، وبوجه أخص تحويلها إما إلى ذهب وإما إلى فضة. ونجد هذا الموقف واضحا كل الوضوح فى المؤلفات المنسوبة إلى بولوس المصرى، والتى كتبت أثناء القرن الثانى قبل الميلاد، وأهم هذه المؤلفات كتاب عنوانه (الطبيعة والتصوف)[٧٢].

وهذا طور عجيب من التفكير، يختلط فيه العلم بالسحر، وبالدين والفلسفة، وهو تفكير أصبح شائعا بالاسكندرية، ثم بين الاسكندرية وروما أثناء عصر الامبراطورية الرومانية، حتى سيادة الدين المسيحى على المجتمع سيادة كاملة.

– الفلسفة: تؤدى إذن متابعة العصر الاسكندرى منذ نشأته إلى ملاحظة أن الفكر الفلسفى– والفكر الفلسفى المشبع بالدين– قد تسرب إلى العلم، وتدخل فى مجاله تدخلا تدريجيا، كان من شأنه أن أضعف شيئا فشيئا من صفات العلم، ثم من صفات التفكير الفلسفى ذاته[٧٣].

غير أنه يجب علينا، قبل متابعة تحول التفكير الفلسفى هنا فهم منزلة الفلسفة من تعاليم الاسكندرية بوجه عام، وتعاليم (المتحف) بوجه خاص ولأجل ذلك يجب فهم طبيعة تلك الدراسات التى تدخل الفلسفة بينها أو التى تمت إليها بصلة وثيقة، أى الدراسات الانسانية.

ولم تكن مصر عند افتتاح (المتحف) وقبل افتتاحه صاحبة فلسفة، ولم تقم بها مدارس فلسفية كمدارس أثينا، ثم جاء (المتحف) وغلب الطابع العلمى عليه، وعلى مختلف الدراسات بمدينة الاسكندرية. ظهر ذلك فى الفلك، وفى العلوم الطبيعية، فكان (المتحف) فى بدايته معهدا أو مجمعا علميا لا شأن له بالدراسات الإنسانية. ولكن مؤسس المتحف والمشرفين عليه، تنبهوا إلى أهمية هذه الدراسات الأخيرة، وعرفوا أنه ان لم يتم القيام بها فى المتحف ذاته، وجب أن يكون ذلك فى منشأة ملحقة به، وكانت المكتبة هى تلك المنشأة التى اختصت بالدراسات الإنسانية(٧٤).

وفى الاسكندرية تم -ولأول مرة- المزج بين الفلسفة والدين على يد (فيلون) (٣٠ ق.م - ٥٠) اليهودى، ويمتاز فيلون عمن سبقه من المفكرين اليهود، إذ نجد لديه لأول مرة الحقيقة الدينية وقد وضعت فى صيغة فلسفية، والمبادئ العقلية الصرفة التى تقوم عليها الحقيقة الدينية. وقد كان فيلون مؤمنا باليهودية كل الايمان، وكان إلى جانب هذا شديد العناية بالفلسفة اليونانية وذلك لأن الفلسفة اليونانية قد غزت العقول فى ذلك العصر، وكان على العقول المفكرة أن تقف موقفا واضحا بأزاء هذه الفلسفة فيما يتعلق بصلتها بالحقائق الدينية اليهودية، فكانت طريقة فيلون فى أخذه للمذاهب اليونانية أن يقول أنها هى الأخرى تعبر عن الحقيقة، فإذا كانت التوراة تعبر هى الأخرى عن الحقيقة والفلسفة اليونانية كذلك، فلا ضير إذن على رجل الدين أن يأخذ بكلا الثقافتين، وكل ما هنالك من فارق بين الفلسفة اليونانية والأقوال الدينية أن الأقوال الدينية أكمل وأتم، وان كانت أقل تفصيلا وتدقيقا، بينما الفلسفة أقل شمولا ولكنها أكثر تفصيلا وأدق صياغة، ولهذا كان على فيلون أن يبين ما هنالك من صلة وثيقة بين الفلسفة والديانة اليهودية(٧٥).

والغاية من الفلسفة عند فيلون، هى أن تكون مؤدية إلى الخلاص، والخلاص هنا يجب أن يفهم بالمعنى الدينى، أى تخلص المتناهى

(الإنسان) من حالـة التنـاهى للوصـول إلـى حالـة اللاتنـاهى (أى التشـبه بالله)، وهو ما سيعبر عنه فى المسيحية فيمـا بعـد بفكـرة الخـلاص مـن الخطيئة.

وللوصول إلى هذه الغايـة لابـد مـن المـرور فـى مرحلتيـن: مرحلـة الشك، ثم مرحلة التصوف، وذلك أن الإنسان حينما يبحث فى ذاته، يجد أنه قابل لكثير جـدا مـن الأغـلاط، فـالحواس تخـدع الإنسـان والمعرفـة اليقينية لا سبيل إلى الوصول إليها، وكل ما نصل إليـه هـو اقناعنـا بـأن الذات الانسانية فانية متناهيـة، كلهـا نقـص، وكلهـا شـر. وكذلـك الحـال سنصل إلى هذا بالنسبة إلى بقيـة الأشـياء، فحينئذنـدرك بـأن هـذا العـالم رسم، فيدفعنا هذا إلى البحث عن وسيلة "للخلاص"[٧٦].

وتحصيل الخلاص إنما يتم بأن يتجه الإنسـان بعـد ذلـك إلـى التشـبه بالله والفناء فيه عـن طريـق التصـوف، ولا سـبيل إلـى معرفـة اللـه إلا بادراكه مباشرة، لأن الله يظهر أمام الإنسـان مباشـرة وبـدون الحاجـة، إلى وسائط. والسبيل إلى السـلوك فـى هـذا ثلاثـى فهـو يكـون أولا عـن طريق المجـاهدة، وثانيـا عـن طريـق العلم، وثالثـا عـن طريـق اللطـف الواهب للقداسة، والدرجة الأولى هى أولى الدرجات، ولذا لا تليـق فـى الواقع إلا بالمريدين، فهى أدنى من التعليم أو العلم، لأننا فى حالة العلـم نصل إلى إدارك الخلاص بطريقة واعية، فنستطيع أن نعـرف بـالضبط الطرق المؤدية إليه، وهى فى مرتبة أدنى من (اللطف الواهب للقداسة)، لأن هذا النوع الأخير، يأتى إلى الإنسان مباشـرة عـن اللـه بـدون أدنـى حاجة إلى المجاهدة، كما أنه مرتبة عليا من المعرفة.

وظلت طريق مدرسة الاسكندرية فى التعليـم سـائدة خـلال العصـور الوسـطى سـواء فـى تعليم الموضوعـات الدينيـة أو غيرهـا مــن شــتى صـنوف المعرفـة، وأصبحـت التربيـة بمعناهـا المدرســى تعنــى تعلـم محتويـات الكتـب، واسـتتبع هـذا -حتميـا- الاهتمـام البـالغ بالاسـتظهار

وحفظ ما تحويه الكتب سواء الدينية أو غيرها. وإذا كانت الفكرة الاسكندرية قد أفصحت عن ذاتها وانتشرت منذ حوالى ألفى عام، فهى مازالت إلى اليوم تكاد تكون عند البعض هى الطريقة التربوية الوحيدة والسليمة، حفظ ما فى الكتب ودون مناقشة ما يحفظ على ظهر قلب.

وتختلف وجهة نظر مدرسة الاسكندرية عن وجهة نظر أخرى ترى أن المتعلم ليس مجرد عقل يحفظ وتنظر إلى الفرد على أنه كل متكامل وأن الجانب العقلى فيه لا يمثل إلا جانبا واحدا من (شخصيته)، وان التربية ليست مجرد حشو الأذان بالمعلومات، وانما تتناول شتى جوانب نمو الفرد، وأن بين وجهتى النظر، الاسكندرية القديمة، والنظرة (الحديثة) حوار طويل، كانت للاسكندرية فيه الغلبة على مر العصور، ولم تستطع التربية الحديثة أن تحرز نصرا حاسما، بل أن جماعة من النفسانيين المربين اليوم يؤكدون وجهة النظر التى انبعثت من الاسكندرية والتى ترى أن على المتعلم أن يطيع مدرسه، وأن يجلس منصتا على مقعده المثبت على الأرض وأن يستذكر دروسه ويعيها بجدية وهمة ولا يطلب المدرس من تلاميذه أكثر من الحفظ التام لما يكلفونه: الطاعة والحفظ وكفى[٣٧]. وقد أخذ الرومان إلى روما فكرة هذه المدرسة.

التعليم الاغريقى فى مصر:

لم يكن المقصود بكلمة (التعليم) فى هذه الفترة مجرد تلقين الصبى فى خلال فترة محددة من حياته المبادئ الأولية للآداب والعلوم، بل كافة الجهود التى تبذل طوال حياته سعيا وراء بلوغ الكمال مستهديا بالمثل الأعلى للإنسان وهكذا أصبحت كلمةالتعليم Paideia تعنى الثقافة، ولكن ليس بمعنى العقل المتخم بالمعلومات، وانما بمعنى العقل الذى نما نموا كاملا، عقل الرجل الذى أصبح إنسانا بكل ما تنطوى عليه هذه الكلمة من معان.

وقد احتل التعليم مكان الصدارة بين كل ما يعنى اغريق مصر فى العصر الهيلينستى، وبخاصة إغريق المهجر، فقد كانوا كما أشرنا أكثر من مرة – يعيشون منعزلين فى بلاد غريبة عنهم، وكان همهم الأول أن يمكنوا أبنائهم من الحفاظ على السمات المميزة للطابع الاغريقى. وقد كان التعليم الكلاسيكى أساس وسيلة للاطلاع على أسرار أسلوب الحياة الاغريقية، ولتشكيل الطفل والصبى وفقا لتقاليد القومية، ولصقل عقلها بتراث الحضارة الاغريقية. ومن أجل هذا حيثما نزل الاغريق، سواء فى المدن الاغريقية أو خارجها، سواء فى مصر أم فى بلاد ما بين النهرين أم فى غيرها – كان همهم هو أن يقيموا منشآتهم التعليمية: المدارس الابتدائية والجمنازيا(٧٨).

والمعلومات المستمدة من النقوش الجنازية لهذه الفترة تلقى ضوءا ساطعا على عدد من المعتقدات الغريبة التى كانت شائعة بين الناس فى ذلك الوقت، وكل هذه المعتقدات تنم عن ذات الاعتزاز الغيبى بالقيم الثقافية، مما لا يمكن تفسيره باعتقاد الناس بأن هذه القيم كانت تكسب أرواح المثقفين الخلود وتوفر لها نعيما مقيما، وهو ما يتضح من تصور الحياة السرمدية التى تستمع بها هذه الأرواح الخالدة على هيئة ربيع دائم تقضيه الأرواح فى الاستمتاع بأبهج المسرات الفنية والعقلية وسط بيئة طبيعية خلابة.

وقد كانت هذه الثقافة ثمرة التعليم الهيلينستى الذى كان هدفه الرئيسى تكوين الكبار وليس تنشئة الصغار، وهذا يفسر إغفال أمر مشاكل الأطفال النفسية، وعدم وجود مدارس من قبيل ما تألفه اليوم من رياض الأطفال، وكذلك ما اتسمت به التدريبات من طابع تحليلى، فضلا عن وسائل التأديب العنيفة.

وقد عزا كثيرون من المحدثين هذه الظواهر إلى الجهل، ولكنه أزاء المستوى الرفيع الذى بلغته الحضارة الاغريقية وما توافر لدى الإغريق من عبقريات خلاقة فى مختلف مجالات النشـاط العقلـى، يميـل آخـرون إلى اعتبار هذا الجهل الواضح جهلا مقصودا مـرده إلـى عـدم الاعتقـاد فيما جهل أمـره، أو أغفـل شـأنه، ذلـك أن الاغريـق كـانوا يعتقـدون أن الطفولة ليست غاية وانما مرحلة أولية، وأن الغرض الحقيقى من التعليم هو تكوين الرجل المتكامل جسما وروحا، حسا وفهما، خلقا وعقلا، وأنه لايمكن البدء فى ذلك التعليم قبل اجتيازه مرحلة الطفولة(٧٩).

وباستثناء دار العلم (المتحـف والمكتبـة) لـم توجـد فـى طـول مصـر وعرضها مدارس حكومية تنفق وتشرف الدولة عليها بانتظام. ولم يكـن التعليم اجباريا ولا بالمجان. وليس معنى هذا أنه لم تكن هناك أية رقابة علـى التعليـم أو تشـريعات خاصـة بـه، فقد أصبـح مـن سـمات الدولـــة الهيلينستية اصدار تشريعات خاصة بمعاهد التعليـم، وكـان مصـدر هـذه التشريعات الملوك وكذلك البلديات والهيئات التى كانت على شاكلتها.

ولم يكن لدى المدن الاغريقية فى مصر والجماعـات الاغريقيـة مـن الموارد ولا الأجهزة الادارية مـا يمكنهـا مـن أن تتولـى بنفسـها شـئون التعليم، فبقيت أكثر المدارس أهلية. وقد كان ذلك طابع مدارس المرحلة الابتدائيـة بوجـه خـاص، وكـانت هـذه المـدارس تعتمـد علـى مـا يدفعـه التلاميذ من مصروفات(٨٠).

وكان الجومنازيا أو بعبارة أخرى مـدارس المرحلـة الثانويـة مشـآت محلية أو خاصة أسستها الجماعات أو الأفراد، ومع ذلك، فإن البطالمـة رعوهـا وكـانوا أحيانـا يمدونهـا بإعانـات، ممـا خلـع عليهـا صبغـة شـبه رسـمية، وكـانت الحكومـة تعـترف بجمعيـات رجـال الجومنـازيوم التـى نشأت حول هـذه المعـاهد، وكـان الهـدف الرئيسـى لهـذه الجمعيـات هـو إمداد الجومنازيا بمـا كـانت تحتـاج إليـه مـن الأمـوال والأشـراف علـى

الجومنازيا وتنظيمها، ولذلك منح البطالمة هذه الجمعيات امتيازات هامة كامتلاك الأراضى والمبانى والأثاث.

ونستخلص من المعلومات الطفيفة التى لدينا عن التعليم الأغريقى فى مصر إبان العصر البطلمى أنه كان على ثلاث مراحل، وكانت المرحلة الأولى من التعليم تدوم عادة من السابعة إلى الرابعة عشر وتخصص لتلقين مبادئ العلم، إما فى المدارس التى أنشأها المعلمون فى كل مكان وإما فى البيت تبعا لحالة الأسرة المالية. ويبدو أن الفقراء لم يكونوا عادة فى حالة تسمح لهم بتعليم أبنائهم أو أنهم لم يعنوا بذلك، فكان أبناؤهم يبقون أميين. ويبدو أن الأثرياء ومتوسطى الحال هم وحدهم الذين كانوا يعنون بأن يتابع أبناؤهم التعليم مدة تطول أو تقصر تبعا لمواردهم وميول أبنائهم وقدرتهم على التحصيل[٨١].

وبعد تلقى مبادئ العلم الأولية، كان التلاميذ الذين تسمح حالتهم المالية بمتابعة تحصيل العلم يذهبون إلى الجمنازيا حيثما وجدت، إما فى مواطنهم وإما فى القرى الكبيرة والمدن القريبة. ويبدو أنهم كانوا يتلقون فى هذه المعاهد من الثقافة العلمية والتربية البدنية قدرا يماثل ما كان نظراؤهم يتلقون فى شتى معاهد العلم المماثلة فى مختلف أنحاء العالم الهيلينستى. ويبدو أن هذه المعاهد كانت تهيئ للتلاميذ مرحلة الثقافة العامة التى كانت تضع، وفقا لتوصيات أيسقراط Isocrates، أساس الدراسات العليا، ولم تقتصر الجومنازيا على تعليم الصبية، بل كان أيضا ملتقى كل الراشدين الاغريق وبخاصة أولئك الذين تعلموا فيها وكانت تؤلف منهم (جمعيات رجال الجومنازيم) التى أشرنا إليها، ولذلك كانت الجومنازيا أهم مراكز الحياة الاجتماعية عند الاغريق.

وبعد انتهاء هذه المرحلة التى كانت تدوم عادة أربع سنوات من ١٥-١٨، كان عدد قليل من الشبان السعداء يذهبون لمتابعة دراستهم

العالية على كبار الأساتذة إما فى الاسكندرية وإما فى احدى المدن الكبيرة.

ولم توجد عند الاغريق مدارس لتعليم الزراعة أو الصناعة أو التجارة، فقد كانت الزراعة والصناعة والتجارة لا تدخل فى نطاق الثقافة والتعليم عندهم[٨٢].

ولئن كانت الأمية متفشية، وبخاصة فى محيط النساء، فإن التعليم لم يكن مقصورا بحال ما على طبقة مختارة من الأثرياء، بل كان يحظى بالتقدير العظيم والاقبال الشديد بين أفراد الطبقة الوسطى التى عملت سياسة الدولة أقصى جهدها من أجل انشائها وإيجاد كيان لها، وكانت مرحلة التعليم الأولى تبدأ بالتدريب على القراءة والكتابة بتعلم الحروف الهجائية أولا ثم الانتقال إلى المقاطع المفردة المؤلفة من حرفين وثلاثة أحرف أو أكثر من ذلك، ثم يلى ذلك كلمات تامة وكانت تكتب أحيانا مقطعا مقطعا. وكان المنهاج يسير على مراحل وخطوات فينتقل من دراسة (الأجرومية) والنحو إلى علم الخطابة والأدب والعلوم والرياضة (بما فى ذلك فن المساحة) والفلسفة، وكان مقررا على التلاميذ أن يكتبوا موضوعات انشائية، وكان عليهم فى مرحلة تلى ذلك صياغة خطب فى موضوعات معينة، وكانوا يلقون بعض المعلومات عن الأسطورة اليونانية وعلم الأساطير، وان الاكثار من اختيار الجمل المتضمنة حكما وأمثالا سائدة للتدريب على القراءة، لدليل على الميل نحو الاتجاه إلى التعليم الخلقى وإن كان بعض هذه الأمثال والحكم من الطابع الفلسفى الذى يميل إلى الاستهزاء والتهكم، من ذلك الأمثال المنسوبة إلى سيمونيديس Simonides وكان هومر هو الأساس الذى يقوم عليه نظام التعليم كله[٨٣]: "انى لحريص على أن أكتب إليك للسؤال عن صحتك وأن أقف على الموضوع الذى تطالع وتقرأ فيه. وقد أبلغنى

(المعلم) بأنه الكتاب (السادس)، ذلك هو ما كتبته أم لابنها، ولم يكن هناك داع للنص على أن ذلك الكتاب من الإلياذة.

وكان كتاب الروايات التمثيلية من تراجيدية وهزلية على السواء، وأشهر شعراء الأناشيد والخطباء طبعا موضع دراسة كذلك. وفى المراحل الابتدائية على الأقل كان كثير من الأغراض التعليمية، بالشقف (الشقافة) أو الأوستراكا، وبألواح الشمع كان من اليسير اعادة استخدامها مرة بعد أخرى. وبالطبع كانت الكتب المقررة مطلوبة: "لى إليك رجاء لهيرايدوس Heraidous". ذلك هو ما كتبه تلميذ فى احدى المدارس، عاش فى القرن الثانى. ولما كانت هيرايدوس هذه بنتا، وهى ابنة حاكم أحد الأقسام، فإن هذا الخطاب يشير إلى وجود نظام التعليم المشترك (الذكور والاناث)(٨٤).

وقد أثير رأى يتضمن أن الكثير من أوراق البردى المشتملة على نص أدبى مكتوب على ظهر لفافة سبق استعمالها كوثيقة رسمية، ربما كانت نسخا مدرسية. ولدينا خطاب نشر حديثا، كتبه طالب ربما كان من الأسكندرية، أوضح فيه بجلاء عقلية الطالب الجامعى القديم، وعلى الرغم من سهول فى فهم سياق هذا الخطاب إلى حد ما، فان كاتبه لسوء الحظ لا يذكر شيئا عن خطة المدرسة ومنهاجها، ولا ينبغى لنا أن نتقبل رأيه فى التعليم ونأخذه مأخذ الجد أكثر من اللازم: "وأما عن نفسى فكم كنت أتمنى لو أننى وجدت بعض المعلمين المحترفين، وعندئذ ما كان يجول بخاطرى أن يقع بصرى مطلقا على "ديديموس Diddymus" ولو من بعيد. ومما يدعو إلى اليأس أن هذا الشخص الذى لم يكن من قبل سوى مدرس عادى فى الأقاليم، أصبح يعتقد نفسه أنه أهل للمقارنة بغيره من الآخرين. ومع ذلك فإنى على يقين أنه فيما عدا تكبد مصروفات باهظة من غير طائل، لا خير يرجى من أى معلم، وقد عوّلت على الاعتماد على نفسى"، ويظهر أن تعلم مواد خاصة مثل

الاختزال الذى كان مطلوبا فى أعمال المحاكم والوظائف الادارية، كان يجرى بطريقة التمرين والتدريب على يد خبير فيها(٨٥).

ولأن التعليم كان خاصا، فان إحضار أسرة لمعلم يعلم كان يقتضى بطبيعة الحال أن تدفع له أجره، إما نقدا أو عينا، ومن الخطابات الطريفة، ذلك الذى توضح فيه صاحبته نوع الأجر الذى كان يتقاضاه المعلم، إذ يقول "أرسل الحمام والدجاج الذى لم نعتد تناوله إلى ... معلم هيرايدوس ... حتى يكرس وقته من أجلها"!!(٨٦).

وقد ازدهرت التربية البدنية فى مصر، وكان الجمنازيوم هو معقلها الرئيسى، وقد أولى الأباطرة هذا الجانب من النشاط بعض اهتمامتهم وتشجيعهم، ولم يخل هذا الاهتمام وذلك التشجيع من الهدف السياسى، فعن طريق إقامة المهرجانات الرياضية، كان يحكم الربط بين مختلف أنحاء الامبراطورية، وربما كان هذا التشجيع أحد أركان السياسة الامبراطورية، وقد انعكست هذه السياسة على مصر ووضحت فيها.

فقد أنشئ معهد التربية فى العصر البطلمى فى أى مكان وجد به عدد كاف من اليونانيين كما أسلفنا. ومن المحتمل أن أغسطس قد ألغى منها ما كان موجودا بالقرى. ويعتبر الجمنازيوم من أبرز ملامح الحضارة الاغريقية فى مصر، ومن أهم مميزات عواصم الأقاليم، وضم هذا المعهد كل الاغريق بمقتضى حق المولد(٨٧).

وساعد مدير المعهد مجموعة من الحكام والموظفين للاشراف على أوجه النشاط الثقافى والرياضى بالمعهد، فكان الرقيب يقوم بفحص المستندات التى تقدم للانتماء إلى الشبيبة بالمعهد، كما كان المشرف على التعليم يشرف على تعليم الشبيبة ونشاطهم الرياضى، كما اختص موظف آخر بالاشراف على مد المعهد بالزيت والوقاد للاشراف على وقود الحمامات.

وكان لكل جمنازيوم أملاكه وأوقافه الخاصة وعلى رأسها دار المعهد نفسه، وتكونت أملاك المعهد على مر الزمن من هبات الخير من التى كانوا يدفعونها للانفاق عليه، ويبدو أن الحكومة كانت تقدم لمعاهد التربية بعض المساعدات خلال القرن الأول لأن دخل المعهد لم يكن يغطى كل نفقاته، هذا إلى جانب اشتراك مديرى المعهد فى سد بعض نفقاته(٨٨).

وكانت الألعاب تمارس فى حلبة المصارعة Palaestra، وتدريب على التمرينات الشبيهة بالعسكرية التى كانت تباشرها الشبيبة اليونانية Ephebes. وكانت الاستعراضات التى تنظمها تلك الشبيبة وغيرها من الاحتفالات العامة التى تقام فى مناسبة حفل دينى أو تولى امبراطور أو عيد ميلاد أحد القياصرة تهيئ لسكان حواضر الأقسام فرصا لمشاهدة المناظر الممتعة. وكانت تلك الألعاب تعقد على دورات ويشترك فيها أبطال الألعاب الرياضية على مختلف طبقاتهم فيتبارون فى الملاكمة والمصارعة والجرى وما إلى ذلك.

وإذا كان أبناء الطبقة العليا والملوك قد وافتهم الفرصة للتعلم على أيدى عدد من كبار الأساتذة والمدرسين النابهين، فإننا نجد أن الذين كانوا يحترفون التدريس لم تتوافر لديهم أية مؤهلات خاصة لممارسة مهنتهم، ذلك أن الدول والمدن والهيئات المعنية بشئون التعليم، وأن اشترطت توافر شروط معينة لاضطلاع المدارس بمهامها، لم تشترط توافر أية مؤهلات فيمن يضطلعون بالتعليم، فنرى أنه فى المدن، مثل تيوس وميلتوس التى كانت توجد بها مدارس حكومية كان الذين يعهد إليهم باختيار المدرسين لا يراعون اختيار أصلح المتقدمين من ذووى الخلق الحسن والسيرة الحميدة(٨٩).

ونستخلص من المصادر القديمة أن المدرسين كانوا لا يستقرون فـى مكان واحد إلى حد أننا نرى بعضهم يتنقلون فى خـلال عـام واحـد مـن مكان إلى آخر. ولعلهم كانوا يذهبون إلى مزاولـة مهمتهـم حيثمـا كـانت تبدو لهم بارقة أمل فى الفوز بعدد أكبر من التلاميذ أو بمرتـب أسـخى نسبيا، وإزاء ذلك كله ظلت مهنة التدريس طوال العصور القديمة مهنـة وضيعة لم يكن أربابها موضع الاحترام والتقدير وانما موضـع الزرايـة والاستخفاف، وخـير شـاهد علـى ذلـك أن خصـوم الزعيـم السياسـى (امسـخينيس) والفيلسـوف (أبيقـور) كـانوا يـأخذون عليهمـا أن أبويهمـا انحدرا إلى حد أنهما اضطرا إلى ممارسة مهنة التدريس[٩٠].

وتشير القرائن إلى أن هذه المهنة كانت الملجأ الأخير الذى كثيرا مـا كان ينشده كرام الناس عندما تتحدر بهم الحال ويفقدون عزهـم وجـاهم وتضطرهم الحاجة إلى تكسب رزقهم ليدفعوا عن أنفسهم وذويهم غائلـة الجوع، ذلك أن المصادر القديمة تتحدث عن سياسـى منفـى، أو طـاغيـة معزول، "اضطرته الحاجة إلى ممارسة التدريس". وفـى فقـرة شـعرية يتندر رجل زلق اللسان على شخص مفقود فيقول "انه إما أن يكـون قـد مات وإما أنه يقوم بـالتدريس فـى جهـة مـا". ويصـور (لوكيـانوس) فـى إحدى مقطوعاته الفكرة الشائعة عن المدرسين فـى العـالم القديـم فيرينـا كيف أن الملوك وقد فقدوا ثروتهم فى العـالم الآخـر اضطـروا إلـى بيـع الملح أو الأحذية القديمة أو إلى أن يصبحوا مدرسين[٩١].

وبالرغم من أن الاغريقى كان يرغب أشد الرغبة فى أن يتلقى ابنـه تعليما جيدا، فانه كان عادة لا يحب أو لا يسـتطيع دفـع الثمـن المجـزى الذى يحقق له رغبتـه، ومـن ثـم فانـه كـان يقنـع بـأن يعهـد بتربيـة ابنـه وتعليمه إلى العبيد والمعوزين الذين لم يكونوا أهلا لمهمتهم. وقد عجـز الاغريـق علـى الأقـل مـن الناحيةالعملية عـن ادراك أن أفضـل النتـائج تتحقق من اتصال الصبية بأشخاص يحترمونهم ويقدرونهم. ويتضح هذا

التناقض بجلاء عندما ندرك مقدار ما كان الاغريق يعلقونـه مـن أهميـة علـى القيـم المعنويـة التـى كـانت توفرهـا الآداب والموسيقى والألعـاب الرياضية[٩٢].

وإذا كـان الاتجـاه العـام للتعليـم الكلاسيكى فـى العصـر الهيلينسـتى اتجاها أدبيا فان مرد ذلك كان إلى عاملين رئيسيين: أحدهمـا هـو تـأثير التقاليد القديمة، والآخـر هـو أن هـذا التعليـم لـم يكـن لنخبـة، قليلـة مـن الصفوة، وانما لكـل القـادرين فـى المجتمـع بأسـره. ومـن المعـروف أن الرياضيات، بعد مرحلة الأصول الأولية يدق فهمهـا وتصعـب متابعتهـا على أكثر الناس، على حين أن الآداب أيسر فهما وأكثر طلاوة وأقـرب إلى القلوب[٩٣].

تعليم المصريين:

ومهما كان من أمر الاغريق، فانهم لم يكونوا إلا أقلية تعد بـالالاف بالنسبة لغالبية سكان البلاد من المصريين الذين كانوا يعدون بـالملايين، ولهم حضارة راسـخة ذات تقـاليد عتيـدة، ولا جـدال فـى أن المصريـين بوجه عام استمروا يعيشون كما كان يعيش أجدادهم من قبـل محتفظيـن بعاداتهم وتقاليدهم، وقد زار استرابون مصر فى عـام ٢٥ق.م، أى بعـد استيلاء الرومان عليها بخمـس سـنوات وظـل فيهـا نحـو سـت سـنوات، ويحدثنـا استـرابون بـأن إحـدى العـادات التـى كـان المصريـون شـديدى الحرص على مراعاتها، هى تربية كل من يولد من الأطفال.

وكان المصريون يلتقون فى أندية جمعيـاتهم أو فـى بيـوت الأعيـان، كما هو اليوم حال الريف، أو فى المعابد ليستمعوا إلى قـادتهم الروحيـة ويعبروا لهم عن مظالمهم.

وقد عرفنا أنه كانت عند المصريين فى عهد الفراعنة ثلاث مراحل تعليمية وأن بعض مدارس المرحلتين الأولى والثانية كان ملحقا بالمعابد والبعض الآخر لا يمت إلى المعابد بصلة، وأن مدارس المرحلة الثالثة كانت وثيقة الاتصال بمعابد العواصم الكبرى، وأنـه لم تنج من بطش البطالمة طبقة واحدة من طبقات المصريين بما فى ذلك رجال الدين.

ولا جدال فى أن ادارات الحكومة استمرت تباشر مهمة الإعداد لتولى المناصب الحكومية، بل لعل نشاطها ازداد زيادة كبيرة فى بداية البطالمة حين كانوا يعيدون تنظيم الأداة الحكومية. ولما كانت اللغة الاغريقية قد أصبحت عندئذ اللغة الرسمية فى البلاد، وكان مديرو المصالح وكبار الموظفين قد أصبحوا اغريقا، فلابد من أن تدريس الاغريقية قد غدا جزءا من الدراسة فى دور الحكومة. ولما كانت المناصب العليا قد أصبحت وقفا على الاغريق، فان تلك الفئة من المصريين التى لم تر بأسا فى الالتحاق بادارات الحكومة للتدريب على شغل المناصب الصغرى قد فرض عليها تعلم اللغة الاغريقية. ومع ذلك لا يخامرنا الشك فى أن أغلب اولئك الموظفين كانوا لا يتذوقون شيئا من الآداب الاغريقية، وفى أن حظهم من الحضارة الاغريقية كان قليلا(٢٤).

وليست لدينا قرائن على استمرار المدارس الأصلية فى مزاولة نشاطها فى عهد البطالمة، لكن إذا فرضنا جدلاً أنها لم تنقطع عن ذلك، فانه ازاء الدلائل على صغرها ورقة حالها، نستبعد أن برامجها كانت تتسع لتعليم الاغريقية.

وإذا كان البطالمة لم يمدوا مظلة رعايتهم إلى مدارس المعابد، وكانت معاهد الثقافة العالية قد فقدت مكانتها القديمة ازاء عظمة مدرسة الاسكندرية، فلا شك فى أن المعابد المصرية أو على الأقل أكثرها ثراء

احتفظت بمدارسها. وإذا كانت الاغريقية قد اقتحمت طريقها إلى ادارات الحكومة، فاننا نكاد نجزم بأن مدارس المعابد أوصدت دونها أبوابها، وذلك لأن هذه المدارس كانت المعاقل الحصينة للثقافة المصرية، واشتهرت باستمساكها بتقاليدها على مر العصور. ولعل مرد ذلك إلى أن أقطاب هذه الثقافة كانوا رجال الدين وهم بطبيعتهم فئة محافظة كانت تعتبر أفرادها حراسا أوصياء على تراث الماضى.

ومما يجدر بالملاحظة أنه فى ١٧ من طوبة (٦مارس عام ٢٣٧ ق.م (العام التاسع من عهد بطليموس الثالث) تقرر أن تنشأ منذ ذلك الوقت فى كل معبد فئة خامسة أو بلغة الاغريق قبيلة خامسة من الكهنة إلى جانب القبائل الأربع التقليدية التى كان كهنة كل معبد يتألفون منها حتى ذلك الوقت وتسمى هذه القبيلة الإلهين الخيرين (بطليموس الثالث وزوجته)، وأن تتألف هذه القبيلة الجديدة من كل الذين انخرطوا فى سلك الكهنة منذ العام الأول (من عهد بطليموس الثالث وهو الذى صدر هذا القرار. بمناسبة عيد ميلاده وعيد ارتقائه العرش). ومن الذين ينخرطون فى هذا السلك حتى شهر مسرى من ذلك العام (أى فى خلال ستة شهور من صدور القرار)، ومن سلالة هؤلاء جميعا باستمرار وأن الذين أصبحوا كهنة قبل العام الأول (من عهد بطليموس الثالث) يظلون فى قبائلهم، وأن الابناء يندمجون فى قبائل آبائهم[٩٥]. وتشير القرائن إلى أنه منذ ذلك الوقت أصبح كهنة المعابد المصرية يتألفون من خمس قبائل، وإلى أن اقامة شعائر عبادة البطالمة فى المعابد المصرية كانت من اختصاص القبيلة الخامسة وهى التى يبدو أن بطليموس الثالث أنشأها لهذا الغرض.

وإذا كان القرار السالف الذكر لا يستتبع حتما زيادة عدد الكهنة المصريين فى عصر البطالمة، فإنه لا يمكن أن يوصى بالعكس. وما جاء فى هذا القرار خاصا بادماج أبناء الكهنة فى قبائل آبائهم يؤيد ما

سبق ترجيحيه من حفاظ المصريين في عصر البطالمة على عادتهم المألوفة بأن يرث الابن حرفة أو مهنة أبيه.

ومع ذلك تشير القرائن إلى أن فئة من الكهنة النابهين، وبقايا الارستقراطية الدنيوية المصرية قد تعلموا الاغريقية، ولا يبعد أنهم قد تعلموا ذلك على أيدى مدرسين خصوصيين أو فى المدارس الاغريقية المنتشرة فى مختلف أنحاء البلاد. ولعل ذلك كان أيضا شأن تلك الفئة القليلة من المصريين الذين أخذوا على عهد البطالمة الأواخر يعملون على صبغ أنفسهم بصبغة اغريقية طمعا فى الفوز بمركز يعادل مركز الاغريق(٩٦).

ولا جدال فى أن مدارس المعابد بمرحلتيها الأولى والوسطى كانت خير مكان لإعداد ذلك الجيش الجرار ممن كانت هناك حاجة ملحة لاعدادهم باستمرار. ومع ذلك فمن الجائز أن يكون قد صحب نقص موارد المعابد سوء حال رجال الدين ماديا ومعنويا، نقص عدد مدارس المعابد وهبوط مستواها، فانه فى ضوء معلوماتنا الراهنة يصعب تقدير مدى ذلك، مثل ما يصعب تقدير مدى تأثير سياسة البطالمة المجحفة بالمصريين على مدارس المرحلتين الأولى والوسطى التى لم تكن ملحقة بالمعابد، وإن كنا لا نعدو الحقيقة إذا تصورنا أن ذلك التأثير كان قويا بحيث أن عدد هذه المدارس نقص نقصا محسوسا وأن مستواها العلمى هبط هبوطا ملحوظا(٩٧).

ومن المعروف أن اللغة الاغريقية إذا كانت قد أصبحت فى عصر البطالمة اللغة الرسمية فىالبلاد، إلا أن الكتابتين الهيروغليفية والديموطيقية بقينا مستعملتين عندئذ لا على جدران المعابد وأيضا الموتى والتوابيت فحسب، بل كذلك فى اللوائح والقوانين وبخاصة ما كان منها متعلقا بالضرائب، وما كان أكثرها، وفى هذا أبلغ دلالة على

أمرين، وأحدهما هو أنه كانت لا تزال توجد طوال عصر البطالمة مدارس أولية مصرية كثيرة لسد حاجة الراغبين فى العلم أو فى مزاولة المهن الحرة، أو بوجه خاص فى تولى الوظائف الحكومية الصغرى التى سمح البطالمة للمصريين بتوليها. والأمر الآخر هو أن الغالبية العظمى من المصريين كانوا لا يعرفون الاغريقية، وأغلب الظن أن اللغة الاغريقية لم تشق سبيلها إلى المدارس المصرية الأولية سواء أكانت ملحقة بالمعابد أم لا ولعل أن يكون أهم تطور طرأ فى هذا العصر على المدارس المصرية الأولية التى لم تكن متصلة بالمعابد هو نقص اهتمامها بالكتابة الهيروغليفية نقصا كان يقابله ازدياد اهتمامها بالكتابة الديموطيقية بسبب الازدياد المطرد فى استخدام هذه الكتابة فى الحياة اليومية(٩٨).

ويبدو مما مر بنا أنه لما كانت الغالية العظمى من المصريين أميين، وكانت فئة الكهنة النابهين وبقايا الارستقراطية الدنيوية وفئة الوصوليين قليلة العدد، وكان حظ صغار الموظفين من الثقافة الاغريقية قليلا، فاننا نستطيع أن ندرك كيف كان تغلغل الثقافة الاغريقية بين المصريين لم يكن واسعا.

هوامش الفصل السادس

١- سليم حسن، مصر القديمة، مطابع دار الكتاب العربى القاهرة، د.ت، ص/جـ.
٢- المرجع السابق، ص/ى
٣- لطفى عبد الوهاب يحيى، دراسات فى العصر الهيلنستى، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٨، ص٤.
٤- المرجع السابق، ص١٦. ٥- المرجع السابق، ص٢٣.
٦- إبراهيم نصحى، دراسات فى تاريخ مصر فى عهد البطالمة، الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٩، ص٧٤.
٧- المرجع لاسابق، ص٧٦. ٨- المرجع السابق، ص٧٧.
٩- مصطفى العبادى، العصر الهلينستى، مصر، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٨، ص٤٨.
١٠- المرجع السابق، ص٤٩. ١١- المرجع السابق، ص١٠٩.
١٢- المرجع السابق، ص١١٠. ١٣- المرجع السابق، ص١١٥.
١٤- إبراهيم نصحى، مصر فى عصر البطالمة، فى (تاريخ الحضارة المصرية)، جـ٢، ص٣٥.
١٥- المرجع السابق، ص١٠٨.
١٦- عبد اللطيف أحمد على، مصر والامبراطورية الرومانية، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٠، ص١.
١٧- سليم حسن، مصر القديمة، جـ١٤، ص٤١.
١٨- المرجع السابق، ص٤٥.
١٩- عبد القادر حمزة، على هامش التاريخ المصرى القديم، ص٧٠.
٢٠- المرجع السابق، ص ٧١.
٢١- سليم حسن، مصر القديمة، جـ١٤، ص٥٠.
٢٢- المرجع السابق، ص٥٢.
٢٣- على هامش التاريخ المصرى القديم، ص٧٢.
٢٤- سليم حسن، مصر القديمة، جـ١٤، ص٥٤ وما بعدها.
٢٥- المرجع السابق، ص٥٦. ٢٦- المرجع السابق، ص٥٧.
٢٧- المرجع السابق، ٥٩.
٢٨- عبد القادر حمزة، على هامش التاريخ المصرى القديم، ص٧٢.
٢٩- المرجع السابق، ص٢٩. ٣٠- المرجع السابق، نفس الصفحة.
٣١- سليم حسن، مصر القديمة، جـ١٤، ص١.
٣٢- المرجع السابق، ص٢.
٣٣- مصطفى العبادى، العصر الهيلنستى، ص٤٧.

٣٤- المرجع السابق، ص٤٨.
٣٥- إبراهيم نصحى، مصر فى عصر البطالمة، فى (تاريخ الحضارة المصرية)، جـ٢، ص٧٤.
٣٦- المرجع السابق، ص٧٥. ٣٧- المرجع السابق، نفس الصفحة.
٣٨- إبراهيم نصحى، دراسات فى تاريخ مصر فى عهد البطالمة، ص٢٠٧.
٣٩- المرجع السابق، ص٢١٦.
٤٠- سير هارولد أدريس بل، الهيلينية فى مصر، دار المعارف، القاهرة، طـ٢، ص٢٦.
٤١- المرجع السابق، ص٢٩. ٤٢- المرجع السابق، ص٥٤.
٤٣- المرجع السابق، ص٥٩.
٤٤- لطفى عبد الوهاب، دراسات فى العصر الهيلينستى، ص١٨٨.
٤٥- المرجع السابق، ص١٨٩. ٤٦- المرجع السابق، ص١٩٠.
٤٧- الهيلينية فى مصر، ص١٠٦.
٤٨- المرجع السابق، ص١٠٧.
٤٩- سليم حسن، مصر القديمة، جـ١٤، ص٢٣٦.
٥٠- مصطفى العبادى، العصر الهيلينستى، ص١٥٦.
٥١- المرجع السابق، ص١٥٧.
٥٢- سليم حسن، جـ١٤، ص٢٤٨.
٥٣- المرجع السابق، ص٢٤٩. ٥٤- المرجع السابق، ص٢٥٠.
٥٥- الهيلينية فى مصر، ص٥٧.
٥٦- مصطفى العبادى، العصر الهيلينستى، ص١٥٩.
٥٧- المرجع السابق، ص١٦١. ٥٨- المرجع السابق، ص١٦٢.
٥٩- نبيل راغب، عصر الاسكندرية الذهبى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣، ص٥٦.
٦٠- المرجع السابق، ص٥٧. ٦١- المرجع السابق، نفس الصفحة.
٦٢- سليم حسن، مصر القديمة، جـ١٤، ص٢٥٤.
٦٣- المرجع السابق، ص٢٥٥. ٦٤- المرجع السابق، ص٢٦١.
٦٥- المرجع السابق، ص٢٦٢.
٦٦- إبراهيم نصحى، مصر فى عصر البطالمة، (تاريخ الحضارة المصرية)، جـ٢، ص٨٥.
٦٧- نبيل راغب، عصر الأسكندرية الذهبى، ص١٠٦.
٦٨- المرجع السابق، ص١٠٩.
٦٩- سليم حسن، مصر القديمة، جـ١٤، ص٢٦٣.
٧٠- المرجع السابق، ص٢٦٩.
٧١- إبراهيم نصحى، فى (تاريخ الحضارة المصرية)، جـ٢، ص٨٦.
٧٢- المرجع السابق، ص٤٥. ٧٣- المرجع السابق، ص٤٦.

٧٤- المرجع السابق، ص٤٧.
٧٥- عبد الرحمن بدوى، خريف الفكر اليونانى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٢، ص
٧٦- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٦، ص٢٥٣.
٧٧- سعد مرسى أحمد، تطور الفكر التربوى، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨١، ص١٨٨.
٧٨- إبراهيم نصحى، تاريخ التربية والتعليم فى مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٥، جـ٢، ص١٨١.
٧٩- المرجع السابق، ص١٨٤.
٨٠- المرجع السابق، ص٦٦.
٨١- المرجع السابق، ص٦٨.
٨٢- المرجع السابق، ص٦٩.
٨٣- الهيلينية فى مصر، ص١٠٧.
٨٤- المرجع السابق، ص١٠٨.
٨٥- المرجع السابق، ص١٠٩.
٨٦- آمال محمد الروبى، مظاهر الحياة فى مصر فى العصر الرومانى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المكتبة الثقافية (٣١٢)، القاهرة، ١٩٧٥، ص٤٢.
٨٧- المرجع السابق، ص٥٠.
٨٨- المرجع السابق، ص٥١.
٨٩- إبراهيم نصحى، تاريخ التربية والتعليم فى مصر، جـ٢، ص٧٤.
٩٠- المرجع السابق، ص٧٥.
٩١- المرجع السابق، ص٧٦.
٩٢- المرجع السابق، ص٧٧.
٩٣- المرجع السابق، ص١٩١.
٩٤- إبراهيم نصحى، دراسات فى تاريخ مصر فى عهد البطالمة، ص٢٢٠.
٩٥- إبراهيم نصحى، تاريخ التربية والتعليم فى مصر، جـ٢، ص٢٠٦.
٩٦- المرجع السابق، ص٢٢١.
٩٧- المرجع السابق، ص٢٠٧.
٩٨- إبراهيم نصحى، تاريخ التربية والتعليم فى مصر، جـ٢، ص٢٠٨.